محمد حسين هيكل

مذكرات الشباب



١٩٩٦

الإشراف الفنى : محمود القاضى
جـراڤيـك : مـحمد مطاوع



مذكرات الشباب

مقدمة بقلم:

أحمد محمد حسين هيكل

المحامى

«مذكرات الشباب» من أول ما كتب الدكتور محمد حسين هيكل، وإن كانت هى آخر ما يصدر له، إذ تنشر اليوم بعد وفاته بأربعين عاما، فهى بذلك تكون قد بشّرت قبل غيرها بظهور رائد كبير من رواد الفكر العربى الحديث منذ أوائل هذا القرن الذى يقترب الآن من نهايته.

فقد بدأ محمد حسين هيكل فى كتابة مذكراته هذه يوم أن غادر مصر إلى فرنسا طالب علم فى يوليو ١٩٠٩ للحصول على درجة الدكتوراه فى القانون التى نالها فى يونيو ١٩١٢ وأصبح بذلك أول من يحصل عليها من أبناء مصر. ومنذ هذا التاريخ أصبح يعرف بالدكتور هيكل، المحامى ثم الصحفى ثم السياسى ثم الوزير ثم رئيس مجلس الشيوخ ورئيس حزب الأحرار الدستوريين، وفوق هذا كله، وقبله وبعده، المفكر والكاتب، وهى الصفة التى كان يعتز بها فوق أى صفة أخرى.

وفضلا عن هذه المذكرات، وعن الدراسة العلمية للدكتوراه، وعن قراءاته العديدة فى الأدب الفرنسى ومراسلة صحيفة «الجريدة» كتب الدكتور هيكل أثناء تلك الفترة روايته الشهيرة «زينب»، واستغرق ذلك منه جهدا ووقتا طويلا ربما كانا السبب فى عدم انتظامه فى كتابة هذه المذكرات بعد سنة أو نحوها من إقامته فى باريس، وهو تاريخ معاصر لبدء تأليفه «زينب» التى وجدت جانبا من مخطوطتها الأصلية ضمن الكراسات التى احتوت هذه المذكرات.

وتأتى هذه المذكرات ــ ومايرافقها من كتابات الدكتور هيكل المعاصرة لها لتبين كيف كانت بداية التعدد فى اهتماماته من فكرية وأدبية وسياسية وقانونية

واجتماعية. فأنت حين تقرأ ما كتبه بعنوان «أدب اللغة الفرنساوية» تشعر أنه أحاط به فى زمن وجيز بما يدعو للدهشة. وحين تقرأ المذكرة التى وضعها عن إصلاح قوانين الأحوال الشخصية تشعر أنك أمام دراسة قانونية دقيقة لا تخلو مع ذلك من آراء اجتماعية تدل على اتساع الأفق وتحكيم مقتضى العقل، بما يجعلها فى متناول القارئ العادى. وتعدد اهتماماته على النحو الذى تبينه هذه المذكرات كان هو المنطلق لنشاطات متعددة مارسها طوال حياته العملية.

ومنذ وفاة الدكتور هيكل فى ٨ ديسمبر ١٩٥٦ بقيت مذكراته الشخصية، وبعض كتاباته التى لم تكن قد نشرت من قبل، طى أوراقه وظلت لدى أسرته التى استشرفت ما يمكن أن يكون لها من قيمة وثائقية بالنسبة للباحثين فى تاريخ هذه المرحلة الدقيقة من حياة البلاد فحافظت عليها إلى أن تحين الفرصة لنشرها.

وتنبع أهمية هذه المذكرات ـ أولا ـ من أنها تعبر عن جانب مهم من الروافد الثقافية التى استفاد منها الدكتور محمد حسين هيكل استفادة كبيرة وامتزجت فى نفسه بثقافته العربية التى استمدها من قراءاته لأمهات كتب الأدب العربى، قديمها وحديثها، فأسفر هذا الامتزاج الثقافى العميق عن انتقاء أفضل ما فى الثقافتين وإبرازه واستخدامه كأداة وكمنهج للبحث فى مؤلفاته التى صدرت من بعد والتى وضعته فى طليعة الرواد من أبناء جيله. ويقول الدكتور هيكل فى ذلك فى مقدمة كتابه «فى منزل الوحى» : «ولقد خيّل إلىّ زمنا كما لايزال يخيّل إلى أصحابى، أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى هذا النهوض. وما أزال أشارك أصحابى فى أنّا ما نزال فى حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله ولكنى أصبحت أخالفهم فى أمر الحياةالروحية وأرى أن ما فى الغرب منها غير صالح لأن ننقله. فتاريخنا الروحى غير تاريخ الغرب وثقافتنا الروحية غير ثقافته».

وترجع أهمية هذه المذكرات - ثانيا - إلى أنها تتناول قضايا فكرية واجتماعية عديدة اهتم بها الدكتور هيكل منذ فجر شبابه. ولم تكن هذه القضايا ذات صبغة نظرية بحته، بل كانت تمس حياة الناس وربما لاتزال تمسها عن قرب حتى اليوم. فهو حين يعرض ما يدور من مناقشات بينه وبين إخوانه المصريين، طلابا وغير طلاب، عن قضايا العائلة، والمرأة، والطلاق وتنظيمه، وغيرها إنما يبين أوجه قصور كانت قائمة جرى علاج بعضها ولايزال البعض الآخر بحاجة إلى العلاج. وهو يدل بذلك على مدى تعلقه وإخوانه وهم في بلاد بعيدة، بمقاييس المواصلات في ذلك الزمن، بشئون بلادهم وحرصهم على العمل على إصلاحها. وهو حين يعرض لأحاديثه مع أساتذته وزملائه عن الدين والفلسفة وما إليها من أمور كانت جديدة عليه حينئذ، وربما لاتزال غريبة على الكثيرين منا حتى اليوم، إنما يعرض لآراء ووجهات نظر لابد للمثقف أن يحيط بها وأن يفكر في مدلولاتها. وأنت حين تقرأ وصفه لرحلاته المتعددة، داخل فرنسا وخارجها، ومظاهر الحياة الجديدة التي يشهدها وتأثيرها في نفسه، تكاد تشعر بأن هذه التجربة هي تجربتك الشخصية وربما تأثرت بها على نحو مماثل لو أنك مررت بها حقا.

ولاشك أن القارىء الكريم يستطيع أن يستخلص من هذه المذكرات ولع الدكتور هيكل بالرحلات. فحياة الكاتب بحكم طبيعته رحلة متصلة. ومن هنا نجد أن الدكتور هيكل حين عاد من باريس ظل مولعا بالارتحال فنجده يقوم برحلة مع صديقه عبدالرحمن الرافعي إلى لبنان في ١٩١٤، ثم ينقطع - مضطرا - عن السفر عشر سنوات كاملة بسبب الحرب العالمية الأولى، وعندما تسنح له الفرصة للسفر من جديد يغتنمها سعيدا بها فيسافر بعد ذلك إلى فلسطين ولبنان في ١٩٢٤ ويكتب في ذلك فصلا ممتعا رأيت من المناسب أن ينشر مع مذكرات الشباب. فهو لم يكن حينئذ قد جاوز سن الشباب إلا قليلا. وقد جاء هذا الفصل معبرا أحسن تعبير عن التغيرات التي طرأت على حياته

خلال رحلة السنوات العشر هذه، وهى تغييرات كان لها أثرها العميق من بعد.

وقد اتصل بى خلال السنوات الطويلة الماضية عدد كبير من الباحثين الجامعيين من مصر ومن الخارج للاطلاع على هذه المذكرات وغيرها مما لم ينشره الدكتور هيكل فى حياته. ذلك أن من المفاتيح الأساسية لفهم ودراسة الشخصية التى أنتجت مثل هذا التراث الفكرى والأدبى، فضلا عن العمل فى مجالات الصحافة والسياسة وغيرها، الاطلاع على الأوراق والمذكرات الشخصية لاسيما إذا كانت تتعرض لقضايا عديدة لها أثرها فى حياة الناس وتوضح المكونات الثقافية والفكرية لصاحبها. وقد أشار معظم هؤلاء الدارسين بضرورة نشر هذه المذكرات التى كتبها الدكتور هيكل فى شكل يوميات. ولأنها كذلك فقد تخللتها أفكار متباينة عبّرت عن حالات الضيق وحالات الصفاء وعن المزاج الذى كان يتناول به صاحبها موضوعاتها على تعددها وتباينها.

وإننى إذ أشكر المجلس الأعلى للثقافة، وأمينه العام الدكتور جابر عصفور، على إتاحته الفرصة لى لأن أقدم هذا كله للجمهور، وللباحثين فى سيرة محمد حسين هيكل بوجه خاص، فإننى أزجى له الشكر مضاعفا إذ أتاح لى بذلك أن أؤدى لتاريخ الثقافة فى مصر أمانة أودعتها الأيام بين يدىّ، وإذ أتاح للقارىء الكريم الاطلاع على بعض ما شكّل فكر واتجاه رائد عظيم من رواد الاستنارة الفكرية فى هذا القرن العشرين.

٨ ديسمبر ١٩٩٦

أحمد هيكل

المحامى

القسم الأول

مذكراتي في أوربا

فى الطريق:

الظـواهر:

☐ ظاهرات اجتماعية

☐ ظاهرات نفسية

☐ ظاهرات دينية

القسم الأول

١ ـ السفر
٢ ـ باريس وضواحيها
٣ ـ الريـڤـيـرا
٤ ـ فى باريس من جديد
٥ ـ فى انكلترا
٦ ـ فى سويسرا
٧ ـ فى إيطاليا
٨ ـ فى مصر

السفر
١

٧ يوليه سنة ١٩٣٢

هذه أول لحظة مرت من حياتي [illegible] قدمي على غير أرض مصر.
لم تكد تصعد قدمي فوق سطح الباخرة حتى كنا وسط لجة لا حد لها من المسافرين
والمودعين لا تميز العين بينهم [illegible] من أولئك [illegible] رجال وشبان وأطفال
ومن الحكم بينهم أن ترى أكثرهم [illegible] الابتسام في حين تقرأ في عيون الآخرين
حزنا عميقا و[illegible] ساعة الفراق [illegible] الضاحكين
عن [illegible]. وفي كل لحظة ترى الباخرة [illegible] وتقبل
عليك صديق لم تره منذ أيام أو منذ سنين فيصافحك [illegible] ويسألك
إن كنت مسافرا أو مودعا. ومتى علم أنك مسافر جعل يشجعك ويظهر من
ثقته بك وبقوة عزيمتك فتبسم أنت لأنك لا تعلم ما تجيبه.
عن جانبنا شاب [illegible] يودعه عشرة أشخاص أو أكثر من
بينهم رجل ظاهر الجزع لا يستطيع [illegible] بالرغم من [illegible] البسمة
أن يحبس دمعة [illegible] على خده الناشف الشديد السمرة. تدل
حمرة جفونه على أنه كان يبكي منذ قليل ويكفي منظره [illegible] العطف [illegible]
ويسعى [illegible] لتعزيته فلم ينتفع من شيء ولا يتعزى كأنه يرى في الحلم
الأول أمامه [illegible] العزيز الذي يفارقه [illegible] الناس
يسيرون في كل جانب من جوانب المركب وإلى كل الجهات وينظرون في كل
الوجوه يريدون أن يقولوا كلمة وداع لمن ليس يعرفون. والكلام والضحك
والبكاء ووصايا الآباء والأخوات وضجة الحمالين وأصوات [illegible]
ورجال [illegible] الرائحة في جوف المركب كل ذلك تختلط بعضه ببعض
[illegible] الحواس والعقل والنفس في حيرة واندهاش. فإذا
[illegible] قلبت عينيك فيما حولك [illegible] حيرة [illegible] لا
[illegible] تقف إلى جانبك فإما كان رجلا فألقى إليك
بنصائح، وإما كانت شابا من [illegible] فأنت [illegible] صامتا [illegible]

(١)

السفر

٧ يوليو ١٩٠٩

هذه أول مرة فى حياتى أضع فيها قدمى على غير أرض مصر.

لم نكد نصعد فوق سطح الباخرة حتى كنا وسط لجة لا حد لها من المسافرين والمودعين لا تميز العين بينهم هؤلاء من أولئك. كلهم رجال وشبان على وجه الأكثرين منهم أثر الجد والاهتمام فى حين تقرأ فى عيون الآخرين حزنا عميقا ويمسحونها بمناديلهم من وقت لآخر. ومن الشبان من يضحكون غير مبالين. وفى كل لحظة ترى إلى جانبك اثنين يتقابلان ويتصافحان. ويقبل عليك الوقت بعد الوقت صديق لم تره من أيام أو من سنين فيهز يدك هزة قوية ويسألك إن كنت مسافرا أو مقيما. ومتى علم أنك مسافر جعل يشجعك ويظهر من ثقته بك وبقوة عزيمتك فتبسم أنت لأنك لا تعلم ما تجيبه به.

عن جانبنا شاب وقف معه من جاء يودعه. عشرة أشخاص أو أكثر. ومن بين هؤلاء رجل ظاهر الجزع لا يستطيع بالرغم من شعوره المبيضة أن يحجز دمعته عن أن تسيل على خده الناشف الشديد السمرة. تدل حمرة جفونه على أنه كان يبكى من قبل ويكفى منظره ليستدر القلب رحمة به ويسعى من حوله

لتعزيته فلا ينفع معه شيء ولا يتعزى كأنه يرى فى الخضم الهائل أمامه مختبئا ملك الموت ينتظر العزيز الذى يفارقه.. والناس يسيرون فى كل جانب من جوانب المركب وإلى كل الجهات ينظرون فى كل الوجوه يريدون أن يقولوا كلمة وداع لمن يعرفون. والكلام والضحك والبكاء ووصايا الآباء والأخوان وضجة الحمالين وأصوات الصائحين ورج الآلات الرافعة جوف المركب كل ذلك مخلوط بعضه ببعض يترك الحواس والقلب والنفس فى حيرة واندهاش. فإذا قلبت عينيك فيما حولك ازددت حيرة لا ينجيك منها إلا محدث ممن معك يقف إلى جانبك فإما كان رجلا فألقى إليك بنصائح وإما شابا من أصدقائك صامتا يحدق بك كأنما يريد أن يملأ عينيه من صورتك التى تتغيب عنه الزمان الطويل...

... ارتفع فى الجو صفير الباخرة تعلن المودعين ليذروها. فى تلك الساعة هاج الناس وماجوا وجعل كل يقول لصاحبه الكلمات الأخيرة.

سلم علىّ إخوانى الشبان ثم وقفوا جانبا. وجعل أهلى وإخوانى يقبلوننى قبلة الوداع ويقولون لى «مع السلامة وإن شاء الله نسمع عنك كل خير». ولكن رجلا من بينهم طالما عرفنى لم يستطع أن ينطق بكلمة إلا دمعة ذرفها وقبلة وضعها على صدغى ثم هز يدى وسار.

جعلت الباخرة تخلو من المودعين قليلا قليلا. وسلمها الخشبى الضيق مزدحم بهم يقذفهم للشاطىء وهم يتتابعون فوقه. وأخيرا أصبح السلم هو الآخر خلاء ورفعوه إلى الباخرة.

اصطف المودعون على الشاطىء وجعل كل منهم يبعث لمن يعرف نظرة أو ابتسامة. ثم تحركت المركب بحركة بطيئة وأخرج الناس من جيوبهم مناديلهم يشيرون بها فى الهواء ويتنادون مع السلامة. ثم ابتدأ الشاطىء يغادره من عليه حتى إذا لم يبق لنظرة أو لابتسامة سبيل لم يبق إلا الآباء ومن معهم ممن جعلوا يقتربون جهة الباخرة كأنما تجرهم إليها.

ابتعدت الباخرة فى سيرها غير المحسوس ولم يبق على الشاطىء إنسان.

وذهبنا إلى الجهة الثانية فإذا أحجار المينا تقترب منا وهى قائمة بين الماء الهادئ الذى تسرى فوقه والخضم الهائل الذى ينتظرنا. ثم سمعت الأذن صريف أمواجه المتكسرة على الأحجار.

عبرنا باب المرفأ وتجلى أمامنا البحر ممتدا إلى الأفق. وجلست فوق تلك المدينة السائرة أتحادث وأصدقائى. وزادت سرعة الباخرة فجعلت الإسكندرية تنطوى أمام الناظر شيئا فشيئا. ومد من شاء من المسافرين بصره يودع هذه الديار العزيزة الغالية. والشمس يغمر نورها الجو وينطرح على مهاد الأمواج شعاعها قد ابتدأت تهبط إلى مغيبها.

على هذا البعد الشاسع بيننا وبينها ظهرت المدينة مستكينة صاغرة وأحييت أمام الذاكرة الاسكندرية القديمة حين الناس فى مدينتهم الأولى. وكلما زاد بعدنا عنها طحنها الأفق وأخفى من معالمها وزادها استكانة وخفوتا. ونحن ننظر لها وللجة الهائلة تفصلنا عنها والعين أعلق ما تكون بما بقى منها والقلب يود لو يطير إلى هاته الأراضى كمن فيه حبها طول حياته وها هو يستعر أن يراها تبتلعها السماوات والبحار.

ثم ارتميت إلى مقعدى أن طمس الأفق على الخيال الأخير الذى كنت أرى وأحسست كأن حزنا يثقل فؤادى وينوء به صدرى. وراحت خيالاتى فى تيهاء لا أدرك فيها شيئا.

لم يطل بى المقام على هذا الحال إذ اعترانى الدوار واضطرنى أن أهبط إلى غرفتى.

١٠ يوليو

لنا الآن يومان على البحر تحيط بنا دائرة الأفق فوقنا وأسفل منا زرقة السماء وزرقة الماء... نحن فى وحدتنا تتهادى بنا الباخرة فوق الأمواج ولا تسمع الأذن سوى كلام المسافرين الهادىء الساكن ورغاء الماء يشق عبابه حيزوم قاربنا الهائل. وتطلع الشمس والناس فى مراقدهم ثم ترتفع ويتلقف الموج شعاعها ويتقاذفه حتى يفنيه وسط اللجة العظيمة، وتغرب وهم يتجهزون لطعامهم فلا يعني بمغربها منهم جائع. ثم ندخل بكلنا تحت غطاء الليل ينفرد على الوجود وتتلألأ فيه النجوم.

ذلك ما نرى من يومين طويلين حتى اعتادت العين المنظر والسمع هذا الوش الدائم ولم يبق أمام الحواس ما يستدعى الالتفات أو يشغل الضمير. نعيش فى هدأة كاملة أكبر ما يهمنا أن نقوم للطعام وأقصى أمانينا أن نفرد مقعدنا فى مكان ظليل فنمد فوقه سيقاننا ونسند إليه رأسنا وننظر بعين نصف مغمضة إلى الفضاء الذى أمامنا ونترك أنفسنا خالدة إلى سكونها ناعمة فى ذلك التخدر اللذيذ الذى يجيئها به نسيم البحر.

ما أحلى هذه الحياة الفارغة من كل الهموم وما أطيبها! يمر علينا الوقت فى مقعدنا هذا أو جالسين إلى جانب أصدقاء يحكون لنا عما سنرى ولا نحس بمرّه.. نمسك أحيانا كتابا فلا يجذبنا شيء مما فيه لأنه مهما كان لذيذا لا يساوى عيش السكون الذى يغمرنا.

نجاهد أحيانا أن نغير هذا العيش ونبدله ببعض النشاط فندور فوق القارب من جانب لجانب. ولكن ما أسرع ما نرجع إليه إذ لا شيء يعوضنا عنه.

اليوم عينه منتصف الليل

.. اسمع ضجة فى الخارج.. ترى ماذا عساها تكون؟...

ها مينا نابولى تختفى عن الأنظار ويبتلعها الليل فى جوفه العظيم.

تركت صالون الباخرة ساعة سمعت الضجة وأسرعت أرى سببها فإذا الناس ينظرون إلى بعيد ويتساءلون «شايف . شايف». فوقفت على أطراف أصابعى فلم أتبين شيئا لأن الواقف أمامى أكثر منى طولا وأعرض أكتافا وكلما حولت رأسى إلى جهة مال هو الآخر برأسه نحوها. وأخيرا علمت أنها باخرة

عند خط السماء فغيرت من ذلك المنظر المتشابه الذى اعتدناه من ساعة غابت الإسكندرية عنا وأدخلت إلى الجو العظيم الصامت شيئا من معنى الحياة والحركة.

ازدادت الضجة ارتفاعا حينما لمعت عند الأفق بشائر الأرض. وجعل كل يقص على صاحبه بعض ما يعرف عن نابلى. ولم يك إلا قليل حتى رأينا قارب صياد يتلاعب به الموج وصاحبه فيه ساع يريد أن يكسب من بين مخالب الموت قوته. فلما اقتربنا منه ودفعت الباخرة عن جانبيها تضاعف الموج قوة وفظاعة فجعل القارب يختفى ويظهر بين طيات الماء والصياد فى جوفه مطمئن اطمئنان المترف فى رياشه ناظر إلينا وإلى مختلف ما نلبس بعين هادئة اعتادت هاته الأشكال حتى صارت مبتذلة عندها. وكأنه يقول لنا وقد اجتمعنا نحدق به إنما العيش عادة تصبنا فى قالبها الأيام فلا نعبأ بما فيه مهما كان شديدا إذ قد طال ما ألفناه.

فى الفترة التى أخذها الصياد تجلت المدينة تحت الشمس الساطعة. وهبطت حركة الباخرة حين دخلت الميناء. ثم إذا إنسان يصيح كأنه غريق يستغيث. فما أسرع أن جاء راكب ممن معنا فوقف إلى جانبى وأخرج من جيبه قطعة من النقود قذفها بعيدا عن الرجل كما يقذف الإنسان إلى الكلب لقمة العيش أو قطعة السكر. وكالكلب أسرع هذا العارى فالتقط القطعة بفمه. ووجدت أنا من السرور لنفسى أن أعمل ما عمل صاحبى فألقيت قطعة سقطت فى الماء فسقط وراءها وخرج بها بين أسنانه وجعل يصيح من جديد. والتف الركاب يتلهى الإنسان بالضحك من أخيه الإنسان.

وكان هذا الرجل واحدا من كثير من أمثاله ليس عندهم من الهمة ما له فانتظروا قريبا من الشاطىء وهجموا جميعا على الباخرة دفعة واحد. ومن بينهم فتيان صغار وفتيات عليهن أثر الجمال استلفتن إليهن المسافرين وأخذن منهم ما جادوا به.

ألقت الباخرة رواسيها ونزلنا المدينة مع دليل يعرف العربية ساقته الصدفة. فبعد أن طردنا شرذمة من الأولاد الذين أحاطوا بنا يطلبون إحسانا باسم المكرونه،

اخترنا عربتين من بين كثير مصطفة على جانبى الطريق. عربات متسعة لا تضيق الواحدة منها بخمسة أشخاص أو ستة لكنها قديمة بالية مقطوع جوخها قذر داخلها وخارجها. فلما كنا عندها اتجهت إلينا أنظار الحوذية وهم جميعا وقوف إلى جانب خيولهم المشتغل بعضها بطعامه والآخر بدفع الطير عن جسده. بعد مداولة قصيرة أخذنا عربتين من بينها. كان معى فى العربة صديقى ب. وآخرون وقد اشتغلت عنهم بالنظر عن يمينى ويسارى إلى المبانى الفادحة الارتفاع وإلى الشوارع الجميلة التنسيق.

وصلنا إلى شوارع متسعة تدل حالها وعلائم السكون البادية عليها أن الناس بها أرقى حالا. وجعلت تتكرر أمامنا فيها وفى كل ميدان وعلى باب كل بناء عظيم التماثيل المختلفة لانعرف عنها شيئا فلا نفهم لها معنى. ولما كان الدليل فى العربة الثانية مع أصحابنا استفسرنا حوذينا فابتدأ بذلك فصل مضحك: حوذى يرطن بالتليانية يريد أن يفهم شبانا لا يفهمون من كلامه كلمة.

زرنا الجالريا والأكواريم. الأولى متحف التماثيل والأخرى مجتمع أغرب الأسماك مما لا يخطر فى البال إن لونا أو شكلا أو حركة [1]. ورجعنا بعد ذلك إلى سوق المدينة بقينا به حتى تناولنا عشاءنا فأخذنا من (الأسباجتى) ما ضاقت دونه بطوننا ثم قمنا إلى المركب فوصلناها قبل موعد سفرها بنصف ساعة.

أبحرت الباخرة الساعة العاشرة مساء فتجلت ميناء نابولى تأخذ بالأبصار القلوب. قامت صفوف الأنوار فى نصف دائرة بعضها فوق بعض تطوق بحر المرفأ وتطرح على الماء الهادىء اللابس كساء الليل خيوط النور والذهب تبعث إليه الحياة والجمال وتبين صاعدة من أعماقه مرتقية تتدرج إلى أعالى المدينة وتلاقى هناك عند مرمى النظر نجوم السماء.

وكلما ابتعدنا عنها اقتربت من بعضها حتى صارت عقد جيد الأفق. ثم أخذت الباخرة طريقا آخر وابتلع الليل المرفأ فى دجنته.

يقول الإيطاليون «زرنابلى ثم مت». أصحيح ما يقولون؟

(١) الأكوار يوم: مكان تعرض فيه أنواع الأسماك المختلفة الغريبة فى الشكل فترى ما يعتاد الإنسان رؤيته ثم ترى أسماكا أخرى غاية فى البشاعة ويقابلها أسماك غاية فى الجمال. وأجمل ما رأيت سمكة كأنها ابنة من بنات آدم غاية فى التأنث تهتز كالراقصة أخذتها نشوة الطرب ذهبت فى رقصها مذاهب شتى.

١٢ يوليه ما أجمل الهدوء والسكون وما أحبهما للنفس. الساعة السادسة صباحا والباخرة لا صوت فيها وصاحبي في الغرفة قد ذهب ليأخذ حمامه وبقيت وحدى فى هذا الوكر الضيق مطمئنا فوق المدينة السائرة.

بالأمس مررنا من مضيق بونفسيو ورأينا عن الجانبين جزيرتى كورسكا وساردينيا. الأولى جدبة صخرية صفراء باقية على عهدها أيام ولد نابليون وعلى عهدها من قبله أيام قيصر والسالفين. والثانية أبعد عن القارب وأبعد عن الذهن لا يلتفت إليها أحد لأن الكل مأخوذ بصاحبتها.

فوق هذه الجزيرة الجرداء نما نابليون. بين هاته الصخور شب الإمبراطور. تلك الأرض الصغيرة أنبتت الرجل الكبير لينشر علمه على الأرض وليذيع ذكرها في الخافقين. كذلك أنت ياكورسكا مسئولة عن الدماء التى أراقها هذا الجلاد العظيم..

... دق الباب ودخل صاحبى هاته اللحظة من حمامه فقطع على سلسلة كتابتى.

صاحبى رجل طيب واسمه ع . ف . لا يلبث أن يرجع من حمامه حتى يفرد عباءته ويصلى فى حين أبقى أغلب الأحيان فى سريرى أو على الكنبه إلى جانبه حتى ينادينى الخادم إلى دورى فى الحمام... ودورى من آخر الأدوار إن لم يكن آخرها.

أحسبنا اليوم ننزل مرسيليا. إذن... الخادم ينادينى للحمام. كيف ذلك؟ ... لأن كثيرين مشغولين بترتيب ما معهم فتركوا دورهم...

ها نحن وصلنا.

١٣ يوليه نزلنا مرسيليا صباح أمس بعد أن تركنا متاعنا لرجل من شركة توبن خلصه حتى أنزله معنا فى قطار المساء وتمكن من أن يهرب لنا خمسمائة سيكاره بالاتفاق مع عامل الجمرك. ولقد تناول جماعة أصحابى من سمك (البويابس) فى طعام غذائهم حتى لا تفوتهم أكلة مرسيليا الخاصة بها. ثم أخذنا عربة طفنا بها أنحاء المدينة وأزارتنا أماكنها الجميلة دخلنا البرادو أكبر بستان فى مرسيليا وجعلت العربة تسير بنا فى جوانبه وتمر بنا من تحت أقبيته الخضراء كونتها الأشجار الكبيرة الفروع حتى تتقابل وتتداخل ويتقن فيها البستانى فيصل إلى أعظم درجات الإبداع.

أما المينا نفسها فيما حول الكورنيش فيقف دونها الوصف. بيوت صغيرة منعزلة قائمة وسط زرقة البحر تصعد متدرجة فوق الربى وتحيط بها من كل جانب أشجار ونباتات تجعلها فى وحدتها فريدة لا يدانى جمالها جمال. وأمامها زرقة المتوسط وسماؤه الصافية. ومن حولها يأخذ بالعين الجو العظيم تظهر فيه عن بعد بيوت أخرى وهضاب وأشجار!!

وأخذنا القطار آخر النهار فلما تحرك واستقر بنا المجلس جئنا بطعامنا فتناولناه، ثم بقينا بعد ذلك سكوتا همودا.

التفت إلى يسارى علىّ أرى من النافذة شيئا فإذا ما حولى سواد الليل الأدهم. ونظرت إلى صاحبى أريد أن أفاتحه القول فإذا هو مسند رأسه إلى ما وراءه محدق ببصره إلى سقف الغرفة تائه بكله فى تلك الأحلام المبهمة التى تجيئنا عقب الطعام حين يصيب أعضاءنا خمول يتركها خادرة ونحس كأن فكرنا منهوك تاعب فهو لا يستطيع أن يفهم شيئاً. والآخرون إلى جانبه وحالهم كحاله.

ثم أفاقوا جميعا مرة واحدة حين علت ضجة القطار داخلا النفق وأسرع أحدهم فأقفل نافذة كانت مفتوحة خيفة أن يمتلئ المكان دخانا. وأحسسنا حين أحاطت بنا الأرض من فوقنا ومن أسفل منا كأن صدى تلك الضجة يرن فى قلوبنا فلم يقطع أحدنا السكوت الذى كنا فيه حتى خرج القطار من جديد إلى الهواء الحر. حينذاك قال عبدالله بك:

ـ يالله نلعب ورق.

قضينا فى لعب الورق حتى منتصف الليل.

ولما وصل القطار إلى ليون نزل منه خلق كثيرٌ تركت أنا أصحابى إلى الغرفة المجاورة آملين أن ننال بعد سهرنا هذا ساعة يرد لنا النوم فيها من الراحة ما يعوضنا عظيم تعبنا.

لكنى لم أبق طويلا حتى دخلت إلى هذه الغرفة فتاة وضعت شنطتها على الرف وجلست إزائى فجعلت أدير نظرى ساعة إلى جهة النافذة وأخرى ألقى به الأرض وثالثة أغمض عينى خيفة أن تقع عليها. واستولانى خجل لا أفهمه. فلما تحرك القطار انتهزت فرصة اشتغالها ببعض أمرها وانسحبت خارجا أريد أن أرجع إلى حيث كنت فوجدت أصحابى قد أقفلوا الباب وطمسوا على النور.. وقفت فى الممر حائراً أسأل نفسى أليس ممكنا أن يكون المحل الذى جلست فيه محجوزا «للستات» ؟ ولكن بابه لايدل على شيء من ذلك.. أليس ممكنا كذلك أن تكون هاته الفتاة وجدتنى مفردا فمالت عندى تريد أن تغرينى؟ استحوذت هاته الفكرة علىّ تهيج فى نفسى أحيانا من السرور وأخرى من التخوف: ... ثم عقدت حواجبى وهززت رأسى قلت.. «وسألعب أنا الآخر معها دورى».

دخلت إلى مكانى من جديد فوجدتها خلعت قبعتها وتقفل فى ستار النافذة المقابلة لها. لكنى أحسست لأول ما رأيتها بهزة عرتنى فتناسيت ذلك واشتغلت عنها بإقفال ستار باقى النوافذ حتى إذا انتهيت جلست مكانى صامتا لا أتحرك وإن استرقت إليها النظرات أحيانا. أما هى فبعد أن أتمت كل الذى عملت كأن لم أكن موجودا نظرت إلىّ وقالت: تسمح يا سيدى أن تحجب النور؟

فلم أتمالك نفسى حين سمعتها تتكلم أن ظهرت على الدهشة والاستغراب: فتاة لا أُعرفها تكون وحيدة معى ثم تكلمنى بسكون ومن غير خجل كما يكلمنى أى رجل آخر وتطلب أن تحجب النور ليمسى المكان الذى نحن فيه مظلما.. ثم ماذا يكون بعد ذلك؟....

تولانی خجل لم أقدر معه أن أجيبها بحلوة ولا بمرة، بل قمت ساكنا فأرخيت ستارى المصباح وجلست منزويا فى الركن حيث كنت: فلم تمهلنى بعد ذلك أن شكرتنى ثم هيأت لنفسها مضجعا اتكأت فيه وقالت (ولست أدرى إن كانت تكلم نفسها أو تكلمنى):

ـ آمل أن لا يصعد إلى القطار فى جرنبل من يفسد علينا نومنا.

تمطيت أنا فى الجهة المقابلة ولم أقل كلمة واحدة كأنى منها خائف وجل وبقيت أغمض عينى وأفتحها وكلى الحذر ولا أفكر فى شىء مطلقا. بقيت كالطفل الذى أمرته أمه أن ينام وهو لا يريد وفى الوقت عينه لا يدرى ماذا يفعل.

أمسينا بعد ذلك فى ظلمة مخيفة فما لبثت لحظة حتى سمعت أنفاسها تتردد فى صدرها علامة النوم الهادىء المطمئن. حينذاك سكن روعى ورحت فى أفكار متناوبة حملتنى معها أنا كذلك إلى عالم السكون.

قضيته بقية ليلى بين النوم واليقظة أغيب عن نفسى أحيانا كأنى نائم حقا ثم أرجع إليها وهى خادرة عمل فيها هواء تلك الغرفة الممتلىء كسلا وخمولا.

ثم تبينت من خلال الستار كأنما تبددت ظلمة الجو وما كدت أرفعه حتى صدّق النهار الوليد ظنى وتبدت أمامى الحقول تذهب منخفضة مرتفعة وتضيع دون الأفق. وتهبط الأرض أحيانا فأحدق من الهضاب التى يرمح القطار فوقها ثم إذ الأرض ارتفعت ودخلنا بين جبلين نسير بينهما مستكينين مستسلمين حتى يقذفا بنا فى ظلمة النفق.

أخذت هاته المناظر البديعة بعينى وجلست معجبا بها لا أستطيع أن أتحول عن النافذة. جلست بشعرى المنكوش وعيونى المتعبة وأنا تائه أريد أن آخذ هذا الجمال لصدرى وأملأ منه ناظرى فيحول دون ما أريد القطار الطائر إلى غايته. وأرسلت بأحلامى فى الجو الفسيح أمامى وهو لا يزال فى رداء من الشك مملوء بأحلام الليل وآمال النهار.

ثم التفت فإذا صاحبتي هي الأخرى منكوشة الشعر وإن تكن عيناها الزرقاوان الضاحكتان أكثر يقظة وانتعاشا من عينيّ. فلما تقابلت نظراتنا ابتسمت عن شفاه رقاق وأسنان ناصعة بديعة الترتيب ثم قالت:

ـ آمل أن تكون نمت نوما طيبا يا سيدى

وبالرغم من قلة معرفتى للفرنساوية فقد استطعنا أن نتفاهم. وسألتنى إن كنت رأيت باريس من قبل واستمر الكلام بيننا حتى تركتني وذهبت ترتب نفسها [١]. فلما جاءت رحت أنا الآخر. وعند رجوعى وجدت أصحابى أيقاظا يتكلمون وينكتون ويضحكون. فلما وصل القطار وخرجنا من الحجرات ودعتنى السيدة التى كانت معى بابتسامة وحنيت لها رأسى ثم خرجنا جميعا إلى جوف باريس.

---

(١) فى الدرجة الثانية من قطارات السكة الحديد الفرنساوية وحتى الدرجة الثالثة من سكة الحديد الإنجليزية فيها محلات للغسيل منتظمة غاية فى النظافة.

(٢)

باريس وضواحيها

باريس!. كم حكى لنا عنها الحاكون حتى تصورت بيوتها بلورا أو ذهبا وأهلها لا يسير واحد منهم على قدميه وشوارعها مع السكوت الأخرس مزدحمة لا يستطاع السير فيها. وتتخطر النسوة فى كل مكان وينظرن لكل إنسان يردن أن يبتلعنه بأعينهن... وها أنا لا أرى من ذلك شيئا: ها بيوت مبنية بالحجر كبيوتنا وناس كالذين نرى عندنا وشوارع تجرى بمن فيها ونسوة يسرن ظاهرات الجد... عن أى باريس إذن كانوا يحكون؟ (١)...

١٥ يولية سأترك هذا الفندق الذى نزلنا فيه أول الأمس لأنزل فى بيت عائلة (بانسيون) أكون فيه بعيدا عن أصدقائى الذين جاءوا معى من مصر. وهم يرون أن هذه أحسن طريقة وأقربها لتعلم اللغة الفرنساوية. سأتركه الساعة رغما عما خلفته الليلة الماضية عندى من اللغوب.لو أن كل الأيام كيوم ١٤ يولية وكل الليالى كليلته لما عرف الهم إلى نفوس الناس سبيلا. فمع أنى بباريس لأمسى فقط فقد انتقل إلى من السرور العام ماجعلنى لا أحس بمر ذلك النهار.

رأينا فى الصباح قوس النصر ورأينا عنده بعض الفرق الراجعة من الاستعراض. وبعد الظهر ذهبنا إلى الحى اللاتينى حى المدارس وجلسنا فى قهوة فاشيت ملتقى المصريين. وقابلت بعضهم هناك وتعارفنا.

---

(١) ... دخلنا باريس فوافيناها بلدا كبيرا كثير الحركة ولكنه لم يأخذ من نفسنا بذلك الذى كانت تتصوره أحلامنا فى مصر لأنا لم نعرف فيه شيئا بعد. وأخذنا العربات إلى فندق بدفورد حيث كان ينزل لطفى بك السيد فإذا هو قد غادره لأمسه إلى لندرة، ثم اصطحبت أحد صاحبى ونزلنا نخبط فى الأرض خبط من لا يعرف شيئا من أمرها. ولكنا اهتدينا إلى ما أردنا ووصلنا إلى اللوكاندة التى كان يقصدها عبدالحميد للسؤال من صاحبها عن نزوله عنده كما أوصاه المسيو سيزوستريس، ورجعنا بقصد كافى دى لابى لمقابلة عاطف بك وبهى الدين فساقتنا الصدفة الطيبة لمقابلة عبدالحميد بك سعيد وعلمت أن لطفى بك كان قد أوصاه بمقابلتى. ومن طريق هذه المقابلة ومقابلتنا الأستاذ الشيخ مصطفى عبدالرازق عرفنا الرجل وعرفنا منه أخلاقه الجميلة كما عرفنا جماعة من إخواننا المصريين.

لست أدرى ماذا أسمى هذا الذى يصنع أولئك الفرنسيون السكارى بنشوة الطرب. أمن أجل ما يسمونه عيد الحرية يخلعون عذار الوقار إلى هذه الدرجة فيرقصون فى الأماكن العامة ويضحكون ويشربون ويعملون ما لا يعمل.

لا شك أنهم حقيقة تلك الأمة الممتلئة سرورا وجذلا. لاتكاد تسير خطوة إلا ويدهشك القوم بسرورهم المفرط حتى لا تستطيع مهما كان من رأيك فيهم أن تمنع نفسك عن مشاركتهم بقلبك فى هذا السرور.

ذهبنا فى المساء إلى ميدان الباستيل حيث يقوم تمثال الحرية عاليا يطل على المدينة الزاخرة. ولقد وجدنا نصبا فى اختطاط طريقنا بين الجموع المزدحمة الناسية نفسها المأخوذ عقلها المستسلمة إلى فرح يبلغ حد الهوس. لم نكد نبلغ غايتنا حتى قابلتنا الأنوار الزاهية وتبينت العين الغادة التى تمثل فرنسا حين دكت قواعد سجن الباستيل مستودع الظلامات ومقام الأحرار الذين خسف بهم الاستبداد. ومن لحظة لأخرى ينتشر النور مختلفة ألوانه يضىء التمثال وعماده وقاعدته والناس سكارى بعيدهم وبالضوضاء المحيطة بهم وبتلك الأضواء الزاهية الزاهرة يمرحون فى الميدان العظيم.

وبعد منتصف الليل رجعت إلى اللوكاندة وقد هدنى التعب. لكنى لم أنم طويلا إذ ما لبث الصبح أن تنفس حتى قمت ارتب عزالى لأقوم إلى مسكنى الجديد.

دخلت نفسى بعد ذلك عالم الوحشة وأحسست أنى صرت محتاجا لذراعى أنا ومساعدة نفسى. ولكن ما أشأم عدم معرفة اللغة تضطر الإنسان لطلب المساعدة من غيره. وإنى وإن كنت سعيدا حيث كان مساعدى عبدالحميد سعيد من الرجال الذين لا ترفض مساعدتهم إلا أنى كنت دائم الإحساس بشىء من الوحشة والحاجة لنفسى دائما. ولقد كان من أسباب وحشتى بالطبيعة أنى حديث العهد بباريس ومعيشتها وأماكن النزهة فيها.

١٦ يولية

ما أسأم الوحدة الحزينة بين المجاميع الضاحكة

بمقدار ما كان الأمس فرحا فاليوم قطوب عابس

انتقلت بالأمس إلى هنا وها أنا بين عشرين أو ثلاثين شخصا أشعر بذلك الانفراد المطلق الذى وقعت فيه. ليس من عين تنظر لى إلا عين مستغربة ما يظهر على وجهي من علائم الدهشة والألم ثم سرعان ما تنسانى. وهؤلاء الذين أعيش بينهم ليسوا أكثر إحساسا معى من أى إنسان فى الطريق.

جارتى على المائدة غادة روسية خلع عليها الشباب أبهى حلله ولاتظهر إلا باسمة لكنها مشغولة عن كل إنسان بجارة لها روسية هى الأخرى. وهى لا تتقن الكلام بالفرنساوية.

ما أحسن ذوقها فى اللبس. تميل إلى الألوان الباسمة من غير ضحك ويساعدها قوامها الدقيق على أن تتأنق مقدار ما تشاء.

وتجاهى هندى جميل التقاطيع عرفت أنه انتهى من دراسته فى كامبردج.

أما جاره هو ففرنساوى من قرابة صاحب (البانسيون). ورغما عن أنه فرنسى فهو سمج. كلمنى بالإنجليزية فى بعض مسائل تتعلق بالبانسيون وسألنى فى أمور أخرى فلم يكن خفيفا على نفسى حديثه. وشكله هو كاف ليزعج الكثيرين.

أراحنى عجزى فى اللغة عن أن آخذ فى الحديث بنصيب. ومن الشىء الذى كنت أفهم أراهم أكثروا من الكلام عن الملابس والأزياء وسمعت كلمات (robe و Tailleur : ثوب وترزى) تتردد على ألسنتهم.

ثلاثة أيام فى عالم الوحدة والوحشة والأحزان طوال.

١٧ منه

أرى كل يوم مصريين فأتعزى بهم بعض الشىء عن ألمى وأجد فيهم ذكر بلادى البعيدة النائية. ولكن هيهات القلب الذى يحس معى أو يألم لما أنا فيه..

... إذا كان ذلك أفليس ضياعا أن يترك الإنسان نفسه يتسلبها الهم؟ ضياع وحمق، أنا لا أنكر. ولكنى إنسان والإنسان مهما اختلفت نزعاته وميوله لا يستغنى عن عزاء يرتكن إليه ساعات الضعف. ولو أن لى فى هذا البلد الضيق أمام عينى ما اهتم له من إنسان أو شىء لكفانى ذلك عزاء. ولكنى وحيد مهموم.

خرجت بالأمس طرفا من الليل فقابلنى بعض من عرفت من قبل واقتادنى معه حتى انتهى بى إلى قهوة دخلناها فإذا هو لا يجد لنفسه مكانا إلا رغما. ويحيط به من كل جانب جماعة من النساء لا تستقر عيونهن... فلم أرتح للجلوس وخرجت لا ألوى عل شىء.

الشارع هادئ يسير فيه جماعة من الرجال والنساء وعلى الجميع مظهر التأدب والوقار.

أيام الوحدة اليوم عينه ـ الساعة العاشرة مساء

بقيت فى البيت هذا الصباح أرتب من شأنى وأصف كتبى فى قمطرها حتى ميعاد الغداء. فلما كنا بعد الظهر نزلت أريد أن أرى الناس آملا أن أجد فى ذلك ما يخفف من الوحدة التى وقعت فيها بعد إذ تركت أصحابى. وسرت فى شارع المدارس (Rue des ecoles) وهو فى تلك الآونة هادىء ساكن. فلما بلغت قهوة فاشت لم أجد بها أحدا. وجعلت أجيل عينى علها تقع على مخلوق أعرفه أو آنس به فإذا كل شىء وكل إنسان مشتغل بنفسه أو واحد من معارفه بما يسلى به وقته. وأنا فى هذا المكان غريب منقطع.

كم بينى وبين أهلى فى هذه الساعة؟. هم هناك هناك بعيدون وقد يكونون مهمومين لأمرى وأنا جالس منفرد يقطعنى الهم ويتمشى اليأس إلى نفسى وما عرف إليها من قبل سبيلا.

تولانى القلق وأخذ بخناقى ضيق شديد لم أتمكن معه إلا أن أهجر مكانى وأقوم من جديد إلى الدار. وجاهدت حين وصلت أن أطلع فى رواية كنت قرأت الصفحتين الأوليين منها وأنا فوق البحر ولكنى وجدتها على نفسى كدرس التلميذ الكاره لدرسه. فقمت من جديد إلى القهوة وبقيت بها رغما عن قلقى وضيقى.

ابتدأت الحياة والحركة تدخل إلى ما حولى حين فاتت الساعة الرابعة. وجاء بعد ذلك أحد إخواننا المصريين ممن قابلت بالأمس فسلم وجلس إلى جانبى وبقينا بعد التحية سكونا. ثم جاء آخر وثالث وجلسا معنا وابتدأوا جميعا حديثا طويلا فى السياسة.

لست من أنصار السياسة وكثرة الكلام فيها. ولقد بقيت عنها بمعزل طول أيامى بمصر. ذلك لأنى أرى الذين يتكلمون عنها يسرع إليهم التحمس: ويخرجهم عن حد الهدوء الذى تستطاع معه المناقشة المعقولة. كما أنهم دائما متعصبون لحزب مكرسون أنفسهم لنصرته والطعن على غيره مقدسون لرؤسائه والأشخاص العاملين فيه. ومهما يكن قليلا ما قرأت من كتابة هؤلاء الرؤساء والعاملين فإنه كاف ليعلمنى أنهم شىء ضئيل إلى جانب الكتاب والمفكرين من أهل الأمم الغربية ومن العرب السالفين أنفسهم. إذن فالتعصب لهم إلى الحد الذى أراه من إخوانى ظاهر البطلان عندى. ولا أستطيع مهما جاهدت أن أترك نفسى تأخذ بنصيب فيما أعتقده ظاهر البطلان. لأن عيشة الوحدة التى قضيت فيها كل أيامى علمتنى أن شيئا واحدا يمكن أن أحترمه ـ ذلك هو ما ارتاحت له النفس ورضيت عنه.

لم أكن بين صحبتى الجديدة بأحسن حظا مما كنت من قبل. وبقيت فى صمتى الأول حتى أنقذنى منه حضور السيد خالد.

السيد خالد رجل عرفته هو الآخر بالأمس فقط ولكنى أجد فيه من المعنى ما لا أجده فى غيره. كأنه قضى هو الآخر حياته فى الوحدة فتبين عليه آثار السكينة وتنم عيونه عن تفكير طويل. أحسبه ليس من المغرمين بالتحمس والهياج كلما سمع كلمة تقال عن مصر أو تمس السياسة.

جلس بجانبى عن اليسار فلما وجدنى صامتا سألنى كيف أجد باريس.. كيف أجد باريس؟.. أنا لم أر منها شيئا بعد أستطيع معه أن أحكم إن كانت طيبة ولماذا؟..

ولقد أنست بالسيد خالد كثيرا ولعلى أجد منه فيما بعد ما يعوضنى عن إخوانى الذين خلفت فى مصر.

قهوة فاشت ملتقى المصريين فى حى الطلبة. ولقد علمت اليوم أن هناك قهوة أخرى يلتقون بها تلك هى قهوة (دى لابى) De La Paix ولقد ذهبنا إليها السيد خالد وأحد أصحابه وأنا ووجدت هناك صديقى سعيد مع آخرين. ومن بينهم كثيرون ممن كانوا معنا فى الباخرة أشخاص ذوو وجاهة فى مصر ومن قضاة ومحامين وأطباء وأعيان ومن لا أعرفهم.

من أثقل ما يضايق فى هذا البلد كثرة المطر ونزوله على غير ميعاد. فبينما نرى الشمس زاهية والسماء صافية والنور يملأ الجو إذ السحب انتشرت وعبس الكون وهمت السماء وفرد الناس مظلاتهم (أو مطرياتهم كما يسمونها) وحل محل النور والسرور قطوب تضيق له النفس. ذلك شأنها من يوم نزلنا وهو على ما يقولون شأنها دائما.

قمنا من القهوة ورجعت إلى الدار وأخذت طعامى وأنا صامت لا أدرى ماذا أقول لأكون مع هذا الجمع الطويل العريض الذى يحكى عما رأى وعن المخازن وما فيها والأقمشة والأثواب وكل مالا أفهم من شأنه لا قليلا ولا كثيرا.. ثم انتقلت إلى غرفتى وإلى الوحدة المطلقة حيث لا يعلم أحد بالزفرات التى أصعد ولا يهتم إنسان بآلامى. حيث أنا الآن مفرد ليس لى على الأرض التى أسكن أهل ولا صديق.

١٨ منه اتفقت عصر اليوم مع الأستاذ والبك لنذهب لسان كلو

الأستاذ شخص ربعة جميل التقاطيع كبير الأنف دقيق النظرات أرسل ذقنه نصف قبضة وهى لا تخلو من بعض التجعد حلو الحديث جذاب والبك رجل طيب عظيم الخلقة. وكلاهما من أعيان المصريين.

أخذنا القارب من عند اللوفر فسار يشق ظهر النهر المنحدر يخرق البلد ومبانيها الهائلة حتى صرنا فى الضواحى وقامت عند الشواطىء الأشجار والغياض. والسماء فوقنا تسبح فيها سحب بيضاء فتزيد الأزرق منها زرقة. والشمس طرحت ضوءها على بساط الماء ولفت الخليقة فى نورها.

وصلنا سان كلو وتدرجنا مرتفعين حتى وصلنا بستانها ـ فجعل صديقنا البك يرينا من جمالها رائعا ويدلنا منها على أبدع ما نسقت يد الإنسان.

دخلناها فإذا هى الطبيعة فى أجمل مظاهرها والخليقة فى أبهج جمالها تصعد إلى أعاليها وعن يمينك الخضرة الناضرة وعن يسارك الأشجار الباسقة فكأنما قد اجتمعت فى ذلك المكان مظاهر السعادة وآياتها ولا يسع القلب ساعة ترى العين كل هذا الجمال إلا أن يخشع اعترافا للخالق بقدرته وعظمته. ولعل ما عملته يد الإنسان فى هذا الغاب مما يزيده جمالا وبهاء ويكسوه من ثوب النظام حسنا وإن كان تنسيق الطبيعة جميل فى ذاته. ظللنا زمنا لم يكن مع الأسف طويلا نعلوا حزناً ونهبط بطنا بين جنان بالغة الزهر بديعة الشكل يطلعك الحزن على ما حواه السهل حتى موقف النظر ويريك المنخفض بها المرتفع وجمال تدرجه فى الارتفاع أضف إلى ذلك البهاء والجمال الصمت المهيب إلا من أغاريد الطير تصبها من جوها بين أوراق الشجر وأغصانه فى أذن الخليقه فتهيج شجوها وتزيدها طربا.

ليس ذلك كل ما فى سان كلو بل إن فيها غير هذا شىء كثير يضيف إلى الجمال جمالا حتى ليسجد له المتمتع به ولتأخذه نفسه من الإعجاب بهذا الجمال النادر ما لا قبل لى بوصفه. وأن القلم مهما أعطيته من القوة فهو ضعيف عن أن يظهر على وجه القرطاس كل ما فى نفسى من أثر ذلك

الجمال. فيها من البرك يجرى فى مائها السمك بمختلف ألوانه والشلالات لينحدر منها الماء وما عملته يد الإنسان من نحو هذا. وأن القوم ليصفون من بهاء سان كلو فى يوم الأحد ما يشوقنى لها ولابد لها من عودة إن شاء الله.

وكتبت إلى لطفى بك خطابا لعنوانه بانكلترا كما كتبت لوالدى خطابا أيضا وإن تلك الساعة التى كنت أكتبه فيها لهى من أشد الساعات التى أخذ التأثر من نفسى فيها وعمل الشوق فى صدرى. وكنت ولا أزال كلما كتبت خطابا وذكرت والدتى وتلك الساعة التى رأيتها فيها تنهمل الدمعة على خدها تخنقنى العبرة وإن كانت قوتى لتمنعنى عن الاسترسال فى شجنى. هذا الإحساس أحس به الساعة وسأحس به ما بقيت.

٢٥ منه

برج إيفل...

ذهبت فى الصباح لموعد إخوان متفقين معى على أن نذهب جميعا إلى برج إيفل. والبك هو اليوم أيضا دليلنا. بالله ما أطيب هذا الرجل.

أخذنا طريقنا إلى جانب النهر على الضفة المقابلة لضفة قصر اللوفر حتى كان البرج على مقربة منا يستدعى البصر أعلاه قبل أن يأخذ بأسفله وقد صعد فى الجو كأنما شاده أهله ليوحى للمدينة بأخبار السماء. وفوق قمته الدقيقة تلعب الريح بالعلم المثلث اللون علم الجمهورية الفرنساوية.

يرتفع البرج إلى ثلاثمائة متر تحيط بقاعدته الحشائش الخضراء وينساب النهر إلى جانبه هادئاً. وقد سرنا تحته حتى وصلنا إلى غرفة التذاكر ثم جعلنا نتشاور أنصعد على الأقدام أم نأخذ المرفع (اللفت). وأخيرا اتفقنا جميعا على الصعود إلى الدور الأول على أقدامنا وبقينا نتسلل فوق درجه الضيق واحدا بعد واحد حتى وصلنا مكدودين. هناك ارتمينا على المقاعد وجعلنا نجيل نظرنا فيما حولنا فى البرج الرفيع.

استرحنا ثم قمنا ندور فى جوانبه وننظر إلى الأرض البعيدة عنا وإلى النهر المستكين وإلى بيوت باريس أو بالأحرى إلى سقوفها. إلى تلك الظهور السوداء والحمراء المحدبه إتقاء المطر. وظهرت أمامنا باريس بشوارعها كأنها خريطة تلهو بها العين كما تشاء.

فى جوانب ذلك الدور من البرج صناديق ألاعيب وفيه صندوق للخطابات ولقد تسابقنا جميعا لكتابة الكرت بوستال إلى أصدقائنا من مكاننا العالى. وبقينا حتى إذا كنا الظهر ملنا إلى المطعم هناك أيضا فتناولنا غذاءنا. وانتظرنا حتى استقر فى جوفنا الطعام ثم صعدنا فى المرفع إلى الدور الثانى.

المدينة من جديد على مقياس أصغر. والنهر أكثر استكانة وخضوعا. والناس يسيرون على الأرض هناك فنطل عليهم من علياء ونجدهم صغارا. واخوانى وغيرهم فرحون بذلك كأنما حسبوا أنهم حقيقة أعظم ممن تركوا من بضع

ساعات!! على كل حال ساعة من الحياة خلقت لهم خيال سرور فمن الجنون أن لا يكسبوها.

في المرفع من جديد إلى الدور الثالث. المدينة والناس والنهر وكل شيء صغير خاضع أمام نظرنا الذى يحوم فى كل هذه المتسعات مما أمامه فلا يجد مانعا فيشعر فى نفسه بالرضى وينبعث إلى النفس إذ ذاك من دواعى القنوع بعظمتها ما تسر به أكبر السرور...

... ثم ها نحن نزلنا إلى الأرض ـ هنا نظرنا محدود وخيالاتنا فى الهواء ورؤوسنا رد إليها صوابها فعرفت أننا من الأرض وإلى الأرض نرجع. وأن ليست العظمة إلا نظرة فى ذلك الفضاء نتوه بها عن الواقع ثم إذانا رددنا كما كنا وإذا آفاقنا أضيق من كل ما نتصور ـ إذانا لاشىء ـ إذانا تراب.

فى صنع البرج من الإتقان والدقة ما يشهد بأكبر المهارة. وفيه من مظاهر العلم ومن ذكرى المعرض العام ما يخلد للمدينة المسالمة العاملة أحسن الأثر.

٢٧ منه اليوم وقعنا على معلم للغة الفرنساوية هو المسيو أ. ل. وأخذنا عليه الدرس الأول كما اتفقنا أن نأخذ معه تسعة دروس في الأسبوع. وقد أخره ذلك عن الذهاب إلى مصيفه بعد أن كان قد صمم نهائيا على مغادرة باريس.

الرجل غليظ الجسم جدا. وله تحت ذقنه ذقنان أخريان. أصلع الرأس خفيف الشارب بارد النظرات عظيم البطن. قابلنا مرتديا سترة سوداء وحذاء أسود لماعا وسألنا في أى شيء نريد أن نشتغل.

نحن ثلاثة أنا أشدنا جهلا باللغة وصاحباى ليسا منها على كثير. لذلك وقفنا أمام هذا التخيير من جانب الرجل حيارى. أخيرا دلنا على الكتب اللازمة.

لا أستطيع أن أنظر لهذا الرجل الضخم من غير أن يثير عندى شهوة الضحك. ولكنى منعت نفسى اليوم واستطعت أن أتغلب عليها [١].

---

(١) جاءت الأيام لنا بعد ذلك بمعلم للغة الفرنساوية يدعى المسيو لوف ذهبنا إليه نتلقى عنه اللغة ونأخذ عنه أصولها. وما أعجبنا منه شيء ولا فرحت نفوسنا لدرسه بل كلنا حمدى وبركات وأنا نقم عليه وسخط على درسه وإن كنت أشدهم فى ذلك وما تقمت منه إلا لفظا معجما وايضاحا مبهما وقولا ما صادف من نفسي سمعها ولا استرعى منها غير النقد المر الشديد. .ولكنى أحسست على كل حال بضعفى فى اللغة الفرنساوية وحاجتى لآن آخذ على نفسى من المواثيق والعهود أن أحملها ما اعتقدت أنها لا تطيق، هنالك دخلت نفسى فى دور من الحزن حقيقة وبدأت أتألم من الرجوع إلى عهد الطفولية فى تعلم اللغات وحق لى أن أتألم. كنت أقرأ آداب العرب اللامعه وكتب المتقدمين والمتأخرين وأقر الكتب العالية مما كتب في الحكومة والاجتماع وهانكصت على عقبى أحفظ قواعد الأجرومية وتصريف الأفعال ردة فى الحق ما فيها إلاكل ما يدعو للضيق ويأخذ بالخناق. ففكرت بعد هذا في أن أترك فرنسا واتم دراستى بانكلترا ذلك البلد التى صرفت العمر الطويل فى تعلم لغته وسواء أخطأ الزمان معى فى ذلك أو أصاب فما أنا بملوم ولا عن عمله بمسئول.

جاء بعد ذلك لطفى بك من لندره وسهل على الأمر ان كنت أود الذهاب إلى انكلترا أن أذهب اليها وفعلا كتب لاخيه ركتيبت له نسأل عن حال اكسفرد وما يلزم لها ولم يصلنى منه رد بعد. ولكنى لما عرفت ان علوم الاجتماع تلقى فى فرنسا كما تلقى فى انكلترا صممت على البقاء بها وها أنا على تصميمى هذا حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا.

٢٨ منه

كل شيء أرى يستطيع أن يجد فيه قلمي مجاله إلاقصر اللوفر أقف خاضعا خاشعا مقرا بالعجز. أمام ذلك الجمال العظيم يكفيني أن أقدس وأعبد.

وما بالك بقصر اللوفر. بالقصر العظيم تعاقب الملوك فى تشييده فأهدوا باريس عظمة وجمالا وجلالا. تمتد أجنحته فتحلق وسطها على حدائق التويلرى البديعة وتضم إلى أحضانها ما فى الجنة من زروع ناضرة وتماثيل غاية فى الدقة. وأطفال يلعبون ويمرحون هم ملائكها المقربون. فإذا وقفت فى صحنه الواسع وأجلت بصرك فى بناء القصر الفخيم ارتد إليك طرفك وقد امتلأ وجودك هيبة وإجلالا. وإن أنت رميت ببصرك إلى الجهة المقابلة راح إلى أقصى أبعاده يستجلى من بين أشجار الحدائق التماثيل، وتقوم أمامه بعيدة فى ميدان الكونكود المسلة المصرية ثم قوس النصر أبعد منها وعلى مرمى العين.

دخلنا القصر العظيم وليس بيدنا دليل ولا يصحبنا مرشد إلا صديق ما عهدته يهتم بالجمال ولا يعبأ به. وجعلنا نطوف بأركانه عن غير مهل. وإلى جانبنا شبان وفتيات قد أخذ كل فى يده دليله يريد أن يقف على دقيق معنى ما يرى ويحرص على اكتناه سر الشيء الذى أمامه.

بالرغم من ذلك فقد أخذت بالعين أشياء تركت فى النفس أثرا باقيا إما لغرابتها وإما لمبلغها من الأتقان. من ذلك تمثال قديم يمثل الملك وقد قطب حاجبه وهو فى جسمه أضعاف من حوله. يحمل فى يده خنجرا كأنه يتبرم بالوزراء القائمين عن يمينه. أما الجند فقد قاموا خلفه وعليهم أثر اليقظة والرهبة معا.

كذلك تمثال ناسكة قد رفعت رأسها للسماء ولبس جسمها النصف عار شكل الخشوع والخضوع وعليها مهابة الصلاح وتقرأ فى وجهها آى الأسف والأخلاص وهى من تماثيل جالى (عن العباده).

أما زهرة ميلو Venus de Milo فهى حقا إلهة الجمال. هذا الأنف اليونانى البديع وتلك العيون الناطقة بما يكنه الشباب من غرام وهوى وقدماها المكتنزين وصدرها وخصرها وقوامها. هذا التمثال الصامت الناطق. هذا الكل البالغ منتهى الإبداع هو لاشك إله الجمال ومعبود محبيه.

لم نر من الطبقة الثانية كثيرا لأن موعد الطعام حل وأصحابى جميعا جياع. وكل ما أذكر منها صورة لتسيانو هى (لورا دديانتى) ذات الصدر المصقول والذراع الخصب والفم الملائكى وكأنها تصغى لرجل يدل ما أراده الرسام من عدم وضوح صورته على معنى ما بينهما من الصلة. والصورة معروفة كأنها (تسيانو ورفيقته).

جاء موعد الطعام فاراد أصحابى الإسراع فى مسيرهم وفعلا تركنا الصور وما فيها والسقوف وجمالها ولم يك شىء ليلهينا عن سيرنا. هنالك ذكرت حكاية قاسم أمين حين كان مع جماعة من أصحابه فى قصر اللوفر وجعلوا يتسللون منه واحدا بعد الآخر. وهنالك أسفت وتعزيت فى وقت احد.

٣٠ منه

كنا شرذمة من البكوات وأنا فى حديقة الأكليماتاسيون. فلما انتهينا من التفرج على الحيوانات المختلفة التى بها دخلنا بيوت القصار. وهم الأعجوبة التى اهدت الحديقة للنظر العام الباريسى هذه السنة.

تقع الحديقة فى أحد أركان غابة بولونيا ويقصدها الناس أولا كما يقصدون حديقة الحيوانات عندنا وثانيا مجذوبين بما سيرونه من عجيب نادر من أمثالهم من بنى آدم. والتناهى فى الطول والتناهى فى القصر أعجوبة. لذلك استدعى قصار من الناس معنى العجب.

وجدناهم فى دورهم أو بالأحرى فى أوكارهم إلا من خرج منهم إلى فسحة المكان. ومن بينهم ضاحك السن باش الوجه والعابس المقطب والحزين الكئيب.. والجميل المدل بجماله والقبيح يجمل نفسه فيظهر قبيحا.. على العموم وجدناهم من بنى آدم وحادثنا بعضهم فإذا فى رأسه الصغير من الرزانة ما لا يخفى معه كبر سنه. ومن بين هؤلاء هندى فى الخامسة والعشرين لا تزيد قامته على الثمانين سنتى مترا أو متر بالأكثر وتقرأ على وجهه أثر التفكير العميق ويحييك بكل تعقل وسكينة.

بين هؤلاء القصار أشخاص ذوو صناعات مختلفة فواحدهم حلاق وجماعة منهم شرطة وآخرون موكلون بعربات الفسحة. ومن بينهم جماعة ذوو ألقاب. لهم ملهى يمثلون فيه ـ فهم يكونون مملكة صغيرة قصيرة.

ثم درنا بين الأقزام وخرجنا إلى قهوة نستريح فيها فما هى إلا لحظة حتى خرج القوم للنزهة ومنهم من يسير الهوينا وآخرون يركبون العربات وجماعة امتطوا دراجاتهم وقادوها كخير ما تكون القيادة. ومن بين هؤلاء مر ذلك الهندى القزم الذى تقدم ذكره.

١ أغسطس كنت مع ل. بك على طعام العشاء وكانت معنا مدام ت. صديقته. وهذه هى المرة الأولى التى عرفتها فيها وحادثتها.. دار الحديث بيننا باللغة الإنجليزية تلك اللغة التى كنت اعتقدها كما يعتقدها كثيرون غيرى مثال التنافر. وها أنا أسمعها من فم محادثتى ترن كأنها نغمات الموسيقى بالرغم من شعورها المبيضة ووجهها الذى تبين فيه بعض خطوط التجعد.

كان من ملاحظاتها لى أن الشرقيين ممن رأت تظهر فى عيونهم آثار الحزن أكثر مما يوحى به سنهم. وعللت ذلك معها بأنه نتيجة طبيعية للطقس حيث أنك كلما ذهبت شمالا وجدت الوجوه فرحة والناس أميل للطرب. وعندى أن للأمر سببا يرجع إلى تاريخ الشرق وحال الشرقيين الاجتماعية الحاضرة أكثر مما يتعلق بالطقس والموقع الجغرافى. ذلك أنهم محكومون بالاستبداد القرون الطوال فدخلت إلى نفوسهم آثار الحزن وغادرها معنى الفرح الصحيح الخالص. فصار يطربها النغم الشجى المحزن أكثر مما تأخذ بها الرقة الضاحكة المفرحة ويسرها الصوت الممتد الهادىء أكثر من الأصوات المرتفعة التى ترج الأعصاب والفؤاد والقلب. أدخلهم ذلك التاريخ الأليم الذى مد جناحه فوقهم إلى الاستسلام من غير رضى وأرغمهم القسر الذى عاشوا ويعيشون فيه على وجود صاغر مستكين. دخل إلى نفوسهم حب الخفاء فى كل شىء وظهر فى عيونهم ـ والعين مرآة النفس ـ أثر ذلك الحزن العميق والتحرز الشديد.

بعد العشاء قام ل . بك لتجهيز معدات سفره. وودعناه على المحطة قائما بقطار الساعة العاشرة إلى مصيفه فودعنا منه رجلا عاقلا ورأسا مفكرا وصدرا رحبا.

٢ أغسطس

معلمنا يفيض سرورا ولا يستطيع بطنه الضخم ولا رأسه الكبير أن يحوى سروره. أحسبنى أحسست برجليه تدقان فى الأرض وبكل جسمه يتحرك وبشفاهه تلعب من غير كلام وبخدوده تهتز وبرأسه الأصلع يميل وكله ثمل طرب لأنه يحكى لنا أن بلريو عبر المانش فوق منطاده.

لم أتمالك نفسى من الضحك أمام هذا المنظر فحسبنى الرجل أضحك ساخرا منه وحدد نحوى عيونه وقد ابتدأ يلعب بها الحنق. فزاد منظره إضحاكا حين جمع فى لحظة بين السرور والتغيظ. ولكنى تمالكت نفسى وجاهدت حتى توصلت بالقليل من اللغة الذى أعرف لأسأله:

ــ وماذا أن عبر بلريو المانش ــ أيه يعنى

ــ وكيف! . أو ما ترى أن ذلك ينفعنا إذا نشبت حرب بيننا وبين إنكلترا ونستطيع فى تلك الساعة أن ننزل جنودنا إلى شواطئها آمنين.

... يا سلام يا مسيو. أتظن أن عبور المانش سيبقى احتكارا إلى الأبد لبلريو أو أن بلريو لا يموت. ولكن المسيو أ. ل . وكل فرنساوى مثله معذور. هم يذكرون أيام نابليون ويذكرون بحسرة عجزهم عن عبور المانش على ظهر البواخر فلم يكد يبدو لهم هذا الأمل الجديد حتى طفحت بالسرور نفوسهم وحتى حجبهم جذلهم به عن أن يروا قيد شبر بعده.

وبقى طول مدة الدرس على هذا الحال من الجذل. ولولا أن ضحكى كان يثير سخطه من حين لآخر لما كان بعيدا أن يقوم فيرقص من شدة الطرب وحتى يرضى شهوة رجليه التى بقيتا لا تهدآن كل مدة وجودنا والتى دفعته ثلاث مرات لأن يقوم فيرسم لنا على تختة سوداء شكل الطيارة ويجتهد للتفريق بين (المنوبلان) و (البيلان) مما نحن لا شك فى غنى عنه لأنا لا نعرف أهم ما فى الطيارة حتى تهمنا معرفة أجنحتها.

٤ أغسطس على رأى شكسبير «مادام الختام حسنا فالكل حسن».. كذلك كان يومنا هذا كله حسن وأحسن ما فيه ختامه. فقد كان معنا فى القطار راجعات من فرساى أم وثلاث بنات لها. أما كبراهن فجميلة ولكنها ليست بارعة. وأما الصغريان فأبدع خلق السماء فى أصفى ساعاتها. عيون زرقاء تسيل رقة وتفور كأنما صورها (تسيانو) أو هى أبدع ونظرات تسبق إلى القلب وجسم يكاد يجرى من القميص من النعمة لولا القميص يمسكه.

ويتكلمن الألمانية فتتساقط ألفاظهن والأذن تعجز دون التقاطها ولكنها تبعث إلى النفس أعظم السرور.. يقف القلم حائرا كما يحتار اللب وتحار الروح كيف وأنى تجد المكان منها الذى تحل فيه هذا الجمال وقد ملأها كلها وكل جارحة من الجوارح.

كانت هذه خاتمة اليوم بعد أن رأينا قصر فرساى ـ قصر لويس الرابع عشر ـ قصر الملك الذى قال «أنا الحكومة والحكومة أنا» ـ وها جاءت الأيام فغيرت معالمه. فهل تجىء الأيام أيضا فتغير من هاتيك الملائكة اللائى صحبننا فى سفرنا القصير؟..

والقصر قائم بين جنات وحدائق وغابات وغياض يتوه فيها الخيال. قائم بعظمته يطل على المتسعات الخضراء أمامه وقد قام فى صحنه تمثال لويس ممتطيا جواده غارقا فى لجة الشمس الناصعة هذا النهار.

فإذا ما دخلته قابلك فيه بدل الملك وحاشيته والأشراف وأتباعهم تماثيل العظماء والكتاب وصور الوقائع وأكابر الرجال. وبدل الجمع الكبير الدائر حول الملك شيخ الطغاة والكل يسعى للزلفى إليه والقربى عنده بأنواع الصغار وقد ملئت نفسهم بالأحقاد واللؤم ـ جمع كبير حافل جاء يتفرج على هذه الآثار من أيام العظمة الملوكية بنيت على أساس من دماء الفقراء والعمال ثم ولت عروشها ورجعت لتكون موضع سرور الفقراء والعمال وكل إنسان يريد أن يراها.

وأكثر التماثيل أخذا بالعين تماثيل مشايخ كتاب القرن السابع عشر ـ راسين ومليير وكورنى. وتمتد على جدران الغرف الفسيحة الصور الكثيرة لما حاربت فيه الأمة الفرنساوية. وإحداها موقعة من مواقع نابليون جرح فيها قدمه فضمد جرحه وهو يريد أن يمتطى صهوة جواده وليس على وجهه لذلك من ألم بل هو الوجه الحاد الآمر لم يتغير حماسه ولم يخرج عن حلمه. وأخرى صورة الامبراطوره أوجينى زان التاج منها وجها ملكيا جميلا.

أما السقوف وما عليها من نقش فهى كل الجمال.

من الصور التى أطلنا النظر إليها ما تعلق بالشرق بنوع عام وما تعلق بمصر بنوع خاص. على أن الاتقان المرسومة به هذه الصور كاف وحده ليأخذ النظر إليها. ما بالك لو أن فيها ما يثير الإحساس ويستعيد ذكرى القديم أو ذكر مصر. وقد كانت أشكال بعض الرجال كالشيخ البكرى والسادات والمهدى تجتذب النظر للتحديق بها مهما بلغت من الإرتفاع.

دخلنا غرفة نوم لويس وفيها سريره الفخيم وقد اجتمع الناس من حوله على أشكالهم المختلفة وفى صورهم المتباينة وكلهم فرح مستبشر ليس عليهم أثر الوجل أن دخلوا غرفة الملك ولا يرتعدون خيفة أن يحكم عليهم بالإعدام أو السجن ولكنهم يقفون على بساط المساواة والحرية وقد أراق آباؤهم من أجلها دماء شريفة غالية.

جدال حاد عن المرأة:

٥ أغسطس

البك ــ لا ضرورة للنزاع فى هذا الموضوع ومادام ديننا قد أمرنا فكل مناقشة عقيمة وصاحبها خارج على الجماعة.

الأستاذ ــ أما أن ديننا أمرنا فى هذه المسألة بأشياء معينة فذلك ما لا شك فيه ــ ولكنى أحسب هذه الأوامر تقول من جهة أن العلم فرض على كل مسلم ومسلمة ومن الأخرى يقول تعالى «ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف».

البك ــ وهل تستطيعون تفسير القرآن وأوامر الدين بخير مما فسره الأئمة.

محمد ــ ليس هذا موضع البحث الساعة . كما أن الإمام الشافعى قرر أن واجبا أن يكون لكل زمن مجتهد يشرح له أحكام دينه. فإذا كان أهل زمننا رأوا خطأ فى التفسير القديم ــ وليس الخطأ بمستحيل على ابن آدم ــ أو رأوا فيه ما يناقض المصلحة وأن ممكنا التوفيق بين المصلحة والدين فمن الحمق الأكبر أن نقف متبلدين أمام أقوال الزمن القديم.. والواقع أن الذى يحول بيننا وبين العدل فى مسألة المرأة وفى غيرها من المسائل ليس هو الدين وإن اجتهدت طائفة منا أن تلصق كل شيء مهما كان فاسدا به ولكنه الاستبداد الذى تخلل نفوسنا وأفسد ملكاتنا وتوصل شره إلى الدخول فى دمنا فلم يبق فى الإمكان أن نتخلى نحن عن الظلم بل تدفعنا نفوسنا فلا نكتفى بظلم أقراننا وبظلم النساء حتى نظلم الدين هو الآخر فى حين أن الدين لا ذنب له.

الأستاذ ــ أو ما أوصى صاحب الشريعة مرارا وتكرارا بالمرأة. ولكنى يا أخى لا أعرف السبب الذى من أجله حرفت هذه الوصايا. أحسب ذلك جاء إلى الأفكار والكتب نتيجة أنه كان موجودا فى العمل بما أدخله اختلاط الأعجام بالعرب الفاتحين من الترف وحجب النساء والاستمتاع عيانا بيانا بالقيان وطبيعى أن الترف يجر وراءه الرق مادام غير مبنى على أساس من العلم الصحيح.

والواقع أن الحال النازلة بالمرأة اليوم لا شأن للدين فيها ولكنها نتيجة لازمة من نتائج التاريخ الذى حكم الأمة العربية قرونا طوالا.

حسن ـ ولم كل هذا التمحك بالدين من غير معنى. أنا أرى أن أمامنا مصلحة يجب أن نسعى إليها وأن نضحى من أجلها كل شيء. وما ضرنا فى الحقيقة سوى الخيالات والأوهام التى نتمسك بها من غير عقل ولا تبصر. ولو لم يبلغ بنا الجهل أن نهمل التعقل جانبا لنعيش فى عالم من المزاعم العتيقة لما كنا رجالا ونساء فى هذا الموقف المحزن المخجل الذى نحن فيه... ألا يكفينا أن نعيش فى أوربا لنرى بعيوننا سقوط الخرافات التى تفتك حتى بأرقى الطبقات عندنا. أنا أعتقد أنه لم تعم الحرية بلدنا ويتمتع بها النساء والرجال على السواء فإنا سنبقى فى ذلنا الذى نحن فيه إلى الأبد. وتاريخنا نحن وتاريخ الغرب شاهد عدل على ما أقول.

محمد ـ هون عليك يا صاح. العالم يسير رغم أنف كل إنسان ومهما يكن سيرنا إلى الأمام بطيئا فإن التقدم لا ينسانا. وكما أصبح العامل الذى كان بالأمس العبد الذليل فى أوربا حرا عزيزا ذا بأس وسلطة فإن الزمان من غير شك يضمر لنا ذلك وسيأتى به يوما أردناه أو لم نرده. وإذا كانت غفلتنا الحاضرة تسوقنا لاستعباد المرأة واعتبارها كمجرد متاع فإنى أخشى جدا أن يكون فى ضمير الغد القريب سلطانا لها ننوء به نحن. ويكون يومئذ يوم القصاص.

حسن ـ ما أجمل أحلامك يا أخى. أنا لا أستطيع أمام الحال المحزنة التى عندنا دون اليأس من كل خير. أو ما ترى معى أن كل شيء عندنا دخلت فيه مصلحة من مصالح المرأة أو تعلق به أمر من أمورها هو ناقص نقصا جوهريا. أو ماترى أن المرأة عنوان النقص فى كل ما يختص بها. فمتى عساه يكون غدك القريب الذى ترجو إن لم يكن حلما من الأحلام.

الأستاذ ـ أما أنا فلا أرى مطلقا مانعا من الوجهة الدينية يحول دون رقى المرأة. بل بالعكس من ذلك لقد دلتنى كل قراءاتى فى هاته السنين الطويلة التى قضيت فى درس علوم الدين على أن الدين يساعد المرأة ويساعد التقدم ويساعد المدنية.

حسن ـ ثم من ذا من الشبان يعقل يستطيع أن يقترن بامرأة لا يعرف أو بامرأة جاهلة. لاشك أن الجهل والحجاب سيكونان على الأمة ضربة قاضية ويكون ما تمناه محمد أفندى هو بوار النساء فثورتهن على العادات التى طحنتهن فنجاحهن بعد ذلك بالعلم والشعور ومخالطة الرجال.

البك ـ يا شيخ. بلا كلام فارغ. والله لن يخرب البلد إلا أنتم.

٦ أغسطس

وا أسفاه: اليوم آخر أيامنا مع معلمنا اللطيف مسيو أ. ل.

أحد صديقيّ يريد أن ينفصل عنا فلم يك بد من ترتيب جديد. وتسعة دروس لنا كثير خصوصا وقد وقعنا على معلم جديد هو المسيو هـ . ج . فلما أعلمنا المسيو أ. ل. بعزمنا ظهر على وجهه أثر الغيظ وجعل ذلك يزداد حتى احتقن وجهه واحمرّت عيناه. وكم كان جهاده عنيفا ليبقى معنا طول هذا الدرس حافظا صوابه.

وكل قليل تبدو له بارقة أمل فيسألنا من جديد إن كنا لا نزال على رأينا. ونرد عليه أنّا متأسفين لذلك فتسقط آماله ويرجع له ما كان به من الغيظ. حتى رأسه الأصلع هو الآخر يزداد احمرارا.

أخيرا انتهت الساعة وقام معنا. فلما كنا عند الباب أراد أن يحادثنا من جديد ودل على ما عنده من الأمل أنه ابتدأ يحرك رجليه. ولكنه ما لبث أن عرف أن هذه هي اللحظة الأخيرة حتى رد وداعنا بأن دفع الباب وراءنا بكل قوته. ونزلنا نحن على السلم ضاحكين. وهكذا انتهى وقتنا الجميل مع المسيو أ. ل.. فوا أسفاه!.

١٠ أغسطس

ـ فى كل ناحية من نواحى باريس متاحف وآثار جميلة عظيمة. أكبر هذه الآثار قيمة فى الحى اللاتينى: البانتيون.

وهو بناء شامخ ترتفع قبته فى السماء تسعون مترا وتقوم على قواعد عظيمة ضخمة. وتحت هذه القبة وقواعدها وتحت الأرض القائم فوقها البناء ينام جماعة من عظماء الرجال.

لأول ما تدخل المكان تحس بهيبة تقابلك ثم تأخذ ببصرك نقوش الجدران. وإنك لترى من النقوش حيث كنت فى باريس. فى المتاحف والمعابد والكنائس والمنازل الخاصة وحيث تريد. وتحس لذلك إحساسا صحيحا أن باريس وطن الفنون الجميلة.

لقد أحسست هنا إحساسا لم يكن عندى بشىء من هذه القوة لا فى قصر اللوفر ولا فى قصر فرساى ـ استعدت أمام مخيلتى من الصور التى رأيت فى القصرين ووضعتها إلى جانب ما فى البانتيون فعرتنى القشعريرة لمبلغ قسوة بنى الإنسان ووحشيتهم وحقرّهم عندى ما فى طبيعتهم من الشدة المتناهية من جانب ومن الخضوع الأعمى للقوى من جانب آخر. أثار عندى ذلك الإحساس صور الوقائع الحربية حيث الأشلاء ملقاة تدوسها البهم والهامات طائرة عن أعناقها والدم القانى يسيل من تلك الكلوم النافرة وأمام كل هذا لاترى على وجه من الوجوه أثر رحمة أو شفقة بل عيون تقدح الشرر ووجوه صورتها بصورتها قلوبهم الحجرية فظهرت قاتمة عابسة: تلك الصور هى تاريخ الإنسانية الحى وآثارها الصارخة بما جنى الناس ويجنون من الفظائع.

فوق بعض تلك الصور رسوم ملائكة ترفرف بأجنحتها فوق هذه المجاميع المتحاربة وترقب من سمائها الأخاء الرحمة الحب هاته الطوائف المتباغضة المتحاسدة يسفك الإنسان دم الإنسان ليرضى شهوة من شهوات ملكه الشره الطامع فى أن يقال عنه سيد المشارق والمغارب مهما طارت من أجل ذلك رؤوس وأريقت دماء.

وفى مغاور البانتيون فى جوف الأرض ينام العظماء نومهم الهادئ الطويل ـ ينام روسو [١] وفلتير[٢] وهوجو[٣] وميرابو[٤]. ينام هؤلاء الكتاب والمتكلمون وهم أشد صمتا من الأحجار التى حولهم[٥].

---

(١) جان جاك روسو Jean Jacques Rousseau ، فيلسوف وكاتب فرنسى ولد فى جنيف، مؤلف كتب عديدة أشهرها «العقد الاجتماعى» ودعا إلى عودة الإنسان إلى الحالة الطبيعية. وقد استوحت الثورة الفرنسية من جهة، والحركة الرومانسية من جهة أخرى أفكار روسو إلى حد بعيد (١٧١٢ ـ ١٧٧٨).

(٢) فولتير Voltaire شاعر وكاتب فرنسى شهير يتميز بفكر ثاقب ومتطلع ومرن. قضى الشطر الأكبر من حياته فى فرناى بالقرب من بحيرة جنيف حيث قدم أوفر إنتاج أدبى وأكثره تنوعا. وكان له تأثير أدبى واجتماعى كبير، قاوم جمود الكنيسة. وتتميز أعماله بطابع إنسانى ينتشر فيها جميعا: احترام الضمير والحرية الفردية، والإيمان الراسخ بالتطور (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨).

(٣) فيكتور هيجو Victor Hugo : أشهر شعراء فرنسا فى القرن التاسع عشر. ولد سنة ١٨٠٢ وقضى طفولته بين إيطاليا وأسبانيا ثم استقر فى باريس. ظهرت موهبته الشعرية الفذة منذ أن كان سنه عشر سنوات. مثلت أولى مسرحياته Hernani سنة ١٨٣٠ . شارك فى الحياة السياسية عضوا فى المؤسسات التشريعية للبلاد حيث دافع عن الحرية دفاعا مجيدا. وقد ترك باريس عقب انقلاب ٢ ديسمبر سنة ١٨٥١ ولم يعد إليها إلا فى ٤ سبتمبر سنة ,١٨٧٠ توفى سنة ١٨٨٥ دفن فى البانتيون.

(٤) ميرابو Mirabeau خطيب الثورة الفرنسية المفوه. وقد عامله أبوه فى طفولته بقسوة وحبسه سنوات هرب بعدها إلى الخارج ثم قبض عليه فى هولاندا فسجن فى Vincennes حتى سنة ١٧٨١ وطرد من طبقة الأشراف. وفى سنة ١٧٨٩ ـ عام الثورة ـ أصبح عضوا فى الـ Etats généraux ممثلا للشعب حيث ساهم بعلمه وخطابته فى نجاح الجمعية التأسيسية، واتهم فيما بعد بالتحالف مع القصر الملكى (١٧٤٩ ـ ١٧٩١).

(٥) كتب الدكتو هيكل فى ذلك الوقت رسالة عن أدب اللغه الفرنسية منشوره فى القسم الثانى من هذا الكتاب (الناشر).

١٣ أغسطس دعانا صديقنا البك للغداء عنده. قد أسف أن يكون سفر الأستاذ بالأمس مما ينقص من سرورنا بالرغم من أنا سنكون سبعة أشخاص على المائدة ودار حديث طويل: [١].

خليل ـ ما السبب فى وضع الطلاق فى يد الرجل دون المرأة. ثم كيف تطلق له الحرية إلى أقصى درجاتها بهذا الشكل الذى نرى. أفليس ذلك من الظلم وهلا يتحتم تحديد قوة الزوج فى القدرة على الطلاق حتى تصبح تلك العلاقة محترمة بالقانون وفى العمل.

حسن ـ المشاهد الذى لا ينكر أن مرض الجهل أشد فتكا بالعقول من التشريع نفسه.

خليل ـ وهل يعقل إذا تعلمت المرأة أن تبقى القوة على قطع الصلة بينه وبين زوجته متروكة لحرية تصرف الرجل.

حسن ـ إنا نرى أن طائفة المتعلمين لا يطلقون نساءهم لأنهم بأنفسهم يحترمون هذه الصلة. فإذا تعلمت المرأة وتعلم الرجل لم يبق من حاجة لتحوير التشريع.

محمد ـ أما تحوير التشريع فضرورى كل الضرورة. وإذا كان خليل يرى أن من الظلم بقاء صلة الزوجية متروكة لاختيار الرجل إذا تساوى هو وزوجته فى العلم فالنظرية تصدق لاشك إذا كانا على مستوى واحد من الجهل. إذن فالفلاح الجاهل وامرأته والعامل الجاهل وامرأته فى حاجة مطلقة لإصلاح التشريع. ولا يجب أن ننسى أن القانون يعمل من أجل هاته الطوائف أكثر مما يعمل من أجل غيرها.

---

(١) وضع الدكتور هيكل فى ذلك الوقت مذكرة مطولة عن الطلاق وأوضاع الأسرة قدمها إلى ناظر الحقانية سعد زغلول باشا يومئذ انظر نص المذكره فى القسم الثانى من هذا الكتاب (الناشر).

علي ـ عندك حق. خصوصا...

حسن ـ ليس هذا الذى أنكر. ولكن خليل يقول إن من احتقار المرأة بقاء حق الطلاق فى يد الرجل فى حين أنها متعلمة مثله. كما قدمت لايستعمل الرجل المتعلم هذا الحق وإذن فكأنه غير موجود بالنسبة له.

محمد ـ إذن أنت معنا فى وجوب الإصلاح. ولكن الذى يدعو للحيرة حقيقة هو كيفية الإصلاح. أنعمل برأى خليل ونرجع إلى ما قررته الشرائع الغربية أو نبيح الطلاق للمرأة كما هو مباح للرجل والشر من طبعه يداوى الشر. أنزيد فى تداخل القانون ونجعله هو الذى يحدد حرية الأفراد من هذه الجهة مهما كان فى ذلك من الاستحالة عملا لما ظهر فى فرنسا وفى غيرها من أن خرق القانون سهل جدا أو نحن نضع ثقلا فى كفة المرأة يوازن الثقل الموضوع فى كفة الرجل من قبل. وأرانى أميل لهذه الجهة لأنى أعتقدها تتمشى مع شرف الإنسان أكثر وتضمن له السعادة الصحيحة إلى حد أكبر. أما فساد التشريع الحاضر فأمر ظاهر ومفروغ منه.

البك ـ يعنى إيه أمر ظاهر ـ أو ما حدد الدين هذه القوانين حتى تريدون أن تعبثوا بها هى الأخرى.

محمد ـ الله رحيم لم يجعل علينا فى الدين من حرج ـ. وأظن من أكبر الحرج أن تطلق امرأة زيد لأن عمرا لم يرض بتناول فنجال قهوة عنده. ومن أكبر الحرج أن يصبح أطفال فى مركز اليتامى لأن أباهم طلق امرأته ثلاثا فى غضبة ثم ندم على ما فعل. من أكبر الحرج أن تبقى امرأة فى عصمة زوجها الذى يسومها الخسف وسوء العذاب.. فأى شىء يناقض الدين: العمل لإعلاء مبدئه الذى هو سعادة الناس فى الدنيا والآخرة أو الجمود دون إخراجهم من شقائهم. وربهم أرحم من أن يريد لهم شقاء.

خليل ـ ولكن ما هذه الفكرة الغريبة من إطلاق الحرية للمرأة وللرجل فى الطلاق؟! وأين إذن تكون الرابطة بل ألا تندك العائلة من أساسها ويصبح موتها محتما.

حسن ـ وإنى أنكر مع خليل هذه الفكرة لأقول ما قال أرسطو «ان جماعة الاشتراكيين الذين يريدون هدم العائلة هم كالرجل الذى يضيف الماء على ما عنده من العسل فيفسد طعمه. إذ إن ما يجعل كلمات الأب والأخ عزيزة هى هاته الصلة القريبة بينهم. بل لأخشى أن يكون الماء الذى يضيفه الاشتراكيون كثيرا فيتلف طعم كل ما عندهم».

محمد ـ يجب أن نتفاهم حتى يمكننا أن نتناقش. فرق بين ما أطلب وبين ما يريد الاشتراكيون من إعدام صلة الزوجية كلاً. لأنهم يريدون أن يكون لكل امرأة ولكل رجل حرية الاجتماع فى كل وقت وأريد أنا أن تبقى بينهما صلة الزوجية مبنية على الاتفاق والرضى لا علي الإكراه من جانب والخضوع من آخر. وأعتقد طلبى ليس معقولا فقط بل هو طبيعى أيضا. فإنا نرى الطيور والحيوانات الحرة تعيش أزواجا راضية متحابة. فهلا نتخذ منها لنا مثلا.

حسن ـ إذا كنت تبحث عن الطبيعى فقد أخطأ قياسك. لأن الإنسان حيوان اجتماعى. والحيوانات الاجتماعية بطبعها لا تعرف مثل هذه الصلة بل ترى القطعان تسير على مثل النظام الذى يطلبه الاشتراكيون للإنسانية.

يولد الصغير وتعنى به أمه ويتعهده المجموع بحمايته. وعلى هذا فهم منطقيون مع أنفسهم أكثر ممن يريد، وهو حيوان اجتماعى، أن يعيش عيشة الحيوانات المنفردة.

محمد ـ وما قولك فى أسراب الحمام تطير جماعات ثم إذا رجعت لكنها رجع كل ذكر وأنثاه إلى بيتهما. أفلا يجعل ذلك نظريتى التى أطلب منطقية مع نفسها.. يجب كذلك أن أقول أن حرية الصلة من شأنها أن تزيد كلمات

١٤ أغسطس لابدع أن أنبتت هذه البلاد الكتاب والشعراء ممن يقيمون صروح الحرية. اليوم مررنا بحديقة (بارك منسو) مرا. كيف لا يكون الرجل الذى يعيش هنا بين أبدع الحدائق ـ بين اللكسمبور والتويلرى وبارك منسو وغابة بولونيا وسان كلو وفرساى. بين هذه الجنان الناضرة والزروع الخضراء والأشجار الباسقة والزهور ومياهها وغدرانها. كيف لا يكون شاعرا مبدعا وكاتبا تخضع له الأفهام.

١٦ أغسطس سبقت الليلة فى النزول إلى العشاء. وجاءت جارتى فأهدتنى تحية المساء. وفى انتظار جارتها ومجىء الطعام سألتنى.

ـ كيف تجد باريس؟ أظنك مسرورا بها

ـ باريس جميلة جدا لكن وحدتى تضايقنى أحيانا

هنا ابتسمت وأفهمتنى أن هذه الوحشة تزول لاشك متى فهمت البلد.

وكم كانت لطيفة ساعتئذ وهى تشرح لى حالها هى الأخرى أول ما جاءت وكيف شعرت بالوحدة بالرغم من الكثيرين من الأصدقاء الذين وجدت. قالت:

... وكم تؤثر علينا الأشياء التى كانت محيطة بنا وفارقناها وكأنها تحوى روحا تتبعنا دائما وتثير عندنا ذكرى ما تركنا. ذكرى المنازل والناس والأشياء. وتصبح الأمور الحقيرة التى كانت لا قيمة لها ذات قيمة لأنها دخلت عالم الذكرى.

وهكذا قضينا مدة العشاء فى هذا الحديث. وشاركتنا جارتها بعض الشىء فيه.

١٧ أغسطس صممنا اليوم على الذهاب إلى الأنفاليد لنرى قبر نابليون. فأخذنا الترام حتى نزلنا عند كبرى اسكندر أعظم كبارى باريس وأجملها. وعلى جوانبه الأربعة قامت أربعة نسور لا تكلّ أجنحتها. فأخذنا الطريق حتى وصلنا إلى الأنفاليد ومنها إلى كنيسة القبر.

وما هو إلا أن وصلنا بابها حتى قابلنا عليه أمر الدخول بالسكون والاحترام. وهل ترى فى المكان إلا رؤوسا ذاهلة وأصواتا خافته تهمس كأنها فى حضرة الملك الكبير. والمكان فخيم عظيم تدخله فيقابلك شيء من الظلام المهيب فيكسوك مهابة لا تستطيع أن تخاطب صاحبك إلا وعلى صوتك أثر الخشوع والخضوع.. ليس المكان مكان الحشر ولا مرسح الظلامات ولا مغاور الجن ولكنه مكان رفات نابليون. مكان قبر التاج من هامة الأمة الفرنساوية. مكان الإمبراطور الأكبر صاحب باريس وموسكو ما بينهما.

عن يمينك وعن يسارك صورتان. إحداهما العذراء تحمل ولدها والأخرى صورة المسيح بمفرده. صور يتنزل عليها من البهاء والجمال ما يأخذ بالقلوب والأبصار. والمنبر بين ذلك قائم وكأنه ولا أحد فوقه ينطق للناس وحده. وهل هاته الموجودات مما حوله إلا آثار ناطقة. هل هى إلا نابليون دوخ الأرض ثم نام فى حفرته إلى الأبد. هل هى إلا أمة الفرنسيس خاشعة صامتة كل كلامها خافت خامد. وأم توحى فى أذن ولدها بآى الجلال فتزرع فى نفسه ولم يخرج إلى عالم المادة الخسيس شيئا من إعظام الروح الكبيرة ــ هل هناك كذلك إلا البناء الشامخ الرفيع تدوى فيه الأصوات المنحفضة كأنها تنزل من عالم الملائكة. كل هذا المعنى يوجد فى هذا الجانب من قبر نابليون.

فإذا أخذت طريقك إليه من بابه الثانى ووصل بك سعيك رأيت القبر المهيب. رأيته قائما فى حفرته من الرخام الأحمر وقد نقشت حوله أسماء وقائع الإمبراطور الكبيرة ــ أوسترلتز [١] وبينا [٢] وغيرها.

---

(١) أوسترليتز Austerlitz: قرية فى مورافيا وقعت فيها أشهر معارك نابليون (ديسمبر سنة ١٨٠٥) انتصر فيها على النمسا وبروسيا.
(٢) يينا Iena: مدينة ألمانية شهدت أحدى معارك نابليون التى انتصر فيها على الألمان سنة ١٨٠٦ (الناشر).

إيه يا قبر نابليون. إيه يارفات الإمبراطور. إيه يا حفرة الرجل العظيم تأخذ بك العين فى لمحة وما كانت لتحيط بآمال مقبورك خيالات الواهمين. ويحنى الرجل قوسه للنظر إليك وكانت تنحنى أمام صاحبك رؤوس العالم أجمعين. إيه أيها العالم الموهوم تحث الإنسان على سفك دم الإنسان ثم تورده منك أضيق بقاعك. كان نابليون يرسل بإخوته ملوكا لملكه وإذا بك تراهم جميعا فى غرفة بين جدران أربعة. وبينا القلوب كانت تهتز منهم وجلا إذا هى مصدوعة عبرى أسى عليهم. ألا أيتها الطبيعة من أجل ماذا هاته الآمال تبعثينها فى رأس ابن آدم ثم تقضين عليه هذا القضاء القاسى. أغدر منك أو غرور من هذا المخلوق المملوء بالخيال والأمل الكبير وهو على يقين من حتفه.

أمامك مقابل الباب أعمدة من الرخام المجزع ينعكس عليها نور النوافذ ذات الزجاج الأصفر فلا تخالها إلا ذهبا. ويهبط من جانبها درج يؤدى بك إلى الباب البرنزى المصنوع من مدافع أوسترلتز. وهو باب القبر وقد كتب فوقه ما معناه (ألا فلتوضع رفاتى على شاطىء السين بين أمة الفرنسيس التى أحببت حبا جما) ـ كلمة قالها نابليون فى منفاه. كلمة قالها من كان ينظر إلى القارة فلا يجد إلا تاج نصره وعلمه الخفاق فوقها. هبطت تلك الآمال من سماء الخيال فوقعت على الحقيقة القاسية ورجعت من مسرح الوهم إلى وكرها كانت تحسبه ذلك العش الضيق فى طيات الأرض. والناس كلهم ذاهلون ساكتون فأين تذهب أفكارهم. أين تطير الساعة وقد رأت الرأس وقع فى فخ الطبيعة المنصوب ولا ينجو منه مخلوق؟ لا أدرى..

فلأخفف عن نفسى إذن هموم عالم المادة. هى النفس الكبيرة تخلد على الدهر وفى طياته وليست أوهام الحياة وآمالها إلا ذاهبة مع الريح.

انتقلنا بعد إلى غرفة من غرف المعروضات فيها أعلام كسبتها فرنسا. فيها تمثال نابليون يوما وعلى وجهه أثر الشحوب والنحول. تمثال يدل على حمى التفكير التى تفتك برأسه هو أقرب شىء إلى صورته فى مرضه الأخير ـ كل فكره فى الموت وكل آماله أن توضع رفاته على نهر السين بين أمة الفرنسيس.

ولقد عملت الأمة الفرنساوية لأبنائها هنا كثيرا. علمتهم الطريق إلى إجلال العظيم.

بعد ذلك خرجنا والنفس كأنها وجله خائفة والقلب كأنه فى وهدة عميقة والوجه ينم عما حوته الروح من آثار الإجلال والاعظام. وخرجنا بذلك من عالم الحقيقة إلى عالم الأوهام والمادة. عالم النقص والفساد.

١٨ أغسطس

ليس من السهل الحكم على معلمنا الجديد مسيو هـ. ج، هو شاب في الثانية والثلاثين من عمره جميل التقاطيع خفيف شعر الرأس في حاجبيه قطوب دائم يظهر أنه جاءه نتيجة التفكير المستمر. وكان أول ما قرأ لنا رواية أندروماك التي يعتبرها هو أحسن ما كتب راسين. قرأها بشكل تمثيلي فيصيح في أماكن ويضعف في أخرى ويكاد يبكي في الثالثة. وبالرغم من أني لم أفهم كثيرا مما قرأ فقد أثرت قراءته على نفسي.

عنده قمطرين ممتلأين ويظهر أن كل ما فيهما هو من كتب الأدب. وهو مستخدم في دار الكتب الأهلية La Bibliothéque Nationale لذلك رتب وقته معنا بعد الساعة الرابعة دائما أي بعد موعد خروجه. وإني آسف أنه لم يستطع أن يعطينا أكثر من أربعة دروس في الأسبوع لأنه يسافر كل أربعاء إلى حيث زوجته في مصيفها على شاطىء البحر. على أنه وعدنا أن يعطينا ستة دروس ابتداء من سبتمبر.

في رجوعنا من عنده هذا المساء صحبنا في الطريق من بيته في بلفار مون بار ناس حتى حديقة اللكسمبور. ولقد كان أكثر الحديث المتبادل بينه وبين ب. لاني لا أستطيع أن أستمر طويلا في حديث بالفرنسية إلى اليوم.

١٩ أغسطس كنت أسير مع ب. على رصيف محطة اللكسمبور بعد أن تناولنا طعام العشاء عاملين بقول مثل بلدنا «اتعشوا واتمشوا». فجعلنا نذهب ونجيء مسرورين ببعدنا عن ضجة البلفار وأنواره وقهاويه الغاصة بمن فيها من بنات الرصيف.

لكن في كل واد أثر من ثعلبه. وهاتيك الفتيات يطلبن صيدهن حيث يقع لهن. بل لكأنهن يجدن في الظلمة مأمنا فلا تطلع العين على مبلغ قبحهن أو تقبل ما تحمل وجوههن من الدهن. غير أن صيادتنا لم تكن حسنة الحظ في اختيارها كما أن الظلمة نفسها كانت أشد فتنة عليها من النور وأكثر إظهارا لحقيقة أمرها.

هذه أول مرة تبين لي فيها مبلغ بؤس هاتيك الفتيات وتعسهن. تلك العيون الميتة من كثرة السهر وذلك الوجه الباهت لا لون له والخدود الغائرة والفم تطوقه ابتسامة تنم عن مبلغ ما تكن نفس صاحبته من الألم. وذلك الشكل الجامع بين الاستعطاف الجائع المسكين وبين الحنق على الإنسانية والحقد على بني آدم.

بقيت هاته الفتاة تروح وتجيء ازاءنا ونحن ننظر لها بعين باردة ونتعمد إساءتها من غير أن يتحرك لذلك ضميرنا ومن غير أن نشعر أنا نسيء لنفس إنسانية أوقعها البؤس وحكم الجمعية التي تعيش فيها إلى الحضيض الذي تئن من أعماقه فلا يسمع لأنينها إنسان.

وفي آخر لحظة حين أردنا مفارقتها ابتسمنا لها باستهزاء وإصغار. لكن كل الظروف أرادت أن تعطينا درسا. فلما وصلنا شارعنا فضلنا الجلوس على قهوة في أوله ريثما يتأخر الوقت ويجيء موعد النوم. وجاء مجلسنا إلى جانب فتاة صغيرة الجسم نحيفة القوام ترتدي رداء واسعا من الصوف بالرغم من أنا لانزال في أغسطس. ذلك أن ليس عندها غيره فليس في وسعها أن تتبدل به آخر. وما كدنا نجلس حتى فاتحتنا الحديث. وماكدنا نجيبها حتى طلبت من

كل منا فرنكا لتسدد بالفرنكين فتاة جالسة إلى جانبها اقترضتهما منها لطعام الغداء والعشاء لهذا اليوم..

استمر الكلام فيما بيننا وقامت جارتها لحالها. فسألها ب . لم تستمر فى حرفتها هذه وأى شيء ألجأها إليها. هنالك ظهرت على وجهها علامات ألم ولا أدرى لم. ثم تبدد ذلك كله سريعا وبدأت تقص حكايتها حين كانت تشتغل فى معمل تطريز ثم استغنى عنها أيام الصيف. وكيف وقعت حينئذ على أنكليزى رافقها مدة رأت فيها من العز والدلال ما لم يبق فى حلمها اليوم أن تنال. ثم سافر وتركها بعد أن مضت أوليات الشتاء وبعد أن أصبح من الصعب أن تجد ما تحترف به. ثم هى فى الوقت عينه ترى أن ما تسير فيه اليوم حرفة كغيرها لا أكثر ولا أقل.

أما حكمها الأخير فيقبل النظر. إذ مهما وجب علينا أن ننظر إليها بعين الأشفاق ومهما جعلتنا الظروف التى أحاطت بها نتساهل فى معاملتها فليس من السهل الاقتناع بأن حرفتها كباقى الحرف. صحيح أنها نتيجة احتياج لها موجود فى البلد ولولا ذلك لحق عليها البوار ولكن نتائجها تنافى الفضيلة. وكل ما يمكن أن يدافع به عنها أنها تسد حاجة وكل ما سد حاجة فى العالم يعد طبيعيا والطبيعى عذره فى جوده.

٢١ أغسطس ألا ما أشد تعلق هؤلاء الذين عرفت من الغربيين بالمادة وما أكبر أنكبابهم عليها. هم ينسون أمامها كل خلق وكل فضيلة فيتزلفون أو يشتدون يحاسنون أو يسيئون على حسب الظرف الذى هم فيه والوسيلة التى تسهل عليهم الكسب المادى. لم أجد واحدا ممن عرفت إلى اليوم ـ وإن كانوا قليلين ـ شذ عن هذا المبدأ. فى البنسيون ـ جاءنى صاحبه يحادثنى بالفرنساوية. حادثنى طويلا وفى مواضيع مختلفة ولكن ليصل منها كلها إلى معرفة المدة التى سأقيم عنده والحساب الذى يجب أن أدفع اليوم ـ فى غير البنسيون كل شىء يسير على هذا النسق أيضا. وأحسب أن المدنية التى عندهم لا تدعو للتقشف والزهد. فإن الطبقة التى تقابل عندنا طبقة صغار الموظفين والقليلى اليسار تعيش فى ترف أكثر من ترف جماعة أغنيائنا. ولقد دلتنى المنازل التى رأيت ـ منزل المسيو أ. ل . والمسيو هـ . ج . ومنازل كثيرة أخرى مررنا بها فى بحثنا عن سكن جديد ومنازلنا نحن التى نسكن الآن على مبلغ ما تطالب به من نفقات فى التنظيم والعناية. كما أن ما يظهر من تنوع حاجات الإنسان المتمدن إلى أقصى الحدود واضطراره لقضائها جميعا ـ كل ذلك من شأنه أن يجعلهم ينكبون على المادة هذا الإنكباب الفظيع.

ولا يخطر بالبال مقارنة حالهم بما عندنا. لأنا نحن قوم زهد نحتقر عرض الدنيا الفانى ولا يهمنا الأيام القليلة التى نبقاها على الأرض ولا بأى شكل قضيناها. يحتل منا ذلك الشعور أعماق النفس فإذا أراد أحدنا أن يخرج عليه كان الشاب الذى ينفق ماله باليمين وباليسار فى محال اللهو من غير أى فائدة تعود عليه من وراءه. وأما هم فقوم دنيا لا يعرفون سوى الحياة ولا يثقون بما بعدها لذلك يريدون كسبها بحذافيرها وأن يأخذوا منها كل ما تستطيع أن تعطى. من أجل هذا ترى فى كل ما يحيط بك ـ فى كثرة الحدائق وما فيها من التماثيل، فى المتاحف وبديع ما تحوى، فى التياترات االكثيرة تملأ باسمائها إحدى الجرائد (كومديا) صفحة كاملة من صحائفها وأحيانا أكثر. فى كل المظاهر التى حولك والتى تلمس أنت بيدك. فى ملابس السيدات والمبالغة فى

حسن اختيارها، فى الاستسلام للسرور (الذى يظهر على الناس كافة فى عيد ١٤ يوليو والذى يظهر على الكثيرين فى كل يوم) فى الصحف وغريب الأخبار التى تحتوى، ترى فى كل ذلك من الحركة والاهتمام بالدنيا والمنافسة فى استغلالها وشديد الحرص على استثمار كل ما يمكن استثماره منها ما يدهش اللب.

٢٢ أغسطس

قضينا سحابة النهار فى سان كلو. وككل الضواحى فى أيام الأحد كانت ملأى بالناس ممن لا تدل حالهم على اليسار وإن كانوا نظافا. وقد خرجنا فى مسيرنا من بستانها البديع النظام لندخل الغاب المستوحش الجميل.

جلسنا على العشب مع الجالسين. ثم قمنا من مكاننا يجذبنا صوت موسيقى. فلما كنا إلى جانب الطريق جلسنا من جديد نتنظرها فى حين جعل الآخرون الذين جاءوا من كل حدب لمقابلتها يرقصون ويصيحون وقد فاض عنهم الطرب. ولما أن جاءت عندنا إذا القوم قاموا فأداروا مرقصا عاما فيما بينهم. ظلوا يرقصون بعد أن ارتحلت الموسيقى وموسيقاروها مكتفين بأن تردد لهم الأشجار العالية هاته الأصوات التى جعلت تبتعد تبتعد حتى اندثرت.

لكن الموسيقى لم تكن موسيقانا الشرقية ذات النغمات الحزينة المتشابهة التى تذهب بالقلب إلى عوالم أحلامه يستعرض أمامه شجون الماضى والأيام الفائتة ويذهب يتبع النغمة تاركا نفسه مسحورا بها. بل هى موسيقى عسكرية قوية الصوت ترج القلب وتحرك الحواس وتهيج فى النفس من قوة الطرب ما لاتستطيع معه أن تبقى مخلدة إلى سكونها بل هى تندفع مهتاجة مبتهجة إلى الرقص والغناء والصياح وتفيض كلها تريد أن تظهر إلى الخارج.

آخر النهار أردنا أن نرجع. لكنا لم نرض أن نترك الغابة قبل أن نأخذ بعض الكرت بوستال من مناظرها. فعرجنا على فتاة هناك جعل ب . يقلب يريد أن يختار مما عندها من الكرت. وكلما تم له اختيار واحدة أعطاها إياها فتأخذها منه برقة ولطف وتبتسم ابتسامة جميلة. ويزيد ابتسامتها جمالا أنها خفيفة الروح جذابة اللون دقيقة التقاطيع ضاحكة النظرات. هذه الابتسامة أكبر شفيع لها. كما أن خفة الروح أحلى تيجان الجمال.

هذا اللطف فى المعاملة هو الأمر السائد هنا. فصديقك والتاجر الذى يبيعك سلعته وخادم غرفتك وكل من تقابل دائم الابتسام حتى لكأن هذا الخلق أصبح طبيعيا فيهم. يحيونك بابتسام ويعوضون حاجاتك بابتسام ويشكرونك بابتسام. وهم بذلك يسرون القلب ويعرضون الإنسان عن قتوم السماء وعبوس مناظر المنازل الترابية اللون الحزينة المنظر.

٢٥ أغسطس

فى الأوليمبيا ومعى صديقان من المصريين.

الأولمبيا وما على شاكلتها من أماكن السرور هى ما يسميه الفرنساويون والانجليز معا Music Halls.

مكان فسيح جدا ويكاد يغص بالناس. ويظهر على وجوه الكثيرين أنهم أجانب ـ وبالرغم من أننا فى الدور الأول أى بعيدين عن ضجة الواقفين فى الممشى ومن أن المرسح ممتلىء بالفتيات لبسن ثيابهن البيضاء القصيرة ويتداخلن بشكل جميل كأنهن عصافير الجنة، ومن أن الموسيقى تسرى بنغماتها الشجية المتباطئة فيمتلئ بها الجو الممتلىء بالدخان والزفير. بالرغم من ذلك كله ومن تحديق الناس عيونهم إلى جهة الراقصات يرقبن حركات أرجلهن الغريبة وأيديهن المشيرة كل لحظة فى ناحية وإلى مجموعهن يموج به المرسح فى حركة منتظمة لذيذة فلم ين صاحباى عن التغامز والضحك من غير سبب أعرفه.

أخيرا سألانى حين انتهى الفصل ونزل الستار:

ـ هل سترجع إلى الدار وحدك؟

ـ لماذا؟ وهلا سنرجع جميعا معا كما جئنا معا

كأنك لا تفهمنا، فليس هذا ما نقصد.

ـ أما أنا فراجع وحدى وقد يحزننى أن لا أكون معكما.

ـ .. ربما لا يحزنك أن لا تكون معنا وحدنا. ولنا أمل أن ننال السرور بأن تكون فى جمعيتنا.

كنا فى هذه اللحظة نتدرك السلم إلى صحن المكان. ولم نكد نسير خطوتين حتى قابلنا مجىء الناس وذهابهم فى كل جهة وإلى كل ناحية. فوقفنا نحن ووضع أحد صديقىّ يديه فى جيبى ردائه وجعلنا ندير بصرنا ويبدى كل ملحوظاته. وشغلنى عن الحديث منظر جماعة من الشبان ومعهم ثلاث

فتيات وهم يضحكون جميعا ضحك الجنون. فلما رجعت طرفى إذا صاحباى يتسمان وإذا على مقربة منا فتاتان واقفتان تتغامزان. ثم لتجرا حديثا بيننا وبينهما ـ قالت أحداهما لصاحبتها:

ـ أى لغة يتكلم هؤلاء.. أليست غريبة بل مضحكة.

فابتسم لها صديقى الذى لم يضع يديه فى جيوبه وأجاب.

ـ قد أفهم يا ستى أنها غريبة. ولكن ما سبب أنها مضحكة. وبهذا اتصل حديث طويل باهت.

هاته التى سألت تبلغ ما بين خمس وثلاثين وأربعين سنة. وهى طويلة عريضة تشغل حيزا عظيما من الفراغ. وثوبها (الدكلتية) ينم عن صدر ضخم وعن أصلى ثدييها البائن أنهدالهما بالرغم من أن حزامها العالى يرفعهما ويجعلهما لشديد ارتفاعهما كأنهما هضبة من اللحم ـ البارد لاشك. كذلك ينم أسفل ثوبها كله عن كتلة قليلة النظام. ولكن خديها الممتلأين المتقن دهانهما وعيناها الزرقاوين يداريان بقية شكلها بعض الشىء.

وبعد قليل ابتدأت الموسيقى تصدح من جديد. تصدح هذه المرة بدقات قوية تهز القلب والجوانح. فتسلل الناس مسرعين إلى أماكنهم ورفعت الستار عن أحد قصور الجنان. قصر فخيم تحيط به النعمة من كل جانب.

كانوا يمثلون حياة سلطانة شرقية فى ديوانها وقد قام من حولها الجوارى لابسات أقمصة سائبة من الحرير الأبيض وهن جميعا يحكين فى حركاتهن المتباطئة تلك الحياة المكسال التى يتصور الغربى عن الشرقى. وما أسرع ما انقلبت دقات الموسيقى من جديد فأخذت هى الأخرى تترنم فى نغمات ساكنة متشابهة تلائم حركات الجوارى الجميلات وتكاسلهن.

واجتمع حول السلطانه من دواعى الترف الخامل ما لا يحرّص على أقل حركة. ومن حين لحين تبدو عليها علائم التناؤم.

انتهى هذا الفصل وما بعده وأحسنت الصدفة أن جعلتنى أرجع وصاحباى معا كما أتينا معا.

٢٩ أغسطس قضيت النهـــار مع ب. فى فانســـن. وهى ضاحية تقع على بعد خمســين دقيقــة فى الترام من باريس. وقد أخذنا ترامنا من عند اللوفر.

نزلناها ونحن أجهل ما يكون بها. وبعد شيء من التردد فيما نريد أن نعمل سألنا بعض أهلها عن غريب ما فيها. فأوحى إلينا بأن ندخل إلى كنيستها. لكنا لم نكد نعبر بابا كبيرا يبين منه ميدان فسيح حتى سألنا الحارس عما لو كان عندنا تصريح بالدخول.

ـ تصريح بالدخول! لا.

فدلنا بلطف على غرفة رئيسه الذى أعطانا إذن المرور بعد أن أخذ أسماءنا وعنواننا على أوراقه. خرجنا من عنده فذهبنا إلى «الدنجن».

«الدنجن» هو الحصن الذى كان يسجن فيه المجرمون السياسيون فى عصر الملوك. بناء شامخ عالى البناء. دخلناه وارتقينا جوفه درجا حلزونيا عنيفا فى الصعود عليه ومازلنا به حتى وصلنا إلى الدور الثالث من الحصن. هنا قابلنا عاملا تفرجنا معه على ما فى هذا الدور. أبنية معشقة أحجارها متين صنعها غاية فى الأحكام وغرف ضيقة تشعر بالرهبة والمهابة. فإذا نطق محدث بكلمة سمعت دويها فى المكان ورنين صداها بين جدرانه وكأنك تلمسها خارجة من نوافذه الضيقة التى تطل على ما حولها من الأبنية. وفى بعض تلك الغرف من البنادق شيء كثير.

صعدنا بعد ذلك حتى وصلنا أعلى البناء ونظرنا إلى ما حولنا فإذا البيوت بسقوفها المحدبة قد خضعت كلها صاغرة إلى جانب ذلك الحصن الرهيب. وكأنها فى صمتها أمام الناظر من علويته هامدة ساكنة بالرغم مما فى جوفها من الحركة الدائمة. والأشجار بورقها الأخضر توحى للناظر إليها وتهزها الريح قليلا بعض الأحيان ويلمع عليها شعاع الشمس المحرقة فى تلك الساعة من النهار. فإذا أنت مددت النظر إلى ما بعد ذلك راقتك المناظر المختلطة المختلفة المتعددة ـ

فضاء من الأرض مسطوح وسقف عال آخر خاضع إلى جانبه على مرمى النظر وقد التف فى ثوب من الضباب وصعد يطلب فى الجو عنان السماء. ترى برج أيفل وكأنه يحدث الأباعد والأقربين بما يتناجى به سكان السماوات فى عليين.. هو دائما حاضر هذا البرج الهائل. فحيث تكون تلمحه على الأبعاد الشاسعة يناديك ها أنا ذا أقامتنى يد الإنسان لأكون موضع الجلال أمام عين الإنسان. وعلى مقربة منه تظهر قمة قبر نابليون وكأنها تنم عما تحتها من رفات ذلك الرجل.

أخيرا هبطنا من ذلك المرتفع ووصلنا الأرض ولما نكد.

ثم أردنا أن نذهب إلى الكنيسة فصحبتنا خادمة الباب بمفاتيحها وأدخلتنا المعبد الصغير وجعلت تشرح لنا عما فيه. معبد جميل أقيم فى القرن الخامس عشر بعد أن أقيمت الدنجن فى القرن الثالث عشر. أجمل ما فيه مدخله والزجاج الملون الذى فى نوافذه.

انتقلنا بعد ذلك من بين الحصن والمعبد والأبنية المختلفة الأخرى إلى غابة فانسن وسرنا بين أشجارها الباسقة تظلنا أوراقها الكثيرة التى لم تدع للشمس إلا قدر ما تنفذ أشعتها مجزأة لا تخافها العين ولا يخشاها محرور. وعلى العشب الناضر يجلس الكثيرون ممن يستعيضون اليوم راحة عن كد الأسبوع. وقل أن تجد إلا رجلا وامرأة أو جماعة من الجنسين معا. وكأنهم يرون أن رجوعهم إلى الغابات حيث الطبيعة لا تزال كما هى سليمة لم تمسها يد يدعوهم إلى أن يستكمل كل رجل نفسه بالمرأة التى أعدت الطبيعة لتقوم بهذه الوظيفة.

جلسنا فى هذه الجنة اليانعة حتى تبدت الشمس هناك عند المغرب وتوجت هامات الشجر البعيد بنورها. ثم قمنا نتسلل بين هذه الجذوع القائمة فوق بساط العشب الناضر ونترك وراءنا رويدا رويدا الطبيعة البكر وبعض المتخلفين من الأزواج (couples) الذين يعشقون أخريات النهار ومبادىء الليل حين يختفى القرص وتظلل الفروع والأوراق ينساب من بينها ريح هائم تلف المحبين فى عبيرها. وأخيرا ودعنا الغابة وفى النفس أكبر الشوق لها.

٢٧ ـ ٣١ اغسطس هذه الأيام الأخيرة من شهر أغسطس كان فيها هنا سعد باشا زغلول وعاطف وحسن صبرى وكان مشغولا بهم جداً بهى الدين فساعدنى هذا على قراءة كتاب هول كين (النبى الابيض) الذى كتبه عن أحوال مصر. واليوم وقد فرغت منه أرى أن اسطر إحساسى والتأثيرات التى أخذت بنفسى من قراءة هذا الكتاب باعتبارى ذلك المصرى العليم إلى حد ما باخلاق قومى وعاداتهم.

يمثل الرجل فى كتابه حكم الإنكليزى أيام قنصلية اللورد كرومر وقد حكى التاريخ حكاية هى الواقع والحقيقة فى الصحائف الأولى من الرواية ثم لما مشى ببطل روايته اسماعيل الأمير فيما أراد أن يسلك به، تراه وقد مثل جماعة المصريين بما يسميه Allah intoxicated people مجاذيب لا يمس الواحد منهم صاحبه إلا ويصيح منادياً الله الله، أو لا تحدث حادثة مهما دق أمرها وصغر قدرها إلا ويتمثل فى نفوسهم ذلك التعصب الدينى الاسلامى فى افظع اشكاله ولقد رام هول كين فى روايته هذه أن يرمى طيرين بحجر فيرضى المصريين والانجليز معا. واحسبه إلى حد معين قد وصل إلى ما أراد من غايته ولا شيء أدل على هذا من سرور طائفة كبيرة من المصريين بهذا الكاتب وكتابه مع أنه يمثلهم فيه تمثيلاً فظيعاً. أمة متأخرة إذا نعق بينها ناعق باسم الدين تبعته بين الصحارى تحتمل اشعة الشمس المحرقة وشظف العيش الأيام الطوال وتصدق أن كل ما يجيء به ذلك الناعق الدينى معجزة من الله لذلك المخلوق الذى يريها لهذا المجموع. ليت هذا كان كل الأمر بل أنه رمى الخديوى أيضاً فى روايته بأن فى نفسه تأليف خلافة عربية اسلامية يكون مقرها القاهرة ويساعده فى هذا جماعة العلماء الذى وصف الكثيرين منهم بالضعف والنفاق. لم تسلم طائفة من الطوائف التى تقوم فى بنيان الأمة من النقص. كبراء منافقون وخديوى متعصب وأمة عمياء سكرى بخمرة الدين.

ليته وقف عند هذا بل أن الذى يرجع بأغراضه إلى وقائعها لابد يجد ما وجدته من التعريض بالنبى فى ذاته كأنه يريد أن يرى الناس طريق المعجزات التى كان يجيء بها وتلك الاشاعات المشوشة التى جاءت بعده فى التاريخ كانت ما ينادى به بطله الذى سماه Black Zogal بالنسبة لاسماعيل الأمير. وإننى لأرى الرجل سيء الظن بالأمة المصرية إلى حد ليس صغيراً.

فوق هذا كله فمع ما رمى به كثيرين من المصريين من النفاق والضعف والتعصب إلى آخر ما رماهم به لم يقل عن انكليزى فى مصر إلا كل الخير أكثر من أنه أنحى على لوردنتهام فى روايته ولورد كرومر فى الواقع حيث أظهر أن من رأيه أن أخريات أيام اللورد كرومر كانت ستثير الأهالى وبذلك قد تحدث خطراً على الأمة البريطانية فى مصر. انكليزى هو الآخر يعزز بقاء اكلترا فى مصر. يزيد دليلنا هذا قوة أن الشخص الذى كان موضع أكبار المصريين وحبهم واحترامهم (جوردن) كان من هذا الرأى أيضاً وإن كان من رأى آخر فى سياسة الأمة.

هذا شيء من رأيى فى كتاب هول كين سطرته على صفحات مذكراتى مع الاعتراف بأن الكتاب متقن اللغة جدا ويشهد لصاحبه بالمقدرة العظيمة ــ مقدرة هائلة ليس من السهل مسابقته فيها وقلم بليغ عزيز الوجود يسحب الروح معه ويأخذ بمجامع النفس ويغرى المطلع على الاستمرار ولا يمل ابداً. كتاب بديع من الكتب النادرة التى يصح أن يحلى به الإنسان مكتبته.

١ سبتمبر في منزل معلمنا المسيو هـ . ج . الذى لم يحضر بعد من عمله. بقينا نردد بعض دروسنا حتى جاء. وقد فضل أن يحادثنا اليوم على أن نقرأ في كتاب. وما أدرى غرضه تماما من ذلك. على أنى أرى أن أثبت بعض أقواله التى يظهر أنها سائدة فى أنحاء باريس وأنها رأى أكثرية عظيمة فى فرنسا: قال

.. من قرون مضت دخلت حرية الفكر إلى أوربا بفضل كبار العلماء والمفكرين من كتابها. فلم تكد تنته حركة لوثر [١] وكلفن [٢] القائمين باسم الدين لاصلاح الدين حتى خرجت إلى الوجود كلمة رابليه [٣] المشهورة التى كتبها على باب ديره «أعمل ما شئت» Fais ce que tu voudras ثم انتقل الناس إلى القرن السابع عشر حين جاء الفيلسوف الكبير ديكارت [٤] ووضع كلمته «تفكيرى دليل جودى» je pense donc je suis وخلفهم من بعد ذلك كتاب القرن الثامن عشر روسو وفولتير ومونتسكيو [٥]. وجاء رنان فبنى للناس حرية الفكر على قاعدة ثابتة. أصبح أقل من القليل من يستطيع أن يسمح لنفسه أمام نفسه أن يعتقد أن الديانات وحى سماوى من عند الله أو أن الأنبياء يوحى لهم

---

(١) لوثر (مارتن) زعيم الأصلاح الدينى فى ألمانيا فى القرن السادس عشر. ثار ضد صكوك الغفران التى كان يمنحها رجال الدين. وقد هاجمته السلطات واضطهدته (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦).

(٢) كلفن (جان) من أكبر زعماء الإصلاح الدينى فى المذهب البروتستانتى تتميز دعوته بالطابع الديموقراطى الذى تستند إليه السلطة الدينية والغاء الطقوس بكافة أشكالها. وقد انتشرت دعوته فى سويسرا وهولاندا والمجر وشمال انجلترا ـ كتب L'Institution Chrétienne وهو من أمهات كتب الأدب الدينى فى فرنسا (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤).

(٣) رابليه François Rabelais : كاتب فرنسى شهير امتهن الطب. أبرز أعماله Gargantua، وهو كتاب خالد فى لغته وفى أسلوبه ونظرته الانتقادية الدقيقة الممتلئة حبا للإنسانية، وقد توفى سنة ١٥٥٣ .

(٤) ديكارت Descartes : فيلسوف وعالم ومهندس فرنسى. له مكتشفات علمية هامة كما أنه من مؤسسى علم لنفس الحديث ووضع طريقة للتفكير فيما راء الطبيعة لم يسبقه أحد إليها ـ وهو يصف ذلك بقوله «للوصول إلى الحقيقة يجب، مره فى العمر، التخلى عن كافة الآراء التى تلقيناها، أن نعيد من الأساس بناء جميع نظم المعرفة» وقد شرح طريقته فى كتابه الشهير Discours sur la méthode (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠).

(٥) منتسكيو Montesquieu : مؤلف فرنسى شهير صاحب المبدأ الدستورى المعروف «بمبدأ فصل السلطات». كان من الممهدين للثورة بكتاباته التى يعد كتاب روح الشرائع L'esprit des lois «أشهرها على الإطلاق. كما نشر «خطابات فارسية Lettres persannes و «عظمة وسقوط الرومان De la grandeur et de la decadence des Rmains (١٦٨٩ ـ ١٧٥٥) (الناشر).

من السمـاء. إنما النبى رجل توحى له نفسـه وكل مـا أوحت به النفس فـهـو مقدس..

هنا لاحظ الرجل السكوت الذى علانا وما ظهر على ب . من الاستغراب كأنه أحس بأنه كان سريعا فى تقدمه أكثر مما يجب حيث رجع فقال:

لأول ما نفكر فى النبوة وفى إمكانها باعتبار مجيئها من السماء تقف أمام عقولنا عوائق كثيرة من العادة والعقيدة. وفى الواقع ليس من السهل التخلص من شىء دخل إلى قلوبنا وتغذت به نفوسنا من يوم أن جئنا على الأرض. كما أن قيام بعض الناس يرفضون النبوات بشكل غير مؤدب حيث يلقبون الأنبياء بالكذابين والمجانين يجعلنا نزداد عطفا على هؤلاء العظماء الخالدى الذكر. وأن من أكبر الحمق اعتقاد أن عدم التدين يقضى برفض ما جاء به الدين. إذ ممكن جدا رفض قاعدة أو أكثر والأخذ بالباقى. وما علمت واحدا من العلماء جعل هؤلاء المرشدين سخرية أو لم يقل أن ما جاءوا به مقدس لأنه وحى أنفسهم.

فإذا دخل الواحد منا إلى سكونه وخلا بنفسه وتجرد عن كل عصبية لحظة من الزمان رأى أن المذاهب الدينية هى فى الواقع مذاهب أخلاقية واجتماعية وضعها أصحابها لمصلحة الأمة التى قاموا بينها وقد أثبت البحث العلمى أن كل دين يستمد أصوله من الوسط الذى عاش فيه.

وبما أن الحقيقة كانت وستبقى إلى الأبد موضع البحث من غير أن يصل إليها أحد فقد قام جماعة الأنبياء بدورهم كعظماء حقيقة. وغاية ما فى الأمر أن منهم أو من أتبـاعـهـم من رأى مـبلغ شـقـاء الإنسـان المفكر وقلة وجـوده خصوصا فى ذلك الزمان القديم فرأوا من مصلحة المجموع ومن دواعى سعادته أن يبقى متمسكا بالعقائد التى وضعوها هم له. لكنهم فى ذلك أحبوا الإنسانية حبا جما وطلبوا إليهـا أكثر مما تستطيع أن تعطى. وأن تعاقبـهـم هم واختلاف نظرهم فى بعض المسائل وقيام كل بالدعوة لعقيدته حتى الموت ليكفى دليلا

على استحالة بقاء العالم فى المركز السعيد الذى أرادوا له وعلى أن العالم سيبقى إلى الأبد مرسحا متنازعا فى أيدى الكتاب والفلاسفة والمفكرين..

فسأله ب. لم كل الناس إذن متدينين، ولم ابتدأ التدين من أول الخليقة.. .. إن كنت تريد بالتدين الاعتقاد فلاشك أن الناس كانوا ولن يزالوا أصحاب اعتقاد. ذلك لأنه كما أن للإنسان عوائد فى نظامه الجسمى جاءته نتيجة تأثير العالم الخارجى عليه كذلك فله عوائد فى نظامه العقلى جاءته أيضا نتيجة تأثير العالم الخارجى عليه. وانسبكت هذه الاثار بالنسبة لأمة معينة فى قالب واحد وصارت عوائد الأمة العقلية التى يسميها الناس بالعقائد. وهى كعوائدهم الأخرى فيما يختص بالنظام الجسمى أو المادى إن شئت ـ وأما إن كنت تريد بالأديان ما يراد بها عادة مما جاء به الأنبياء عن طريق السماء فإن ما وصل إليه البحث التاريخى لا يمكن أن يهدينا إلى شىء أكثر من أن الفكر والتدين صنوان توأمان. ولا أحسبك تستشهد على بما جاء فى الكتب السماوية لأنها هى موضع البحث ولا يمكن أن يقوم الشىء المتنازع فيه دليلا للإقتناع بصحة ذاته.

٢ سبتمبر

من عطيه

عزيزى محمد:

ما أعز أخبارك يا أخى. أنسيتنا ونسيت قريتنا. أنسيت مزارعنا الواسعة وغدرانها الصغيرة الجميلة وشمس بلدنا. إن كنت نسيتها فإن هذه الأشياء لاتزال تذكرك. ولا أزال كلما جلست إلى جانب سريرك أو مكتبك أو مكتبتك أحس بها مكتئبة لغيابك.

عمتى ر . تنوى السفر إلى الحجاز هذا العام. وبالرغم من أن الوقت لايزال طويلا فهى تعد معدات هجرتها. وقد كلفتنى حين علمت أنى سأكتب إليك أن أسألك إن كنت تستطيع أن تشترى لها «زمزمية» من باريس وألحت فى ذلك. ولا أفهم سببا لهذه الفكرة الغريبة.

ويصحبها فى سفرها أبويا خليل وعمى الشيخ ف. وقافلة تبلغ العشرين من بلدنا ومجاوراتها. وقد أقوم معهم حتى السويس إن لم يمنع مانع يومئذ.

أختى تهديك السلام وقد سرها ما بعثت لها به من الكرت بوستال. وأهل البلد يذكرونك بخير ويسلمون عليك. وإقبل تحياتى.

عطيه

٣ سبتمبر

لقد ظل كلام المسيو هـ. ج. يردد نفسه فى أذنى مذ سمعته. وأعاد أمام ذاكرتى ما قرأته فى كتاب كارليل (الأبطال) حين وصف الأدوار التى مرت بها الإنسانية فى اعتبارها العظماء حيث كانت تجلهم كآلهة أولاً ثم كأنبياء وكشعراء وملوكا وكتابا. وفكرت فى ذلك كثيرا ولحقنى ألم حين رأيت معنى الوحى الجميل على ما كنت أتصوره فى هبوط ملك ذى أجنحة بيضاء عظيمة تغطى الكون وهى نورانية فتزيده نورا يتقلص ليحل محله معنى آخر هو النتيجة اللازمة لأقوالهم ولطول التفكير وللإحساس ساعات الوحدة العميقة بخلوص النفس من الجسم المادى الذى يثقلها ووصولها مجردة تجتلى الحقيقة تطلع على هذا العالم وما حواه وما أحاط به ـ وهذا المعنى هو الوحى. وصول النفس الكبيرة وقد تجردت عن المادة إلى ما يستكن فى جوف العالم الحاضر بجميع أجزائه من الحقائق مما يبعد عليها أن تراه وهى لابسة جسمها محاطة بضجة الكون وعوامل النقص. ومن هنا يدخل إليها أحيانا اعتقاد جازم أن هذا الذى وصلت إليه جاءها من قوة فوقية كبيرة مصرفة للعالم وما فيه. أى جاءها من الله.

لكن هناك مسألة عرضت أمامى جعلتنى أتردد أمام فكرتى. تلك هى أنه لو فرضنا صحة ما تقدم فهل من مصلحة الإنسانية إذاعته وهلا يحسن إبقاء الناس فى سكونهم النفسى والسكينة أساس السعادة. أم أنا نخرجهم إلى تيهاء الحيرة التى يضرب فيها الأكثرون ممن يذرون العقيدة الدينية جانبا. وما دامت الحقيقة المجردة غير ممكنة فى العالم والوصول إليها مستحيل فالحالة الموجودة خير من غيرها وترك الناس كما هم أفضل ما يمكننا عمله لهم.

غير أن ذلك يخالف الطبيعة البشرية من الميل إلى الحركة. وقديما قام العظماء نبيا بعد نبى وعالما بعد عالم وفيلسوفا بعد فيلسوف ولكل آراؤه ويعتقد أنها أقدر على إيجاد أكبر حظ من الخير على الأرض. ولما انقضى عصر النبوات لم ين المفسرون عن الاختلاف وإظهار آراء شخصية لهم. وإذن فمحال أمام سير

العالم الدائم أن نبقى وقوفا. فواجب علينا إذن أن نسدد خطى السائرين ما أمكن ونرشدهم إلى أقوم سبيل وأقربه إلى المصلحة.

وما هو هذا السبيل إذن فى الوقت الحاضر ـ ذلك هو السؤال الذى يجىء أمامى والذى يسبب الحيرة عندى. وأرانى أميل لرأى القائلين بوجوب الأصلاح فيما عندنا خصوصا أمام هذه المدنية الأوربية المادية التى تكتسح العالم من أقصاه إلى أقصاه. ولكنى لا أستطيع إلى الآن أن أرسم بشكل أعده طيبا الطريق الذى يجب أن نسلك للوصول إلى هذا الإصلاح.

٥ سبتمبر

جمعتني صدفة لم أكن أتوقعها بصديقي ع . واتفقنا على أن نمضي النهار في روبنصن. ولقد قابلنا ب. في الطريق ونحن ذاهبان إلى محطة اللكسمبور ولكن أشغالا خاصة عنده منعته عن أن يجيء معنا.

أخذنا القطار الذي كان خاليا إلا من قليل وما كاد يخرج بنا من سردابه بين أراضي باريس حتى تميزت السماء الصافية وبعثت الشمس بنورها من النوافذ. وكلما تقدمنا في الطريق زادت المحيطات بنا تميزا وقامت أشجار قليلة الأرتفاع وحشائش وشجيرات ذات أزهار تحيط بالطريق المرتفع وعن الجانبين منخفضات وهنا تمتد المزارع الواسعة تغطيها أنواع الغلال.

عمدنا من محطة روبنصن إلى مطعم أخذنا فيه غذاءنا. ثم قمنا فاستأجرنا عربة وخرجنا بها. فلما خلا لنا الجو واعتدلنا على الطريق رحنا بها عدوا تخترق بنا ما بين الأشجار والغابات مرة ثم بين الغيطان أخرى. وأحسسنا بأننا قد ابتعدنا وأن قد ضاع من زماننا أكثره فقفلنا مسرعين نكاد نطير. وفيما نحن كذلك لحقنا سيدة وفتاة على دراجاتهما فلما بصرتا بنا أسرعت الفتاة أمامنا وتخلفت السيدة عنا فلم نزد إلا إسراعا. وكلما ألهبنا جوادنا بذلت الفتاة من جهدها حتى لا نلحقها. وبقينا في مطاردتنا هذه حتى أحسسنا بالسيدة تنفذ هي الأخرى كالسهم وتنضم للفتاة وتنجوان في طريق ضيق لا قبل لعربتنا به ثم يشيران لنا برأسيهما تحية الوداع.

ظللنا بعد ذلك في سيرنا والطريق ينحدر أمامنا حتى إذا كان في منتهى انحداره تجلت لنا روبنصن تتدرج مرتفعة قليلا كأنها سفح أخضر من سفوح الفردوس ويقابلنا ما بين آونة وأخرى فتيات من الريفيات سكان البلد وقد أعطتهن الطبيعة إزاء ما حرمتهن منه من اجتماع المدن ولذائذها صحة ونشاطا.

بعد أن فرغنا من العربة أخذنا حصانين على عزم أن نستبق. ولكن لم نبتعد حتى نزل مطر شديد احتمينا منه تحت الأشجار ورجعنا لأول ارتفاعه

أدراجنا وقبعاتنا وملابسنا تتصبب. وصعدنا إلى قهوة أقيم فيها مرقص آملين أن نجد فيها موئلا حتى يزول ولو بعض الشيء أثر الماء الذى بللنا. والموسيقى تصدح بنغمات قوية فتقوم الأوانس ويخلعن أرديتهن ويدرن راقصات فيعطين المكان سرورا يعوضه عن قتوم السماء وعبوس الجو.

انتظرنا مدة وقوفا على الباب نرقب الراقصين والراقصات. ومن بينهن فتاة نحيفة القوام يونانية الأنف زرقاوية العينين متوردة الخد هى زهرة الجمع. وكأن قدكبر عليها أن تراقص أى شاب فأمسكت بيديها فتاة صغيرة وأخذت ترقص معها. وإلى جانب الحيطان قد وضعت طاولات يبقى أكثرها خاليا مدة الرقص ثم يرجع إليها أصحابها آخر كل دور. وأنصاص البيرة موزعة عليها جميعا وكثير منها ما كان يحمل نصين وثلاث.

أخيرا تسنى لنا أن نجلس وجاء الجرسون يسألنا عما نريد. ولم يكن أمام ما ابتدأنا نشعر به من البرد الذى وصل إلى أعضائنا محل للأختيار.

فطلبنا شايان من غير تردد والتهمناهما قبل تمام الدور الذى كانوا فيه. فلما انتهى وأخذ الكل مجالسهم جلس إلى مقابلنا فتاتان لم تنتظرا حتى كلمتانا وعلمت من خلال الحديث أن اسم إحداهما ل. واسم الأخرى ل. أيضا. وإذا صدق ظنى فهن من الكثيرات اللائى يردن من أى شاب صديقا.

أطالت صغراهما الحديث معى. هى حمراء الوجه ذهبية الشعر متقدة النظرات تلبس فستانا فستقيا تنم دنتلة الصدر منه عن عنقها وجسمها الأحمر اللون هو الآخر. وزادت حركة الرقص دورة دمها فزاد إحمرار وجهها وارتعدت شفتاها حتى لكادتا تحاكيان فى حركاتهما الشفاه الشهوانية المولعة. فلما دقت الموسيقى من جديد تركتنا وأختها وقمنا نحن راجعين إلى باريس وقد أحببنا من ذلك اليوم كل شىء حتى مطره الذى كاد يجىء على قبعاتنا من غير أن يسأل عن الثمن الغالى الذى دفعناه فيها.

٧ سبتمبر

في الكوميدى فرنسير (التياترو الفرنساوى) لحضور تمثيل رواية (اندروماك)[1] واندروماك هى زوجة (هكتور) قد أخذها (بيروس) أسيرة هي وولدها في حرب (الترروا)[2] بعد أن قتل زوجها. فلما حلت عنده أحبها بالرغم من وجد (هرميون) الموعودة بزواجه التى تحبه من كل قلبها. ويحب هرميون (أورست) سفير الأثينيين إلى ملكهم بيروس. وقد جاهد هذا الأخير ليصل إلى قلب أندروماك بالتزلف مرة وبالتهديد أخرى وهى صلدة أمامه ترى فى خيانة ذكرى هكتور المقتول ما يهيج ضد محبها كل عاطفة فى قلبها. ولكنها تقع في أشد الحيرة حين يخبرها بأنه سيقتل أبنها ويرضى الأثينيين مادامت هى مصرة على عنادها. وتبكى وتستنجد قوات السماء أمام هذه المصائب النازلة بها. أخيرا تصمم على أن تقبل يد بيروس حتى تأخذ منه الأمان لولدها لتقتل نفسها بعد ذلك فتنجو هى من الخيانة وينجو ابنها من الموت. ولكن أورست لا يكاد يسمع بهذه الحادثة حتى يجرى لمحبوبته ليرى حالها فتطلب منه أن يقتل بيروس. ولا يكاد ينتهى عقد زواج بيروس حتى يقتله أورست فتقتل هرميون وتبقى اندروماك ويبقى ولدها على رأس الأثينيين.

وجدت قدرة راسين فى هذه الحوادث البسيطة مجالها ووجد المؤلف من الممثلين نعم المفسرين. وقد استعبرت مرارا أمام جزع اندروماك التى قامت بتمثيل دورها مدام سلفن ـ هى أرملة وأسيرة وأم سيقتل ولدها أن لم تخن عهد زوجها .كل ذلك فى آن واحد. تريد أن تبقى على عهد زوجها فيروعها أن تتصور ابنها يساق للقتل ويهزها أشفاق الأم وحنانها. وهكذا تتقلب تحت مؤثرات عواطفها وتبكى أمام الملك القاسى فتستبكى الحاضرين.

هذا الصنف من الروايات التى ظهرت فى القرن السابع عشر قرن راسين ومليير وكورنى هى ما يسمى (بالكلاسيك). وتصف إحساسات النفس بلغة دقيقة سهلة مكتوبة فى شعر رقيق. ولم يأت فيها بعد وصف الطبيعة ولا الإحساسات المختلطة التى تجىء مع المدنية المختلطة مما قام به الدرام ـ والرومانتيك ولاشك فى أن سبق شكسبير لهذه المعانى ولتلك الأنواع ما يشهد بعظمته.

(١) اندروماك Andromaque تراجيديا شهيرة للشاعر الفرنسى الشهير Racine صدرت ومثلت سنة ١٦٦٧ وكان لها فضل اشتهاره.
(٢) (الترروا) : حرب طرواده

١٦ سبتمبر زرت متحف اللكسمبور هذا الصباح وهو على صغره خفيف الروح وقد حوى من الصور والتماثيل أبدعها وأكثرها إتقانا. وكل ما فيه من ذلك حديث وأكثره من عمل الفرنساويين. هنا حقيقة يحس الأنسان أنه محوط بالأحجار الصامتة كأنه بين عالم ناطق بليغ اللسان. وهذا الرخام الأبيض قد حوى فيه خيال المثال الذى نحته وصوره تتلألأ على سطحه كل المعانى التى أراد. فإذا ما سرت بينها خيل لك أن كلا منها يرمقك بنظرة أرادها صانعه أو هو لاه عنك بمحبوبه الذى يحدق به أو بأحلامه التائه فى لذاتها الخالدة لا يلفته عنها أكبر ما فى الكون ولا أقواه.

وما أنسى لا أنسى صورة للعذراء فى يدها زهرة هى قائمة وتنم ثيابها الرومانية عن اثداء شابة ناهدة وعن قوام دقيق جميل. عيونها المسبلة الجفون ناعسة عن العالم ما فيه. وكلها مثال الجمال التقى الخالد ــ وصورة سلامبو التف حول جسمها العارى ثعبان تنظر إليه بعيونها الرخامية الخالية كل نظرتها العشق الهوى. وذراعاها ملفوفان يحكيان عن خصب ونعمة. وصدرها المزدان بثدييها الناهدين ينساب دقيقا إلى خصرها ثم يسلم نفسه إلى أردافها البارزة من غير مبالغة ليرتد ثانيا مع فخديها. ولينسحب ساقاها جميلين حتى ينتهيا عند القاعدة بأصابع هى الأخرى مثال الجمال والدقة.. أمام هذا التمثال الناطق من الرخام الأخرس وقفت مأخوذا به تائه الفكر فيه غير ذاكر شيئا عن سلامبو التى يمثلها. وأعجبت بتركيب جسم الفتاة وهذا الأنحناء الدقيق بين صدرها وردفها إلى حد جعلنى حين نظرت عن يمينى وبصرت بتمثال آخر يحكى غير هذا النوع من الجمال أن أرد الطرف وأرجع لتقديس سلامبو البديعة القوام الساحرة النظرات.

... وأخيرا التفت إلى اليسار فإذ تمثال آخر يسترعى النظر قد نقشه المصور ليمثل به السحر. والفتاة الشابة ترفع بيديها غطاءها وتنظر بعيون وسنى من تحته. إنها هى الأخرى لتحوى من الجمال فى جسمها ومن الدقة فى قوامها ومن

الإتقان فى صنعها ما يأخذ باللب. ولو أنى لأذكر كل ما فى المتحف .: وسعنى الوقت. ولكنى لا أقدر على نسيان تمثال (كرو) عن الشباب والحب ولا تلك النظرات العاشقة التى تنظر بها بنت العشرين(لكيوبد) ملاك الحب. كذلك لست أنسى طهارة هذا الصغير فى نظراته ومقابلته ابتسامة الفتاة التى تكن كل معنى سنها وكل ما يدور فى مخيلتها وكأنه لا يفهم ما تريد. لا ولا صورة ابن الطريق البائس قد وضع يده على كتف ولده وسار الأعمى والصغير يطلبان الإحسان. وعلى صدر الأب مكتوب فيه «رحمة بى».. ووجه الولد ينم حقيقة عن بؤس وألم شديد.

هذا فى التمثيل. أما فى التصوير فلا أنسى صورة (جيوفروا) عن عيادة المريض فى المستشفى وقد جلس أب إلى جانب سرير ابنه يحدثه والابن شاحب والأب مكتئب. وعلى مقربة منهما سرير آخر يودع فيه شخصان بعضهما ويقبل الواحد صاحبه. صورة تجسم فيها الأسى والحزن والحنان والحب.

صور غير هذه متقنة للغاية تدل على مهارة القوم فى الفن وتشهد بأن الغرب ابن اليوم كما تدل آثار الشرق على هرمه ومشيبه. صور وتماثيل لم تترك حالة من حالات الإنسان النفسية إلا مثلتها ولا علامة من علامات جماله الجسمى إلا أظهرتها كما أخذ الخيال فيها دوره هو الآخر. وتدل هذه الصور بتنوعها وإطلاق اليد والحرية فيها على تحلل الغربيين من قيود كثيرة لا تزال مقيدة بها النفس الشرقية مما يأخذ اسم الفضيلة والحياء. وكأن هولاء الناس يريدون أن يستغلوا كل ذرة مادية نفسية وأخلاقية من ذرات الوجود وما يدخل فيه من إنسان وحيوان وأشياء وأرض ونبت وشجر وماء وسماء وكل ما يمكن أن يجول بالخاطر أو يسرح إليه الخيال.

ويظهر أن على مثال هذه الحرية فى الفن ينسج الغرب فى كل شيء. والنفس المحاطة من كل جانب بمظاهر الحرية تنشأ وتحيا وتموت حرة. والنفس الحرة قديرة على كل شيء ـ قديرة على المعجزات.

١٧ سبتمبر

صديقى عطية؟

لا أجد عذرا أقدمه عن تأخرى عن الكتابة إليك إلا أن أقول أنى كنت أبحث عن زمزمية لعمتك ر. وللأسف قد قصر باع باريس دون طلبى بالرغم من أنه قد عود الناس أن لا يقصر دون طلب.

ابتدأ الجو تداخله البرودة وصرنا وها نحن على باب الخريف نمتع من غروب الشمس بأبهج منظر. ولقد كنت فى اللكسمبور من ساعة مضت أرقب القرص الأحمر القانى وقد انسابت أشعته مستسلمة تنطرح فوق هام الشجر الذابل وتتوج منه مشيبه وتلك الفروع تغادرها أوراقها لتسلمها جرداء إلى قسوة الشتاء تفتح أذرعها لوداع الشمس ولوداع النهار.

وأحاطت بالقرص سحب تطوقت منه بطوق من الذهب وانبعث على السماء الشديدة الزرقة سكون مهيب يشع بما دخل نفس الموجودات حين أحست أنها ستستقبل الليل. وبقى النهار يسقط رويدا رويدا مع الشمس وراء الشجر وانعكس على الشرق من النور ما ذكّر بالصباح. وأخيرا أفل ذلك كله واعلن الليل حكمه وسلطانه.

هذا ما عندنا. أما أنتم فمن غير شك لا تزالون تحت سماء صافية لا تشوب زرقتها سحابة وتأتيكم ساعات الغروب بنسيمها العذب.

بالرغم من أنى أحسدكم على هذا فأنى راض بما عندى قانع بما يحيط بى. ولعلكم أنتم جميعا على ما تحبون.

محمد

حاشية. صديقى ب. يهديك السلام ويطلب إليك متى ذهبت إلى القاهرة أن تهدى السلام إلى جميع إخوانه ممن معك.

١٨ سبتمبر لست أستطيع أن أصف تماما حال المسيو هـ. ج . النفسية. وان اختلاف مظاهرها وتلك الحيرة الدائمة التى هى فيها والانتقال من التسليم بشيء إلى الشك فيه إلى التسليم بضده بسرعة غريبة ليدعو للدهشة. ويحس الإنسان حين محادثته أن نفسه فى سياحة مستمرة. وتقع من حين لآخر على رأى من آراء العلماء أو الكتاب وتحسب أنها سكنت إليه ثم لا تلبث أن يعتريها الشك من جديد وتظل كالنحلة تنتقل من زهرة لتقع على زهرة ـ وأغرب من هذا شديد تعلقه بالنظر فيما يخص المسائل الدينية وبالبحث عن مقدار ما تقدم من السعادة للعالم وبالرغم من شديد اقتناعه بأن الديانات كلها إنما هى من وضع الأنبياء، فإن الإنسان ليقرأ فى عيونه التائهة النظرات وعلى جبهته الهادئة من معنى السروح شيئا كثيرا.

كان يحدثنا اليوم في هذا الموضوع ولقد عزا الديانات إلى أصل قديم هو ما ركب فى النفس الإنسانية من الضعف وحاجتها أن تلجأ ساعات الشدة لسند ولو موهوم يعزيها عن حالها. قال:

وأى منا فى هاته الساعات حين يرى العالم تخلى عنه والصدف جاءت على عكس مقصوده وجلس هو مهموما يريد مناجاة ما أمامه فإذا وجه الوجود عابس وإذا الحوادث كلها مقطبة الجبين. أى منا فى هاته الساعات لا يحس بالضعف المركب فى نفسه يريد أن يستولى عليه ويخرجه من طوقه ويسوق إلى أعماق قلبه اليأس من الحياة يأسا قاتلا فيلجأ إلى صدر حنون يوجده ولو من مجرد خياله ويسميه بالاسم الذى يحلو له ويروق فى عينه ـ يسميه الطبيعة أن كان من عشاقها ويسميه نجمه إن كان من عشاق النجوم ويسميه شيطانه إن كان من الشعراء ويسميه إلهه إن كان من المتدينين أو من عامة الناس. فإذا ما التجأ إليه وجد منه ما يبعث إلى قلبه قوة ويقينا يعوضانه عن الضعف ويعزيانه عن المصائب التى وقع فيها ويعطيانه أملا طويلا عريضا فى هذه الحياة بل وفى حياة أخرى يصورها لنفسه خالدة بعد موته هذا الخيال العزيز المحبوب. هذا الإله الذى يمد فى آمالنا ويخفف من آلامنا. هذا الموجود الذى وضعناه نحن على ما

أردنا والذى أعطيناه من الصفات ما يكفى لسد عظيم أطماعنا إنما يستمد أصله من ضعفنا وصغرنا أمام الطبيعة العظيمة الهائلة.

إنى لأحسب الناس قد نجحوا كثيرا فى عملهم هذا وقدموا حقيقة عزاء ذا قيمة للنفوس البسيطة والممتلئة باليقين. ولست أشك لحظة فى أن كثيرين من الذين يعانون شقاء العيش وبؤس الحياة إنما يخفف عنهم هذا الويل القاتل ما يعزيهم به الدين عن آلامهم وما يسوقهم إليه الطمع الإنسانى من الأعتقاد بحياة أخرى. وان امرأتى الشديدة اليقين فى عقيدتها الواثقة تمام الثقة من إيمانها لتحمل فى صدرها قوة لا تجدها كثيرات بل ويضعف دونها رجال كثيرون. ولقد شاهدتها مرارا ساهرة إلى جانب ابنتنا الصغيرة فى بعض أيام مرضها وهى أقل منى جزعا لأنها أكبر منى يقينا..

لكن.. أسائل نفسى دائما هل يحسن بالناس أن يجعلوا عزاءهم فى أوهام وأضاليل. وألا يكفى للقيام بمأموريةالدين الذى يجعلنا نطمع بالخلود أن يهزأ الناس بحياتهم القصيرة. ثم أرجع عن هذا حين أرى أن الحياة أوهام وأضاليل فليس حمقا أن نتعزى عنها بأوهام وأضاليل...

وفى مثل هذا القول استمر المسيو هـ . ج . وخرج أخيرا بنتيجته المعتادة ـ أى بأن لا نتيجة. وأن هذه الحيرة التى تخالط نفسه لتجعله محببا وخفيف الروح مهما كان فى قوله مما يصادم أرسخ العقائد. وقد علمت أن حاله هذه سبب مستمر لمناقشات طويلة ذات ذيول تحدث بينه بين زوجته التى ربيت بين آباء من القسيسين ونشأت نشأة دينية. ومن غير أن أسمع هذه المناقشات فأنى شديد الأعتقاد بأن المسيو هـ . ج . المحبوب من زوجته يسلم لها أحيانا كثيرة ـ ربما أغلب الأحيان ـ لكنه يترك دائما وفى آخر لحظة كلمة شك تثير نفس مدام هـ . ج . وتترك له مجالا ليستعيد المناقشة من جديد لأقل سبب.

على كل حال فإن كلامه وحيرته مملوءان بالمعنى ويستدعيان تفكيرا عميقا بالرغم من شديد معارضتنا له أحيانا فى نظرياته..

١٩ سبتمبر أسفر النهار عن شمس جميلة تملأ بنورها الجو الصافي وتبعث إلى الطقس الباريسى الحزين ابتسامة تنعشه. وأسفر أيضا عن الكثيرين الذى سيتركون باريس ممن امتلأت بهم عربات الأمنيبوس التى كنت أرقبها من شباكى تمر محملة قاصدة محطات سكك حديد الضواحى. وأسفر عنى أنا جالسا فى مقعدى أتثاءب من حين لآخر وأحول نظراتى التى بقى بها أثر النوم ساعة من الزمان جهة الشارع القليل الحركة والذهاب والجيئة إلا ساعات مرور عربات الأمنيبوس.

أخيرا طلبت طعام الأفطار وفيما أنا أتناوله دق الباب ودخل ب. يدل شكله ونظراته والاستغراب الذى علاه حين رآنى فى مقعدى على أنه ينوى بنا أن نمضى الأحد بعيدين عن المدينة. وأجبت أنا على كل هذا النشاط من صديقى بتثاؤب طويل ثم رجعت إلى طعامى من غير أن نتبادل أثناء ذلك كله كلمة. وأخيرا قال:

ـ أما أمرك غريب. أتريد أن تقضى نهارك كله فى غرفتك والشمس أشد ما تكون إغراء على النشاط والحركة.

ـ نهارك سعيد. ماذا أعددت لنا

ـ وأنا عارف

واتفقنا بعد مناقشة قصيرة على أن نذهب إلى انجان لى بن. (انجان الحمامات) .

نزلنا متأخرين طبعا ـ لأنا لم ننزل إلا بعد أن لبست أنا هدومى ـ وكنا فى أنجان بعد منتصف النهار بقليل. فأخذنا سمتنا من المحطة نريد أن نبحث عن مطعم تتناول فيه غذاءنا. فقابلتنا البلد لأول ما نزلنا بشوارعها المتسعة تقوم الأشجار الباسقة عن جانبيها وقد فرشت أرضها ببساط ذهبى من أوراق الخريف التى ابتدأت تتساقط بالرغم من بقاء الأشجار بخضرتها القائمة بعض الشىء.

يصفر الريح فى ورقها من حين لآخر منذرا بفصل الموت القريب أجله. وامتدت عن يميننا بحيرة أنجان تتلاعب أمواجها الخفيفة بنور الشمس تقلبه على وجوهه. وبعض المنازل تعلق بحديد أسوارها شجر العليق وامتدت على جدرانها ست الحسن فكستها خضرة عابسة. يشتمل ذلك كله سكون خافت لا يقطعه أحيانا إلا دوى الريح أو صدى عصفور ينط فوق قمة الشجر.

سرنا جنبا لجنب ونحن سكوت مأخوذان بهذه المناظر البديعة المتنوعة إلا عن كلمة أعجاب ينطق بها الواحد منا حين لا تستطيع نفسه إلا أن تفيض بذلك الاحساس الذى ملأها. وما أسرع ما تجد من صاحبتها ما يردد صداها. صدى يضيع تحت قباب الأشجار ووسط الهواء العظيم.

ثم وصلنا إلى مطعم فندق دخلناه وأخذنا فيه طعامنا ثم ملنا إلى صالون الفندق حيث أخذنا قهوتنا وحيث بقينا حتى الساعة الثالثة من بعد الظهر.

خرجنا والشمس لاتزال تحكم البسيطة بنورها وتتوج هامات الأشجار بشعاعها وينطرح ضوءها على صفحة البحيرة. فأخذنا قاربا وأمسك كل منا مجدافين وسرنا حتى بعدنا عن الشاطىء.

ب. يريد أن يذهب يمينا وأريد أنا أن نذهب يسارا. هنا احتدم جدال وكل الفصل فيه لقوة الأذرع وجعل كل يجر إلى الناحية التى يريد بعزم ما معه. والقارب المسكين يرقص فوق الماء مرة يمينا وأخرى شمالاولا يتقدم خطوة إلى الأمام. ثم تركت مجدافى مرة واحدة فإذا القارب يدور حول نفسه ثم يشرد بنا إلى الشاطىء. وكم لزمنا معا من الجهد ـ القليل طبعا لأنا كنا نضحك ـ لنرد هذا الشارد إلى طريقه. وبهذه الحركة التى جاءها القارب بعد أن أخذ بخناقه الضيق من وقوفه انفكت عقدة عنادنا وسرنا إلى الأمام ودخلنا مع جماعة المجدفين.

وفيما نحن فى حديثنا تسرب القارب عن غير علم منا بأمره إلى جهة الشاطىء... ومرة واحدة.. إذا هو ممسوك فى سنار القاه صاحبه ليصيد به سمكا فلم يجد أضخم من هذا السائر على غير هدى. ولولا أنا قطعنا الخيوط ونفدنا لدفعنا غرامه خمس فرنكات وربما أكثر ثمن السنار الذى اتلفنا.

ثم لم نكد نتوسط البحيرة من جديد حتى إذا سحاب يموج به الجو ويحجب الشمس. ومطر رفيع يناغش سطح الماء ويناغش رؤوسنا العارية. وإذانا من غير مطريات يلفنا الماء من فوقنا ومن أسفل منا وسقتنا السماء من نعمتها ما ابتلت له هدومنا.

وأسرعنا بالقارب إلى منزله ولكنا لم نبلغه حتى اخترق الماء ثيابنا وارتعدت لبرده عظامنا واضطررنا لأن نكن هناك فى الكازينو ونأخذ من الشاى ما يرد عنا قسوة البرد.

ولولا هذا المطر الذى عاكسنا اليوم كما عاكسنا يوم روبنصون لما خرجت بالقارب قبل المغيب. لكن!

٢٢ سبتمبر

تحيط بي أشياء كثيرة تحوى الجمال والنضارة وتتمتع بها كل حواسي ويصل صداها للنفس فيهزها طربا. فأشجار البساتين وحفيف أوراقها وما يحيط بها من الزهر الحسن التنسيق وما تظلل من الحشائش الخضراء ومن الأزواج المتحابة وما حول ذلك كله من الحركة الدائمة التى تذهل النفس عن كثير مما يقع إلي جانبها. لكن هناك شيئا يصل صداه للنفس بلا واسطة ويقع عليها فيترك فيها أثرا شديدا ـ ذلك هو بؤس الإنسانية.

حيث تسير ترى وجوها تنم عما يقع بها من الظلم ـ عمالا وعاملات لا يجدن ما يكفيهم ضروريات الحياة. مصابين بتلك الوخزات التى لا تهدأ يد الحوادث عن إيصالها لبني الإنسان. مشردين لا يجدون مأوى وينتظرون من حين لآخر أن يقعوا فى يد العدالة القاسية. مرضى وعجزة يدعو بؤسهم لشديد الألم من أجلهم. فتيات تاه عنهن طريق الكد وأوقعهن سوء التدبير فأرقن عرضهن وجعلنه متجرا. كثيرون غير هؤلاء سقطوا فى سعيهم وخابت آمالهم فيهب عليهم من نسيم البؤس ما تعبس له وجوههم وتتقطب جباههم وتندى عيونهم فتهون عليهم العبرة وقد خنقتهم زمنا ليس بالقصير.

هل يستطاع تخفيف ذلك الشقاء عن الناس؟ هل يمكن أن يطرد البؤس من الأرض؟ هذا ما جاهد له كثيرون ولم يبلغوا كثيرا مما أرادوا. وأحسب أنه ما دامت المدنية الحاضرة مدنية الطمع والشره للمال حاكمة فوق الأرض فمحال إخراج الناس من بؤسهم وعبث مطاردة الشقاء فإنه كامن فى تركيب هذه المدنية ولا يفارقها.

٢٥ سبتمبر

كنا نتناول طعام الغذاء فى المطعم وكانت معى «الجريدة». فأمسكت بها الخادمة التى اعتدنا أن نأكل عندها وجالت بصرها فيها وقالت إنها لا تعرف كتابتها. فقلت مازحا ـ تلك كتابة الاله الرحيم .

(Le Bon Dieu)

أجابت:

ـ أنا لا أعرفه ولذلك لا أعرف كتابته.. ثم قالت متهكمة ـ أننى ما رأيته قط ولقد أردت فأوصدت فى وجهى أبواب.أفرأيته أنت؟

ـ نعم رأيته

ـ إذن فهل تتكرم بأن تحدث معرفة بينى وبينه.. إلخ

ليست هذه الحكاية بذات الأهمية فى نفسها ولكنها جاءت عقب حكايات أخرى من مثلها وتدل على روح عامة فى البلد ـ كان المسيو ك . وهو شاب فى الثانية أو الثالثة والعشرين ليسانسييه فى الحقوق يقول حين سألته عن دينه «لقد ولدت لا أعرف إلها» . وأن أباه وأمه على هذا وأنهم يعتقدون أن حبائل الكنيسة كلها شراك ممدوة للكسب. ولعله يبالغ فى ذلك خصوصا بعد الذى علمته من الأعمال الطيبة التى يقوم بها رجال الدين على ما أخبرتنى مدام هـ . ج.

مسألة أخرى من هذا النوع أنا كنا أول الأمس فى قهوة فجلست إلى جانبنا امرأة وحادثتنا وما أسرع ما وقع الحديث على الدين وسألها أحد الحاضرين عن الاله Le Bon Dieu فقالت أنها لا تعرفه وسألت سؤال خادمة المطعم ـ هل رأيته؟. ثم قالت «تعرف ما هومكتوب على أطار القطعة ذات الخمس فرنكات؟ أجابها صاحبنا ـ نعم «يحفظ الله الجمهورية الفرنساوية» . فقالت ـ هاته القطعة هى الله الذى يطلب منه أن يحفظ الجمهورية وكل فرد من الافراد. أترى لو أنك لا درهم معك وذهبت إلى الأوتيل هل أنت إلا ملاق من يطردك.

الأكثرون غير هؤلاء ينطقون بهذا المعنى. تلقن لهم هذه العقيدة المادية كما يلقن الدين عندنا للعامة ويبقى مغروسا فى نفوسهم محتلا لها محال زحزحتها عنه.

أسائل نفسى ـ ولم لا يتركون هذه الفكرة على الاطلاق ولا يتعبون بها أنفسهم وقواهم على غير جدوى ولا طائل؟ لم هذا التعلق بعقيدة إلى حد إجهاد النفس من أجل اثباتها واقامتها مع أنها لا تصل إلى نتيجة عملية مطلقا؟ إن وجد الآله كما يقول الدينيون أو لم يوجد كما يقول الملحدون فما هى نتيجة وجوده أو عدم وجوده فى عالمنا الحاضر المحكوم بالقوانين والذى لا يعتدى فيه الواحد على الآخر لا طيبة منه وإحسانا ولكن حتى ينال من الآخر أن لايعتدى عليه فى نفسه وملكه..

أحسب أن لذلك سببا. ذلك أن النفس الإنسانية التى ترى أمامها خيالا من الماضى والمستقبل يرجع بها إلى تصور لا نهايات الأزل والأبد تحس كأنها فى الساعة الحاضرة على سفينة فى بحر لا حدود له وتحس أنها هالكة لا محالة إذا هى لم تتبع خط سير تعتقده يصل بها إلى غاية معينة ذات حدود هى الخلودَ الذى ترجو بعد الموت والجزاء الذى تنتظر عما قدمت. هذا البقاء المتضامن من الأزل إلى الأبد وهذا الخلود الدائم تمثله النفس الإنسانية بصورة تعطيها من الكمال والجمال ما تبلغ إليه أقصى درجات خيالها. وهذه الصورة هى ما يسميه المتدينون «الله». ومتى وجد إثباته على هذا الشكل لم يكن من محيص أن يقوم على الجانب الآخر جماعة ينفون هذه الصورة إما لقصر فى خيالهم وإما لأنهم أكثر إحساسا بالواقع ويفضلون العيش فى الحاضر والمتاع به على هذا الخلود المأمول.

وهذا هو السبب فى انتقال الإنسانية من جيل لجيل تتسلل فيها مرة فكرة الإله القديم الخالدة وأخرى بقاء الروح بقاء أبديا وفى الوقت عينه فى قيام ملحدين على أشكال وأنواع هم الآخرين. ومن هؤلاء ومن أولئك صورت

الأفكار التى دخلت مع الإنسانية فى تركيبها العام وأصبح ضروريا فى النفس الإنسانية أن تكون ذات اعتقاد ولو فى لا شىء. ومهما كان من الناس من يقول لا أدرى فإنه يعتقد بلا أدريته اعتقاد المؤمن بإيمانه ويمرح من هذه اللا أدرية فى خيال ليس أقل امتدادا من الخيال الذى يمرح فيه المتدين وإن كان من نوع آخر.

٢٨ سبتمبر ... فى عالم القبور..

دخلنا البانتيون مقبرة العظماء مرة أخرى. وهبطنا من سطحه إلى بطن الأرض حيث القبور تضم رفات الأموات. مكان مظلم يقابلك لأول ما تدخله ريح رطبه وهدأة المكان وضيق مساربه فتشعر كأن شيئا يضغطك وكأنك انتقلت إلى العالم الآخر حقيقة. وأول ما يقابلك من القبور قبر جان جاك روسو أبى الحرية وصاحب قرآن الثورة الفرنساوية. وعن يمينه قبر فولتير شيخ كتاب القرن الثامن عشر. ثم تأتى بعد ذلك قبور فكتور هيجو والآخرين. وعند نهايتها تصعد من هذا العالم الآخر على درج ضيق يخرجك إلى حيث حركة الوجود الدائمة.

الأحد الماضى ـ أول الأمس ـ كنا فى ضاحية سان دنيس ودخلنا مقبرتها. سرنا فى طريق تحيط به قبور العائلات وكتب على بعضها ـ هنا دفن فلان فلندعوا الله له. وقد كان يدخل المقبرة من حين لحين رجال ونساء يحملون باقات الزهر ليضعوها فوق القبور. بين هؤلاء الداخلين شبان وفتيات حملتهم الذكرى إلى هذا المكان الخالى الهادئ يريدون أن يناجوا تلك الأرواح التى سعدوا بقربها زمنا ليس بالقصير. يستعيدون خيال تلك الساعات اللذيذة فيحزنون لفنائها وتظهر على وجوههم أمارات الألم لما لعزرائيل من السلطان الجائز القاسى فى التفريق بينهم وبين من يحبون ـ وبينهم عجائز لا يدرون متى يلحقون بأهل ذلك المكان وهم يهرولون إليه أو يكادون وكأنهم ضجروا ذلك الانتظار الطويل بين ضجة العالم وضوضائه فهم يطلبون المقابر ويستعجلون إليها السبيل.

كم بين أولئك العظماء سكان البانتيون وهؤلاء المقبورين فى مقبرة سان دنيس من الفرَق ـ كلهم يرقدون فى هدأتهم على بساط مساواة وإنما خلف الأولون من الذكر ما يظل رنينه فى أذن الدهر ما كانت له أذن واعيه ومن الأثر ما يحيط بالعالم كله فالعالم كله يزورهم. وخلّف الآخرون وراءهم قلوبا من أهلهم وأصدقائهم تحزن عليهم ما بقيت حتى تشاركهم مصيرهم.

٢٩ سبتمبر لو أن كل الليالى تمضى كما مضت ليلتنا هذه لما شعرنا بالحياة من شدة السرور.. كلا. لا أستطيع أن أعبر عما أريد وحسبى أن أقول أنه يزيد على كل ما يمكن تصويره به. هذا المكان المملوء بالدخان وبالموسيقى وبالضحك وبالناس وبالمشروبات والذى يطفح سرورا. هؤلاء الجالسين أزواجا وجماعات من الشبان والبنات وكلهم يضحكون. وهاتيك الراقصات رقصا غير مرتب ولا منتظم. هذه الضجة التى أنستنا كل شىء وأنستنا وجوه البنات العكرة وأشكالهن البائسة.

هذا كله كان فى تافرن البانتيون.

بعد أن تناولنا طعام العشاء ذهبنا إلى قهوة البانتيون لنأخذ قهوتنا وجلسنا أربعا على مقاعد قريبة من محل الموسيقى. وقضينا فى مكاننا نتحدث ونسمع وننظر لما حولنا ومن حولنا حتى الساعة الحادية عشرة. ولقد كان بجوارنا رجل وامرأته تبين لنا من حديثهما أنهما أغراب من بولونيا وأنهما قضيا فى باريس أسبوعين سرا بهما كل السرور. وأمامنا صف من البنات وقد جلسن كأنهن التماثيل لا يتحركن إلا أن يمر بهن شاب ينظر نحوهن ويبسم اليهن فتطوق شفاههن الحمراء بالرغم منها ابتسامة معناها تفضل يا سيدى». فإذا مالت به نفسه إلى ناحيتهن وأختصته واحدة منهن رجع إلى الباقيات شكلهن القديم فى حين تجاهد هذه لتحادث صاحبها وفى الغالب يضحك هو منها ويضطرها سكوته لأن تسكت وتكاد تكون كصاحباتها. ووراء هذا الصف من البنات قامت أعمدة تقوست فوقها أقبية تحمل رسوما. ولون الكل يبين عليه القدم ويزيده انتشار الدخان قدما.

لما جاءت الساعة الحادية عشرة نزلنا إلى التافرن.

مكان ضيق ومزدحم. أول ما تدخل تقابلك صالة يشغل أكثر من ثلاثة أرباعها منضدة طويلة عليها رخامة وقد وقف وراءها عمال المكان ووقف أمامها الشبان والبنات بأشكال مختلفة فعارى الرأس وعابسة الجبين والضاحكة بأعلى

صوتها والهامس فى أذن صاحبته كأنه يناجى ملاك الحب والمطوق خصر الثانية يجذبها إليه والضاحك فى ذقن ثالثة. وأمام ذلك مناضد صغيرة يجلس عليها أحيانا أشخاص أكثر أمرهم أن يظهروا بشىء من الجد والسكينة. فإذا انعطفت عن يمينك وجدت ذراعا آخر من ذراعى المكان وقد قامت المناضد أمام جميع نواحى جدرانه وهو ممتلئ شبانا أمامهم مشروبات مختلفة ومع كثيرين منهم بنات يشربن هن الآخريات ولكنهن قليلات الكلام. وفى وسط هؤلاء جميعا يرقص بعض البنات على نغمات موسيقى يقوم باللعب عليها أشخاص فى أردية حمراء وهم يلعبون أدوارا جهنيمة مزعجة. أما الرقص فأكثر هم البنات منه استثاره الرغبة فى نفوس الشبان. ولكن التعيسات تعيسات الحظ وقل أن يفلحن من رقصهن بشىء.

غير أن هذه الضجة العظيمة التى تثيرها فى المكان الموسيقى والضحك والصريخ وجرى واحد وراء الآخر ومنظر هذه الكؤوس المختلفة الأحجام والمحتويات كل ذلك يبعث للنفس سرورا غير مرتب ولا منتظم هو الآخر. فيحس الإنسان بهزة غريبة لا يقدر أن يحبس نفسه عن المشاركة ولو بقليل فى الفرح العام المحيط بها، ويروح مأخوذا بنشوة الطرب وبهذه المناظر المتعددة مما أمامه ويمر الوقت وهو غير محس به.

بقينا إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل. وهنا خبت حركة المكان وغادره كثيرون ولم يبق معنا إلا ثلاثة شبان أخذوا منضدة وحدهم وبعض بنات بقين مشتتات فى التافرن. وأخيرا «عزل» القوم ولم يبق لنا إلا أن نخرج بعد أن قضينا ليلة بين دخان السجاير وضجة الشباب فرحين بها أكبر الفرح.

٥ أكتوبر وصلتنى أول الأمس دعوة من صديقى المسيو أ. ك. لأتناول الشاى معه اليوم. ولقد كانت جماعتنا مؤلفة من اثنين من الفرنساويين غير مسيو أ. ك ومصرى آخر معى هو صديقى ع . ف. فلما تم جمعنا سألنى مسيو ر . د. عما لو كنت اقتنعت فى مسألته فأجبته أنى لا أزال على رأيى الأول وأعتقده الحقيقة فقال ـ هذا ممكن ولكنى أظن أن ما أقوله أنا أيضا هو الحقيقة.

ـ إما أن يكون الحق معك أو معى...

هنا قطع المسيو أ. ك كلامى قائلا

ـ ممكن أن يكون الحق بيدكما معا

فأجبته ـ كلا إذ ما دام الحق واحدا فهو إما معه أو معى.

هنا دارت مناقشة خرجت بنا عن موضوعنا الأول أساسها ما لو كان الحق واحدا أو متعددا. وقد آثرت أن أنقل منها ما يأتى:

ع . ف . لا شك فى أن الحق واحد. ولا يعقل مطلقا أن يكون متعددا خصوصا متى تعلق هذا التعدد برأيين متضادين. بل هو دائما وفى كل مسألة الكلمة العليا الخالدة ابتدأت من الأزل وتنتهى فى الأبد.

أ. ك ـ هذا الكلام جميل وبقى مصدقا عصورا طويلة من الزمان. ولكن هذه العصور نفسها هى التى أظهرت لنا أن الحق يتغير من جيل لجيل ويظهر كل وقت فى ثوب جديد. واختلاف الأمكنة أيضا يبرهن على ما أقول بمقدار ما يبرهن عليه تعاقب الأزمنة. أنتم مصريون مسلمون ونحن فرنساويون مسيحيون. هذا الاختلاف بيننا فى المكان والجنس جعلنا نختلف فى حقائق وقائع تاريخية محسوسة كمسألة صلب المسيح. كما أن بعض الأعمال الحسنة عندنا تستهجن عندكم لآخر درجة. فهل هى حقيقة تستحق الاستهجان أو الاستحسان. وفى بلدنا قوم أصحاب مذاهب متضادة وهم لاشك يقيمون

مذاهبهم على أسس علمية معقولة. افتقدر أن تحكم حتما بأن أحدهم مخطئ وأن الآخر مصيب.

.. لكل منا نظر للحوادث مخصوص. فهو يتأثر بأحدى جهاتها أكثر مما يتأثر بجهة أخرى فى حين يقوم دليل الثانى على إثر تأثر مختلف فى جهاته. كما أن كثيرا من الحوادث الغير محدده تماما يدخل فى تقدير ما نسميه نحن بالحقائق. ويجيء من ذلك من غير شك الاختلاف فى النتيجة فى حين أن الواحد من الشخصين نظر للوقائع بعينه كما نظر لها الثانى بعينه. وإذن فغاية ما يمكن أن نقوله أن الصواب المحض والخطأ المحض مستحيلان على الأرض.

... ممكن أن تكون هناك حقيقة كبيرة أزلية خالدة ولكن هذه هى ما لم يصل إليه بنو آدم وما لن يصلوا إليه فيما أعتقد. لأنها إن كانت فهى ناتجة عن ملاحظة كل ما فى الكون من عوالم وحوادث وقوى ظاهرة وكامنة وعن كل ذرة من الذرات التى وجدت والموجودة فى العالم أيا كان شكلها وماهيتها. ولقد صرف الناس همهم من أول التاريخ إلى يومنا هذا يريدون الوصول إلى هذه الحقيقة العظيمة وظنوا ويظنون أنهم وصلوا إليها. ولكنهم لا يكادون يقيمون على ما حسبوه الحقيقة يوما حتى يأتيهم الغد بشكوك فيها تقيمهم من جديد على قدم. ومهما نكن قد اكتشفنا من الوقائع ومهما ظهر لنا من ملاحظة الحوادث فإنا لا نستطع أن نجزم بأنا اقتربنا من هذه الحقيقة الكبرى إذ كثيرا ما يضلك الطريق فيبعدك عن غايتك وأنت تحسب فى كل لحظة أنك تقترب منها. وكهذه الحقيقة الكبرى كل حقيقة دونها لأنها جميعا نتيجة لأسباب شتى. يكفى الاختلاف فى التقدير لقيمة أقل واحد من مكوناتها للاختلاف فى ماهيتها هى. ومن المستحيل الوصول إلى تقدير يكون هو التقدير الذى لا يشك فى أنه هذا المكون. لأن ذلك التقدير هو حقيقة بذاته ويحتمل أجزاء شتى وخطأ فى كلها أو بعضها.

... هذا كله إذا كانت هناك حقيقة كبرى أو حقائق صغرى. وأنا شخصيا أميل للظن بأن هذه التى نسميها حقائق ليست إلا خيالات للواقع بالشكل

الذى يعكسه به خيال كل جيل أو كل طائفة من الناس. فباختلاف تقدير هذا الجيل أو تلك الطائفة فى النظر لوقائع معينة يكون اختلافهم فى النتيجة التى تجئ عن مجموعها أى فى الحقيقة التى تنتج عنها.

أمام هذه الأفكار الغريبة والواضحة معا والتى بقيت محدقا مبهوتا ساعة سماعها لم أستطع إلا أن أتلفت لأرى مبلغ أثرها على ع. ف . فإذا به هو الآخر مبهوت يكاد يذهل عن نفسه. لكنه استجمع قواه بعد لحظة وقال:

ـ كل هذا ممكن أن يكون صحيحا. ولكنى أرى حقيقة اخترقت العصور وتسللت مع الزمان إلى يومنا هذا. تلك هى اعتراف الناس بخالق لهذا الكون.. وحول هذه الحقيقة الكبرى دارت كل الأبحاث وكانت دائما لجميع الباحثين المرجع والمآب. ومهما يكن منهم من أراد أن يخرج عنها فإنه يرجع فى معنى قوله إليها. فسواء سموه الخالق أو الإله أو الطبيعة أو ما شاءوا من الأسماء فهم دائما من بحثهم عند هاته النتيجة. والغريب أنهم لهذا الاختلاف فى التسمية يقيمون بينهم خلافات بل وعداوات ويؤلفون مذاهب وأحزابا. والواقع أن الحقيقة قريبة منهم جميعا وهم جميعا يرونها. ولكن كأنهم حسبوا أن حياتهم لايمكن أن تقوم إلا على الخلاف والجدال فوجدوا من الاختلاف فى التسمية وسيلة لإقامة خلافات اعتبروها عميقة مع أنها غير موجودة على الأطلاق. وكهذه الحقيقة الكبيرة الحقائق الصغرى...

هنا دخل المسيو ر. د. قاطعا حديث المتكلم قائلا:

ـ استسمحك. إذا تجاوزنا عن هذه التى تسمونها الحقيقة الكبرى لأنها كانت وستبقى دائما موضع الشكوك والأوهام فلا أقدر أن استطرد معك لاعتبار الحقائق الصغرى على هذا المثال. لأننا أنت وأنا لا نستطيع أن نتفق على حقيقة تاريخية كصلب المسيح أو عدم صلبه. وإذا سلمنا هنا بأن لهذه الواقعة حقيقة لأنها واقعة أى أن التاريخ يعرف إن كانت حصلت أو لم تحصل فإن الخلاف فى المسائل النظرية كمسألة تقدير الجمال ومسألة مسئولية الجانى ومسائل كثيرة

جدا سوى هذه لاشك في وجودها ، ولا شك في أن محالا أن نجد الحكم العدل الذى يستطيع أن يأخذ على ضميره مسئولية الحكم على إحدى النظريتين بأنها حق وبأن الأخرى باطل.

ثم إن نظريات كثيرة كانت فوق الشك فى بعض العصور وصارت موضع شك كبير. وأعطيك العائلة مثلا. فقد كانت فكرتها موضع القداسة مدة من الزمان ولم يكن يجرؤ أحد ولو أمام نفسه على القول بعدمها. ثم جاء عصرنا وجاء معه كثيرون يرون فى معنى العائلة شرورا كثيرة. يرون فيه أكبر مَنَمٍّ للأنانية والطمع وحب الظلم.

... وكل هذه النظريات نتائج لازمة لملاحظة الوقائع ملاحظة مخصوصة. وأنا لنزداد كل يوم توسعا فى معرفة الأشياء والحوادث والوقائع لذلك فإنا لاشك نزداد سعة نظر فيما يتعلق بالنتائج. وبهذا كان سير العالم وتقدمه من قبل التاريخ إلى اليوم.

.. وإذا صح لى أن أرجع للحقيقة التى سميناها الحقيقة الكبرى والتى أخذت تفكير العالم من أول وجوده وهى باقية لا تبلى جدتها فأحسبنا نتفق فى أنه كلما تقدم العالم كلما زادت هذه النظرية تعقيدا فى حلها. لأن العقل الساذج قريب التسليم قريب الإيمان قوى اليقين. فهو يذعن لأول ما نقول له أن الوجود يدل على الموجود وأن من صفات هذا الموجد كذا وكذا. ولكن الواحد كلما دق نظره وأحاط بمسائل شتى واتسعت دائرة ملاحظاته خامره الشك فيما كان قد سلم به من قبل. ويصل أخيرا إلى القول مع فلاسفة العصر الحاضر بأن آله الزمن القديم إنما هو خيال خلقه رجل يومئذ على صورته وأعطاه صفاته.

.. ولست أدرى كيف يستطيع صديقنا المسيو ع . ف. أن يقول بأن اختلاف المذاهب فيما يتعلق بهذه الحقيقة الكبرى ليس إلا اختلافا فى التسمية. وهل يقدر على التوفيق بين المعترف بوجود هذا الخالق وبين المنكر له.

بين عيسى أو محمد وملحدى العصر الحاضر. وهل يصح أن نقول أن الذين يعزون الخلق إلى كلمة أمر من الخالق ليس بينهم وبين الذين يقولون بالتسلسل إلا خلاف لفظى...

إنى أظن أن هناك حقيقة واحدة لايزال الناس إلى يومنا متفقين عليها. هى أن فى العالم المحيط بهم كثير يغيب علمه عنهم. هناك الغيب العجيب الذى تقصر دونه أفهامهم وخيالاتهم. هناك ما يستكن فى جوف الأرض وتحت موج البحر وفى أعالى الجو. ولكنى لست على يقين من أن هذه الحقيقة تبقى دائما. بل إنه لا يستحيل أن يأتى يوم يظن فيه ولو بعض الناس أنهم وصلوا إلى الغيب ولم يبق فى العالم ذرة إلا ولهم بها علم.

هذا الغيب. غير المعروف هذا هو كل ما يمكن أن أؤمن أنا به.

فى هذه المدة التى تكلم فيها ع . ف . و . ر. د. كان المسيو أ. ك . فى شىء من شبه الذهول تائه عما يدور حوله. فلما سكت ر. د. ولم يجد أحد ما يقوله إلا الصمت المهيب أمام فكرة هذا الغيب غير المعروف الذى نشره أمامنا صديقنا. ابتدأ هو يتكلم من جديد. ولكنه بقى تائه النظرات صافى الجبين على وجهه معنى السكينه. قال:

ــ من المناظر التى كانت تأخذ بعينى منظر الأفق على سطح البحر. ماذا بعده؟ هناك السماء والماء. والبحر والجو. ماذا فوق السماء وماذا تحت الماء؟ باخرة آتية من بعيد أو أسماك يأكل بعضها بعضا أو أمواج تتلاطم؟ عالم خفى عنى علمه على قربه منى وعلى سهولة كشفه إذا أخذت أنا قاربا واقتربت منه. ومع ذلك فأجده عجيبا مهوبا. ولو صرت عنده لزال عجبى ولم تبق له هيبته. كذلك الحقائق. كل ما غاب عنا ولم تصل إليه معرفتنا ظهر مهوبا فى حين يظهر غيره مما نصل إليه بسيطا بل مبتذلا. والحقيقة الكبرى كغيرها. لو أمكن اقترابنا منها وإخضاعها لحواسنا لما سميناها كبرى. ولكن ذلك الغطاء الذى كان ولايزال عليها والذى ربما انكشف ظاهرا وربما بقى خالدا هو الذى

يعطيها هاته العظمة ويلبسها جلالها. ولعمرى ما أدرى سبب تعلق الناس بها وجريهم وراءها على قلة ما تعطى وعدم استفادتهم من ذلك إلا ضئيلا.

ذكرت أنا حين قال ذلك ما قاله المسيو هـ . ج . مرة من أن الأديان تستند في وجودها للضعف الإنساني. وذكرت مثله عن زوجته وما يعطيه لها إيمانها من القوة والجلد. فتداخلت معترضا وقلت:

ـ هذه الحقيقة الكبرى لا أصل لها وأنها مجرد وهم وخيال على ما قلت أنت فى حديثك الأول. وهى من أجل ذلك ستبقى تحت غطاء خالد يعطيها الجلال. وهب التفكير فيها عديم النتيجة على الأطلاق ـ إذا فرضنا ذلك كله فأحسب من المجازفة أن تقول أنها لم تفد العالم إلا ضئيلا. فإنا نرى السواد الأعظم من الناس يعيش ويعمل ويجاهد ويجتاز وعث الحياة بقلب ثابت ويقدم الخير لأخوانه بنفس طيبة وهذه الفكرة وحدها سنده فى عمله والباعث له على فعل الخير. وهى كذلك المانع الوحيد لكثيرين جدا من الفقراء وحياتهم سلسلة ألم متصلة عن العبث بحرية الآخرين والاعتداء عليهم. ولا يعد مبالغا من يقول إنها هى التى تعطى القانون الموضوع قوته من هذه الجهة. ففكرة عظيمة كهذه تخدم العالم من الأزل إلى يومنا هذا أكبر وأجل خدمة تستحق المهابة والتقديس. كما أن محالا أن يسير العالم هذا السير العجيب على باطل. فهى من غير شك حقيقة ثابتة.

لم أكد انتهى من كلامى هذا حتى رأيت أ. ك. قطب حاجبه وعاوده تنبهه الأول واندفع يقول:

ـ غريب جدا تعليلك هذا. ألأن الناس ظلوا حتى زمن جاليلى يعتقدون أن الأرض ساكنة تكون هذه حقيقة ثابتة؟ ألأن الناس اعتقدوا أجيالا طويلة أن العائلة لازمة تكون هذه حقيقة لا نزاع فيها؟ وهل الخرافات التى بقيت تحيط بالإنسانية العصور الطوال والتى تساقطت بملامسة العلم كانت هى الأخرى حقائق ثابتة؟ أنى أكرر ما قدمت من أن هذه الأجيال السابقة كانت ترى

الوقائع بعين غير التى نراها بها فيعكس خيالهم من شكلها ما كانوا يسمونه حقيقة وما نضحك نحن منه اليوم هازئين. يعكس الها على شكل الإنسان وله كل صفات الإنسان. يعكس جنونا وهزأ أمام النظر النقاد الحديث.

«وأما أنها أفادت العالم فذلك موضع مناقشة يحتمل الشك. الأفكار الدينية قد احتلت العالم زمنا طويلا وكانت قاعدة تفكير الناس قرونا من الزمان: هذه حقيقة تاريخية لا ريب فيها. ولكن أنها هى التى رتبت أعمالهم فذلك ما لا أصل إلى تصديقه. لأن الواحد منا تستثير نفسه المناظر المؤلمة ويدعوه شكل الرجل الفقير المريض فى أطماره البالية إلى الإحسان عليه ولا يفكر فى ثواب الإله له إلا بعد أن يكون قد انتهى من عمله. كما أن المجرم يفكر حين ارتكابه جريمته فى أن لا يراه أحد أى فى أن لا يقع تحت طائلة القانون. ثم إذا أتم عمله وراجعه حساب ضميره فربما افتكر فى حساب الله له. وبالجملة فإن الناس جميعا يسيرون فى أعمالهم مدفوعين بداعى المصلحة أو بدافع الاحساس فى حين يجيء حب إرضاء الله أو الخوف من سخطه فى درجة متأخرة. وعندى أن تقوية إحساس الفرد بشخصيته والعمل لإحياء ضميره وحفيظته وجعله يشعر شعورا دائما بوجود مستقل لذاته أحسن بكثير وأدعى لتنمية الفضيلة الاجتماعية فى نفسه من فكرة الرقابة الدائمة عليه من قوة متسلطة لا يحس بسلطانها ولا يمسه شيء من آثارها.

.«فوق هذا فإن تلك الفكرة بنفسها كانت مثار حروب وحشية وسببا فى وقوف الفكرة الإنسانية وجمود أصحابها وتعصبهم إلى حد فظيع. ولا حاجة بى لأن أضرب الأمثال فكلنا يعلم عن ديانته ما يكفيه مؤونة البحث عما أثارت الديانات الأخرى من المذابح والفظائع. كما أن الحروب الصليبية لم تكن مما تفرح له الإنسانية التى تريد يوما ما أخوة عامة.

«وإن أكبر ما أرجو أن يصل الناس للتسليم بأن الحقيقة على ما نعرّفها به غير موجودة. ويسرنى جدا أن أرى هذه الفكرة متسعة الانتشار فى طبقات كثيرة

من طبقات الجمعية. وأن أول آثارها أن يحتمل الناس بعضهم بعضا وتقل من بينهم البغضاء والأحقاد التى يثيرها التعصب لفكرة ضد فكرة أخرى.

كان الوقت قد أمسى وحان أن نقوم. وكأن أخواننا جميعا صاروا من رأى المسيو أ. ك . أو أنهم تعبوا من المناقشة فقمنا وما كدنا نصل باب المكان حتى تهادينا السلام وتركتهم إلى بيتى خيفة أن يفوتنى وقت الطعام.

٧ أكتوبر

... الجمال النادر...

كلمتان اقترنت الواحدة بالأخرى يقولهما القائل كلما جاء أمامه معنى من معانى الجمال وتسمعهما الأذن كل يوم حتى لم يبق لهما فى النفس من أثر معين أو معنى محدود. كم جاء أمامى هذا التركيب فلم يكن ليثير منى اهتماما خاصا. بل كم كتبته غير مبال بما يحويه من معنى دقيق. ذلك لأنى كنت أعتقد أن المحيطات بنا تحوى من الجمال النادر كثيرا وأنه لو أتيح لى أن أرى جماعة من النساء لحارت عينى بينهن ولأخذ بلبى جمالهن. بل ولكان لكثيرات منهن تقدير كبير في نفسي. وكنت أعزو قلة من أرى من الجميلات لضيق دائرة من أعرف من النساء. وآسف أنى لست حسن الحظ فى معرفتى. لكن هذا الخيال عندى لم يكن له موضع بل ولا خيال من الحقيقة...

ذهبت اليوم بعد الظهر إلى التياترو الفرنساوى أحضر تمثيل رواية بايزيد. وخرجت فيما بين الفصلين حين ترك الحضور مقاعدهم فى أوكار الألواج الضيقة. وفضلت على الخروج إلى هواء المدينة أن أبقى فى صالون التياترو. كان الصالون مزدحما جدا بالرغم من سعته والرجال فيه يكادون يعدون وسائر الحضور سيدات ويظهر أنهن من طبقات البلد الناعمة الممتعة بما يحفظ عليها الصحة والجمال . فأجلت عينى فى كل الأنحاء وتصفحت إلا قليلا كل الوجوه. وكلما وقع نظرى على قوام ينم عن الشباب والنضرة انتظرت وجها حسنا. فإذا استقبلتنى صاحبته قضى على أملى وإن كنت لا أعدم فى ثوبها ومشيتها وترتيبها العام جمالا. وكم كان يسعدنى أن أرى بوارق ما أملت يتحقق. ولكنى على كل حال خرجت مقتنعا بأن كلمتيّ الجمال النادر لهما فى الواقع قيمة حقيقية وإنما قالهما خبير بعد بحث جدى.

۲۲ أكتوبر في هذه الأيام الأخيرة رأيت شيئا جديدا في اللكسمبور غير ذلك التاج الذهبي الذي جاءها به الخريف وتلك الأوراق الكثيرة التي تسقط إلى الأرض بعد ذبولها. رأيت ما استلفتني من كثرة الوافدين إليها والأطفال الذين يمرحون في طرقاتها ويلعبون ويجرون ويصيحون.. هذه الحركة الجديدة أراها في باريس بأجمعها بعد أن هجرتها الضوضاء مدة الصيف.. وكأن الباريسيون كانوا ينتظرون هاته الأيام ذات الطقس الجميل من أكتوبر ليعطوا لأنفسهم ولأولادهم أوفر حظ من الرياضة.

في حدائق التويلري ترى هذا المنظر الذي يقابلك في اللكسمبور. كذلك ترى في غابة بولونيا وفي الطريق الكبيرة الموصلة إليها خلقا كثيرين يطلبون النزهة ويريدون التمتع بهذه المناظر الخارجية قبل أن يدهمهم فصل الشتاء.

هؤلاء الناس الذين يجيئون إلى هاته الحدائق أو الذين يبعثون بأطفالهم إليها. ويثيرون بذلك في النفس الاعتقاد أنهم ذوو يسار ليسوا في الغالب كذلك. فإن هاته الحدائق العامة المفتوحة لكل إنسان من غير تمييز لواحد على آخر تدعو إليها المتوسطين أكثر مما تدعو الأغنياء الذين يأنفون معاشرة غيرهم من الطبقات والذين يرون في هذه المساواة اعتداء على ميزتهم.

أما الأغنياء فالمدى أمامهم فسيح خصوصا في هذه البلاد التي خلقت من دواعي النعيم والترف ما يقصر دونه الذهن.

وفي هاته الحدائق العامة يجد سكان باريس متاعا حسنا. يجدون الراحة حين يشغلهم العمل ويجدون السعة التي تمكنهم من ترويض حواسهم وجسمهم.. وكثيرا ما ترى في نواحي اللكسمبور المختلفة مراسح ألعاب متعددة للأشخاص في كل أدوار حياتهم وعلى أشكال مختلفة. ولا شك في وجوب مثل هاته الرياضات سواء للأطفال أو الشبان أو الكبار. لتساعد على نمو الأولين وتعطيهم الصحة ولتزيل هم الآخرين وتسرى عنهم تعبهم ولتعزى العجائز عن الوقت وتمضيته.

٢٥ أكتوبر

كنت أخبرت المسيو هـ. ج . عن حيرتي فيما يتعلق بمسألة المسكن وشديد حاجتي للوجود في وسط فرنساوى أتمكن معه من معاشرة الفرنساويين. ولقد عرضت أمامي مرارا فكرة البحث عن عائلة أقيم معها وبحثت مرارا عن ذلك ولكنى لم أكن لأعثر على شيء يفي تماما بغرضي. فكنت أحيانا أقع على عائلة مؤلفة من عجوز وامرأته يريدان معهما ثالثا يسليهما عن تشابه أيام الحياة. وأخرى على عائلة عديدة ولكن لا تتوفر فيها الرفاهة اللازمة. ومرة ثالثة على كل ما أريد ولكنهم يطالبون بأجر فاحش.. وبعد أن رجعت مرارا على غير نتيجة من بحثى سألت المسيو هـ . ج . آملا أن يدلنى هو على شيء حسن.

أخبرنى هوأن مدام ل. ج . سيدة طيبة وتقبل عندها قليلين من السكان. وطلبت إليه بعد ذلك أن يكون واسطة بينى وبينها. وقبل أن ننتهى على شيء دعتنا أمس لنمضى المساء عندها.

كان مدعوا معنا مسيو هـ . ج. وزوجته وأخته وسيدة لم أرها قبل. فلما جلسنا قامت سيدة الدار إلى البيانو بعد رجاء من الحاضرين الذين يعرفونها وقامت هاته السيدة الأخرى. وبالرغم من استحسان الجميع لغنائها فلم يك ليثير من نفسي. ولاشك أن سبب ذلك أنى لم أعتد أن أسمع هذا الغناء من قبل.

تناولنا الشاى بعد ذلك وبقينا نتكلم فى مسائل وفى أخرى إلى الساعة الحادية عشرة مساء. وما كان الحديث ليحتاج عناء ولا تفكيرا بل حديث سهل بسيط أدعى لأن يريح الذهن وتبتهج له النفس. وأحسب هذه الطريقة فى تمضية المساء أوفق ما يكون ليقوم الإنسان إلى نومه مستريح البال ثم ليقوم فى الصباح وقد أخذ أكمل حظ من سكون النفس والجسم فاستعد بذلك لعمل النهار. هى من أجل ذلك أفضل بكثير من طريقتنا الشرقية حين نقتل سهراتنا إما على القهوة وإما فى مناقشات متعبة لا طائل تحتها.

٢٩ أكتوبر

اليوم ودعنا ب. مسافرا إلى جنوب فرنسا ليمضى أيامه هناك. ودعته بعد أن بقينا معا ثلاثة أشهر لا نكاد نفترق. ودعت منه صديقا أغنانى عن كل صديق ونسيت إلى جانبه ما كان يجيئنى به الاغتراب من الهم.

كنا خمسا لوداعه. فلما سار القطار إذانى بين الجماعتين وحيد وكأنى وأنا أعرفهم جميعا لا أعرف منهم أحدا!! هل تستطيع الصداقة أن تصل من النفس الإنسانية لهذا الحد؟

أمضينا ثلاثة أشهر معا وكأن قد انطبقت صحيفة نفس كل منا على صحيفة نفس صاحبه. وأنى لأعجب لنفسى كيف وأنا أحب الناس للوحدة يبلغ منى الأسف لفراق صديق هذا المبلغ! الأن انكماشى عن الناس يجعلنى لا أجد خلا فلما وقعت على واحد من بينهم وأعطيته كل ثقتى وكل حبى عز على بعد ذلك أن أرجع إلى وحدتى الأولى؟

كم كنت أجد من السرور ساعة أقابله فى الصباح . وكم كانت تهز نفسى هزة كل واحد منا يد صاحبه ساعة نريد أن نفترق لوقت قليل. وها نحن نفترق لأجل من ذا يدرى أجله.

فى باريس ـ فى هذه المدينة الهائلة كثيرة الضجة وحيث أنت محاط بالجلبة من كل جانب وعزيز أن تجد ركنا هادئا إلا إذا اخرجت عنها أنت أشد الناس احتياجا لصاحب يعزيك عما يلقيك فيه انفرادك من الوحدة القابضة للنفس. وجدت هذا الصديق فى ب . من أوائل أيام وجودى بها إلى اليوم فلم أكن لأحس بعد الأيام الأولى بمثل هذه الوحدة المخيفة. وها هو اليوم مسافر وها أصبح من الغد فلا أجده. أصبح وحيدا لا صاحب لى فى باريس.

وإذا كنت الآن ولم يمض على سفره إلا ساعات معدودة أشعر بهذه الوحدة فماذا عساه يكون حالى إذا تطاول أجلها؟ من يدرى؟...

١ نوفمبر

في تياترو الأوديون..

أمضينا مساء الأمس نحضر تمثيل رواية (الميزانتروب)[1] من قلم موليير.

يقع تياترو الأوديون في الحى اللاتينى حى الطلبة وعلى مقربة من كل المدارس. لذلك ترى حول جدرانه مكتبة كبيرة (لفلامريون). وهو أقل بكثير في العظمة من التياترو الفرنساوى. فبدل أن تقابلك أول ما تدخل الصالة الفخيمة قامت في جوانبها تماثيل الكتاب والشعراء وعن يمينك يصعد سلم يشعر بالعظمة والأبهة، ترى صالة صغيرة رشيقة يحتل قسما منها شبابيك التذاكر وعن اليمين تصعد سلالم متسعة ولكن من غير عظمة ولا أبهة. ونفس المكان من الداخل أكثر تواضعا في كل شيء. في سقفه وفي ستار المرسح وفي منظر ألواجه وكراسيه. يبين ذلك أيضا في قاصديه ومظهرهم.

رفعت الستار ومثلت الرواية وقد أظهر فيها مليير شخصين صديقين يمثل كل خلقا معينا. فواحدهما (فيلنت) يدارى الناس ويلاطفهم ويلوم صاحبه (ألسست) على تشدده معهم وحبه أن لا يقول لهم إلا ما في نفسه. وأظهر الكاتب هذا الأخير في مراكز حرجة ما كان أحوجه فيها لأن يأخذ الناس كما هم لا كما يريدهم هو أن يكونوا. وقاسى من جزاء شدته هذه أن انقطع عنه أصدقاءه وقاطع محبوبته.

في كل المدة التي كانت تمثل فيها الرواية كان يسود على الناس سكون عام يقطعه التصفيق آخر الفصل أو في بعض مواضع معينة. سكون تتمكن معه النفس من أن تتذوق طعم ما أمامها من غير أن تضايقها حركات الجار الكثير الحديث أو السريع التأثر تتوتر أعصابه لغير سبب فيتشدق من وقت لآخر يريد أن يظهر للناس إحساسه.

أما عن الرواية وتمثيلها فقد أعجباني كثيرا خصوصا ما ظهر به الممثلون من إتقان أدوارهم بارسالها على طبيعتها وعدم التكلف فيها.

---

(١) الميزانتروب Le Misanthrope : كوميديا من خمسة فصول للشاعر الفرنسي الشهير موليير. صدرت سنة ١٦٦٦، يصور فيها نسبية الفضائل والخلق.

٤ نوفمبر

من يوم سافر ب. وأنا أحس بالوحدة تفيض عنى. أدخل غرفتى وأجلس على الكنبة ثم أجيل طرفى فى المكان فأرى من اثار صديقى العزيز ما جعل فراقه أشد مضاضة وأقسى على نفسى. كم من مرة كنا نجلس معا فى هذه الغرفة ونتحادث حتى بعد منتصف الليل من غير أن نحس بالوقت يمر سريعا. وكم من مرة كنت أجلس كما أنا الآن وحيدا ثم إذا هو دق على الباب ودخل باسم الثغر طلق المحيا. والان لا أمل فى مثل تلك اللحظة الحلوة التى كانت تمر ولا أشعر بها.

أقضى معظم وقتى فى القراءة. وقد قرأت فى هذه المدة شيئا غير قليل. ولكنى كثيرا ما أذهل عما بيدى وأتوه عن نفسى ويسرح خاطرى بعيدا فى تيهاء لا تميز فيها شيئا. واضطر إذ ذاك أن أعيد قراءة صحيفة وأحيانا صحيفتين ليتصل المعنى. ثم لا أكاد آتى على آخرهما حتى يراجعنى هذا الذهول. وتستمر هذه الحال أحيانا ساعة متواصلة. وأحس فى أحيان أخرى بحدة فى خاطرى وتنبه فى أعصابى فأقرأ وأقرأ وأقرأ وكأنى ألتهم ما يقع تحت نظرى فلا أشعر إلا وقد جئت على مبلغ عظيم فى وقت غير طويل. فإذا ما مللت الكتاب ومللت أستريح وذكرت الماضى راجعنى الحزن وأخذ بخناقى الهم.

ابتدأت اليوم أقرأ فى اعترافات جان جاك روسو وجئت إلى الآن على عشرين صحيفة منها. وهو يحكى حياته يوما بيوم ويقص تاريخه وتاريخ عائلته. يشعر الإنسان أمام جمال هذا الأسلوب وترتيبه وتوازيه بهزة سرور غريبة فكأن نفسه تسرى مع موجات موسيقى الكاتب ويحس من لحظة لأخرى بحاجة تدفعه لأن يقرأ بصوت عال حتى تتلذذ أذنه بالنغمات المرتلة التى تسمع. وتراه حينذاك يندفع فى قراءته أو هو يتوانى ويتباطأ مجبورا على ذلك بظروف الحادثة التى يشاهد تحت نظره وبترتيب الأسلوب ومواضع الكلمات. فكأن الكاتب ممسك بزمامك يصرفك على هواه. وأنت مسرور أن تجد نفسك مطيعا سائرا من غير انقطاع.

لكن الشئ الذى يستوقفك دائما عظيم فخر الكاتب بنفسه. فمن أول سطور الكتاب تراه يقول ما معناه، هذا اعترافى اكتبه مستعدا لأن أقدمه أمام الخالق يوم الحساب. وما أظن مخلوقا يجرؤ أن يجئ يوما فيقول «انى عملت ما عمل هذا الرجل». وسوى ذلك من هذا النوع كثير. والواقع أن جان جاك الذى ولد فقيرا أوقضى شبابه فى شبه التشرد لا يمكنه أن يرى نفسه وقد وصل بمجهوداته إلى الدرجة التى وصل إليها من غير أن يأخذه الاحساس بتفوقه على الناس وبأنه أحسن منهم.

٦ نوفمبر انتقلت بالامس إلى هذه اللوكاندة وبعد أن انتهيت من ترتيب المكان استمررت أقرأ روسو. ولا أستطيع حقيقة أن أتصور كيف تنتج شبيبته مثل هذا الكاتب والمفكر الذى قلب كثيرا من العوائد السارية فى أيامه. بل أنى أتساءل كيف لم تكن نتيجتها مجرما سفاكا أو لصا أو متشردا من أى نوع كان ـ فتى مهمل ملقى حبله على غاربه تتقاذفه الصدفة وتتلاعب به الأيام لا يقر له قرار ولا يعرف كيف يثبت على حال، حيث حل لم يقم وكلما وجد فى مكان تركه بعد مسألة أو حادثة ـ ويكتب هو كل ذلك بنفسه يسجله على نفسه. لا بدع بعد ذلك أن يكون على حق القائلون بجنونه ولا بدع أن يكون العظماء من بين المجانين.

وظاهر ولع الكاتب بالطبيعة إلى حد الهيام. لم يكف جان جاك أن ينقل حوادث حياته فى اعترافاته بل هو يستمد من ذكر الماضى خيالات يصف بها الطبيعة التى كانت محيطة به مدة شبيبته وقسما كبيرا من أيام رجولته.

ويصل الكاتب فى بعض الاماكن إلى منتهى حدود الإبداع فى الوصف وهو دائما الشاعر الذى يهيم بكل ما يصوره له خياله من الزمان والمكان. وكأن الماضى وما فى الطبع الانسانى من الحنين إليه يثير حولنا رياضا وجنات ويجعلنا نتخيل ألوانه كأزهى ما تكون وروائحه كأعطر ما شممنا ويصل إلى آذاننا تغريد عصافيره وأطياره كأنها أبدع الموسيقى وأتقنها. فإذا كان ذلك شأن الماضى إذا لامس خيال أفراد الناس فماذا يكون من شأنه إذا لامس خيالا ملتهبا كخيال جان جاك.

١٢ نوفمبر البرد شديد والضباب يملأ الجو والشارع مهجور أو يكاد. وقد أوقدت النار فى مدفئتى وبقيت إلى جانبها أقرأ فى اعترافات روسو إلى ما قبيل الظهر. ثم مر بى ج. ا. فذهبنا وتناولنا طعام الغذاء معا ثم اتفقنا على ان نذهب فنسمع اسطوانات عربية على الفونوغراف. وركبنا (الأومنوبيس) من ميدان سان ميشيل. وبعد أن نزلنا منه وسرنا مدة على اقدامنا دخلنا دكان (فونوتيك) وسمعنا اسطوانات من سلامة حجازى وعبد الحى وغيرهما. وكم كان لهذه النغمات المصرية من أثر على قلوبنا المصرية فى هذا الوسط الباريسى. كم كان لها وهى تخرج من أعماق الدكان وسط أنبوبات لتخص السامع دون غيره بلذتها ولا يتمتع بها ولا أقرب جيرانه إليه ما يجعل الواحد وهو ممسك بيديه سماعتى الفونوغراف (وهو من الجنس القديم الحريص على ما فيه من الاصوات فلا يسمعه إلا من وضع السماعة على أذنه) مايجعله يخيل نفسه بعيدا بعيدا عن ضجة المدينة الهائلة. فى هذه اللحظات ينسى الانسان نفسه والمحيطات به ويعيش فى مصر بمقدار ما تسمح له آذانه.

٤ ديسمبر

عرضت اليوم فى مدرسة العلوم الاجتماعية صور من ريشة رفائيل. وقد كان أكثر الحديث والتفسير الذى قام المعلم به فيها متعلقا بالصورة التى تمثل العذراء والطفل (مريم وابنها). وذكر فى شرحه تاريخ هذه الصور حين رسمها رفائيل وتحت أى أثر كان عمله فيها والفرق بينه وبين أساتذته فى النظر فى ما يختص بها ومواضع الدقة منها. ولقد كانت الصالة التى فيها السامعون مزدحمة على تناهى سعتها. والعجيب أن قد كان أمامى ومن خلفى وعن يمينى وعن يسارى فتيات وسيدات وكلهن يسمعن منصتات. والسيدات على العموم يشغلن على الاقل نصف مقاعد المكان. وليس هذا التهافت من جانبهن بغريب فى دروس الفنون الجميلة.

وحوالى آخر الدرس أجلت نظرى فى المكان جولات وتركت لخيالى أن يسرح كما يشاء بعد أن كد فكرى طول الانصات. ورجعت البصر وتخيلت إلى جانب هاتيك السامعات نساءنا وفتياتنا المصريات.

ثم ذكرت أنى كنت من ساعات معدودة أسمع فى السوربون درس المسيو لانسون عن الروح الفلسفية فى أدب القرن الثامن عشر ليتدرج من ذلك للكلام على مونتسكييه وإنى رأيت كذلك الفتيات والسيدات لا يحصى لهن عدد وهن مصغيات بكلهن أو منكبات على كراساتهن يكتبن بأسرع ما يستطعن كل ما يمكنهن كتابته من كلمات المعلم.

عرتنى لهذا النظر ولذكرى مواطناتى حسرة بلغ ألمها أعماق النفس. أليس فى هاتيك اللاتى رأيت اليوم من تضارع فى جهتها الخلقية نساءنا وفتياتنا لاشك أن الكثيرات جدا منهن أحسن وارقى بكثير من نسائنا لأن لهن فضائل خاصة بهن فى حين كل فضائل نسائنا سلبية وانهن فى الأغلب يسرن على قاعدة أن من العفة أن لا تجدّ.

هاتيك الفتيات اللائى رأيت اليوم يخرجن من دور العلم وقد سمعن من طيباته ويخالطن الناس فيستفدن بذلك حنكة وتجربة فاذا حادثت إحداهن

حدثت إنسانا يعقل ويفهم. بل لقد رأيت منهن كثيرات يخجل الكثيرون من شبابنا إذا اجلسوا إلى جانبهن اللهم إلا أن يمنعهم ما فى نفسهم من الانتفاخ الكاذب عن أن يروا حقيقة قيمتهم. تحادث هاته الفتاة فتجدها واسعة العقل تكلمك بما يدل على قوة حكم ونفاذ بصيرة لا يمثل ذلك التعصب والضيق العقلى الذى يصل أحيانا إلى حد الحماقة مما نشاهده عند بعض اخواننا.

لذلك كان اسفى على المصريات أشد. وإنى اعتقد أنهن لو خرجن إلى الوجود الحي واختلطن بالرجال وخبرن بذلك كل ما فى الحياة لوصلن لخلق شخصية لأنفسهن وفى الوقت عينه هذبن الشبان وبعثن إلى قلوبهم إحساسا بمعنى الحياة الانسانية التى تحوى غير الشهوات الضيقة التى لا يفهم شبابنا غيرها.

٨ ديسمبر

كان عندنا الليلة خمسة من أصدقاء ربة البيت دعتهم للعشاء ـ ثلاثة سيدات وسيدان. ولقد جاءوا جميعا قبيل الموعد المضروب للطعام إلا واحدا منهم تأخر عنه عشرة دقائق. فلما دخل اعتذر وقمنا بذلك لغرفة الأكل وأخذ كل مكانه حول المائدة.

وقد كان بجوارى فتاة فى العشرين من عمرها لم أعرفها من قبل وإنما قدمت إليها ساعة حضورها. وهى وسيمة الطلعة معتدلة القوام نحيفة. لكن أجمل ما فيها اتقانها لهندامها فنرى ما تلبس على بساطته يكسبها رونقا بديعا. فتوب سماوى اللون ينساب دقيقا من كتفها إلى قدمها وينم فى انسداله عن خطوط الجسم الذى تحته. وكمّاها القصيرين يظهر من تحتهما ذراعان جميلان حقيقة. وكل ما عليها بسيط وغاية فى الجمال.

وجلست تحادثنى عن الشرق وعن مصر. ولقد أخبرتنى أنها ذهبت إلى تركيا ودخلت الحريم التركى وجعلت كالكثيرين من ابناء جنسها تمتدح هذه السعة الشرقية وهاتيك النساء المكسالات. وكم وصفت لى ما رأت من بسط ذات قيمة وأستار وأقمشة. ثم لما جاء دور مصر سألتنى ما لو كانت الحياة هناك كما فى تركيا. ولكن ما أسرع ما تركنا هذا الموضوع لنتكلم عن مخلفات المصريين القدماء ـ عن الأهرامات وعن الكرنك وعن الموميات القديمة. وكأنا نحن المصريين لا نجد فى الحاضر ما يستحق أن يذكر فيسرنا أن نبقى نتمدح بالايام الخالية وأثارها. فتركت لنفسى العنان أذكر كل ما أعرف عن بقايا أجدادى الفراعنة وأظهر ما تحويه معلوماتى الضيقة عن عظمتهم التى كانت.

وانتهى العشاء فى هذا وسواه من بعض الحديث مع بقية من على المائدة فانتقلنا إلى الصالون وجعلنا نتحدث ويحكى كل بعض ما يعرف. وقد انفصل عن الجمعية إلى ركن منفرد المسيو ج. ب. ومدام هـ.ج وبقيا هناك يتحدثان وحدهما. ولقد شغل ما ظهر من الروايات الجديدة القسم المهم. واثنت ربة المنزل على كتاب (بواليف) «الفتاة الحسنة التربية» La jeune fille bien `elevée

وعطفت بكلمة على المؤلف نفسه قائلة إنها قابلته وإنه رجل ظريف ولطيف. فلاحظ أحد الحاضرين مبتسما:

ـ لعل ظرفه ولطفه دخل فى تقدير السيدة لكتابه.

ثم انتقلوا إلى الحديث عن التياترات وما يمثل فيها. وأخيرا قامت إحدى السيدات إلى البيانو وعزفت عليه جملة قطع منها وربما كانت أحسنها قطعة (سوبيه) الشاعر والفلاح Poete et pay san. ونحو الساعة العاشرة ونصف استأذن بعض الحاضرات وانصرفن وبعد أن انتهت ضجة انصرافهن سألنى المسيو ل. ب. وهو شخص لم أعرفه من قبل عن بعض ما يخص الديانة الاسلامية. ولما انتهيت من جوابى أخذ يتكلم بعدى المسيو ج. ب. فقال:

ـ ما أقرب الأديان جميعا من بعضها. لذلك أحسبنى أتنبأ لها جميعا بمصير واحد. وهو أنها ستضطر يوما ما لأن تطأطأ رأسها أمام العلم وما يثبت من الحقائق المبنية على الملاحظة والنظر. وأحسب أن الدين قد قام إلى اليوم بأكبر ما يجب عليه فآن له أن يتنحى لما هو أصلح منه للبقاء.

فأجابه آخر من الجماعة:

ـ أظنك تغالى بعض الشيء. فإنه لا يزال فى الإنسانية جماعة يحتاجون التعاليم الدينية ليسيروا على مقتضاها كما أنهم يحتاجون عقائد الدين لتكون لهم عزاء عند الشدائد. أرأيت لو أن الواحد من جماعة السذج ترك الاعتقاد ألا تراه ينغمس فى الشهوات ويرتكب الجرائم وإذا أصابته مصيبة أسرع إلى الانتحار. أو أنك تريد أن تقول لى كما يقول بعضهم ـ وماذا لو انتحر ثم ماذا لو انغمس فى شهواته؟ أظنك تقدر مبلغ ضرر ذلك على الجمعية.

المسيو ج . ب:

ـ لا لا . أنا لا أقول لك وماذا لو انتحر ثم ماذا لو أجرم. ولكنى أقول لك إن الرجل مهما تجرد عن عقيدته فإن غريزة حب الحياة المركبة فيه تمنعه منعا مطلقا عن الانتحار. وما كفت العقيدة الدينية يوما لتصد مجرما عن أجرامه

ولكنما تصده الأنانية الطبيعية فى النفس والتى تدفع الواحد إلى الاحتفاظ بما فى يده فهو يريد أن لا يعتدى عليه غيره ولهذا السبب هو لا يعتدى على غيره. وإنما جعلك وجعل بعض الناس والكتاب يقولون ـ أنها العقيدة الدينية وتعاليم المسيحية هى التى تدفع لهذه الأمانة ولتلك الشجاعة لأننا ربينا جميعا من الصغر على أن نقول ذلك. ويقف عقلنا عند هذه العقيدة فلا يستطيع أن يفكر بحرية فى إيجاد طريق منتج لإصلاح المجرم أو لتطهير الجمعية من الفساد.

ولقد أدخلت هذه التربية الدين فى تركيب الناس بالزمان حتى أصبح مع أنه بنيان خاص أمام البنيان العام الذى هو الأخلاق La morale مغتصبا لحقوق هذا البنيان العام وصار يكفى أن يقال فى بعض البلاد ـ أن فلانا لا دين له ليحكم عليه بأنه لا أخلاق له. ولاشك فى أن هذا خلط غريب. لأن القواعد التى يتفق فيها الدين والأخلاق هى قواعد الأخلاق ولم يكن أمر الدين فيها إلا تقريريا. فالفضائل القديمة الموجودة قبل أن يوجد أى دين معروف هى من الأخلاق وإنما أخذها الدين عنها وأذن فتطبيقها هو من تطبيق قواعد الأخلاق. وبما أن تلك من خلق بنى آدم ألجأتهم إليها ضرورة الاجتماع فيجب أن يكون لهم حرية التصرف فيها كما تقضى به مصلحتهم.

لهذا السبب أحسب أن من أصدق النظريات وأمتنها فى التطبيق رأى علماء التربية الاستقلالية القائل بأن لا يلقن الصغير من أوليات أيامه حتى الثامنة عشرة من عمره شيئا من الدين مطلقا وأن يترك حر الفكر إلى آخر درجات الحرية يتصور كما يحلو له ويثبت النظريات وينقضها بما توحى له به نفسه ويشهد به أمامه الواقع. ولم أر أقتل لحرية الفكر ولا أشد إيقافا للقوى العاقله أكثر من موانع الدين والاعتقاد ـ ليكن الدين حرا مهما يكون وليسوغ للإنسان النظر والتفكير كيفما يسوغ فإن قيوده الحديدية التى توضع فى رجل الإنسان من يوم ميلاده قيود ثقال ما أصعب التحلل منها وما أمره على النفس. بل أنا لنجعل غايتنا دائما حين نفكر وحين نتناقش وحين نكتب أن نصل

للنتيجة التى قررها الدين من قبل لا إلى تلك التى تنتجها العلل والأسباب التى تقع تحت حسنا. وقليل منا الرجل أو الكاتب الحر الذى يبتدئ من المقدمات ليصل إلى النتائج لا أن يضع النتائج ثم يرجع لخلق مقدماتها...

واستمر الرجل كذلك مدة كأنه قسيس حرية الفكر أو إن شئت قسيس اللادينية. والقوم أمامه كلهم آذان يستمعون وعليهم سيما التسليم والاحترام لا ينبسون. والسيدات منهم أصخن كما يصغين لواعظ فى الكنيسة. أما خصمه فقد تأثر بسكينة القوم وأصبح هو الآخر منصتا سميعا.

ولما أتم كلامه كانت الخادمة قد أحضرت زيزفونا Tilleul قامت ربة الدار بتحضيره وانتقل الموجودون إلى أحاديث أخرى وانتهت الليلة كأحسن ما يكون.

٣١ ديسمبر الساعة الحادية عشرة مساء فلم يبق من العام إلا ساعة واحدة وها أنا أسأل نفسى إلى أين يذهب العام الماضى وبم يجىء العام الجديد. وبكلمة أخرى من أجل ماذا يعيش الإنسان.

مسألة المسائل وكبرى المعضلات. هى المسألة التى حار فيها الناس جميعا ولم يجدوا لها جوابا شافيا. يجيلون بصرهم لما هم فيه فلا يجدون إلا جدا ولغوبا وقليل من ساعات السرور التى تفرض نفسها فتأخذهم الحيرة فى معنى الوجود. وساعات السرور هذه هى الساعات التى ينسون فيها أنفسهم فكأنما هم أشقياء ما ذكروها. ومع ذلك هم على الحياة دائبون ـ فلماذا يعيشون؟

قال قوم إنما يعيشون ليعبدوا الله. أفإن كان ذلك فما كان أغنى الله عن أن يخلقهم. وقال آخرون إنما خلقوا ليسعوا فى الأرض وليأكلوا من ثمرها. وربما كان هؤلاء أعقل.

وما أشبه الإنسان يحيى ويعمل ويموت ثم يخلفه غيره، ما أشبه حياته وعمله ومماته بلفة الطنبور فى المعرض الزراعى ـ يأخذ الماء من الحوض ثم يصبه ثانية فيه وما عمل شيئا. يوم يهدم الحوض يذهب عمل الطنبور. وأغرب ما فى الإنسان جنونه بالذكر الخالد. أليس هذا الذكر أشبه شىء برنة المعدن إذا دققته، والحياة بما فيها من الأعمال هى تلك الدقة. فها هو المثل المحسوس أمامنا ـ أى شىء تستفيد الدقة من الرنين مهما طال أمده.

٩ يناير ١٩١٠

لعل أصدق ما قيل عن مصر أنها بلد العجائب. ليس ذلك فقط لأنها أرض الأهرامات القديمة. بل هى كذلك أيضا فى شكلها الجديد الحاضر. ويظهر لك هذا سواء أخذتها من جهتها الفردية أو الاجتماعية أو العملية أو العلمية. هى عجيبة فى كل أمر من أمورها. أن تبصرها بعين سطحية يأتيك على الفور خيال مما فيها من المدنية والحضارة وأن تقرأ ما فى بعض صحفها من النقد تظن أن بين أبنائها أحرار الفكر حقيقة فإن أنت وصلت إلى شىء من حقائق هذه المسائل لم تجدها كما رأيتها. أما مدنية البلد فليست لأهلها بل هى للأجانب عنها كذلك ما فيها من علم وتفكير. ولو رفعت المدنية الأجنبية بجذورها من مصر وتصورت البلد وطنية لرجعت بها إلى الوراء القرون الطوال. ذلك حق عام يصدق حتى فيما يختص بالحكومة ـ ارفع منها الأجانب تصبح نظارا وموظفين عالين جدا وموظفين واطين وينتج عن ذلك أن تكون حكومة استبدادية كحكومة المماليك. ارفع المعلمين الأجانب من المدارس الثانوية والعالية يبق معك الشيوخ وقليل ممن أدخلوا جديدا من بعض المدرسين فترجع بذلك إلى عهد الجوامع القديمة وحلقات الدروس التى اندرس أثرها. ارفعهم من الأمة جميعا ترجع بالبلد إلى فقر مدقع وأسفا على مصر.

فلاحها اليوم هو فلاح الفراعنة! علماءها هم علماء جوهر الصقلى حكامها نسخة من المماليك! وتريد مع كل هذا أن ترجع إلى الوراء فتتخذ مثل حياتها من القديم! اللهم قد جعلتنا الأعجوبة التى يتفرج عليها الناس كل هذا الزمان الطويل فهل تجعلهم يوما يحدقون بنا إجلالا وإعجابا

١٠ يناير ١٩١٠

روميو وجولييت. يقدم الأوديون كل سنة من الروايات القديمة ما يحوز أكبر الثناء. وكان مما قدم فى هذه السنة رواية شكسبير: روميو وجولييت. ذهبت إليها وأنا شيق لمرأى الرواية ولسماع موسيقاها وكلى أمل أن أجد فى الأوديون ما أعهد. وأن مرسحا كبيرا يديره ماهر كانطوان ويمثل فيه جماعة من مهرة الممثلين لجدير أن ينال ثقة الزائر قبل أن يدخله. ولقد حقق هذه الثقة اليوم كما حققها مرات من قبل.

ذهبت أسمع أشخاص شكسبير يناجون الطبيعة المحيطة بهم والحب المالئ قلوبهم ويرتفعون إلى عوالم شعرية عظيمة يقصر دونها خيال جماعة بنى آدم. أسمع مدموازيل فنتورا فى دور جولييت تخطب لباريس ثم ترى روميو ويعجب كل منهما بصاحبه فيتناجيا تحت ستار الليل الممتد على الوجود، ومن شرفة دارها تخاطب الصب المتيم وكل منهما يجد فى تلك المحيطات العذبة والنجوم الطالعة والكواكب اللامعة بشير خير لهما ثم يأتى الصباح ويطارد الفجر الظلمة ويفترقان ولا يلتقيان إلا بعد أن يقتل روميو ابن عم محبوبته آخذا بالثأر عن صاحبه. ويبلغ الخبر جولييت فيقيمها اليأس ويقعدها. ويزيدها يأسا أن تعلم أن روميو سينفى.

هيه جولييت. مات ابن عمك وسيلقى إلى القضاء محبوبك. ها ظل سعادتك يتقلص وها حياتك تأتى عليها العاديات. أيا ظلم السماء هلا لقيت لينزل عليهم غضبك إلا المحبين، وهلا فجعت غير جولييت وروميو.. ما أحر بكاء الفتاة وما أكبر يأسها. إن قلبها الشاب وصدرها لايزالان صغيرين لتأكلهما نار الحزن ويروح بحياتها الأسى المبرح. وروميو يترامى على أقدام القسيس ويكاد يموت جزعا حتى تأخذه مربية جولييت إليها ليقابلها للوداع وليذر على ثغرها القبلة الأخيرة ذكرا لحب آخذ بالفؤاد.

وبعد الإقصاء والنفى وانفراد الوالهة حسرى جازعة، يدهمها أبواها بنبأ زواجها بباريس. ويقف أبوها وقفة العنيد قد انتزعت من قلبه كل رحمة يخيرها

بين الخضوع أو أن تذره إلى حيث تشاء. تتكفف أو تختنق أو تفعل ما تريد. وأمها لا تكلمها من بعد ذلك بكلمة ومربيتها تقول لها أن تقبل باريس زوجا لها وتصبح وحيدة كل عزاءها حبها وكل أملها أن تبقى لمحبوبها أو أن تموت.

فى تلك الساعة المذكورة حين يستولى على الفتاة البالغة اليأس والأسى تظهر الممثلة فى أبدع ثوب وتستدر العين رحمة. ويهتز معها القلب وتهون الدمعة أن يرى الإنسان غض الشباب الزاهر يتوجه الحب الطاهر مهدورا حتى من آبائه وأقرب الناس إليه. ولم يبق من ينجد جولييت من موقفها إلا القس مستودع أسرار السماء والمالك بيده مفاتيح العزاء.

يعطيها رجل الله مخدرا يميتها أربعين ساعة ويعمل جهده أن يبعث لروميو من يأتى به. ولكن الخبر بلغ روميو قبل ذلك ويصل ويقتل باريس ويشرب السم ويموت قبل أن تقوم هى. ثم يأتى الشيخ فيوقظها فترى صاحبها مبتسما فتنطرح عليه وتأخذ بيدها زجاجة السم فتجدها فارغة ولم يبق روميو لها فيها نصيبها فتقبله علّ ما على شفتيه يصل بها إلى الأبدية حيث تراه. وأخيرا تقتل نفسها بالخنجر الذى قتل هو به باريس.

وبين أحجار المقابر المخوفة وتحت غطاء الليل العظيم انطرحت ميته إلى جانبه وماتا هكذا شهداء الغرام.

رحمة بهاته الأرواح يا الله إن كانت ستصعد إلى سمائك. وإن كان للفناء مصيرها فما أقسى الوجود.

١٢ يناير ١٩١٠

من أهم ما ينقصنا نحن المصريين فى مصر الشعور بوجوب التجديد L'esprit de nouveauté . ينقصنا فى كل مسألة من المسائل وعند كل طبقات الجمعية. فلا ترى فى البلد إلا طالب للرجوع واتخاذ المثل من العصور القديمة ويجاهد قدر المستطاع للتوفيق بين رغبته هذه وما يسميه هو مصلحة البلد. تسرى تلك الروح الرجعية فى نفوس طبقات الأمة المختلفة. ويجهرون بها على رؤوس الأشهاد وينادون فى الوقت عينه بأنهم يرجون التقدم إلى الأمام. تعبث بكل موجود من الموجودات إن بالعائلة أو الحكومة أو الفرد فى ذاته كما تعبث بالتعليم والتجارة والصناعة والزراعة. تعبث بالأجسام كما تعبث بالعقول والأرواح ولا تقف عند حد رغم أنف أحسن المفكرين والكتاب المعتبرين عندنا. فإن دفعهم تفكيرهم وأظهروا للناس جديدا انهال عليهم الآخرون وما أسرع ما ينسحب ذلك المفكر هاجرا وراءه رأيه.

كنت عند صديق من أيام ودار الحديث حول العائلة. هو وأنا وكل مصرى مقتنع بفساد نظامها الحاضر. وهو والكثيرون من أمثاله لا يجدون حين يريدون الأصلاح إلا الرجوع لبناء عائلته على نظام العائلة العربية التى كانت موجودة فى صدر الإسلام. وماذا كان نظام هذه العائلة؟ هو لا يعلم والأكثرون من أمثاله لا يعلمون. لذلك لم أجد صعوبة فى إقناعه بالأقلاع عن هذا الرأى وبأن الاصلاح يجب لينجح أن يكون أساسه الحاضر وما يحيط بالحاضر من مؤثرات الوسط والمدنية. والواقع أنه لو تدبر هذا الأفندى وغيره أمر العائلة القديمة العربية ونظامها النصف بدوى عند طائفة والترف الفاسد عند طائفة أخرى لما تاقت نفوسهم لها. ولكنهم يسمعون أن بعض النساء عند العرب كن متفوقات فى الشعر وبعضهن كن يواسين الجرحى فى الحروب فيجىء إلى نفوسهم خيال غريب من هؤلاء النسوه ويريدون أن تكون العائلة المصرية كالعائلة العربية وكأن حياة العائلة يدخل فى نظامها قول الشعر أو مواساة الجرحى.

غير مسألة المرأة مما تحتله الأفكار الرجعية احتلالا ظاهرا مسألة اللغة. يريد الرجعيون فوق أن تبقى قواعد النحو والصرف على ما وضعها أبو الأسود من

ثلاثة عشر قرنا مضت أن يحفظوا صيغة اللغة كما كانت أيام العصر القديم. ويريدون أن تبقى قواميسنا قاصرة على ما كان فى العهد الأول وكأنهم ما علموا أن اللغة نفثه من روح الأمة تظهر فيها أفكارها وأحساساتها ولباس من ملابسها يضيق ويتسع بمقدار ضيق أو اتساع حاجيات الأمة وكمالياتها. ويعلم الله لولا أن كلمات تدخل اللغة رغم أنف هؤلاء الرجعيين وتندمج فيها لمطلق حاجة الناس إليها لكنا أشد فقرا مما نحن اليوم. ولو أن عندنا روحا كريمة تحس بحقيقة حاجاتنا لكانت هذه الكلمات الجديدة التى نجىء بها من لغات أخرى أو التى نشتقها من لغتنا أضعاف ما هى عليه اليوم. غير مسائل اللغة والمرأة مسائل كثيرة. وما رأيت مسألة عندنا أصبحنا ندعو فيها للتقدم إلا ما أرغمنا عليها منافسة الأجنبى لنا فى أمور معيشتنا. وما أظن الحياة القائمة على مثل هذا الدافع الواقفة دونه حياة تبعث للنفس الأمل أو للقلب السرور.

٢٣ يناير ١٩١٠

تلك الأرض فى كفنها أم هى الطبيعة تهيىء نفسها وتلبس لعرسها. وذلك الشيب يصيب الأشجار من قدمها إلى رأسها أم تلك الحياة الجديدة تتمشى فى عروقها.

أثلجت السماء وبعثت على البسيطة وما فوقها جلبابا أبيض يغطى كل سطح من سطوحها. ولقد كنت إذ ذاك أعبر الطريق وكأن لم ترض على بردائى الاسود أو كأنها غارت فيه من لون الشباب وقد أكهلتها القرون فعملت لصبغه بياضا. وتلك أول مرة سمح لعينى فيها أن ترى الجو ممتلأ كله باجرام بيضاء صغيرة لو لم يكن فيها لين الملمس لقلت شهب تساقط على أرض مجرمة أو ملائك تهبط لاسعاد الأشقياء. أو كأن الشتاء فى قوته لم يرض أن يكون أقحل مجدبا فجاء من الزينة بما يضاهى به جمال الربيع وإن كانت زينة مستعارة لا تلبث أن تسقط وتظهر الطبيعة ثانية جرداء كشراء كالمرأة القبيحة تجمل وجهها وما هى إلا أن تسقط عاريتها ويظهر للناس قبحها. ولكن الخير أن يجنى الإنسان من كل شيء أحسنه، لذلك ذهبت بعد غدائى إلى حديقة اللكسمبور أرى فيها زخرف الشتاء وقد تمتعت العين فيها بزخرف الربيع.

دخلتها فكأنما دخلت معبدا أصبح بين الآثار لا نسمع فيه رنة ولا طنينا، أو مقبرة مهيبة تجددها السماء. وسلكت طريقى فوق الثلج منسوج على بساط الحديقة لين تحت القدم وتماثيل الرجال أعطتها الطبيعة من الشيب ما ضنت به يد الإنسان وغزال نسج الثلج غرة فى جبينه وأشجار الزهر وهبتها السماء من نرجسها ما ضنت به الأكمام. وبعث الله من فوق علامة المساواة على أرض فرق الناس بينها فأصبحت تراها ولا تميز فيها بين طريق دقته الأرجل ولا مفارش الحشيش بل كلها مسطوح ناصع البياض كأنه قلب الطفل لم يدنسه عالم الناس والمادة.

وبقيت فى الحديقة زمنا وأميل أحيانا فآخذ الثلج بيدى وهو فى لينه كأنه القطن الأبيض فإذا ما ضغطته تجمد حتى يتحجر ثم قذفت به فروع الأشجار وهى بيضاء من جانب سوداء من آخر.

وما كانت السماء العادلة لتفرد مكانا دون آخر بجودها بل حيث قصدت من سهول المدينة وسطوحها ترى المنظر متكررا أمامك لولا ما يذيبه الملح فى الشوارع وما تقضى عليه أقدام السائرين.

٢٩ يناير ١٩١٠

اسطر اليوم حادثة من آلم الحوادث التى أصابت هذا البلد العظيم والتى لم تجد لها مثلا فى التاريخ من سنة ١٨٠٢ . ارتفع نهر السين فجأة وعلى غير انتظار وظل يعلو من ساعة لساعة حتى أصبحت الملاحة فيه غير ممكنة لعدم استطاعة القوارب أن تعبر من تحت القناطر وتعطل بذلك عمال الملاحة عن العمل. وظل النهر بعد ذلك يتزايد ويرتفع ماؤه من غير هدأة ولا انقطاع.

استمر يتزايد فاتصل ماؤه أولا بالشوارع المنخفضة ومنعت البلدية الناس عن المرور فيها. ولما كان عددها قليلا بادئ الأمر لم يكن شأنها من الأهمية بحيث تقلق له النفوس أو تتهيج الخواطر. لكن السرعة المتزايدة التى كان يعلو بها النهر جعلت تزيد فى عدد هذه الشوارع المسدودة يوما بعد يوم حتى إذا هى بالأمس شىء كثير. ولقد بلغت المياه أن وصلت إلى ما فوق ركب الخيل التى كانت تسحب عربات النقل فتنقل من يريدون الخروج من منازلهم. وحبس الناس عن بيوتهم وحبس عنهم طعامهم وكأنهم وما أجرموا فريسة هاته الطبيعة الهائجة. ولاح لى رابع يوم من هياج النهر أن أسير على جوانبه فاصطحبت صديقا وخرجنا حتى وصلنا الشاطىء. هناك رأينا الجموع الحاشدة ترمق بعيون ملأى بالغيظ والاسترحام ذلك الذى أزعجها عن سكينتها.

جعلنا نسير مع الشاطىء وفى اتجاه التيار تزحمنا أكتاف الجمع ونزحمهم حتى وصلنا (الكى دورساى Quai d'Orsay)[1] ومحطته. ولقد كنا فى طريقنا نرى الشوارع المسدودة والطرق علا فيها الماء فيأخذنا الهول. لكن ذلك لم يكن شيئا إلى جانب هذه المحطة ارتفع فيها الماء فلم يبق ظاهرا منها سماء ولا أرض إلا سلك التلغراف يمر من فوق الماء...

... وعند ذلك المنور الذى يطل منه الإنسان على الوهدة الأرضية موضع الحركة الدائمة ومسير القطارات التى تخرق جوف أرض المدينة يقوم فنار السكة

(١) أحد شواطئ نهر السين، وبه مقر وزارة الخارجية الفرنسية التى يطلق عليها هذا الاسم (الناشر).

الحديد ولايزال منيرا. وكأنه بلونه الأحمر يبكي دما على هاته الأماكن التي أغار عليها الطوفان فأخرس صوتها وقد شاهدها هو من قبل مكان العمل وموضع ضجة النازحين والقافلين من أهل باريس وفرنسا. كم كانت تزعجه بالأمس صيحات العمال أو تستبكيه دمعات المودعين فإذا به اليوم ينعى ذلك الصمت المطلق بعد أن خان المكان صوته واختنق بعبرته!!..

استمررنا في طريقنا والضجة هي الضجة والزحام هو الزحام. وعلى طول الشاطىء يرى الإنسان المستطلعين خبر النهر ومن بينهم العمال لم يبق لهم من عمل ينظرون بحنق وأسى وغيظ وحزن وتهيج واستسلام إلى ذلك الذى ربط أيديهم عن العمل وتركهم وكأنهم كسالى وهم ما عرفوا للكسل اسما ولا وجدوا إليه يوما طريقا. وظللنا في مسيرنا حتى وصلنا برج إيفل ولم يكن الماء قد وصل جدرانه بعد. ثم تخطينا النهر إلى الشاطىء الثاني. وأردنا أن نسير معه ولكن امتلاء الشارع بالماء حجزنا عن إتمام ما نريد واضطررنا لنتخذ طريقا آخر ـ فصعدنا سلما عاليا جدا أنهكنا. وبعد سير طويل رجعنا إلى الشاطىء ثانية.

ولقد جعلت أتردد من يوم لآخر بعد ذلك لأرى من شأن النهر وما أحدث وجدد. ولقد ألحق بالبلد أضرارا جمة. فقضى انقطاع الشوارع بانقطاع المواصلات فبطل عمل المتروبوليتان (سكة حديد تحت الأرض) وتعطلت الترامويات والأمنوبيسات والأوتوبيسات وعزت العربات فلا يسهل وجودها. كذلك انقطع عمل بعض التياترات بانقطاع الكهرباء عنها. وهبط عدد الزوار في التياترات العاملة. كما هبط وارد البلد من المطعومات.

٣٠ يناير ١٩١٠

ومن أعظم الأضـرار التى حـدثت دخـول الميـاه إلى (بدرونات) المخـازن الكيبـره كـاللوفـر والبـرانتن. ولقـد رأينا طولمبـة ترفع من مخازن اللوفر مياها غزيرة كثيرة لاشك أنها اتلفت قسما كبيرا من البضائع.

ولـم تختص باريس بأذى النهر فقد حصل فى الضواحى ضرر أكبر هز من إحسـاس الناس ودفع رئيس الجمـهورية أن يزورها ليـرى المنكوبين يرتعـدون فى البرد ويطلبون المعونة فيمد إليهـم يد مساعدة تعينهم على كبير نكبتهم بعد أن انهدمت بيوتهـم وانتبذوا بالعراء.

هذه هى المصائب التى أصابت باريس هذا العام. مصائب تألمت لها نفوس بنى الإنسان فساعدوا المنكوب وخففوا بذلك من عظيم ألمه لوقع المصاب.

١٠ فبراير

الحمد لله. الحمد لله ألف مرة... ما أشنع الحال حين تكون باريس خالية من الكهرباء والغاز. حقيقة باريس مدينة النور وهى من غير النور كالحة. انقطعت الكهرباء والغاز على أثر فيضان السين فدخلت البلد ـ بلد الليل ـ فى حزن ولبست الحداد. فكنت تمر أمام قهوة فترى المصابيح والشموع بلونها الأحمر الدامى كانها تبكى على أيام العز التى ابتعلها النهر فى جوفه. وكنت تذهب إلى الشوارع الكبيرة عند الأوبرا فيخيل لك أنك تسير فى مقبرة بعد إذ كنت لاتراها خالية لحظة من الحركة. والحمد لله عادت الكهرباء وعاد الغاز وعاد إلى باريس نورها.

بالله ما أحلى آية النور. ولئن سرت فى حلكة الليل نجوى الغرام وتدثرت الموجودات بدثره فإنما على موجات الضوء مسبح السرور والجمال والجلال.

وما أصدق قولهم أن للنهار عيونا. ومادام الضوء فالنهار قائم. فكم من إنسان اعتاد أن يرى بعينيه فى ضوء الكهرباء مالا مجال معه لغش أو تدليس ثم إذا هو حلف بعد أول ليلة من ليالى الشموع فى باريس أن لا يدخل قهوة حتى تدخلها الكهرباء واكتفى أن غش أول ليلة.

واليوم عاد النور وعدنا نسير فيه ومعنا عيوننا فنبصر ما أمامنا.

١١ فبراير

أخذت من عطيه اليوم هذا الكتاب

عزيزى محمد:

رأيت اليوم الكتاب الذى أرسلته لأبيك. وأنى أحمد الله الذى أنجاك من الطوفان من غير أن تلجأ إلى سفينة نوح. لو علمت كم أثارت هذه الحادثة هنا من الوساوس وكم بعثت من الأسى إلى قلوب ومن الشمات[لآخرين لما استخففت بها كما استخففت فى كتابك الذى أرسلت إلينا. ولكنك فى شبابك وسط مدينة الشباب قد نسيت ما تحويه هذه القلوب العجوز التى تحيط بنا.

أظنك تذكر تعلق أخينا.. بقريبته وسعيه للاقتران بها. وهو الآن أشد ما يكون بها تعلقا بل جنونا. تراه يقرأ رواية من الروايات التى تظهر عندنا أو يذهب إلى التياترو فيريد أن يمثل مع (فلانه) كل الفصول التى قرأ أو رأى. ولولا أن الفتاة بعيدة عن يديه لكان قد اختطفها وهرب بها ليمثل بذلك فصلا قرأه فى أحدى روايات مسامرات الشعب (على ما أظن) التى ظهرت أخيرا.

الحال السياسية هنا تتموج والجرائد تصيح لمناسبة ما تقرر من عرض مسألة قنال السويس (فيما يختص بمد أجل الشركة) على الجمعية العمومية. وكل صحفنا إلا القليل مما تعرف تحض على رفض المشروع. ويظهر أن بعضها قد درسه درسا مدققا مسهبا ويتكلم عن علم ـ (شىء غير عادى فى الصحف المصرية).

هذا ولعل الأمور عندك على ما تحب والسلام،

عطيه

١٨ فبراير

عزيزى عطيه:

لعل خطابى هذا يصلك بعد انفضاض الجمعية العمومية وتكون بذلك قادرا على أن تصور لى فى كلمة إحساس الناس نحوها وسلوك الأعضاء والوزارة فيما بينهم. كما أنى آمل أن يكون قرار الجمعية صادرا عن بحث ودرس وتقدير لمصلحة مصر لا عن مجرد إحساس تدفعهم إليه كتابات الجرائد أو رغبة فى إرضاء الحكومة طمعا فى رتبها ونياشينها.

والحال عندنا فى باريس فيما يتعلق بهذه المسألة غريب أيضا. فإن أخواننا المصريين هنا عقدوا اجتماعا لجمعيتهم وكلهم الحماس. ولا أنكرك أن قد سرت لى العدوى أنا الآخر. ولكن مصيبتى أنى أرجع بعد كل مسألة لنفسى أسألها عن حقيقة عملها. وأخيرا جمعوا جمعية ثانية ولم أرهم أكثر حماسا فى اجتماع منهم فى هذا الاجتماع. ولقد قررنا إرسال تلغراف للبرنس رئيس الجمعية أظنك قرأت خبره فى الصحف.

أما عن أعمال أخينا.. فلا غرابة فيها ما دمت تذكر أطواره السابقة وأحواله. هو من جماعة الذين يريدون أن يعملوا كل ما يسمعون أن الآخرين يعملونه. لذلك لا أعجب إذا علمت أنه اختطف مخطوبته وطار بها فى الجو بعد أن اخترعت الطيارات والبالونات.

لقد رجع إلى باريس كل بهائها وإن كانت بعض المواصلات لاتزال معطلة. وسأذهب الليلة إلى التياترو آمل أن أجد فيه رواية طيبة وممثلين كالذين نراهم دائما هناك.

وأهديك عظيم تحياتى والسلام.

محمد

٢١ فبراير

... بينما أنا جالس اليوم على المائدة أتناول طعام الغداء إذا المسيو ج . ب . يسألني إن كنت قد علمت بمقتل رئيس الوزارة المصرية. رئيس الوزارة؟ بطرس غالي ـ نعم هو. قتله شاب من المصريين الذين كانوا يتعلمون في جنيف واسمه إبراهيم ناصف الورداني.. من هذا الورداني؟ لا أعلم؟ ولماذا لم يجيء عن ذلك خبر بعد.

ترى ماذا ستعمل الحكومة إزاء هذه الحادثة؟ لابد ستتخذ أشد الأجراءات وستظهر من رهبتها في مظهر المنتقم فتثير الأرض والسماء وتقلب البلد من أولها إلى آخرها غيظا وغضبا.

واستفسرت ربة البيت عن سبب الحادثة فلم يكن بأسرع من أن أخبرها المسيو هـ . ج . إنما أثارها التعصب الديني ـ الوزير المقتول مسيحي والشاب القاتل مسلم وإذن فليس هناك شبهة في أن الدافع للقتل هو دافع الدين. ذلك ما فسرها هو به وما فسرتها به أيضا بعض الجرائد. ولقد جاهدت كثيرا لأنزل هؤلاء الناس عن رأيهم حتى أظهروا لي أنهم مقتنعون بما أقول. وإني لأعجب جدا كيف يحسب المسيو ج . ب . وأمثاله من جماعة الذين نزلوا عن رأيهم أن لا صلة بين المسيحي والمسلم إلا صلة الدين مهما عاشا على أرض واحدة. أنهم لاشك يحسون في أعماق نفوسهم أن للدين عليهم سلطانا وأنهم ينساقون إليه في كثير من معاملتهم لغيرهم. لذلك هم يدّعون على الغير في كل صغيرة وكبيرة دعوى التعصب.

٢٨ فبراير وردت الأخبار بتفصيل حادث مقتل بطرس باشا. ولم أكد أقرأ تقرير القاتل عن الأسباب التي حملته على ارتكاب جريمته واعتباره رئيس الوزارة خائنا لوطنه حتى بادرت أبلغها لربة البيت وللمسيو ج . ب . وأعدت الكرة لأقنعهم أن في النفس الشرقية شيئا غير هذا الخيال الذى يتصوره الغربيون فظيعا مريعا آخذا بها مستوليا عليها خيال الدين الحاض على التعصب وسفك دم كل كافر كما يزعم الأفرنج. أسرعت فأخبرتهم بذلك فكان جواب المسيو ج . ب.

ـ ممكن جدا أن يكون هذا صحيحا مادام هذا الشاب قد تعلم في أوربا..

فقط لأن هذا الشاب تعلم في أوربا لا تكون جريمته مبنية على أساس من التعصب الديني الشنيع! والآلاف والملايين الأخرى التي تسكن الشرق ولم يساعدها حظها أن تتعلم في أوربا كلها مسوقة بهذا الدافع في معاملاتها مع الغربي!.. ذلك ما يعتقده ويقتنع به عدد كبير من الأوربيين. وقد يكون في اعتقادهم شيء من الصحة. فإن الشرقي المسلم أو غير المسيحي الذى يرى هذا الأجنبي عنه في الوطن واللغة والعقيدة آتيا يستعبده ويبتز منه ماله ونفسه يرجع دائما لتكبير كل الفروق التي بينه وبين ظالمه. والدين أحد هذه الفروق ولا يستهان به؟. ولكن ليس معنى ذلك أن الإحساس الديني هو كل شيء في النفس الشرقية. بل معناه أنه سبب من أسباب الثورة ضد استعباد الغرب للشرق وصيحة داخلية في كل نفس حية ضد هذا الظلم الصارخ الذى ترمي به أوربا الشرقيين.

ماذا سيكون نتيجة قتل بطرس؟ وردتني كلمات في هذا المعنى مختلفة في لهجتها ومعناها. وعندي أنه رجل مات سيخلفه رجل! ما كان خيرا منه أو شرا منه. ودرجات الخير والشر لا نهاية لها.

٦ مارس كنا فى عزومة كبيرة هذه الليلة وكان على المائدة اثنا عشر شخصا ستة من السيدات منهن ثلاث فتيات وسيدة فى الخامسة والثلاثين ونَصفَ وعجوز. وكان معى من سنى شخص آخر والباقون بين الثلاثين والأربعين إلا واحدا فوق هذا السن وكان قائدا فى الجيوش الفرنساوية. وهو زوج السيدة النَصفَ وأب إحدى الفتيات. وزوجه تمتاز خلقتها بالوقار ولها نظره ثابتة. أما ابنتهما فهى أجمل الموجودات وأعذبهن حديثا ونظرة. ولقد يأخذ الإنسان العجب كيف ينبت هذا الجندى الجاف مثل تلك الزهرة اليانعة.

ولقد أخذت هذه الفتاة مكانها بينى وبين صديقى الشاب. وجلست عن يمينى السيدة النَصفَ وأحاطت هى وإحدى الفتيات بالمسيو ج . ب. أما الجنرال فقد جلس بين ربة البيت العجوز وبين بنت الخمس والثلاثين.

أعجبنى من عشاء الليلة مادار فيه من المحادثة. وقد امتازت بكثرة وسرعة تنقلها من موضوع إلى آخر وفى الوقت عينه بنوع من الدقة استلزمه الموقف فى أحيان كثيرة. وأنى الآن أجاهد لأستعيد هذا الحديث مقدار ما أستطيع.

الجنرال ــ حقيقة أن الإنسان ليتمتع بالطعام الذى يطهى فى بيت مدام ج .

زوجته ــ ولا تتمتع بالطعام الذى يطهى فى بيتنا... يا...

الجنرال ــ .. طيب !.. ــ نسأل مارجريت.

ابنتهما ــ أنا ماليش دعوه.

مدام ج ــ سيدى الجنرال لطيف للغاية. ولكنى أشهد أنا لمدام لاجنرال أن ما يطهى فى بيتها من أشهى ما طعمته فى حياتى.

مسيو ج . ب ــ هذا صحيح . ولا أنسى فى عزومتنا الأخيرة طبق الحلوى الذى قدم لنا فقد كان حقيقة مما يسيل له اللعاب.

مـدام ل . (وهى السـيـدة ذات الخـمس وثلاثين سنة) ـ إنا لا نزال فى الشربه فأرجوك أن لا تذكرنا بالحلوى من الآن. أو أنك من الذين يحبون أن يجمعوا بين الأول والآخر فى لحظة...

مس هارتمان (وهى فتاة ايقوسية الأصل حمراء اللون لعوب) لجارها ـ صحيح أنك تفضل جبال أيقوسيا على سويسرا! كم أنا مسرورة بل سعيدة أن أعلم أن معى أجانب يحبون جمال بلادى.

مسيو ج . ب. (يشاركهما فى الحديث) ـ يظهر حقيقة أن إيقوسيا[1] جميلة للغاية، فإنى وإن لم أذهب إليها قد أخذت عدة كرت بوستال منها وكلها لمناظر بديعة للغاية. وقد أخبرنى أحد أصدقائى الذين كانوا هناك الصيف الماضى رأى أنه فى (الهيلاندز) جمالا رائعا. ولولا أنه كان يشكو الوحدة بعض الشىء لأمضى فيها شهورا أكثر من التى أمضاها بها.

مارجريت ـ أظن أن الوحدة فى مثل هذه الأماكن الجميلة أشد ما يكون غضاضة على النفس . إذ أن نصف المتاع بالجمال أن نجد إلى جانبنا صديقا يشاركنا فى النظر إليه والأعجاب به. وإذا صح ما يقولون من أن الوحدة تدع للإنسان الحرية ليرسل بخيالاته وأحلامه إلى عوالم السعادة فإن صديقا طيبا هو أحسن ألف مرة من هذه الوحدة.

مدام لاجنرال (أمها) ـ أنت تتكلمين كفيلسوف كبير يا عزيزتى فألقت الفتاة بنظرها إلى الصحن أمامها ولم تجب. وأخذت الكلمة عنها مدام ل. فقالت:

ـ صحيح ما تقوله مدموازل. فكثير ممن عرفت من الرجال والنساء يخبرنى عن هذه الوحدة التى يحسون بها حين يكونون فى سويسرا أو فى السافوا. فإذا احتمل الواحد منهم يوما أو يومين مسرورا بالجمال المحيط به يجيئه اليوم الثالث

(١) ايقوسيا الاسم لفرنسى لمنطقة سكتلندا فى شمال الجزر البريطانيه (الناشر)

برغبة شديدة فى أن يكون إلى جواره صاحب يفضى إليه بما يفيض عن نفسه من الإحساس بالجمال الذى حوله...

مسيو ج . ب . والرجال دائما يحبون أن يكون هذا الصاحب سيدة رقيقة تزيد فى الجمال الذى حولهم جمالا ورقة.

مدام ل. ــ مش كده؟!

الجنرال ــ أما أنا فأسعد أوقاتى التى أمضيها منفردا حيث أكون.

مدام لاجنرال ــ بالله أليس زوجى غاية فى اللطف والرقة!

مسيو د (وهو أحد الرجال أصدقاء المسيو ج . ب) ــ يظهر حقيقة أن هناك جاذبية دائمة بين الرجل والمرأة وأن الأماكن الجميلة تزيدها قوة ونشاطا. فلقد كنت أحس قبل زواجى حين أجد نفسى إلى جانب البحر أو على شواطىء البحيرات أن شيئا ينادى دائما يريد أن يجد شخصا آخر إلى جانبى. أما الآن فقد ضعف هذا الأحساس لأنى قليلا ما أكون وحدى فإذا جاءت هذه الفرصة عددتها غنيمة لا تعوض.

مدام ج . ــ انتهيت قريبا من قراءة (دومنيك) للمرة الثالثة. وأنى لأجد فيها ما يعبر عن إحساس الشباب أحسن تعبير. حقيقة أنها رواية ظهر فيها قلم (فرومنتن) بقوته ورقته. رواية من أجمل ما يكون.

مدام ل. ــ آه دومنيك . كم أنا أحب هذه الرواية. وأحسبنى لو قرأتها عشر مرات بل عشرين بل مائة مرة لا أشبع منها. وما أنسى فيها هذه المسكينة مادلين ومبلغ ما عانت. وكم يعانى الإنسان فى الحب.

الجنرال (وقد جاء طبق الحلوى) ــ بالله هل طعمت فى حياتك حلوى أحسن من هذه. وهل ما أكلناه فى بيتنا المرة الأخيرة يوازى شيئا إلى جانبها.

مسيو ج . ب (لمدام ل) ــ وهلا تعجبك أيضا فى دومنيك أخت مادلين.

مدام ل ــ لا أستطيع أن أقول لك تماما ما إحساسى نحوها لأنى لم أكن يوما ممن يحببن هاتيك اللاتي يمرضن أو يمتن فى الحب. وازادنى ثقة بعقيدتى ما علمته من أن الحب قلب سريع الانتقال.

وأخيرا انتهى الطعام وانتهى بذلك القسم الأكثر لذة من الليلة. ولقد بقى بعض الزائرين إلى ما بعد منتصف الليل ثم انصرفوا.



(٣)

فى الرفييرا

١٦ مارس

من يومين صممت على مغادرة باريس إلى شواطىء المتوسط طلبا للراحة والرياضة وحبا فى زيارة هاته البقاع التى يتحدث الناس بجمالها. فأعددت معداتى وأخذت بالأمس القطار القائم من باريس الساعة التاسعة والدقيقة خمسين مساء قاصدا كلرمنت فراند Clermont Ferrand.
وكنت آمل حين رأيت القمر فى السماء أن أجد الفرصة لأمتع النظر بالأقطار التى نمر بها. لكن سواد الليل غطى على ضوء القمر وساعده البرد فغطى على زجاج النوافذ بثوب من البياض الذى جعل يتزايد كلما تقدم الليل. لذلك فضلت أن أنام. غير أن النوم فى السفر وتحيط بالإنسان ضجة الوابور واهتزازه الدائم ليس بالأمر السهل. لذلك قمت أكثر من مرة وسط نومى حتى إذا اقتربت الساعة السادسة واقترب معها مقصدنا قمت أتميز الوجود ولما أكد أرفع ستار الباب حتى إذا النور يسقط فوق الليل فيمحو آيته. وبعد سويعه تميز قرص الشمس الأحمر ما أبعد عهدى به. ظهر فإذا البسيطة نائمة تحته يكسوها ثوب أبيض من الظل الثليج. والقرص هادئ باسم يحيى الكائنات كلها ويرجو لها صباحا سعيدا بعد غيبته عنها. ثم هى كلها حيرى بعد أن ضربت فى تيهاء

نومها طول الليل تضرع للشمس أن ترفع عنها الغطاء فتبعث الشمس بأشعتها على هاته المسطوحات الواسعة المرسلة أمام العين إلى الأفق متموجة تعلو وتهبط وقد غطت وجهها الشجيرات الصغيرة.

ووصلت كلرمنت بعيد الساعة السادسة فذهبت من محطتها إلى الفندق فأخذت فيه طعام الصباح ثم خرجت أبغى التفرج على ما فى البلد.

خرجت فقابلنى أمام الفندق تمثال الجنرال ديزاى Desaix وتمثال آخر لقائد لم أعرفه وقد كتب تحته: «إنما حملت السلاح من أجل حرية الجميع J'ai porté les armes pour la liberté de tous ثم قصدت الكتدرال نتردام. وهى متسعة حسنة التوزان كل أعمدتها منقوشة ملأى بالتماثيل وأبدع ما فيها بابها الكبير الدقيق الصنع.

وانحدرت منها فزرت تمثال بسكال وهو رفيع يحكم المدينة من أعلاها وينظر بعيونه الجامدة إلى مسقط رأسه خرج منها فى القرن السابع عشر وظهر تفوقه وهو ابن ثمانية ومات فى التاسعة والعشرين وقد خلف وراءه أثرا لا يمحوه الزمان. أثرا فكريا يمثل فكر الزمان ما بقى الزمان.

من عند ميدان بسكال يمكنك أن تأخذ فكرة عن وضع البلد الطبيعى العجيب. البلد واقعة على مدخل (الأوفرن) Auvergne الجميلة تحيط بها من كل النواحى الجبال والبراكين الباردة. وهى بالذات مبنية فوق سفح فشوارعها تصعد واحدها فوق الآخر بنظام غريب حتى لترى فيها ثلاث شوارع لا يفرق بينها إلا تفاوتها فى الارتفاع: شارع مونلوزييه وميدان الأسبانيول القائم عليه تمثال بسكال وشارع أرفع منهما لم أصعد إليه. ويهبط منحدرا متدرجا إلى ما تحت شارع مونلوزييه حوار هابطة ضيقة سرت فيها على أمل أن أصل منها إلى الجبل فاستوقفنى la fontaine Petrifiante[1] حيث يتحجر كل ما ينزل عليه ماء هذا

(١) نبع التحجر (الناشر)

النبع على ما أخبرني مديره. إذ قال أن الحيوانات الطبيعية أو الأشجار أو ما سواها تبقى ينزل عليها الماء حتى تصير حجرا.

الأماكن التي تستلفت نظر الزائر قبل غيرها في بلاد فرنسا هي الكنائس والتماثيل والمتاحف. وهاته الأخيرة أكثرها استلفاتا للنظر فأنها تحوى من بدائع الفن ومن الأدلة الناطقة على ذوق أهل البلاد ومن الاثار التاريخية ما يأخذ بالفؤاد. لذلك أسرعت إلى متحف كلرمنت. وهو وإن بات صغيرا فإنه يحوى كثيرا ويحوى من كل شيء ومن كل ما يخص مقاطعة كلرمون. يحوى التماثيل والملابس والأحجار والنقوش والصور وكل هذه الأشياء الفنية التي يعشقها الفرنساويون والتي تربى إلى حد كبير الذوق والعقل والإحساس. ومن الصور التي أخذت بنظرى من القليل الذى رأيت صورة لغروب الشمس على شواطىء النرمندى والليل يسقط فوق النهار وتنساب ظلماته وسط الضوء المتضائل والشفق الأحمر يتفانى هو الآخر تحت قوة الظلام. كذلك صورة مثل فيها الشباب في صورة فتى غض جميل يلمح الإنسان على وجهه ذلك الأثر الذى تخلفه سن القوة والجمال وفى نظراته معنى الحياة والرغبة وفى شفاهه القبله الحائرة لا تدرى أين تقع.

على مقربة من كلرمون تقع روايا ويصل الترام ما بينهما. فلما نزلت منه صعدت أريد قمة الجبل ولكن بلغ بى الملال حين رأيتنى بعد أن أجهدت نفسى أرى القمة لا تزال على بعدها الأول. وإنما أمسك عليّ قوتى أن رأيت الماء يتخدد الجبل وينزل فيدير معامل غسيل أقيمت عند منتهى السفح. أمسك ذلك عليّ قوتى لأنى أردت أن أتبع الماء إلى منبعه. فتركت الطريق العام وما يحيط به من الصخر عن جانب ومن الوهاد المبنية فيها المعامل عن الآخر وسرت فوق العشب على عكس تيار الماء. ثم وصلت إلى مرتفع من الجبل قد قام فوقه الشجر وهو لايزال من أثر الشتاء أجرد فقيرا. فهالنى أن أجاهد لارتقاء هذا المرتفع وقد أخذ منى الجهد وكدنى السير. فجلست مستظلا بجزع شجرة

يدارى عنى قرص الشمس. وبقيت حول الساعة أرقب ذلك الماء المتدفق ينساب بقوة هائلة مدفوعا بقوة الانحدار وهو لا يقدر من أمره على شيء. ويرغى ويزبد لضعفه أمام الطبيعة فلا ينفعه أرغاؤه. ويظل فى انحداره حتى يتلقاه عند أسفل السفح عفريت السماوات والأرض ـ الإنسان ـ فيستخدمه لأغراضه ويحسب أنه مختار فى ذلك فى حين أنه ليس أقل من هذا الماء خضوعا لقانون الطبيعة العاتية.

وانحدرت مع الطريق المعتدل راجعا فأدت بى إلى منازل روايا. وهى عندى أحسن نظاما من كلرمون. وسرت إلى محطة الترام فقابلنى فى الطريق ما يسمونه الكوبرى الكبير وهو من غير شك حقيق بهذا الاسم. إن لم يكن بأفخم منه. فهو قائم فوق بطن من الأرض منخفض يرتفع عن سطحها خمسين مترا بالأقل. ويبلغ طوله أكثر من مائتى متر. وتمر من فوقه ومن تحته الطرق. وهو من الحجر قائم فوق عمد من الحجر يبلغ من خمسة عشر إلى عشرين مترا فى السعة ويضاهى بعظمته الآثار الكبيرة الخالدة.

ورجعت إلى كلرمون بعد أن قضيت النهار سيرا.

١٨ مارس

(فى الطريق من كلرمون إلى نيم). قمت من كلرمون بقطار الساعة السابعة صباحا وأنا أعلم أنى سأصل إلى نيم حوالى الساعة السادسة من المساء.. إحدى عشرة ساعة فى السكة الحديد! كيف يمكننى أن أمضيها وأنا وحيد؟... اصطحبت كتابا من حكايات موباسان وابتدأت أقرأه لأول ما تحرك القطار. الحكايات ألذ ما يكون ولابد سآتى عليها فى سويعات فما عسى أنا صانع بعد ذلك؟.

وبعد محطة من كلرمون ركب القطار معى شيخ فرنسى وجعلنا نتحادث ويسألنى عن مصر وينصح لى كما ينصح كل أوربى أن أطمئن للحكم الأنجليزى الذى ملأ بلد الفراعنة خيرا ونعمة... وله ولكل أوربى العذر فيما يقول... فعلى الشكل الذى يفهمون به الحوادث والأشياء من بعيد لا نعمة تعدل نعمة الحكم الأنجليزى عندنا. أمن سائد حيث لا تقوم مذابح يقتل فيها الأوربيون تقتيلا. ووفرة ونعمة لأن لمصر تجارة تزيد على أربعين مليونا وإن كان القسم الأكبر منها لا يتعلق بثروة مصر. وتعليم راق لأن هناك أسماء مدارس كأسماء المدارس العالية فى أوربا.. فماذا يريد المصريون فوق هذا؟

المصريون يريدون أن تكون مصر للمصريين.

وتركنى الشيخ بعد قليل ورجعت إلى كتابى. ولكنى لم أبق طويلا حتى إذا بالقطار دخل فجأة من ذلك السهل الذى كان يرمح فيه لتحيط به جبال عالية يبقى بينها يخرقها لحظة ويتهاوى على سفوحها أخرى تظله أشجارها من ناحية ويطربه خرير نبوعها من ناحية حتى يتخلص منها إلى نيم ويكون بذلك قطع طريقه وسط جنة منيعة ملأى بآمال الربيع وثلوج الشتاء.

تلك هى الأوفرن البديعة.

سار القطار بين جبالها يظهر مرة فتظهر أمامه حزون وبطون. وفوق الحزن تقوم الأشجار قاتمة اللون لاتزال فى مأتم الشتاء. وتصعد على السفح حتى تختلط هى والجبل بالسحاب الرفيع. وتتدفق فى البطون مياه المنبع متلاطمة

مرغية مزبده مادامت فى مبدأ نزولها من موضع رفعتها فإذا هى استوطأت مهادها الوضيع الغائر فى الأرض هدأت ورقصت فوق سطحها موجات لطيفة دائمة الابتسام كأنما هى حلم ذلك الماء المستسلم بعد ثورته.

ويبقى ذلك المنظر لحظة ثم إذا الجبل إنفتح بطنه وابتلع القطار فى جوفه فأحاطت بنا ظلمة تبددها المصابيح.. وبعد لحظة إذانا تحت السماء من جديد وإذا الخرير مستمر دائم وإذا هناك بين الصخور والأشجار سكة ضيقة يسير عليها أحد هؤلاء الجبليين وتتبعه بقرته. وهو فى وحدته ساكن العقل والنفس ينظر بعيون كلها الاستسلام وعدم الاهتمام لذلك المنظر الذى يرى كل يوم.

ويتكرر المنظر الجبلى المستوحش أمام العين ولكن فى أشكال مختلفة جذابة كلها تأخذ بالقلب والفؤاد وتستهوى اللب ويظل الإنسان محدقا بها مأخوذا بنشوة جمالها حتى يصل إلى غايته وقد سحرته الطبيعة وتمنى لو أن له كل يوم سفرة من كلرمون إلى نيم.

١٩ مارس الآن ابتدأت جولاتي بين المدن القديمة التي شهدت الرومان في أيام دولتهم. وإذا لم يكن لمصري مثلي أجداده الفراعنة أجداد التاريخ أن يهوله قدم فإن لهذه الأماكن ذات التاريخ البعيد لجاذبية لا أستطيع أن أتخلص منها. فتراني متى وقفت أمام بناء قديم احتلتني لمرآه هيبته وأخذ بنظري وسمعي وحواسي ومثل أمامي ذلك الأجل الطويل الذي يصل مبتدأه بأيامنا وذكرني بأولئك الذين استحالوا إلى الأرض ثم انتقلوا معها ومع الزمان وجاءت آثارهم ناطقة بالخبر الصحيح عنهم.

أنا اليوم في نيم هذا البلد القديم المملوء آثارا. لا يكاد الإنسان ينزل من القطار ويتدرك السلم النازل إلى الأرض ويسير في الطرقات حتى تقابله الآثار وتصل إلى نفسه ريح التاريخ. يحس مع أنه غريب عن البلد نازح إليه بجاذبية تدفعه إلى هاته الأماكن التي شادها الرومان بعضها للهوهم وبعضها لمنفعتهم. وكلما مر أمام أحدها وقف يحدق به مطيلا التحديق مستعيدا إلى رأسه المشاهد والأشخاص والأعمال والوقائع التي يعرفها عنهم.

أكبر هذه الآثار في نيم (الأرينا). والأرينا بناء هائل بيضاوي الشكل (طوله مائة متر وثلاثين وعرضه مائة ويرتفع عن الأرض عشرين مترا) بني في القرن الأول أو الثاني من الميلاد وعشقت أحجاره بعضها ببعض من غير أن تصل بينها أي «مونه» شأن كل الأبنية الرومانية الكبيرة. وقد أعده الرومان للهو فكان يقوم عندهم مقام المراسح عندنا. فنرى في وسطه دائرة بيضاوية ترتفع حولها المقاعد بشكل (امفيتياتر) خمس وثلاثون صفا كانت مقسمة أربعة أقسام. أولها لذوي المقام والثاني للشجعان والثالث للناس والرابع للعبيد. ويدخل إليها ببوابات كبيرة اتخذت فوقها أماكن لذوي المكانة والعظمة.

سوى الأرينا ترى في نيم البيت المربوع وهو كذلك أثر روماني من أبدع الآثار وأجملها وعني به أكثر العناية وقد قامت حوله عمد تزيده جمالا. واتخذ في هذه الأيام متحفا يحوي آثارا قديمة وأشياء حديثة وفيه مجموعة من النقود يرى الإنسان فيها نقود أغلب الأمم الحاضرة والقديمة.

هناك كذلك حديقة النبع Jardin de la fontaine وفيها معبد ديانا وهناك آثار أخرى كلها تبعث إلى النفس ذلك المعنى المهوب الغريب معنى القدم والفناء.

ولقد جاء صديقى ب. من مونبلييه إلى نيم لمقابلتى. وزرنا بعض هذه الأماكن معا. وآخر النهار سافرت إلى مونبلييه.

٢٢ مارس

ليس لى أن أكتب شيئا عن مونبلييه. فأنى وأن كنت قد بقيت فيها يومين وشهدت بعض الشيء من اثارها فلقد كنت مشغولا بصديقى ب. الذى أخذ كل وقتى ونفسى ولم يسمح لى المقام معه أن أعرف عن بلده أكثر من أنه بلد ريفى ككل بلاد الريف التى رأيت: ككلرمنت ونيم أو أقل من هذه الأخيرة بعض الشيء.

أما اليوم بين جدران آرل فأنى أحس بأقوى مما أحسست به فى نيم. تصورت أمام عينى كل معانى القدم والفناء ظاهرة واضحة فى هذه الاثار القديمة والأطلال الدارسة. وليست الأرينا وحدها التى هى أعرق فى البناء بكثير من أرينا نيم هى التى تدفع لهذا الإحساس. بل إلى جانب الأرينا تقوم بقايا التياترو الرومانى ولم يبق منها أحجار إلا منثوره واثنين من العمد الكثيرة التى كانت ونقلت إلى الكنائس والهياكل. والمنظر كله يشعر بالقدم البعيد وتحس وأنت واقف فى هذه الوحدة والصمت المطلق كأنما تناجيك من تحت الأحجار بصوت خافت تلك الأرواح البالية الفانية التى عمرت يوما ما هذه الأماكن.

أين ذهب هؤلاء الرومان الأقدمون؟ من يدرى. ابتلعهم الفناء فى جوفه الهائل ثم قذف بهم بعد ذلك أشجارا وحيوانات وجسوما انتقلت هى الأخرى مرات إلى الظلمة ثم ردت فى أشكال مختلفة إلى نور الشمس الذى شهدها فى غيرها من غير أن يحس لها من أجل ذلك بفرح أو ألم.

وهذا المرسح الدارس الصامت كان مكان الضحكات العالية والسرور الجم؟ وهذه العمد البالية كانت موضع الأعجاب بجمالها، وهذه الأحجار الضخمة موضع الهيبة وسط البناء، نعم كلها كانت كذلك. ثم ها هى اليوم ولا صوت لها ولا حياة فيها إلا حياة القدم المهيب.

والرومان الأقدمون كانوا سكان هذه الأماكن هؤلاء الناس الذين عمروا الأرض وانتشر عليها سلطانهم ولم يك لهم من منافس هم أشد صمتا من هذه الأحجار التى أرى.

وعلى مقربة من هذه الآثار ينصب نهر الرون قوى التيار وقد شهد هو الآخر كل هذه التقلبات وربما قذف مرات مع مياهه دماء وأشلاء وأشياء فى الماضى وهو مستعد لأن يقذف بالدماء والأشلاء فى الحاضر والمستقبل إلى البحر، والماضى والحاضر والمستقبل كلها عنده سواء.

ترى فى آرل متاحف تحوى الأشياء القديمة. وترى فيها سكانها المشهورين بجمالهم يروحون ويجيئون ويقضون حاجات الحياة من غير أن يفكروا فى هذه الآثار المطروحة تحت أقدامهم ولا فى الجمال المتوجة به رؤوسهم.

أقمت فى هذا البلد ليلة واحدة ونهارا وكنت فى كليهما ممتلئاً سرورا واعجابا ومهابة وأحلاما.

٢٣ مارس

من آرل إلى طولون.. لا شيء يستدعى النظر غير البحر الأبيض الجميل الزرقة الخفيف الأمواج.

من طولون إلى نيس.. أخذت قطار شركة صغيرة من طولون إلى (هيير) وأخذته لأنه يحاذى البحر فسار بنا من الصباح حتى الزوال بين البحر والجبل. والشمس تنكسر أشعتها على الأمواج زاهية تنسى الإنسان قتوم الشتاء العابس فى باريس. ومن (هيير) إلى نيس رجعت إلى قطار ال (P.L.M) وبعد أن كنت فى أرل ونيم بين الآثار القديمة تنبىء عن البائدين من بنى الإنسان أصبحت اليوم أسير بين آثار الطبيعة الهائلة الغريبة. بين جبال شامخة بعضها من الحجر الأحمر يقده الوابور كأنما يقد اللهيب وبعضا من حجر متعدد الألوان غريب الشكل. ووصلت نيس حوالى العصر.

٢٥ مارس

وصلتنى هذا الصباح البوستة المحولة من باريس وبينها هذا الخطاب.

أخي محمد

أكتب إليك والبلد تموج من أثر حادثة مقتل بطرس غالي. والحكومة تشدد النكير على كل من يظن صاحب أثر فيها والبوليس السرى يدور هنا وهناك وفى كل أنحاء العاصمة والناس جميعا فى انتظار نتيجة هذه الحادثة الفردية الغريبة الكبيرة.

أما أنا فهادئ بين هؤلاء جميعا وأنظر لما يدور بعين عودت أن لاترى في الوجود خيرا ولا شرا وأن لا تعتبر أكبر الحوادث التى يهتز لها الناس والحكام والعالم بأكثر مما تعتبر الحوادث الصغيرة التى تقع كل يوم لأنها لا ترى فى ندرة وقوع الأولى وخروجها عن المألوف من العظمة أو الغرابة ما يريد الناس أن يحبوه لها، ولا فى كثرة وقوع الثانية وصغرها ما يضعف من أهميتها أو يقلل من قيمتها.

وأنت فما رأيك فيما يقع هنا وماذا عساك وأنت بعيد عن التأثر بالحوادث تقول عنها؟ لعلك تخبرنى بكلمة تذهب بكثير من الآراء التى تشعبت وانتشرت في البلد وتجعلنى اطمئن لرأى فى هذه الحادثة التى يقولون ستكون ذات أكبر الأثر على مستقبل البلد.

هذا وأما عن خصوصياتنا فلا شيء جديد. غاية الأمر أنى كنت أفتش بالأمس فى دولابى فوقعت يدى على سبحة بلح مما كانت أحضرته عمتى ر. من الحجاز فصممت على أن أرسلها لك وانتظر أن أفعل. ويعدل هذه المسألة فى الأهمية أن كتاب صديقى.. كتب من أيام وهو أشد ما يكون جزلا. كما أنه بلغنى من أخبار البلد أن خالتى سعده مريضة وأن ما أحرق من البخور من أجلها وما دفع لقياس (أطرها) ذهب أدراج الرياح.

ولك منى تحيات لا يحصيها العد والسلام.

عطية

٢٦ مارس

أخى عطية:

كنت أريد أن أكتب لك بالأمس ردا على خطابك وعلى ما جاء فيه فلما خرجت بعد الظهر ورجعت عدلت عن ذلك لأنى رأيت شيئا أحسن ويستحق حقيقة أن أكتب لك عنه.

أنا هنا فى نيس مشتى ذوى اليسار ونزهة المنعومين أيام الأجازة، لى أيام. وغرفتى تطل على البحر إلى حد ما. ولكنى لا أكتفى بالمكث فيها بل أخرج كل صباح إلى سوق الأزهار وأمر من وسطه أتمتع بشذاه وبهيج مناظره وألوانه وأرتقى أحيانا بعض المرتفعات الغريبة من البلد لأسرح النظر فوق سطح البحر المكسو بلجين ضوء الشمس. أما ما بعد الظهر فأمضيه غالبا فى نزهات خارج البلد.

كانت نزهتى اليوم إلى مونتكارل. وفى طريقى إليها أخذت الترام الذى جاز بى قِل فرانش Ville Franche وبل فى Belle Vue وحتى مناكو. هناك نزلت من العربة وارتقيت مرتفعا ثم سلما حتى وصلت إلى قصر حكومة الأمارة (أمارة مناكو المستقلة). هناك وجدت ساعة تطل على البحر المتوسط من ناحية ويحيطها المبانى الممنوع الدخول إليها من أخرى. ومدافع صغيرة كالتى ترى فى ساحة عابدين مصوبة إلى البحر لا أدرى لم. ربما كان لأطلاقها عند المواسم والأعياد. إذ لا أظن أن قد جال برأس أهل مناكو أن يدفعوا مهاجما لمملكتهم لأنه لا يجول فى رأس أحد أن يهاجمها.

وتركت مناكو وذهبت بترام آخر إلى منتكارل. ولقد كان أشد دافع لى على زيارة هذا البلد حبى الفرجة على كازينو القمار فيها. ولكنى للأسف لم أقدر. فلقد طلبوا منى جواز سفرى ولما رأونى على ما سطر فيه لم أبلغ الثالثة والعشرين أبدوا أسفهم أن قوانين الكازينو لا تسمح بدخوله إلا لمن كان فوق هذا السن. وبذلك خرجت مضطرا أن أقنع بمنظر البناء الفخيم من الخارج ثم أن أجلس على قهوة قامت أمامه، وأمامها قامت حديقة مستديرة تقف حولها

العربات القليلة والأوتومبيلات الكثيرة وكلها تشعر بالثروة الوافرة. هناك نسيتك يا أخي ـ ولا مؤاخذة ـ ونسيت ما تسأل عنه. ثم التفت إلى أمامي فإذا ألماني لا يحسن إلا كلمات من الفرنساوية استطعنا على كل حال أن نتفاهم بها ونمضي سويعه معا وهو لا يدخل الكازينو لأنه يخاف أن ينقاد إلى اللعب فيضيع ما بقي معه بعد أن أضاع الشطر الأوفر وأنا لا أدخله حتى لأتفرج عليه لأن سني لا تبلغ الثالثة والعشرين فلا أستطيع.

هذه الجهات ـ نيس ومنتكارل والريفييرا كلها ملأى بالألمان وبالإنجلو ساكسون من الإنكليز والأمريكيين. لذلك كنت لا أكاد أسمع كلمة فرنساوية فيما حولي وأنا على القهوة بل كله دردشة ألمانية لا أفهمها وأنكليزية لا تكاد تخرج من أفواه أصحابها المقفلة فلا أتميزها.

وأخذت الترام الراجع توا إلى نيس. هنا كان موضع إعجابي إلى حد الذهول. في هذه المدة التي استغرقت نحو ساعة أنسيت خلالها كل شيء سوى ما كنت فيه. وهذا المنظر البديع الذي جادت علينا به الشمس في غروبها جعلني أتوه عن الفكر في أي شيء غيره ودفعني حين أردت أن أكتب لك إلى ترك السياسة وما سوى السياسة لأتلذذ بتسطير هذه المناظر المتعاقبة التي رأيت والتي احتلت من نفسي أكبر مكان.

ولكن هل أستطيع أن أعبر لك عما رأيت. هل يستطيع قلمي أن ينقل إلى هاته الصحيفة أمامي الجمال البارع المهيب. كلا يا صديقي إنه لعاجز.

في هذه الساعة التي أكتب لك تمر أمام مخيلتي الجبال والبحر والزهور وقرص الشمس كما رأيت من ساعات وأريد أن أطبع لك صورة لنفسي فهل أنا على ذلك قدير؟.. لأجاهد على كل حال.

أخذت الترام من منتكارل وأنا كما قدمت بين جماعة من الألمان والأنكليز. وسار بنا يحاذي الشاطىء فإلى شمالنا يذهب البحر المتوسط بزرقته البديعة تتكسر على سطحه موجات خفيفة وينحدر الشاطىء من حين لحين

مغروسا بالزهور تبعث للهواء بريحها العطر فتملأه رقة وشبابا. وعن اليمين الجبل قائم محدد الوجه أحيانا حتى ليكون قاسيا ومغطى بالزهر أخرى فيصبح ساحرا.

والترام يشق بنا هذه الجنات ونحن بها مسرورون. فلما اجتزنا فل فرانش إذا ضجة فى العربة تلاها سكون عميق وامتدت الأبصار إلى الغرب ذاهلة وفتحت الأفواه وعلا الموجودين الذهول. وتهت أنا عنهم وعن نفسى وجعلت أحدق بعيون ثابتة لهذه الشمس البديعة. هذه الشمس التى أرى الآن أمامى وهى مرتكزة بأسفل قرصها على الجبل كأنها منهوكة من أثر النهار، وقد ارتفع الدم واللهب إلى هذا الوجه الذى ظل سائرا حتى هدّه اللغوب. والجبل لفه شىء من ضباب تلك الساعة مهوب هائل يحمل القرص البديع وكأنه أشد ما يكون بذلك سرورا ونشوة.

والقرص الملتهب قد بعث إلى ما حوله بلون وردى بديع وطوق السحب المشتقة فى السماء بأطواق من لونه فصارت كأنها فى حلقة من نار أو سوار من ذهب وكلما ابتعدت تغير لون سوارها مائلا إلى البياض.

والشمس فى تلك اللحظة أبدع من كل ما نتصور. ألا ليت تلك الساعة دامت إلى الأبد. لانهار ولا ليل ولكن شمس متوردة ترنو للناس بعينها الفاترة ذاهبة إلى خدرها. وهواء يموج بالعطر ويبعث للنفس تخدرا وسكرة. وجبل نما فوقه الزهر وهو قريب تكاد اليد تلامسه. وبحر هائل تضيع العين دون آفاقه.

والقرص المتورد يخطو فوق الجبل ويختفى رويدا رويدا.

هذا عطية ما رأيت اليوم وما رأيت أن أسطره لك ولعلك تجد مثلى فيه من اللذة أضعاف ما تجده فى السياسة والكياسة.

محمد

٣٠ مارس

ها أنا مرة أخرى فى أحد بلاد الآثار. فى أفنيون. Avignon نزلتها ليلة الأمس فاتممت بها قراءة (مادام بوفارى لفلوبير) التى ابتدأت فى نيس. وزرت هذا الصباح قصر البابوات وهو أحد الآثار الرومانية التى تقلبت على الزمن فى أيدى الحكام فاستعملوه لأغراضهم. فمنهم من اتخذه مقاما. وآخرون جعلوه قشلاقا للعساكر. وها هو اليوم تصلح الحكومة الحاضرة من أمره وتريد أن ترده إلى مثل ما كان.

هل هنا موضع لنقل صحيفة من رواية اناتل فرانس (الزهرة الحمراء le Lys Rouge) حيث يقول: «أن من الآراء عند بعض المعماريين فى إصلاح القديم أن يعيدوا إلى أحجاره شكلها الذى وضعت به أول بنائها فى حين يقول آخرون أن من الواجب احترام ما صنع الزمن بها. وهؤلاء أفضل رأيا». ولكن تفضيل أناتل فرانس لهذا الرأى لم يجعله إلى اليوم متبعا فى تعمير الآثار التى ترد إلى شكلها الأول.

يقع قصر البابوات فى ناحية من البلد مرتفعة ويقوم قريبا منه بستان أو ما يشبهه فوق هضبة تجتلى منها أفنيون ونهر الرون وتتسلى فيها بمنظر المياه المنحدرة تتسرب هونا ما إلى المنخفض.

فإن أنت نزلت من هذه الأماكن الأثرية والطبيعية ودخلت إلى قلب البلد وكان ذلك بيوم ماطر كاليوم الذى ساقنى فيه الحظ لشعرت بأكبر السرور حين تدخل من باب دار الصور (المتحف) وتجتاز صحنها إلى البناء. فإذا صرت فى صالات هذه الدار المتواضعة الشكل القديمة البنيان المكسرة الأحجار نسيت البلد والمطر والدار وشكلها ورحت بكلك مسحورا بجمال ما ترى من الصور فيها.

رأيت أبدع ما يكون من النقوش فى الدور الأول بعد أن استوقفتنى مدة تماثيل الدور الأرضى. رأيت غروب الشمس فى ترمندى ورأيت مراتع الشاه ومسارح الصيد وكلها من ريشة نقاشين من أهل أفنيون. ولكن الرسم البديع

الذى استوقفنى أكثر من كل رسم آخرو. الذى أخذ منى وقتا أكثر من غروب الشمس ومن الأشجار والمزارع تلك هى القديسه العذراء جاث أمامها مستتيب.

لا أستطيع مهما جاهدت تصوير ما عليه هاته العذراء من الإبداع هى الخيال هى الأحلام هى الجمال هى الحب هى السعادة هى كل ما تشاء من جميل. فتاة دقيقة القوام حادة الأنف ساحرة العينين قد انسدل فوق جسمها الخصب ثوب فياض ثم لفّتها سحابة فستقية اللون أو هى سماوية وتشف عن ذلك الجمال البديع.. كنت كلما تركتها خيفة انتهاء الوقت وطمعا أن أرى ما سواها رجعت إليها غير مستطيع أن أفارقها الفراق الأخير وحدقت منها بتلك الصورة الملائكية الناطقة. وذلك المستتيب جاث أمامها ضارع يعبدها وهل هى إلا المعبود الأكبر.

لقد جال بنفسى أن أجثو أنا الاخر أمامها. أن أضرع إليها إلا سمحت لى بنظرة من سحر عينيها. ثم أرى أمامى حارس الدار فيعلونى ارتباك ويقف هو عنيدا دون ما أشاء وكل واجبه أن ينبهنى إلى فراغ الوقت.

حقا لو أن هذا الجمال على الأرض لعُبد. ولكنه على حيطان متحف أفنيون.

(٤)

فى باريس من جديد

٤ أبريل

عدت إلى باريس. الآن أتنفس.

كم تضايقت هذه المدة الأخيرة وكم شاقتنى حقيقة باريس. الآن أتنفس بعد الضيق. لقد أمضيت بليون ثلاثة أيام لم أذق لشىء فيها طعما ووجدتنى مدفوعا من كل جانب لأرجع إلى باريس.

نعم رجعت الآن إلى باريس ودخلتها بطقس ماطر وسماء عبوس وقصدت الدار ولا يعلم أحد ممن فيها بعودتى ووجدت غرفتى غير مرتبة وكل شئ على غير ما أحب. ولكنى أحس بابتهاج وسرور عظيم. أحس بهزة داخلية كلها الفرح. يخيل لى أنى رجعت إلى دار النعيم.. لماذا؟ لأنى رجعت إلى باريس.

حقيقة لقد قلت بعد أيام ليون:

وقد طوفت فى الآفاق حتى.. رضيت من الغنيمة بالأياب.

وإن كنت لا أنكر أن قد سرنى فى ليون خبزها.

رجعت فوجدت أهل البيت يستقبلون ضيوفا من معارفنا إلا واحدا من أصدقاء المسيو ج . ب. وهو مدرس فى كلية ديجون. ولقد سرنى كثيرا معرفته

لأنه فوق لطفه المتناهى واسع العلم دقيق الحكم. ولقد تكلم مع صاحبه فى مواضيع كثيرة فدل ذلك على ذكاء واطلاع نادرين.

تكلمت معه بعد ذلك فى مسائل شتى. ويعجبنى من هؤلاء الناس أنهم مهما اختلفوا معك فى الرأى فإنهم دائما يتمسكون بالحجة العلمية أو الاستنتاج المنطقى أو استقراء الحوادث. وإذا لم يك بعد ذلك سبيل إلى الاتفاق ترك كل واحد صاحبه ولكل عقيدته من غير أن يثور بينهما العجاج ومن غير أن يصل إلى أن يسفه كل رأى صاحبه. والواقع أن ليس على البسيطة رأى خال من الخطأ أو خال من الصواب. بل كل يحوى قسما من الحقيقة يظنه صاحبه أشد غلبة عليه حتى تظهر الأيام فساد ظنه.

١٠ أبريل

ألقيت الليلة فى الجمعية المصرية كلمة عن الحجاب وفساده. وكان خصما لى فى النظرية التى أقيمها نظرية السفور ط. أفندى وحكما بيننا ش. ب أفندى. لا يهمنى ما قلت وما قال خصمى ولا حكم الحكم ولكنما سرنى كثيرا ما دار فى هذه الجلسة. كان أخواننا جميعا وكلهم من الشبان شديدى الإحساس بما لنظرية السفور من القوة..ولكنهم مصريون والحجاب وما اقترن به من ذيوله المزعومة كالعفة وطهارة الذيل لا يزال يجول فى صدور البعض منهم. فإذا قام أحدهم تلعثم ولم يدر ماذا يقول. إن قال معى فلتسفر فتياتنا عرته هزة تدفعها الوراثة إلى نفسه. وإن قال فليحتجبن ذكر أنه كان مرة عزم على أن يتزوج فوقفت هذه العادة المشؤومة فى وجهه لأنه لا يستطيع أن يجعل شريكة حياته فتاة لم يرها ولم يعرف منها ولا من آرائها وميولها شيئا. وأخيرا قام ع. أفندى الفيلسوف وقرر نظرية الحجاب. ولكنه رأى وجوب الدواء لمسألة الخطبة. فاقترح أن ينظر الشاب الخاطب من ثقب قفل الباب إلى مخطوبته (هتاف وضحك).

وتتالى الخطباء بعد ذلك بحماس وحده. ويسرنى أن أقول أنهم جميعا طلبوا تحسين الحال. والواقع أن هذا الموقف الموجودة فيه المرأة اليوم موقف حيوان المتاع والشهوة أخس من أن يجد نصيرا يريد الإبقاء عليه. بل لا أشك لحظة فى أن فتياتنا اليوم يخجلن أن يرين أنفسهن موضع اعتبار كهذا.. يعلم الله لو سمعت أن أحدا وجه إلى مثل هذه التهمة الشنعاء لما ونيت لحظة عن طلب دمه ليغسل به ما نسب إلى من العار.

ولكن فتياتنا مسكينات ومعذورات. نعم إنى أعذرهن وأتألم لهن. ليس ذلك ذنبهن ولم يك ليدهن فى هذه الجناية عليهن من نصيب. وهن يحتملنها ميراثا أليما عن أمهاتهن وجداتهن.. ولا يرحم الزمن شبابهن. بل هو كعادته يريد المصاب مصائبا وذا الالم آلاما ويرمى على رؤوسهن اثقالا جديدة من الحجب اخشى أن ينؤن بحملها.

يونية ١٩١٠

أنا الساعة عائد من جمعية الطلبة l' associatian génrale des etudiants de Paris حيث كنا نستقبل كبير مشايخ كتاب فرنسا الحاضرة: اناتل فرانس.

ازدحمت الصالة بالطلبة وبعض الطالبات ساعة قبل الموعد المضروب لحضور الكاتب الكبير فكنت لا تجد مكانا خاليا. بل لقد وقف من لم يجد مقعدا فى الممرات حتى غصت بهم. فلما وافت الساعة جاء الرجل يحوطه جماعة من كبار العلماء والكتاب فى البلد: بول هرفييه والفرد كروازيه الخ .. وتكلموا ثم قام هو من بعدهم طويلا نحيفا ناحل الوجه أشيب ضعيف الصوت. لذلك فإذا كان لا ينازع فى عظمته الكتابية فهو بعيد عن أن يكون متكلما محسنا. وكان أول ما نصح به الشبان أن يفكروا. أن يفكروا كثيرا. أن يفكروا دائما. فمحال أن يفكر انسان ثم لا يصل إلى نتيجة أيا تكون من تفكيره. والنتيجة الموزونة التى امتحنها الفكر ذات أثر فى حياة العالم دائما.

انتقل بعد ذلك الى الحذر فعده أخس الفضائل وأنقصها. ذلك أن الحذر يلازمه الخوف والرعدة والتقهقر. فى حين يصل الإنسان بالإقدام إلى كل ما يريد. ومهما يكن فى الاقدام من الخطر فان خطره أقل كثيرا من خطر الحذر.

ونصيحته الثالثة للشبان أن يكونوا كثيرى الخيالات والاحلام والأمانى وتلك عندى أغلى نصائحه وأعلاها. تلك هى اللب واللباب من كل قوله.

بالمنى يصل الفرد وتصل الانسانية إلى أعظم مراتب السعادة. هو الحلم والخيال الذى دفع العالم من حيث كان فى درك الهمجية إلى حيث هو من التقدم والعظمة.

وختم كلمته بأن أشار إلى نص القانون الذى يحرّم على رجل التعرض لحكم صادر وذلك بمناسبة الحكم على هرفييه لتصديه فى جريدته للتعريض بنص القانون والحكم على أحد مجرمى باريس لأنه ضرب جنديا فقتله. اعتبر فرانس كل قانون يحد من حرية إبداء الرأى قانونا مجرما وقرر أنه مهما حوت

الكتابة مما يضاد عاداتنا ومعتقداتنا فالواجب ان تبقى حرة إلى اقصى درجات الحرية.

اختتم الرجل بذلك كلامه. وأرانى أوافقه على آرائه كلها بنفس السرور الذى أجده فى قراءة كتبه.



٨ يونيه

أخى عطية:

انتهيت اليوم من امتحانى الأول للدكتوراه ورجعت بذلك إلىّ حريتى وملكت وقتى بعد أن ملكته علىّ المراجعة والمذاكرة مدة من الزمن. ولقد دخلته وأنا أخلى الناس بالا وأقلهم بنتيجته اهتماما ولم أحسب حسابا لشئ أكثر من أنى مسافر غدا للندرة فالاحسن أن أذهب إليها مسرورا.

فى هذه المدة التى كنت أحضر فيها لامتحانى كنت أبعد الناس عن أن أفكر فى الخارج وما فيه من اللذة. وأنت تعلم شديد حاجة الانسان إلى ما يروضه حين ينهال عليه العمل فيثقل كاهله. ولقد كان ذلك أشد على نفسى حين كنت أرى من نافذتى أشجار حديقة صغيرة إلى جانب بيتنا تورق وتينع. فإذا نزلت قابلتنى اللكسمبور فى أبهى أيام عرسها زاهرة ناضرة كل شئ فيها باسم وضاح الجبين وعلى رأس كل شجرة تاج من الزهر أبهى من تاج العروس. ولكنى تعزيت هذه المدة بحادثة بسيطة لذيذة عوضتنى ذكراها عن الرياضة والنزهة وصرفتنى لعملى عن كل شئ.

أحسبنى أخبرتك قبل اليوم أن بيتنا مؤلف من أربعة أشخاص. ربة البيت والمسيو ج. ب وشاب فرنساوى فى التاسعة عشرة من عمره وأنا ولقد بقينا كذلك طوال عامنا إلا العشرة أو الإثنى عشر يوما الأولى من مايو حيث جاءت فيها إلى الجمع غادة كندية بنت سبعة عشر كاملة التكوين فاضافت إلى نضرة الربيع القادم وبعثت إلى وحدتنا نحن الأربع روحا جديدة شابة فياضة ربما كنت أنا أكثر الناس إحساسا بوجودها.

هذه الغادة هى مس بياتركس.

حضرت مس بياتركس إلينا أوائل أيام الربيع ذات ليلة ونحن جميعا صمت مشتتون فى الصالون. ودخلت مع أمها حوالى الساعة العاشرة وعلى رأسها قبعة انكليزية غطت بعض الشئ عيونها وظهر من تحتها خدودها المتوردة الزاهرة.

فلما جلستا أستأذنت وصاحبى الشاب وذهبنا إلى مضاجعنا ولم ينس أن يغمزنى فى الطريق: أليست جميلة صاحبتنا القادمة.

وأقامت معنا عشرة أيام أو اثنى عشر يوما ثم سافرت مع أمها إلى المانيا وتركت لى ذكرا جمع بين اللذة والشوق المر كان هو سندى أيام مراجعتى للأمتحان والعزاء الوحيد عن عرس الطبيعة الذى كان لا يفتر يجذبنى إليه ببديع جماله.

كم من لحظات كنا نقضيها فى الحديث وحيدين جنبا لجنب. سويعات بعد الغذاء قصيرة الأمد. كان يدور حديثنا عن مصر أو عن كندا أو عن مسائل من مثلها لا قيمة لها فى الواقع ولكنها كانت عندى الشهد المصفى وتركت ذكرا يحييه فى نفسى الربيع البديع.

وتعددت هاته السويعات وأحسست مع ذلك كأن نفسى تتفتح وقلبى يأخذه الخفقان بإحساس لا أقدر على تسميته لأنى لا أعرفه وشعرت كأن الوجود الذى حرمنى طول هذا العام كل متاع بمعنى الشباب جاد ففاض ببياتركس وبالربيع.

وأجدر هاته السويعات بالذكر سويعة آخر أيامها معنا وتكلمنى عن مصر وشأنها وتريد منى أن أكتب تاريخ أمتى فى قالب روائى. ثم تطلب ضاحكة أن أقدم باسمها رواية من هاته الروايات. نعم بياتركس. من أجل هذا الأهداء الذى تطلبين سأكتب تاريخ مصر مهما كلفنى وليكون ذكرا لأسبوعين سعيدين فى أيام الحياة.

آه يا عطية ما أحلى الحياة حين يسمح لها الخيال بالدخول إلى جناته. ولكن الخيال ضنين.

ولكم كانت بديعة هذه البياتركس. لقد كان فى خلقها البرىء وفى تلك السذاجة التى كانت مظهرها العام ما يجعلها حلما على الوجود. هى حقا الآتية

من كندا. من بين الغابات الهائلة والسهول الفسيحة والطبيعة البكر. هي بنت ذلك العالم المملوء بالطير والشجر والماء والزهر وليست بنت عالمنا العتيق الأفن.

كنت يا عطية ولا أزال كلما ذكرتها ذكرت فتيات الأحلام واللاتي يقال أنهن سيكن في العالم الآخر.

تقضى أسبوعين وهي عندنا ونمضى كل ليلة في لعب الضامة أو الشطرنج أو ما سواهما. وكل ليلة تضيء الفوانيس الكهربائية بنورها على مجموع ساكن هادئ ولكنه سعيد قانع... على الأقل كنت أنا في أحسن درجات الرضى. ولكن تلك الليالي الجميلة المحبوبة لم تكن شيئا إلى جانب الليلة الأخيرة.

جاءت أمها تلك الليلة لتبيت عندنا ثم يصبحان إلى ميوينخ. وجاء يقضى سهرته معنا أحد معارفها كما جاء بعض معارفنا. وجلس الكل وصديقي الشاب وأنا في الصالون. وفوانيسه الكهربائية لم تزد عددا ولكنما تضاعف نورها أمام هذا المجموع المبتهج. ولم تكد بياتركس تجد الفرصة لتنسحب من بين أمها وربة الدار حتى جاءت إلى جانبنا لتحدثنا ونحدثها أحاديث الوداع ونسينا إلى جانب ذلك ما كان من الضجة والسرور والضحك بين سائر الحاضرين.

ولما تقدم الوقت دخل إلى الحاضرين شيء من السكون ورأيت الضجة تغادر المكان رويدا رويدا حتى كاد يكون أخرسا.

واستأذن أصحابنا وبقينا جماعة «الحلّية» حتى منتصف الليل. هناك أرادت الأم الذهاب إلى مرقدها و«مست علينا».

فباستفهام جذاب بديع ونظرة ملئت حنانا وعطفا وبصوت رخيم عذب تساءلت بياتركس:

ـ وأنا الأخرى. أنا أيضا سأذهب.

ما كان ألذ هذه الكلمة على مسمعي. هل كانت كذلك على مسمع كل الحاضرين؟...

لعلك يا صاح تجد فى صورة هذه الفتاة الملائكية بعض ما وجدت أنا من اللذة. ألا ليت أيامها دامت. ألا ليتك لا تزالين هنا يا بياتركس ها أنا فرغت من العمل وأتمنى ساعة معك من جديد..

معها فى باريس؟ وسط ضجة الناس وجلبتهم؟ ويرانا الناس وربما إطلعوا على مكنون ما فى صدورنا؟... كلا كلا لا أريد... لكن الحياة الحلوة عيش مع مثلها على أرض ككندا واسعة ذات دوح وشجر ولا ضجة ولا جلبة ولا صياح. عيش هادئ ساكن بين الغياض وأغاريد الطير.. عيش متشابه خالد مملوء بالحب والسعادة.

هذه حقا هى الحياة الحلوة. لا فى باريس ولا فى مصر. لكنى مع الأسف موقن أن لن أعيشها.

هذه هى الفتاة التى ملأت وقتى بالذكر وعوضتنى بذلك عن النزهة والرياضة ووفرت على كثيرا من الساعات ما كان أحوجنى لها.

الساعة الآن السادسة ونصف ويجب أن أسرع فأكمل ترتيب إهابى. وإذن فسلام عليكم.

أخوك محمد

١٠ يونيه

الساعة السادسة صباحا.

كان مساء الأمس مساءً مشهوداً.

أمضيت شطرا من الليل مع أهل بيتنا ثم جاءنى أحد أصحابى المصريين. فلما انتصفت الساعة الحادية عشرة استأذنا وخرجنا. ولم نسر إلا قليلا حتى قابلنا صديق ثالث اتخذ طريقه هو الآخر معنا. وذهبنا جميعا إلى القهوة. وبعد نصف ساعة أردت أن أعتذر لأذهب لأنام فأستريح استعدادا للسفر.. فقال صديقى ع . ف:

ـ يا شيخ دى آخر لياليك فى باريس. خليك معانا.

وبقيت معهم. فلما اقترب منتصف الليل نزلنا إلى التافرن فوجدناها هائصة بالشبان والبنات والموسيقى والدخان والطرب وأنصاص البيرة وكاسات الكنياك والوسكى وكل ما شئت من الكحول. وبعد أن درنا فى المكان دورة وجدنا مكانا منزويا هادئا فجلسنا فيه جميعا ولما نكد حتى مرت بنا إحدى البنات فسلمت على ع. ف. وجلست. وبعد لحظة جاءت إخرى وجاءت بعدها ثالثة وهكذا كنا حول المنضدة دسته. ثلاثة شبان متجاورين أنا فى وسطهم وثلاث بنات متجاورات كذلك. فلما مضت اللحظة الأولى وما يخالطها عادة من السكون الصامت قالت إحداهن وهى الوسطى:

إن ترتيبا هكذا ليس بشيك. بل يجب أن تجلس كل واحدة إلى جانب شاب. فقم أنت (وأشارت إلىّ) فبادلنى مكانك وبذلك يتم الترتيب.

وعقبت الأخرى:

ـ وهكذا تبقيان مقابل بعضكما تتبادلان النظرات كما تشاؤون!!

أليست خبيثة هذه المرجريت؟ هى تكسب من وراء انتقالها أن تلصق فخذها بفخذ شاب وتبقى تتبادل النظرات مع الآخر.

مارجريت ــ وأنت ماذا يضرك من وراء ذلك؟ ألا يعجبك الشاب الذى تتبادلين النظرات معه؟ وهلا يسرك أن تلصقى فخذيك بشابين. بدل أن أكون أنا أحد جيرانك.

وجاء الجرسون بالمشروبات ولما انتهت استأذنت ثانية أريد أن أقوم.

فأمسك بى . ع . ف . من جديد . وبينما أنا أتردد قامت مارجريت فتركتنا ولم تعد. وجلست أنا ثانية وخيم علينا السكوت برهة. فقامت ثالثة الفتيات وبقيت جارة ع. ف . فتوثقت منه أن سيكون بغرفته غدا الساعة الرابعة ثم انصرفت هى الأخرى. وبقينا نحن الثلاثة فى ركننا الحريز وقد علتنا دهشة غريبة وكأن قيام هاتيك الفتيات قطع علينا تيار خيالاتنا وأفكارنا فبقينا صامتين جامدين لا نقول كلمة ولا نفوه بحرف. وأخيرا نادى ع . ف بالجرسون وطلب منه شرابا جديدا. وتجددت بذلك النشوة وانقضت السويعة الصامتة وابتدأنا من جديد حديثنا.

ع . ف ــ إذن ستتركنا غدا يا عم هيكل. يا بختك! وتذهب إلى لندره وترى بلاد الإنكليز. هذه البلاد الغاشمة الظالمة. لو أنك من صديقنا ع . س عمدة المصريين فى باريس لما دخلت لندن إلا غازيا.

ل . م ــ البلاد الغاشمة الظالمة! ما أكرمك يا أخى بالألقاب! لماذا تعد انكلترا غاشمة ظالمة؟ لأنها محتلة بلادنا؟ وإذا استطعنا نحن أن نحتل إنكلترا أفلا نفعل؟ ويومذاك نكون نحن الغاشمين؟ فى نظر من؟ ليس أمام أنفسنا بالطبع ولكن فى نظر الإنكليز. وأما نحن فنكون يومئذ أولياء الله على الأرض والموكلون من قبله بحكم الشعوب الضعيفة. كلا يا صاح. إنكلترا ليست ظالمة. إنكلترا تستغل بلادنا وتنهبنا كما تنهب أنت جارك الضعيف. وإذا كانت الصدفة تمن أحيانا على جارك بأن يجد قضاء يرد عليه ضائع حقه فلا يزال القضاء الفصل بين الأمم هو السيف. وصاحبة السيف الأحد والمدفع الأقوى صاحبة الحق من غير نزاع.

ربما كنت معك في الأسف على أن الأمم لاتزال في هذه البربرية. ولكن ذلك لا يمنعني من أن أنظر للأمم الحاكمة بعين الأعجاب. وإذا كان ذلك في نظرك ونظر الكثيرين يعد من قبيل إعجاب الجهلاء بأعمال البطوله فاني راض أن أكون من بين هؤلاء البله والجهلاء. غاية الأمر أني أسمح لنفسي بالدفاع عن نفسي وعن هذه الطائفة. إن الكثيرين ممن تسمونهم العقلاء يعجبون بفيلسوف دقيق يدعو إلى إنسانية أرقى من الإنسانية الحاضرة. ويريد حين يقول أرقى أنها تكون أبعد عن الوحشية وعن الظلم وأن ترتفع إلى جو العدل والرحمة. وجو العدل والرحمة لم يوجد بعد على الأرض بالرغم من أن الإنسانية تريد أن تصل إليه من آلاف سنين مضت. لماذا؟ لأن جو العدل والرحمة بالنسبة للإنسانية هو جو العدم. جو الفناء.. والإنسانية أظهرت لنا دائما ولاتزال أنها أحرص ما تكون على البقاء والاستمرار. وبكلمة أخرى حريصة على أن لا تصعد إلى جو العدل والرحمة. إذن فدفعها إلى هذا الطريق دفع إلى ما يستحيل أن تسير فيه. وبالتالي تعب ضائع.

يقول الذين يعللون أنفسهم بعلالات التقدم أن الإنسانية قد قطعت شوطا كبيرا في هذا الطريق حيث ألغت الرق وألغت كثيرا من أنواع التعذيب وخففت وطأة البؤس وأحلت مكان ذلك كله التحاب والرفاهة. متى كان هذا؟ وهل ألغت شيئا مما تفتخر بأنها ألغته. إن كان أنصارها يريدون أن يتمسكوا بالألفاظ ومعناها الموجود في القاموس فأنا أوافقهم على أن كثيرا من الألفاظ دخل دولة التاريخ ولم يبق له أثر بين أظهرنا. لكن ألم تظهر مقابل ذلك ألفاظ أخرى ذات معان ليست بأقل فظاعة من معاني الألفاظ الذاهبة. وهل لم تظهر أشكال من البؤس تجعل ما عندنا منه يوازي على الأقل ما كان عند أجدادنا. وهاتيك البنات التعيسات اللاتي كن جالسات معنا من لحظة مضت ألسن خلق مدنية هذا الغرب المغرور المجرم؟ ومجاميع العمال التي تصبح تشكو الفاقة والبؤس أليست شقاء جديدا دخل إلى الإنسانية الحاضرة. ولكن الناس ينظرون لما كان

فى الماضى بعين تعظمه وكأن هاته الأشعة الزمنية التى تسرى منا لم تمر أولا بمنظار مكبر فترى كل صغيرة من شروره كأنها عذاب الجحيم فى حين لا يصل إلى آذان ابن ابن هاته الإنسانية المتألمة التى تحيط بنا.

لا أنكر أن من الناس من يكبر الخير الماضى بل هؤلاء كثيرون. ومن بينهم قام جماعة الذين يرون فى الرجل القديم مثال السعادة والكمال. لذلك فالإنسانية الحاضرة شقاء كلها أمام عيونهم. وخطأ هؤلاء وخطأ أولئك متساويان. والواقع أن الإنسانية كانت ولاتزال ولن تزال خليطا من الحسن والقبيح والشر والخير والنقص والكمال كما لن يزال الناس كما كانوا يقتل ويأكل بعضهم بعضا. وكل جيل بما لديهم فرحون أو هم عليه ساخطون.

أنك يا صاحبى (مشيرا إلى) ذاهب غدا إلى مدينة جديدة وقوم يقدرون الخير والشر بمقياس غير المقياس الذى عهدت إلى اليوم فلاحظهم لعلك تجد فى ذلك لذة أو فائدة.

ع . ف . (الذى لم يكن ينتظر كل هذه الفلسفة خصوصا وقد ابتدأت رأسه تدور بعض الشىء) ــ الساعة واحدة وربح . مش نقوم.

أنا ــ ما أظرفك ياسى فلان. أتمنعنى عن أن أقوم حتى إذا جاءت اللحظة الجميلة حيث يحلو السهر ويطير النوم تريد بنا أن نقوم. أو أن غرضك أن نسير فى الشارع. وان كان ذلك فإلى أين؟

ع . ف ــ إلى حيث تريدون.

ل. م . ــ أما أنا فيسرنى المكث هنا خصوصا وقد ابتدأ المكان يخلو والدخان الذى فيه يلازم السقف ويبقى منه ريحه المنعش المخدر. على أنه أن رأيتم أن نقوم فلا مانع. وربما كان بقاؤنا نصف ساعة أخرى غير مانع لنا عن أن نسير بعد ذلك حتى ميدان الأوبرا.

ع. ف. ـ ليكن! ولنرجع إلى الحديث الذى ابتدأته. ثم لتسمح لى أن أنكر هذا التشاؤم الذى ظهر من كلامك وأن أقول أنا مع الجانب الذى لست أنت منه. إن الإنسانية تقدمت كثيرا ومن كل جانب وتقدم أمام عيوننا اليوم مناظر أبهى وأجلب للسعادة مما كانت لأسلافنا. وهذه المسائل التى تراها أنت صغيرة مسائل إلغاء الرق وتخفيف وطأة البؤس هى كبيرة وتفتخر بها الإنسانية. تمثل أمامك صورة من النظام القديم حين كان بنوا آدم العمال يذهبون قطعانا يملكهم سيد يتصرف فى رقابهم وأعمالهم كما يشاء ويسومهم الخسف وأنواع العذاب إرضاء لبعض شهواته أو لبغى من محظياته. وقل لى إذا لم تكن الخطى التى خطتها الإنسانية تعد تقدما. ثم تصور إزاء التقدم الاقتصادى الهائل الذى يتمتع بنو الإنسان جميعا بنتائجه من أغنانا إلى أفقرنا ذلك الفقر المدقع الذى كان عليه أباؤنا وهذا الشكل الوحشى من الحياة الذى كانوا يعيشون. لا يا صاح لا ننكر التقدم العظيم الذى أكملته الإنسانية على مر القرون فذلك إنكار المحسوس. إذا اعتبرت بلادنا مثال مدنية قديمة بعض الشىء كما هو الواقع وقارنتها بالمدنية الغربية: أتستطيع إنكار أنا أقل سعادة من الغربى وأقل رفاهة. بل أتنكر أن حياتنا فى مصر إلى جانب الحياة الأوربية تسمى وحشية فظيعة. خذ أى جهة من جهات هذه الحياة سواء الجهة المادية أو الأدبية أو العقلية واحكم من غير تحيز إن كان ما نحن فيه إلا مدنية مختلفة قيمتها إلى جانب المدنية الغربية كقيمة درهمين متكافئين من معدنين مختلفين.

ل. م ـــ لا من معدنين مختلفين. بل من معدن واحد. غاية الأمر أن واحدة الكميتين أكثر بريقا من الأخرى وموضوعة فى فترينة دكان أغنى وأنظف أو يلبسها على صدره رجل أغنى وأرقى. لهذا تظهر أمام العامة ذات قيمة أكبر وإن كانت لاتزيد فى الواقع شيئا.

«وإن هذا الذى نسميه تقدما اقتصاديا ليس فى الواقع إلا نتيجة لازمة لحال الجمعية الحاضرة حال اشتباك المصالح لزيادة عدد السكان فى العالم. وإذن فلا

يمكن أن تعده تقدما إلا إذا عددت تقدما حاجة الأعشى إلى نظارة أو الأكتع إلى عكازه. ولست أدرى كيف تريد أن تناصر قولهم أن السعادة أعم اليوم على الأرض مما كانت من قبل.

«لئن كان فى الدعوى الأولى دعوى التقدم المادى شئ من شبه الحقيقة فإن هذه الثانية أظهر ما يكون فسادا... لا أريد أن أقول العكس وأن الشقاء قد مد رواقه اليوم بعد أن كان مطويا فى الماضى ولكننى أقول أنه تحول وسار مع العالم فى دور النشئ والتسلسل وأخذ أشكالا تطابق كل وسط من الاوساط لكى يعيش فى هذا الوسط. وسيبقى إلى الأبد يتسلسل مع الزمان إلى لانهايات الزمان.

وليس أدل على ما أقول من العالم الحاضر. هل سودان خط الاستواء أقل سعادة من أهل أوربا؟ هم لا شك أقل ترفا باعتبار المدنية الغالية. ولكن الترف شئ والسعادة شئ آخر. ولقد أخبرنى الكثيرون أنهم كانوا أسعد كثيرا أيام فقرهم واكتفاءهم بالقليل منهم أيام غناهم وترفهم. غاية الامر أنا نحن وأهل أوربا نقرن السعادة بالترف لأنهما مقترنان فى مدنيتنا ثم نقول: كيف يمكن لهؤلاء العراة الحفاة الجياع غير الممتعين بشئ من نعم العالم أن يكونوا سعداء فى حين أنا جماعة المترفين نرى فى الوجود من المرارة والألم ما يجعل السعادة أمامنا حلما مستحيل التحقيق.

وخطأ هذا التقدير واضح فليس ما يلزم لسعادة كل واحد ضرورى لسعادة الأخر. والعاشق يختلف عن محب المال فى النظر إلى السعادة وعن كليهما يختلف العالم. وعنهم يختلف الفلاح البسيط. وكذلك السودان يختلفون عنا وعن أهل أوربا...

ع.ف. ـ التعليل ظاهر ولكن فيه بعض المغالطة. ويدلك على ذلك أنك لا تقبل أن يرجع العالم إلى الحال القديم من البربرية أو إلى الحال الذى فيه السودان اليوم.

ل.م. ـ وكيف علمت أني لا أقبل. أنا لا أرفض مطلقا. بل أقول ولم لا وماذا يضر. أنا سأكون فى العالم القديم البربرى الذى نقول عنه بعقل أهل ذلك العالم وأكون سعيدا. لم حسبت أن سيكون مثلى فيه مثل الشابة التى غاب زوجها فقابلتها الصدفة مرة واعطتها خاتما يجيب ثلاث مرات نداء من يحك فصه. فحكّت هى كى تصل إلى المشيب فلما رأت نفسها قبيحة حكته ثانيا لترجع إلى الشباب. ثم صور لها عقلها أن الطفولة خير من هذين فحكت الفص فصارت طفلة بعقل الشابة التى كانت وبقيت كذلك موضع ضحك الناس وألم النفس بقية الحياة... لا يا صاح. إن رجع العالم إلى بربريته رجعنا معه من غير أسف وإن بقى كما هو بقينا من غير سرور وإن جاء عليه الهرم هرمنا معه ضاحكين منه.

سكت ع.ف. ولم اشارك أنا بكلمة. فدفعنا للجرسون ما علينا ثم قمنا نسير فاذا الشوارع خالية والجو هادئ جميل ويدعو للمشى الكثير.

لكن ع.ف. لم ير نفسه قادرا على السير فتركنا وذهب وسرنا نحن الاثنان قليلا ثم افترقنا...

... ها هو ع.ف. ولا شك أنه يريد أن يذهب معى إلى المحطة....

(٥)

فى انكلترا

١١ يونية قمت من باريس بقطار الساعة العاشرة وثلث من محطة سان لازار. قطار ربيد[١] لا يقف قبل دييب الا فى روان[٢]. وراح يقطع الطريق ويخرق الصخور مما يجده الإنسان فى كل نواحى فرنسا حتى كنا على مقربة من روان فتجلت البلد بطرقها تضيع وسط المزروعات أو ترتقى الجبل وظهرت كنسية البلد الجميلة واوصلنا القطار إلى الباخرة فعلوتها وكلى الخوف من المانش ومن مرض البحر بعد أن عانيت منه الصعاب فى البحر المتوسط وأقول فى نفسى ماذا رباه سيكون من أمرى على ما يصفون به هذا المضيق من الشدة والحمق والهياج. وارتقيت سطح المركب وجعلت أدخن من حين لحين سجارات سجارات متتابعة مع أنى لم آخذ غذائى فى ذلك النهار خوفا من هذا المرض المشئوم. فإذا وقفت على قدماى خيل لى أنى أدوخ فأجلس من جديد. وأخذ مكانه إلى جانبى فتى يظهر أنه أسبانى وفتاة فرنساوية جاء بها كرفيقة له وطفشا معا من باريس إلى لندره، وهو يحدثها بلهجة عبيطة تكاد تكون اشد بلاهة من اللهجة الشرقية ويرتب لها جملا ثقيلة فتجيبه بما عندها ويغتبط هو

(١) سريع
(٢) دييب وروان مدينتان فى شمال فرنسا (الناشر)

بجوابها ،حتى لقد نسيته أولم ترض بالدخول إلى رأسه فكرة أنه سيمرض. ولما كانت الساعة الرابعة قلت فى نفسى وقد بدأت احس بالجوع اللهم إن تكن ساعة مرض فما هى بالكثير. والبحر فى كل تلك المدة مصقول الصحيفة أصفى من المرآه لا يهيجه من شئ إلا ما تطرده المركب حولها من الماء والزبد. والهواء بارد يتشرب وسط الضباب إلى الرؤوس والقلوب والصدور، والشمس لا يتميز الا دقائق ثم تختفى عن الناظرين. والماء يكاد يكون سهلا يضيع فى الآفاق القريبة دون أن يظهر فيه حراك... لما كانت الساعة الرابعة هبطت إلى قاعة المطعم وطلبت شيئا من الشاى وتوست وتناولت هذا بهذا ثم ارتكنت فى مكانى لا أتحرك وأنا خائف لا أزال من المرض وأقول متى تنتهى السويعة الباقية. ثم سألت الخادم فقال لى أن لم يبق إلا خمس دقائق فهرولت إلى إهابى وبدت أمامى أول مينا إنكليزية فى تلك الجزيرة النادره. وانتقلت بإهابى إلى القطار الصاعد توا إلى لندره بعد أن مررت بالجمرك. وانتظرت الجبال والمفاوز والمخافات يقدها الوابور ويفتح صدرها خط الحديد ولكن عجبى كان شديدا أن رأيت هاته البلاد أشبه ببلادنا المصرية مسطوحه حتى ليرى الإنسان الأفق مما لا يوجد فى فرنسا وقام فوقها الشجر وامتدت المراعى ورتعت الابل وتموج الهواء وأطلت سماء صافية تتهاوى فيها قلائل من السحب وينتشر حولنا الظلام رويدا رويدا. والأرض الخضراء تروح إلى مرامى النظر وتمتع فيها العين بما تحب ويمتلئ القلب سرورا والفؤاد نعشة وتطير الروح فى جو خال كبير تجد فيه الراحة والطمأنينة. وبقينا هكذا بين تلك المروج الممرعة حتى وصلنا أول المدينة. ووقف القطار ثم عاود السير حتى محطة فكتوريا. ومنها هبطت وأخذت عربة إلى الاوتيل الذى يقيم فيه صديقى م.ص. قطعت بى طرقا وشوراع تختلف كل الاختلاف عن شوارع باريس فلا شجر فيها ولا قهوات بها على سعتها وعظمها بل لكأن العربة ترمح بى بين آثار مدينة قديمة من مدن العصور السالفة. أهذه لندره التى يحكون عنها؛ أأنا الآن فى عاصمة بلاد الانكليز؛ وهؤلاء القلائل وأكثرهم من الفقراء الذين يسيرون فى الشوارع هم أبناء هاته الأمة المتكبرة المتجبرة. وتلك الأبنية المنخفضة فى ارتفاعها إلى جانب العاصمة الفرنساوية هل تكن فى جوفها انكليزا؛ كل ذلك صحيح وكله غريب.

١٢ يونيه كنت أظن أني ساعة أنزل انكلترا سأجد سحابة سوداء من الحزن تثقل سماء هاته البلاد الثاكلة ملكها من أيام وأن شيئا من الأسى يحوم فى كل النواحى ويظهر أثره على جميع الوجوه وتضيع كل بهجة أو رواء تحت مهابة السواد وجلاله.. غير أن هاته الأحلام لم يصدق منها شيء مطلقا حتى ولا خيالها اللهم إلا فيما يضعه الانكليز الآن من مناديلهم السوداء إذ ما نزلت العاصمة. وقابلت م.ص. وأخذنا عشاءنا ورتبت مبيتى حتى خرجنا ومعنا مصرى ثالث نمشى فى شوارع المدينة الزاهية فى مساء السبت ليلة الأحد. وبقينا نقطع الطرق الكبيرة حتى كنا فى بيكادلى المزدانة بالنور العامرة بالمارة يمرح فيها الغيد خرجن فى ليلة الراحة ازواجا وبلغت بهن الكثرة مبلغا عظيما. وهن صغيرات الاحجام خفيفات الأرواح جميلات النفوس يتتابعن بسرعةمدهشة حتى ليكن أسرابا ويتقاطعن سائرات فى كل النواحى كأنهن عصافير الجنة تحت قبعاتهن الكبيرة غالبا حتى لتغطى عيونهن ولا يظهر من تحتها إلا ابتسامات ثغورهن تفترّ عن أسنان ليست حسنة الحظ من الجمال دائما. ودخلنا قهوة من القلائل الموجودة بلندرة وفيها بنات أكثرهن إن لم يكن كلهن بغيات. وجاء مجلسنا إلى جانب فتاتين ليستا على كثير من الجمال وإن كانتا ظريفتين واحداهما أشبه الناس بالفرنساويات. ومكثنا قليلا ثم قمنا راجعين إلى منازلنا من الطريق بعينه ولا يزال مملوءاً بالناس والنساء المتحركات ببطء وهدوء أو المسرعات حتى كأن عندهن ما يدعوهن إليه. وبعد أن اتفقنا مع صاحبنا الثالث أن نذهب إلى رتشتمند عنده فى الغد تركنا إلى ما تحت الأرض وسرنا نحن حتى وصلنا منازلنا.

١٣ يونيه

يقول جماعة المحافظين ويوافقهم عليه كثيرون من غير المهتمين بشيء إن وظيفة المرأة تنحصر فى البيت وما يخص البيت. ترقى المدنيات وتتنوع الأعمال وتظهر فى العالم أصناف شتى من ضروب المهن ومع ذلك تبقى وظيفة المرأة محصورة فى البيت. يجد الناس من الحرف الجديدة ما اعدته الطبيعة للمرأة وتظهر المجهودات العلمية من كل جديد مالا معنى مطلقا لوجود الرجل فيه ومع ذلك لا تخرج المرأة فى اذهانهم عن دائرة البيت. من ذا عساه يكون صاحب تلك الميزة الكبرى فيستغل لمنفعته كل جديد ويقوم بكل الأعمال ويأخذ لنفسه كل المكاسب؟ من ذا يشغل كل الوظائف..!

هذا قولهم وتلك نظريتهم. فلنرجع للواقع.

فى المصالح والمعامل نجد النساء مشتغلات كعاملات مع الرجال. تساعد المرأة زوجها فى زرعة وتجد معه وتتعب مقدار ما يتعب. تشتغل بكثير تضارع فيه الرجال وتفوقهم أحيانا. وكل ذلك ليس فى دائرة البيت. فلم لا يصرخ الرجال فى وجوههن قائلين قد تركتن واترتكن... فارجعن إليها. لم لا يمنعونهن عن مزاولة هاته المهن ومنها الشاق الأليم.

هؤلاء الناس الذين يصيحون عند كل كلمة يسمعونها من نصير الحرية للمرأة ـ لم هم ساكتون أمام هذه الأعمال التى تخرج بها عن دائرة وظيفتها الطبيعية ـ عن دائرة البيت.

لذلك سببان. الأول أنهم محافظون فكل ما يدور تحت أعينهم وما يعودونه لا يقف أمامهم موضع غرابة ولا يريدون تغييره. والثانى أنهم ذوو طباع مستبده ينادون بالحرية ليداروا بذلك أغراضهم المخبوءة ولكنهم يريدون أن يجدوا من كل ضعيف عنهم عبدا يستغلون ثمرات أعماله ويبقونه تحت سلطانهم لا يسمح له أن يشتكى كلا بل ولا يسمح لغيره من محبى الإنسانية أن يشتكى عنه. يريدون أن يحفظوا المرأة فى البيت ليكون لهم منها خادم وفى الوقت عينه ليخرجوها عنه متى وجدوا سبيلا لاستغلالها.

الأثنين ١٣ يونيه

أخذت اليوم خطفة عين من المعرض اليابانى رتب فى ذلك البناء الكبير الهائل سموه بحق المدينة البيضاء. يمتد إلى حيث لا يجيء النظر على آخره ويحوى فى صالاته العديدة هنا وهناك مصنوعات اليابان وانكلترا. وفى أول مدخله قسم تاريخى يمثل هؤلاء الصفر فى القرون السابقة فى القرن الثانى عشر وما بعده وعليهم لباسهم الشرقى الجميل. وأنهم لأقرب فى ذلك للوحشية والجمال منهم فى هذا العصر الجديد. بل لأرى الأزياء الحاضرة التى يرتدون على ما تدل به الفترينات الأخرى لا تلائمهم فى شئ مطلقا وإن نساءهم ليظهرن فيها قبيحات إلى حد غير معقول فى حين أنهن لسن كذلك فى زيهن القديم. ذلك إن هذا كان يابانيا حقا يسير مع خلقة القوم وخلقهم ونما بوجودهم وحياتهم والآخر مستعار وقل أن يكون للمستعار بهاء.

حفلة المطالبات بحق الانتخاب.

كان فى عزم المطالبات بحق الانتخاب أن يقمن بمظاهرة عامة لهن من شهرين مضيا. ولكن وفاة الملك ادوارد السابع وحداد الأمة عليه حال دون ذلك. فأجّلن مظاهرتهن إلى الوقت الذى يكون الحداد الكبير قد انتهى فيه. ولما تم ذلك رجعن إلى فكرتهن الأولى وأعلنت الجرائد عزمهن على القيام بمظاهرة كبرى. وقمن بها هذه الأيام الأخيرة وتكلمت كل الجرائد على مختلف لهجاتها وآرائها عنها. وما بالك بمظاهرة جمعت أكثر من عشرة آلاف امرأة كلهن على رأى واحد فى مسألة تمسهن جميعا عن قرب. لذلك لم يك موضع لصحيفة أن تتوانى فى الكتابة طويلا عن الحفلة التى جمعت إلى مظهر القوة والعظمة معانى الجمال والنظام.

شهدت هذه المظاهرة وهى من أكبر وأبهى المظاهرات التى شهدت فى حياتى. فذهبت وجماعة من أصدقائى إلى (هيد بارك كرز) وانتظرنا عنده فى الصفوف الأولى حتى مرت المظاهرة كلها. مرت يحوطها صمت مهيب وهى

تحمل شارات كثيرة تدل بعضها على أسماء الطوائف التى تحملها، وعلى أخرى كلمات وأمثال وأنسب هذه ما كتب على إحداها: إنما ينصر الحظ الشجاع.. نعم إنما ينصر الحظ الشجاع. والموت أنفى ما يكون للموت. والناس من خوف الذل فى الذل. واليوم الذى يريد الانسان فيه أن يعيش شريفا أو أن يموت هو اليوم الذى يحيى فيه شريفا عظيما.

واسعد هاته المظاهرة طقس جميل وشمس لألاءة وريح طيبة تنعش النفس. واستقبلها الناس بالاجلال والاعظام الذى تستحق.

وفى أول الصفوف تقدمت موسيقى كانت غاية فى الرقة قام بها جماعة من الفتيات لبسن لبوس الجنود الايقوسية فظهرت من تحت ارديتهن القصيرة سيقانهن الممتلئة وهن جميعا يصدحن بنغم شجى بديع. وشارك فى المظاهرة كثير من الرجال ذوى الدرجات الرفيعة.

لم أقيمت هذه المظاهرة؛ ولم يريد هؤلاء النسوة مشاركة الرجال فى الحكم. ولم يعارضهم الرجال بقوة قاسية فيما يطلبن.

ليس من السهل البت فى أمر مطالبهن ولا فيما يقيمه الرجال فى وجوههن من المقاومات. ولكنى أرانى أميل للأعتقاد بأن دخولهن فى الانتخاب يجعله أقرب للنظام والعدل والحرية وأبعد عن تأثير النساء.

ربما كان هذا التعبير الأخير غريبا. ولكنه صحيح. إن النساء أكثر أثرا اليوم فى الانتخاب مما لو كن منتخبات. ومن أجل امرأة غير كاتب كبير من كتاب فرنسا رأيه فأصبح ملكيا بعد أن كان جمهوريا. فإذا ظهرت النساء فى عالم السياسة لم يكن هناك موضع لأن ينخدع أحد فى مظاهرهن أو يدخل فى تقدير جماعة الرجال لهن ومبلغ عقلهن ورأيهن فى السياسة.

كما أن العدالة لا تأبى عليهن المشاركة فى الانتخاب. وما يقال تهكما بهن مما يلازم حالهن الطبيعية من الموانع لا يزيد قوة عما قد يقال مما يلازم أحد

الرجال من الامراض. ويظهر مبلغ ذلك من الصحة حين ترى أن المنتخبات اللائى يجلسن بين النواب سيكن دائما من اللائى ارتفعن عن صف الولادات. مع هذا فأنى أفهم كثيرا معارضة الرجال لهن فى مطالبهن. هذه المعارضة تجىء من حب الأثرة الطبيعى فى نفس كل منا. والذى يسير على مقتضى ما توصى به طبيعته غير ملوم.

ولو كان لى مطمع فى الانتخابات الانكليزية وكنت أرى مما يعرقلنى أن يدخل النساء فى الانتخاب لكنت أول متهكم بمطالبهن منا وضدها.

هيد بارك هيدبارك! كم كان لهذا الاسم من معنى غريب فى نفسى وكم بهت حين رأيت بغينى هيد بارك: هيد بارك هو موضع المتناقضات ومكان العجائب أمام المصرى. هو بؤره الفساد ومستقر الفحش وموضع الفسق ومستنزل غضب الله. فيه تهتك الحرمات ويفتك بالاعراض وتقع النساء فى حبالات الشياطين. فيه الشر كله!! هو كذلك مرسح الخطباء تظهر فيه بلاغات المتكلمين ويرتقى منابره عظماء الرجال كل آن وحين وينشر على الملأ المستمتعين فيه كل وزير خطته وكل طالب انتخاب ما ينوى عمله، ذلك هو هيد بارك أمام عين المصرى أو على الأقل من تلقى علمه من جرائدنا وأصحابنا.

مكان كهذا يشتاق لزيارته!.. ولكنى لم أذهب إليه إلا بعد ثمانية أيام من مقامى بلندرة ذهبت إليه قبيل المغرب مع أصدقاء يوم أحد: اليوم الذى يموج فيه المكان بالمتنزهين فإذا فيه فتيات لا يعلم عددهن أحد.. كثيرات جدا وقل أن تجد من بينهن عجوز. فإذا ما تصفحت الوجوه والملابس وكنت على علم بعض الشىء بالقوم وجدتهن جميعا خادمات.

قلت فى نفسى هل المساء أحسن من هذا واضمن لبيان حقيقة المكان كما أملت أن يحوى وجوها أصبح مما أرى؛ أصبح من تلك الأشكال أطل منها الفقر وقضى على بهجتها نحس الطالع. فرجعت فى المساء فإذا هن أكثر عددا

ويزحمن كل ما حول مكان الموسيقى ويسرن عديدات فى الطرقات ولكن أشكالهن هى هى لم تتغير.

ولكن مالى أنا وهذا، هل هاتيك القبيحات لا يقعن فيما تقع فيه غيرهن. وعلى حد قولنا لكل قوتة كيال، والمكان واسع فسر فيه فانك لاشك راء ما رأى غيرك مادام الكيل هنا من غير حساب.. ولكنى لم أكن ذا حظ ولم أر شيئا ولما سألت أخوانى من بعد قالوا إن أحد المصريين رأى هذا الأمر مرة بعينه...

أما رتشمند بارك فسعته الهائلة تسمح له أن يكون مكانا لشيء من هذا.

ثم قصدته من بعد أكثر من مرة لأسمع الخطباء فإذا هم حقا كثيرون ولكن ما هم؟ عدد كبير أكثرهم داعين للدين وبأشكال مضحكة حقيقة ـ بلغ من تعصبهم حتى فيما بين مختلف طوائفهم أن يتشاتم المتكلم مع أحد السامعين على مسمع من البوليس: داع دينى بر وتستانتى يدعو الناس لاتباع تعاليم السيد المسيح وقد وزع على عدد منهم ـ العجائز والأطفال ـ كتبا فيها الصلوات وقبل أن يبدأ جعل يقدم لهم فضل المسيح وفضل البروتستانية ثم مال بكله على البابا قائلا:

ـ والبابا يدعى أن فى يده تغيير كلمة المسيح. إنه لمدع كذاب.

فقام اليه فتى من بين المحيطين به يبلغ الثالثة والعشرين وناداه خائفا

ـ أسكت هناك. لا تقل عن البابا شيئا.

ـ ها. ها فتى دخل الشيطان لنفسه ويعتقد بقدرة البابا.

ـ إنما دخل الشيطان لنفسك أنت فأصبحت ضالا.

ـ كان الشيطان يوسوس لى من خمس وعشرين سنة مضت ثم عرفت كلمة المسيح. الكلمة الحق كلمة الله لا كلمة البابا.. البابا الكذاب.

ـ لا تتكلم. سفيه وقح.

واستمروا فى مثل هذا والبوليس إلى جانبهم ينتظر أن يقتتلا. ولكن الله سلم وابتدأ الداعى صلواته يرتلها مع المحيطين به بصوت حزين عال تحت سماء رائقه وجو فرح وخضرة ناضرة وكون ضاحك من أوله إلى آخره؛

قلت فى نفسى إذ ذاك لو علم القوم إنى أنا الواقف بينهم لا أدين بدينهم وأن اسمى محمد لمال على الكاثوليكى والبروتستانتى معا وقضمونى بأسنانهم قضما ثم لقالوا أننى متعصب والتعصب يلمع بين عيونهم وينادون به بأعلى أصواتهم. أيام وجودى بلندرة ذهبت إلى ضاحية رتشمند مرتين الأولى لثانى يوم من نزولى والثانية بعد مقامى مدة ليست بالقصيرة. ولقد وجدت لهاته الضاحية من البهاء والبهجة شيئا كثيرا. فهناك ساعات العصر وقبيل الغروب إذا وقفت فوق الرصيف terrace المفروش بالأشجار والنامية إلى جانبه الأعشاب الصغيرة ثم التفت إلى جهة التاميز رأيت الأرض تنحدر مع النظر رويدا رويدا وقد قامت عليها الزهور وفرشتها الحشائش ببساط سميك وأرسلت عليها الشمس من الأشعة ما تلألأ على أوراق بعض النباتات الجميلة المنثورة فى كل مكان من ذلك المنحدر البديع. وفى نهايته يسيل النهر هادئا تتهادى موجاته واحدة بعد واحدة وقد ركبه الكثيرون رجالا ونساء وفتيات وكلهم ينسابون مع الماء راضين مسرورين.

وإذا ما أخذت قاربا على النهر رأيت الأرض ترتفع مع بصرك حتى تضيع بما لبسته من حلة خضراء قريبا من السحاب. وعن الجانب الثانى تقوم أشجار عالية تطوق جيد النهر الساكن المستسلم ترسل عليه الشمس النازلة أشعتها وينطرح فى ظل الأشجار فوقه وهو على ما هو عليه وكما كان من لانهايات الزمان القديم ذاهب فى طريقه ليضيع فى البحر القريب. وفى وسطه وواصلا للشاطىء مكان يسمونه الجزيرة يحيط به من الزلط الصغير ما يسمح لكثيرين أن يتركوا قواربهم وينزلوا فوقه ليشاهدوا من مكانهم وهم وقوف الرصيف الرفيع إلى الجهة الثانية من النهر ويمتعوا النظر بمرأى عدة أشياء جميلة متتابعة. الماء

ثم الشاطىء الضيق ثم المنحدر الأخضر وما به من زهر ثم الرصيف تتوجه اشجار وليروا عن شمالهم القنطرة التى تعبر النهر والقوارب تمر من تحتها ومن فيها حذرون يسيرون متمهلين ترقبهم عيون من على الشاطىء أو الجلوس فى محلات الشاى الممتدة إلى جانب النهر.

٢٠ يوليه

أقمت بلندره اربعين يوما لأحبها وآسف على تركها. وما من بلد كبير إلا له من الجمال والهيبة ما يجذب النفس ويأخذ بالفؤاد. ما بالك بذلك البلد لا تعرف له أول ولا آخر. هو العالم تتوه فيه ولا تحلم بالخروج منه. أنت فى الضواحي وفى لحظة إذ بك تشعر برهبة المدينة الهائلة حولك وتنظر إلى ما يحيط بك فتراك أبعد ما يكون عن أن تتصور آخرها. هى بحر لا شاطئ له يتوه فيه الإنسان المسكين.

مع تلك العظمة تحوى لندرة بهاء ورواء ومهابة وجلالا. وأى شيء أبهى وأبدع من منتزهاتها الكبيرة لا عدد لها أو أجمل من دور الآثار العديدة تحوى أدق ما أبدعت رأس الإنسان. وما أنس لا أنسى آخر أيامى بها و أنا فى متحف الهند وأعمالهم فى العاج ونقشهم عليه يأخذ النفس إلى أرقى مواطن الاعجاب، وأنى لأشهد أن ذلك أجمل ما رأيت إلى اليوم من مثله ثم المدينة كذلك مهد علم وعمل وحركة كبيرة. مهد الجامعات العظيمة والكليات الهائلة. ومهد تلك المصانع الكثيرة والمعامل والمخازن ولا أظن شيئا مما فى الوجود ينقص هاته البلاد إلا ما استحال عليها أن تضمه بين جدرانها.

متى يكون لنا فى الشرق مدينة كلندرة أو كباريس؟.. متى بلغنا من هاته المدنية الحاضرة القليلة الطعم ما بلغ القوم. وأنى لأدعو كل محب لبلاده أن يعمل لإبلاغها أكثر ما يقدر من مدنية القوم لاحبا فيها ولكن لأنها الوسيلة الوحيدة والأمل الضئيل الباقى لنا جماعة الشرقيين فى العظمة والحرية. ليصبغوا المدنية بصيغة شرقية ثم لينقلوها إلى الشرق ينتفع بها أهلهم ومواطنوهم ويكونون لم يخسروا شيئا وأفادوا أممهم أكبر الفائدة.

بريتين
٢١ يوليه

الساعة العاشرة ونصف مساء. ساعة من الليل أحرى بالهدأة والهدو ء والنوم. ساعة لا يتحرك معها في الجو الأسود بالظلام شيء. لكن البحر الهائج عالى الصوت يزأر كأنه الأسد الحبيس. نحن في بريتن. وأطل من النافذة على الجو يذهب مع البصر إلى افق كان كل مدة هذا النهار ملفوفا في رداء من الضباب حتى لم يتميز لحظة واحدة فلما جاء الليل تسربت اليه رسله من شياطين العبيد ونكشت شعرها فاسود الهواء ولم يك الا حين فاذا الكهرباء هى التى تدمى ذلك الجسد الهائل صاحب الخوار العظيم. نحن في برتين. هواء طلق ومناظر بديعة. نزهة لمن حملت نفسه بهموم المدن. فضاء واسع لمن حدق نظره حيطان لندرة وامواج تتهادى اليوم كما كانت تتهادى أيام نوح وقبل التاريخ. وكما كانت حين كان العالم ماء لا أرض فيه. وستبقى كذلك إلى الأبد. هى بنت الطبيعة ولا حكم للإنسان عليها. يستخدمها لغاياته إن شاء ولكنه لا يصرف حركاتها على هواه.

الساعة العاشرة ونصف مساء. موعد نوم المكدود من أسفاره وموعد نومى أنا الآخر. والوقت يجرى إلى الغد ولا ينتظرنى حتى أتم كلماتى وأذهب إلى سريرى حينذاك يتحرك هو لا ينتظر أحدا. هو يجرى فيتمتع به النائم المستريح أو اللاهى عنه بمسراته ويحمله علة المتضايق المهموم. لست أنا من أى من هؤلاء. ولكنى في دقائق سأكون في سريرى.

بريتن
١ أغسطس

بعد العشاء نزلت وقد ولت موليات النهار وانسدل على البحر الهائل ظلمات جعلته أكثر هيبة ومخافة. والناس ليسوا كثيرين على الرصــيف (terrace) فى ذلك الوقت فلم يكن ضجيجهم ليزعج سكون الوجود. ولم ابتعد عن مقامى كثيرا حتى إذا متكلم يخطب بعض عجائز أمامه لا يجاوزون الخمس أو الست وهو محتد كأنما يكلم جمعا كبيرا. فوقفت أزيد عدد السامعين واحدا وامتع الأذن بصراخ الخطيب فإذا هو يكرر القصة بعينها التى يخطبون لها فى هيد بارك وفى أماكن شتى.. مسائل الدين: قال.. ولأدلكم ببرهان بسيط على قوة المسيح وسلطانه أضرب لكم عن ذلك مثلا أعرفه أنا شخصيا. وأنكم بعد ذلك لتحكمون من غير ترددكم تصيب النفس التى تخدمه من الهدوء والتى لا تخدمه من الآسى والألم.

كانت بنت تقرأ فى الكتاب المقدس ـ فى الأنجيل. ولما أمسى الوقت وأرادت أن تذهب إلى سريرها وضعته على حرف مكتبها وقامت فذهبت إلى النور وأطفأته وراحت لتنام. غير أنها فى طريقها لمست الكتاب المقدس بطرف فستانها فسقط إلى الأرض ولم تأخذ هى بالها. وتمطت فى مضجعها ولكن كيف يسمح المسيح لمثلها أن تنام. ليست كلمة المسيح للأرض فلابد أن ترتفع عن الأرض. لذلك بقيت البنت فى قلقها ولا يقفل عينها النوم أبدا. وكلما طال بها الوقت ازدادت تألما وقلقا.

إن هاته الكسلانة التى لا تحفظ كلمة المسيح لا تستحق النوم. وأخيرا لما تولاها الضجر قامت وفتحت النور من جديد فرأت الكتاب المقدس على الأرض فبادرت لرفعه وبعد ذلك أقفلت النور وراحت إلى سريرها فلم تك إلا لحظة حتى كانت فى نوم عميق.

ومن بعد ذلك تركته وقد اكتفيت بحكايته.

٢ أغسطس أردت أن أذهب من برايتن إلى ورذنج لأسباب شتى منها مجرد الرياضة والسير على شاطىء المانش كل هذه المسافة الطويلة ثم أن آخذ صورة الپير (Worthing) فبدل أن آخذ الأتوبيس إلى هناك أستأجرت دراجة من برايتن حسبتها تصل بى وتردنى سريعا.

كنا إذ ذاك نحو الساعة الثالثة بعد الظهر وشمس أغسطس ممتده على الوجود وقد انطرح نورها يملأ الجو بعظيم لجته ويغطى صحيفة البحر فتتقلب تحته الأمواج وتلعب به وتتقاذفه. والناس لا يزالون فى بيوتهم منتظرين ساعات النسيم فالسكة خالية أو تكاد، لذلك لم أجد عقبه فى سبيل أن أسرع فى السير وعلى هذا تركت للعجلة أن تذهب بأسرع ما تطيقه. ولكن سرعان ما انحرف بنا الطريق عن شاطىء البحر وأحاطت بى بيوت عن الجانبين بينهما طريق واسع مفروش بالأسفلت قد امتد على نصفه الظل. وبعد بضع دقائق ظهر البحر من جديد تفصل بينى وبينه مستنقعات واسعة أولا ثم تضيق شيئا فشيئا. وعن يسار الذاهب يقوم حانوت صغير فقير تباع فيه البيره والمشروبات الأخرى القليلة الثمن وصحيفة المانش مجلوة بشعاع الشمس تبين هادئه مصقولة لا يحركها نسيم ولا تهيجها الأمواج.

رأيتنى بعد ذلك دخلت بين جدران قرية لم أعرف أسمها. وأردت تعرف الطريق فملت إلى غلام يبلغ العاشرة أو الثانية عشرة من عمره أسأله فأشار بيده إلى أذنه أشارة لم أفهمها. وأخيرا نادانى «أننى أصم فلا أستطيع أن أسمعك» ولم أجد بعده بين جدران هذه القرية إنسا.

بدأت أحس كأن همة دراجتى تفتر فشجعت نفسى ودفعت جهد طاقتى ونفذت إلى طريق معتدل بقيت فيه أمدا غير قصير ووصلت منه إلى شاطىء البحر من جديد وبقيت الدراجة تتلوى مع الطريق حتى بلغت ورذنج وهى لاتزال هى الأخرى فى صمت الظهيرة. والقليلون الواقفون على الشاطىء مبعثرون هنا وهناك وفى كل مكان. ولما كنت على مقربة من الپير أخذت

صورته ورجعت أمشى الهوينا ودراجتى بيدى أتفرج على ما حولى وأرفع نظرى فأرى الأبنية القائمة ينظر أصحابها من نوافذها فإذا ما تعدت عينهم ما أمامهم من الأرض والأشجار والناس إلى البحر راحت معه حتى ينطبق الماء والسماء ويرسم الأفق خطه يحدّ به القليل الذى نرى والعظيم الهائل الذى يغيب عنا علمه.

ثم رجعت أدراجى والطريق لايزال خلاء لا يمر به إلا قليلون.. ووصلت مرة أخرى إلى القنطرة التى تفصل القرية التى قابلت فيها الغلام الأصم عن البحر واستوقفنى مرة أخرى خادم القنطرة ليعطينى تذكره أدفع له قيمتها بنسا.

فى انكلترا يجعلون الناس يدفعون بنسا أجر جواز القنطرة فى حين يمن علينا الأنجليز فى مصر بأنهم رفعوا ضرائب جواز القناطر ويعدون ذلك مفخرة من عظيم أعمالهم عندنا.

وصلت بريتن الساعة الخامسة ونصف مساء فرددت دراجتى وملت إلى محل شاى أخذت فيه الشاى ثم رحت إلى المصور الذى أعرف فاستظهرنا الصورة التى أخذت. ولكنى لم أجد وقتا كافيا أطبعها فيه على الورق وعلى هذا وضعتها مع الأشياء والألواح الأخرى فى صندوق منتظرا يوما استقر فيه. وسافرت من بريتن عند ذلك اليوم. فلما كنت فى باريس، وفتشت عن صورة ورذنج إذا اللوح مكسور ولا ينتفع به.

المتحف الوطنى The National Gallery : زرت هذا المكان فى لندره مرتين. وها مر على ذلك زمن طويل ولاتزال ذكراه حاضرة عندى واحدى غرفه مرسومة أمام ذهنى لا تغيب وأعرف مواضع الكثير من صورها وأشكال تلك الصور. تلك هى الغرفة التى فيها صور جماعة الكتاب والشعراء والفلاسفة. الغرفة التى تجد على جدرانها بيرن وشلى وكلردج وداروين وسبنسر. الغرفة الفنية إذا دخلتها أحسست كأنك وسط العظمة والعظماء وتجسمت فى نفسك هيبة للمكان ورضيت أمامهم بأن تكون التلميذ الصامت تسمع ما توحى به

نفوسهم. ثم يذهب بك خيالك فى هذا العالم فتذكر لكل منهم اسم بعض الشيء مما تعرف. لبيرن شعره الرقيق ورقته ولشلى وصفه الناطق وقصائده العذبة. وتذكر لداروين مذهبه الكبير وسياحاته ولسنبسر كتبه وفلسفته الهائلة. ولكأن شكل كل منهم يوحى بمعنى ماكتب. فترى فى وجه بيرن وفى لباسه ما ينطق رقة ولطفا وفى شكل شلى وعيونه البراقة وصدره المفتوح ما ينم عما تحويه روحه من الشعر كما أن على الآخرين معنى التفكير العميق والتدقيق الشديد.

ثم إذا صعدت إلى أعلى المكان ودخلت إلى آخر غرفه ـ الغرفة القائم على جدارها صورة وليم بت ـ رأيت هناك صورة مدام هملتن صورة بديعة وجمال ناطق وسيدة أبدع ماترى من السيدات.

(٦)

فى سويسرا

بعد إذ قضيت حوالى الشهرين فى انكلترا سافرت منها قاصدا جنيف. ولكن وجود صديقى ب.. بباريس جعلنى أعرج عليها وأقضى بها أربعة أيام ذكرتنى أيامنا القديمة حين كنا لا نفترق.

وأخيرا تركته آخذا القطار إلى لوزان فوصلتها عند مقتبل الصبح.. ومن محطتها أخذت (الفنكيلير) الصاعد إلي أوشى ضاحيتها الجميلة وهناك نزلت فى (أوتيل دنجلتير) التى نزل فيها (بيرن) وكتب بعض قصيدته الكبيرة (تشيلد هارلد). وأوشى ضاحيه بديعة تطل على بحيرة ليمان وتقابلها (أفيان) على الشاطىء الثانى. ولقد كان معى فى الفندق شرقيون لم أعرف أمصريون كانوا أم سوريون وهم عائلة مركبة من أب وأم وابن وبنت. ولقد تحادثت مع الأب مرة وعرفت أنهم يقيمون بالأسكندرية. أما الأبن فيظهر أنه يدرس فى فرنسا إذ سمعتهم يلومونه على تقصيره فى إمتحانه الأخير. والأم سيدة هرم تبلغ الخمسين أو ما فوق. والبنت فتاة ممتلئة الجسم وافية القامة ربما سرّت محبّي (البياض والسمنة).

وأني أضع للقارىء المذكرات التي كتبتها يومئذ كما هي ليقف علي حال نفسيه أجدها اليوم غريبة لأنها ملأى بالخيال والشعر وأحترمها وأحب ذكرها وأتمنى لو تعود.

ولست أدرى إذا كان كل من تحويه سويسرا تكون هذه حاله. بل لأظنها حالا خاصة لأني لم أعرفها حين زرت سويسرا بعد هذه الزيارة بعام.

وإذا وافق القارىء على غرابتها فأرجوه أن يحسن الظن بها ويكون حليما في الحكم عليها.

١١ أغسطس في ذلك اليوم وقد جاءت على القدرة الخفية بما لا أعرف من الوحي تطلعت نفسى إلى زيارة أفيان فأخذت القارب إليها وقطعت البحيرة تنقلب أمواجها هادئة ساكنة مستسلمة وينبسط فوقها نور الشمس يجلل مياهها الزرقاء تميز أمام العين وتنقلب فضية عن بعد. والجبال قد قامت تحيط بنا كساها الضوء. وأخذت طريقى أرتقى المرتفعات جللتها الأشجار حينا وحينا أمتد فوقها بساط أخضر لا يتناهى حتى ينساب مع قممها العالية فى فضاء الجو يهبط عليه السحاب يعانقه عناق مشتاق. وبين هاته الطبيعة الواسعة أحلام دائمة تتسرب فى جوفها بين الحجر وبين العشب والشجر تسمعها فتسوقك نفسك إلى استجلاء أمرها فإذا خرير الماء بين هاته السخور جاءت من عليين ــ خرير دائم بديع يحيى ذلك الصمت الهائل جاء من المراقى هابطا حتى يضيع وقد أدى مهمته فى المنحدرات إلى البحيرة.

شيء بديع لا أقدر على وصفه وجمال لتحار أمامه النفس.

وفى المساء أخذت قاربا والشمس تطوح نحو المغيب تحجب بالسحب ثم تقر وقد ظللت القمم البعيدة غمامات وانطرح عليها من النور ما بقيت معه فى رفعتها شفافة تبين قلبها صافيا إلا من كلوم جاء بها الزمان العتيق. والبيوت عن الجانب القريب تصعد متسلسلة بينها العشب الناضر.. والسحب ما أحلى السحب كيف كانت؟ ذلك ما يذكره ناظرى ويعجز دونه قلمى.

فى تلك الساعة لم أستطع إلا أن أشكر الله وأنا على ظهر الماء آمن مطمئن وتجلى لى أن ليس من تجديف فى العالم هو أشد من هاته الصلوات التى يعملها الناس وقلوبهم مقفلة فى حين يفتح الله أمامهم قلب الطبيعة الهائل: تجلى لى كفر مدعى الصلاح والزهد ولؤمهم.

١٦ أغسطس

في القارب على سطح الماء والليل مفرود على الوجود.

ليس فيما حولي من حسيس بل كل شيء ساكت ساكن وتجرى إلى جانب قاربى القمر والنجوم النائمة على الأمواج الخفيفة ثم تحجبها السحب وهى تطلب من بينها منفذا كأنها تحس بعظيم شوقى لها وما تكاد ترى أضيق سم فى تلك الحجب حتى تبعث لى منه قبلاتها.

والبحيرة البديعة تحوطها الجبال والشجر ناعسة تحت ستار الظلمة. كل شيء فى تلك المملكة الصغيرة ذاهب فى أحلامه وأنا والقمر متناجيان: وهناك هناك من أعلى الجبل عين ترقبنا جميعا وتطلع على خفايا ما يدور فى نفوسنا: نور ضئيل معلق فى السماوات.

تلك بحيرة ليمان. هى ليمان الجبال وسجن الأحلام اللذيذة. هى المرآة تضم على سطحها كل ما فى الوجود من إبداع وتبعث به للناظرين.

ثم يقف قاربى وإلى جانبه مجدافاه وأنظر أنا للقمر الهائم. كم ناجى ذلك الوجه الشاحب محبيه وكم سهر الليل صاحبه من أجلهم.

مغرور الإنسان أن يحسب أن جنسه وحده القدير على الحب. كل شيء للحب أطوع من يده إلا هو. هو أقسى الموجودات وأضلها فى طريقه. وهاته العوالم الكثيرة والكواكب العديدة أليست هى الأخرى هائم بعضها ببعض.

لم تتطلع هاته النجوم البعيدة للأرض بنظرات عاشقة ولم لا تكون مصلتة النظرات إن كانت صلدة جامدة كما يقولون. كل شيء يحب ويجن هدى إلا الكافر لا قلب له.

٢٠ أغسطس

فى أيامنا على الأرض لذائذ شتى نتذوقها وننهل من كل منها حين يحلو لنا. ولكن ألذ هاته اللذائذ، اللذة التى تجعل الحياة سعيدة كلها خالية من الألام والأفكار السوداء هى فى حياة بسيطة متشابهة يجلس فيها الإنسان لابساً أبسط ما عنده وأكثره ضمانا لحريته تاركا كلّ يدخن سجارته ويفكر فى أحلام مختلفة يتنقل من واحدها إلى الآخر كلما حلى ذلك له سواء كان بينها مناسبة أو لم يكن. يجلس من غير ما تكلف وينسى كل ما سواه والماضى والحاضر. لا يفكر فى شىء غير هاته الأحلام.

ألذ من هذه حياة أخرى مستوحشة حياة بين جنات الطبيعة وغدرانها إلى جانب محبوب جميل برئ النظرات عذبها يتكلم ويسكت من غير انتظار المناسبات أو تحين الفرص بل لأن كلاما جاء فى باله أو لأنه سارح فى حلو أحلامه. والسكوت حولنا ترق على أوتاره أغاريد ما يحيط بنا من الطير فيزيد عالم أحلامنا حلاوه ولذة. والغدير ينساب إلى جانبنا هادئا يلعب الهواء على سطحه أحيانا فيبعث فوقه موجات خفيفة لامعه. لا أدرى أن كان فى الإمكان تحقيق واحدة من هاتين الحياتين أو الأخرى. الناس مشغولون دائما بآمال وأفكار يقطعون بها وقتهم لا يهمهم أن يكون ذلك لذيذا فيضطرون غيرهم ممن لا يدين برأيهم ولا يعتنق مذهبهم لشىء من الكد والسعى ويفسدون عليه كثيرا وينغصون أحلى ساعاته.

ليتنى كنت قديرا على ثانية الحياتين ألا ما أحلى هذا العيش وما أشد شوقى له. لو أن عندى ما يجعلنى أحققه لما ونيت عن ذلك لحظة.. ولكن ليس عندى. ويل للوجود يعطى غير محتاج من جماعة الذين لا يرون لذة إلا أن يكنزوا عندهم مالا فى حين يحرم الآخرين الذين يريدون إرسال هذا المال فى الطريق الذى له خلق ـ الذين يريدون انفاقه. يا أرواح العشاق والمحبين. يا عوالم الأرض والسماء هاته الجمالات المحيطة بى. هل لك أن تسعدى أنسانا لولا ما يجد فيك اليوم من العزاء لما عدل عن الموت بديلا ؟

٢٢ أغسطس أى إحساس ذلك الذى يصيبنا ساعة ننظر إلى فتاة جميلة. ما تلك الهزة التى تداخل النفس وتحتل القلب وتملأ الفؤاد وتمتد إلى الجوانح ثم تعم وجودنا كله. أى سحر يكنه جمالها حتى ليذهلنا عن كل ما سواها.

ما أخذ جمال فتاة ببصرى إلا أحسست بضعف أمامه يسهل معه أ ن أركع إلى قدميها وأحسست فى الوقت عينه بقوة كبيرة ترفع عندى الأمل فى الحياة إلى ما لم أتصور من قبل. كلما تخيلت الدنيا وما بها من شقاء وألم وهاته المساءات التى لا يفتر الإنسان يرمى بها أخاه الإنسان خيم على يأس شديد يكاد يقتلنى ورأيت العيش علىَ الأرض شقاء من الجنون البقاء معه. فإذا ما خرجت إلى الناس ولاحظت منهم اهتمامهم بالحياة حتى ليرتكبون من أجلها أفظع الأعمال زدت برأى اعتقادا وهمت أفكر بتنفيذه ثم إذا ما خرجت لى جميلة حلوة النظرات وحدثتها بكلمة أو تبادلنا ابتسامتين أو رنت إلىّ زال أثر ذلك كله واحتل مكانه مخدر لذيذ أتوه بسكراته وانسى معه كل أفكارى السابقة.

كم لهاته النظرات البريئة من القوة على القلوب الحساسة. لو أنك امتحنت نفس إنسان ساعة تتركه جميلة أعجب بها لوجدتها تجمع بين الهناء والعذاب والسرور والألم والأسى والأمل وكل ذلك ذو لذة منعشة مخدرة تصور أمامنا عالما كبيرا لا تغيب عنا دقائقة ولا جلائله. عالم الجمال العظيم.

هذا الضعف الإنسانى أمام الجمال. هذا الذهول عن عالم المحسوسات وعن كل شىء إلا المحبوب الجميل. هذّا التخدير الذى يصيبنا وتلك السكرة التى تحكم على كل حواسنا هذا كله منتهى السعادة.

لو أن هذا المحبوب خرج عن المدن وضجتها وصياحها وجدرانها المتشابهة الثقيلة الظل وشوارعها المملوءة ضوضاء وجلبة إلى فسيح من الأرض طلق الهواء يغطيه الشجر والزهر وينعشه الطير بحلو نغمته. بالله ألا يضيف إلى تلك الجنة الزاهية روحا تزيد فى حياتها ومبلغ السعادة فيها؟

٢٥ أغسطس أسأل عن جنسيتى حيثما ذهبت وأقول أنى مصرى فأحس أن مخاطبى يرمقنى مستغربا يرمقنى بنظرة تذهب إلى سواد قلبى فتؤلمنى. لم ذلك؟ لم هذا الأحساس المشوب بالغرابة عنده وبالألم عندى؟

أما عنه فلا أدرى؟

وأما أنا فأحس أن هاته النظرة تحوى معنى كأنه السم. تحوى احتقارا ناطقا. فكأنه يقول أهوه. من أمة محكومة. أقول فى نفسى إذ ذاك ويل لهاته الإنسانية الكافرة الجاحدة. ألسنا نحن أباء مدنيتها. ألسنا الذين علمناها الطريق إلى سعادتها الحاضرة. وأجدادنا أما كانوا الحاكمين ذوى السلطان والسطوة. إن لنا على الأمم جميعا من الفخر ما نرفع به رؤوسنا نساوى بها أكبر الرؤوس..

ولكن العنيد لاتزال نظرة الازدراء ظاهرة في عينه وكأنه يجيبنى. بالله ذر الماضى فالتاريخ لم يترك أمة من غير مجد. إنما لك الساعة التى أنت فيها. الحاضر فخر أصحابه وعزهم أو هو صغارهم وذلهم. كنتم الملوك.. كنتم الآلهة.. ولكن ما أنتم اليوم؟ أمة مستصغرة مسكينة! أمة راضية بضعفها وذلها! أمة تقبل الحياة ولوكانت حياة خسة ونذالة.. ها أنتم اليوم!...

... من أجل ذلك انظر لك تلك النظرة أعذرنى عنها! إنما دفعتنى لها الفطرة التى تدفعك لمثلها لو كنت فى موقفى.. وأنها يا صاح لتكن غير ما قدرته أنت شيئا من الرحمة والأسى من أجلكم!!.

٢٦ أغسطس وأنا راجع اليوم من ڤيڤى vevey لمونتريه كان معى فى الترام غلام ألمانى يبلغ السادسة له رأس كبير وجهه عريض ونظره حديد ولكنه مما تدل عليه هيئته وهيئة الذين معه ليس من عائلة غنية.

حدقت بهذا الغلام مرارا وأردت أن أجتلى شيئا من غامض أمره. أردت أن أعرف ما تحت هذه الرأس الصغيرة من بذور تنتجها الأيام وما عسى تكون أزهارها.. فبهت ولم أجب نفسى بكلمة.

من ذا يدرى هل سيكون ذلك الغلام برأسه الكبير شيخ الفلاسفة أو رئيس طائفة أو يكون هو كآحاد والناس يقضى حياتا متشابهة بليدة. من ذا يعلم إذا كان سيقلب العالم كعبا على عقب أو هو سحر غير منظور بعين ولا معروفا ويبقى أيامه القصيره ثم يقلبه العالم مرة ثانية إلى ترابه.

ماذا فى هاته الرأس الصغيرة السن الكبيرة الحجم! أهى تلك الأشياء العادية المبتذلة التى فى كل الرؤوس أم تخبىء مكنونا ستظهره الأيام لعيون الوجود كله: وهل خير ذلك المكنون فيه يسعد به الناس أم شر يسخطون له ويشكون ويصيحون .. من يدرى؟

على كل حال هو سيخطو على الأيام خطواته حتى يصل للغاية الكبرى.. للموت وسواء عمل كثيرا أو قليلا ومر تحت ستر الأيام أو هو هتكه فأمامه ذلك الآخر الذى ينتظر الناس جميعا ليريحهم من العناء والويل: ... أمامه الأبدية حيث الراحة الكاملة الدائمة.

٢٧ أغسطس انترلاكن ١٩١٠

أنني لا أخشى الفقر فذلك أهـــــون ما أتوقع. وإنما أخـــاف شيئا واحدا أن يضيـــــع ـ أخاف عليه أكثر من حياتي ـ ذلك هو الصحة.

لقد طعمت من صنوف الحياة ضروبا ومن السرور والحزن والشقاء والسعادة وجنات الأحلام ومخاوف الحقائق كثيرا فما رأيت بينها فرقا هالني. ولكن الذي يؤلمني وينغص عليّ عيشي. الذي يجعل أمامي كل شيء أسود مخوفا. الذي أفضل عليه الموت.. ذلك هو المرض.

نمت تحت السقوف والتحفت السماء. تدثرت فوق سرير ناعم. ناعم بنعم الدثر واتخذت مهادي الحلفاء الناشفة وغطائي الصوف الخشن فما عرفت بينهما من الفرق ما أفرق منه. كلا بل إني لتراجعني ذكرى تلك الليالي المستوحشة وأنا في أنعم حالي ولأحن إليها وأنا في عيش ناعم أحرى به الناعمات... هناك أرى الفضاء الحر العظيم أنا ساربه ويلعب النسيم العطر بشعري وأنا في خيالاتي تائه سعيد.

هناك يناجيني القمر وأناجيه: هناك تخاطبني الطبيعة الصامتة وأفهمها. هناك تتجلى أمامي الآفاق تخبر عما وراءها من السر الخفي في حين بين حوائط أربع أنا فريسة الأفكار الفظيعة والخيالات المخيفة والأحلام المقلقة.

إذن ليس من الفقر خوفي. كل شيء قدير أن يحويني لو كنت فقيرا. ولكني أخشى أن يتغير عليّ الزمان فيأخذ مني أكبر ما أنا متمتع به اليوم. تلك الصحة الطيبة أشكر الوجود عليها عن نفس خالصة، إذ بها حريتي ومتاعي.

اليوم الذي تألمت فيه حقيقة هو حين مرضت أو ضويقت في حريتي.

٢٩ أغسطس ١٩١٠

بين برينز وانترلاكن سماء صافية إلا من بعض سحب خفيفة بيضاء هنا وهناك. بعثت شمس أغسطس بالنور العظيم على الموجودات. في تلك الساعة أخذت عربة الأتوبيس من أنترلاكن حتى بحيرة برنيز وانتظرت هناك ولا غاية لى أقصدها. فلما رأيت القارب وصل المينا نزلت فيه قاصدا أن أجئ على هاته البحيرة من طرفها إلى طرفها لأرى أى شىء تكن من الجمال حتى لتفضل على ليمان. فلم تك إلا لحظة بعد أن تحرك القارب حتى إذ أنا تحوطنا الجبال من كل جانب وقد ارتفعت عالية حتى تلامس السحاب ثم تنزل دفعة واحدة إلى البحيرة وقد غطى ذلك السد الهائل من الصخر نبات وأشجار خضراء نامية تكسوه. وتكاثرت الجبال حتى لكنا ننفذ من بين مضيق منها وأمام العين ثمانى قمم شاهقة محدده تخرق الجو الساكن لا حراك به وكلما رسونا على بلد رأيت محطة صغيرة مختفية وسط الشواهق مما حولها يهبط إليها الناس ثم يتخذون طريقهم صعدا وسرعان ما يختفون عن العين وسط الغابات المحيطة بهم. وإلى الجانب الثانى تقوم الجبال كذلك ولكنها أقسى أشكالا وأقل شجرا. وما بين الجبلين تنصقل صحيفة الماء وهى أكثر من كل ما حولها سكونا واستسلاما.

وسط هذا الصمت الهائل من كل الطبيعة المحيطة بنا يموج جوف المركب بالسائحين وقد ملأوا بيتهم السائر ضوضاء لا يتميز فيها شيء لكثرة المتكلمين وتعدد اللغات التى يتكلمون بها. فبينا ترى عن يمينك جماعة الألمان بجسومهم الضخمة وأشكالهم الكبيرة إذا أمامك الأنجليز والأمريكيون وعن يسارك طليانيون. وهناك عند مقدمة المركب جماعة يتكلمون العربية ويظهر عليهم أنهم من الشوام المتمصرين.

دخل إلى هذه الضجة سكون كان يتخلل أجزاءها رويدا رويدا حتى إذا ما تم وقاربت المركب إحدى المحطات إذا صوت الماء المنحدر جاء من هناك من

أعلى القمم ثم أنساب بين الصخور والنبات والشجر فاندفق بصوت عال دائم متشابه فى البحيرة الساكنة. وكلما اقتربنا منه تميز طريقه ورأيناه يظهر تارات بين المرتفعات لامعا تحت النور الساطع مندفعا بقوه ثم يختفى بين الأشجار والصخور.

وأخيرا وصلنا برينز فهبط إليها وأخذت الشاى بمكان صغير هناك وحيث أرسلت بنظرى فالجبال الشماء الرائعة تعلوها الأشجار العالية ويموج فوق سطحها النور المتدفق ثم تهبط هى وما عليها والنور والشجر ساقطة إلى قاع الماء السجين وسط ذلك الحصن القوى.

ولما كانت الساعة السادسة أو نحوها وآن أن نرجع كانت الشمس قد ابتدأت تسلك طريقها إلى الغابات البعيدة وتسقط من جوها الرفيع والهواء يتحرك والأشياء كلها تلبس حياة غير تلك الحياة النائمة التى كانت تلبس ساعة مجيئنا. وأخذ مقعده إلى أمامى فى القارب ثلاث شبان أقوياء وقد انتعلوا أحذيتهم الجبلية الكبيرة ولبسوا بعض ملابس بسيطة تنبىء عن ضعف حالهم ثم من بينهم فتاة يظهر أن لها باثنين منهم صلة قرابة. جلسوا وكلهم الرضى والقناعة يضحكون عن نفس طيبة ومن حولهم سكوت أو يهمسون. والماء تموج بموجات صغيرة صغيرة تتابع منسابة فوق سطحه الذى أخذ لون الجبال الخضراء قد انطرحت بظلها فوقه. ومن بين قمتين بعيدتين تتهادى الشمس النازلة وتبعث على البحيرة وموجاتها بعقد ذهبى يتبع قاربنا فى مسيره وهناك و عن يميننا جهة الغرب منظر أبدع ما ترى العين. جبال تغطى سطحها أعشاب صغيرة تنقشها هنا وهناك خطوط بيضاء ثم دخل كل ذلك فى شىء من الظلمة فإذا ما تجلى للنظر سحره عن كل ما حوله ولم يستطع إلا أن يبقى محدقا به.

ثم رأيت الذين أخذوا مقعدهم أمامى قاموا فنظروا إلى جزيرة نمر بها ولكنا لا نقف عندها ثم أخرجوا من جيوبهم مناديل أمسكوا بها من طرفها ورأيتهم

يشيرون إلى بعض الواقفين على هاته الجزيرة وينادونهم نداء الوداع. والآخرين يشيرون هم كذلك بمناديلهم حتى غاب القارب عن أنظارهم فجلس أصحابى وعلى ثغورهم ابتسامة تطوقها.

وأخيرا وصلنا إلى القمم الثمان وقد اختبأت وراءها الشمس وصرنا ننظر من ذلك المضيق الذى نحن فيه فتجلت أمامنا البحيرة وما حولها ويأخذ بالعين ذلك المنظر الحلو حتى لنود لو يبقى القارب فى مكانه حتى حين. ولكن القارب يسير غير وان إلى غايته ويصل بنا سريعا إلى انترلاكن.

* * *

١٥ سبتمبر ١٩١٠

كنا مع صديق يحكى لنا وقائع سكره وفتكه بالنساء. وكم كان جازاه الله حلوا فى حكاية وتنسيق وقائعه كما كان كثيرها إلى حد ما تصورته من قبل أبدا. وقال لنا كذلك سبب تركه الصلاة التى كان يحافظ عليها محافظة الناسك: ذلك أن دخل مرة سكران والساعة الثالثة بعد نصف الليل ولم يكد يضع رأسه فوق مخدته حتى جاءه أبوه يناديه لصلاة الفجر فقام وأخذ دشا يطهر به وصلاها فانتابته حمى ظل فى أثرها شهورا فحلف من بعدها أن لا يصلى، إذ إنها الصلاة جاءته بها.. ثم انتقلنا بعد ذلك لحديث آخر جاء فى خلاله أن تلوت آية من القرآن. فنظر هو إلى وقال أولا .. أنت طاهر؟

ذكرنى فى ذلك بنادرة حلوة من مثل هذه.. كنت فى انجلترا وصديق يترافع عن الدين الإسلامى أمامى مرافعته أمام من لا يدين بذلك الدين. يدافع بكل قواه وينصر المبادئ التى قررها وأنا أوافقه أغلب الأحيان فلا يزداد إلا حدة واندفاعا.

.. هو الدين الإسلامى أطلق للناس العنان وحلهم من قيود كثيرة كانوا يرزحون تحتها وجعلهم أحرار الفكر يعملون بما يهديهم عقلهم كما ضمن لهم فى تعاليمه السعادة ووضع لهم قواعد محكمة .. إلخ .. إلخ...

فلما أنهكه التعب وجاء عليه اللغوب التفت إلى قائلا :

ـ الواحد تعب.. تعال يا شيخ نأخذ كاس وسكى.

من أيام قام فى الرايخستاج الألمانى جدال جاء على أثر الخطبة التى كان القاها الأمبراطور مشيرا فيها إلى حقه الإلهى فى الحكم مستمدا معونة موكله العظيم. وفى هاته المناقشات قال قائد الاشتراكيين لأول مرة بصراحة إنما نسعى لغايتنا وهى الجمهورية. يجب ألا تكون الجمهورية غاية الاشتراكيين وحدهم بل غاية كل محب للسلام العام. فأن وجود الحكومات الجمهورية على البسيطة هو الضمان الأكبر للحرية. وأن الجمهوريات الحاضرة، على أن بعضها عظيم جدا، لتدلنا عليها. ولو أنا لنصدق ما يقال من أن فرنسا اليوم فى تقهقر، فما أحسب أحدا يقول إن الجمهورية الأمريكية الكبيرة جمهورية الولايات المتحدة فى شيء من ذلك كما أن الجمهوريات الكثيرة الأخرى قوية ومع ذلك فليس فى طبعها حب الحرب ومناوشة الآخرين العداء.

لكنها الملكيات هى دائما حبيسة هذا المرض الإنسانى الفظيع. هى السبب فى بقائه على الأرض. ولو أنك أخذت التاريخ لما وجدت التوسع فى الاستعمار إلا فى العصور الملكية اللهم إلا قليلا أيام الرومان حين كانت الجمهورية فى يد شبه ملك. والسبب فى ذلك على ما أعتقد هو أن هؤلاء الملوك من الشره والطمع والأنانية حتى ليعتقدون أن الأمة وما فيها هى فى شخصهم فكلما اتسع نطاقها اتسع مجدهم وعظمتهم وعلى هذا فهم مدفوعون بما يخالط الطبيعة الإنسانية من الشره الفظيع الجشع. هم يدفعون من يؤمنون بحقهم فى الحكم إلى الغزو وأقام الحكومة حبا فى السعادة الشخصية. لذلك تدخل فى أخلاق الناس وفى الفكرة العامة أن الوجود موضع سعادة للمجموع فى حين تكون الفكرة عند الملكيين أن الحياة قائمة على إرضاء لأطماع شره ملوكهم.

١٩ سبتمبر ترى الأوربى هنا عمره فوق الثلاثين وفوق الأربعين ورجل ذو مكانه فى الوجود وقيمة فى نفسه وهو مع ذلك مثال السرور والنشاط وشديد التعلق باللذائذ وبالرياضة يعطى قسما كبيرا لها ويجد موفورا عنده الوقت الذى يعمل فيه كل عمله مما تطالبه به الحياة.

يفوق الخمسين ويفوق الستين ويبقى ذلك شأنه.

ترى الشاب يحس فى نفسه بشبابه ويعلم أنه غير مسؤول بعد إلا عن عمل شخصه: عن دروسه ومدرسته. كما أنه يفهم أن هاته الأيام ربيع الحياة وفى غد يأتى الصيف فيدخل إلى عالم مسؤولية وجد ثم الخريف تعرى فيه رأسه عن شعرها فيكسب ذلك الربيع ويأتى فيه بكل ما تحبه نفسه ويجول بخاطره.

عندنا متى بلغ الفتى الرابعة عشرة من عمره أو السادسة عشرة إن كان ساكنا بعض الشيء خاض غمار السياسة وأخذ على عاتقه من الأعمال وتعهد أمام نفسه وغيره بأشياء فتراه أصبح ذا العمل الضخم الكبير: وهو نعم الكفء لعمله إذ تراه ما حل مكانا إلا صاح ونادى وصرخ واستصرخ. فإذا ما وصل العشرين كان الرجل الناضج يمشى وعليه وقار الكمال وهيبة الرجولية. وعند الخامسة والعشرين ينتظره المشيب فيتمهل فى مشيته ويهز رأسه إن تحكى له مسألة أو حادثة كما يهزها من عرك الحوادث وعركته وان رأيته رأيته ذاهب الفكر سارحا يحدد عيناه لحظة ثم يسبل عليها حاجباه.. ويكون بالجملة الشيخ الذى فرغت منه الأيام ولم يبق فيه من خير. تلك حالهم النفسية وما أدرى إذا كانت الجهة الأخرى جهة اللذائذ الجسمية هى على هذا النظام. ولكنما يخيل لى أن الأمر بالعكس لأنهم كلما كبروا سنا كلما اندفعوا وراء شهواتهم وتماوتوا فى طلبها وزادوا إلى حد فظيع.. كل ذلك نتيجة تربيتنا الأولى وفساد العائلة.

سبتمبر/اكتوبر

عرفت أحد الموظفين بالحكومة قد قضى بها أكثر من أثنى عشر عاما وعمره اليوم لا يزيد على الثلاثين كثيرا. لذلك كان أمامى خير مثل للتربية إلى تعطيها الوظيفة لمن يشغلها والأثر الذى يصيب نفس المستخدم. وإذا لم يكن هذا الشخص مثلا فى قوة الإرادة أو توقد الذكاء أو حدة الخاطر أو نحو ذلك فليس هو بالعكس ـ ليس بالغبى الأبله. بل هو الشخص العادى الموجود عندنا. هو المصرى الوسط عرفته فأظهر لى من أفكاره ما وافقنى. كنت كلما قررت أمامه قاعدة وجدته لم يخالفنى فى صغيرة ولا كبيرة من أصلها أو حواشيها. وإذا أعطيت رأيى عن شخص قواه هو بالحوادث الكثيرة لا عدد لها يحفظها عن ظاهر قلبه. وإذا تكلمنا فى السياسة والحال فى مصر كنا دائما من رأى واحد.

شخص كهذا يكون صديقا حميما فى أيام قلائل. ولاحظ هو أن هكذا كنا. ثم قابلته ليلة ومعه منتم للحزب الوطنى مناصر لأفكاره وهو الآخر صديق ذلك الموظف. كنا نحن الثلاثة معا. ماذا يعمل صاحبنا، اجتهد بكل ما استطاع أن يوافقنا نحن الاثنين. كلا بل كان مع عضو الحزب الوطنى أكثر مما هو معى. ادعى فعلا أنه منتم لهذا الحزب إذ كل فرد يعمل لصالح مصر هو من الحزب الوطنى فلما لم أقبل أنا هذا التعريف جعل يحور فيه حتى يرضى صاحبه ويرضينى.

قام الشخص الآخر قبلى. بقينا من جديد وجها لوجه ومنفردين أنا والموظف المحترم فإذا به يقول عن الحزب الوطنى كله (دول جماعة مجانين) . بالطبع لم يرقنى ذلك الانقلاب السريع فلم أجب وأغضيت بنظرى أن يقع عليه وبذا سكت ولم يستمر فى كلامه.

طلب إلى أن يمضى معى عريضة كنت أتكلم بمناسبتها عن تقديم مشروع فى مسائل الطلاق لناظر الحقانية. ووجدنا من بعد مع صديق آخر قال أن ذلك المشروع سابق لأوانه فوافقه الموظف. ولما شرحت رأيى للصديق الآخر كما كنت شرحته للموظف وافقنى فوافقنا الموظف.

حوادث أخرى كثيرة من هذا الصنف وقعت معه.

ألست محقا أن أقول إن الوظيفة فى مثل حكومتنا لها على النفس من الأثر ما يفسدها ويضيع أخلاقها

مسائل الاعتقاد ليست نظريات تبنى على قواعد طبيعية وثابتة كالمصلحة ولكنها مضاربات نظرية تختلف من فرد لفرد باختلاف فطرة كل واستعداده والمحيطات به وأثر ماضيه عليه. لذلك من الصعب محاولة أرغام مفكر على أن يعتقد شيئا لأن الأغلبية تدين به. كما أن من الظلم الفاحش أن يمنع صاحب رأى عن نصرة رأيه مهما خالف الجماعة فيه لأن تكوين العقيدة أو الرأى فى رأس المفكر لا يجيء إلا بعد أن يعمل مخه ويتعب أعصابه ويكابد أهوالا فمن العدل أن يترك له من الحرية ما يجعله يكسب حوله أنصارا أو معززين أو على الأقل أن يتعزى بإظهار ما فى نفسه للوجود.

* * *

يولد كل شيء عندنا قبل أوانه. ها صحافتنا ولدت ونمت فى الحين الذى تضر فيه أكثر مما تنفع فهى تصد الكتاب عن التأليف وترجع المفكرين عن إتمام فكرتهم وتنميتها وتكبيرها حتى تبلغ أشدها بأن تنشر لهم كلمات قد تحوى مبادىء الفكرة فتبعث بذلك النشر الغرور إلى نفوسهم وتوقفهم عند تفكيرهم المبدئى ولو أنا أرجعنا الصحافة إلى وظيفتها من الخوض فيما يخص الحوادث الحاضره لرأيت الكثير من صحف مصر تقفل أبوابها لأنها لا تعرف كيف تقوم بواجبها.

* * *

يعاب علينا جماعة المصريين ـ وبحق ـ أن لا ثقة لنا ببعضنا ولا بنفسنا فيبحث الناس عن أسباب ذلك فيعتقدونها أحيانا فى نقص التعليم وأخرى ضعف النفوس. والذى أعتقده أنا سبب ذلك أنا لا نعرف فى الواقع طعم المساواة.

١ يناير ١٩١١ اليوم أول يناير. اليوم دخلت سنة ١٩١٠ فى الفناء وحلت محلها سنة جديدة. انقضت كما انقضى من قبلها غيرها والزمن يسير دائما يفنى عمر الناس ويهرم العالم العجوز.

فى مثل هذا اليوم من العام الماضى كنت أسائل نفسى لمّ الحياة؟ وها أنا أسائلها الآن لم نستعجل الموت وهو منا قريب؟ وهل بين العام القديم والعام الجديد إلا غمضة العين. إلا أنه ليخيل لى أنى أستطيع الساعة، وقد انتقلت إلى سنة ١٩١١ أن أقبض بيدى على عام ١٩٠٩ كأنه إلى جانبى أو كأنه لم يدخل مع الأموات فى حفرهم.

يخيل لنا أن الحياة تمشى على مهل وأن أعمالنا فيها كثيرة لا يحصيها عد. ألسنا فى ذلك كالحالم الذى يطوف الخافقين ويقف على حوادث الأولين والآخرين ويسر ويحزن ويموت ويحيا ويفعل كل شىء سواء كان ممكنا أو مستحيلا فى ساعة أثناء نومه ويظن أنه قد استغرق ذلك الشهور والسنين.

من يدرى إذا لم نكن نحن فى عملنا على الأرض خيالات مسخرة تعمل ما تريده القوة الخفية فى الكون وان أحست أن لها وجودا مستقلا. أليس من الممكن أن يكون حقا ما يقال من أن الله خلقنا على صورته أى أنا خيالات هاته القدرة الهائلة فنعمل ما تعمل ونتحرك بحركاتها ونسكن بسكونها ونظن خطأ أنا نريد ما نعمل.

خيالات نحن ثم نئن من الحياة. ماذا فى الحياة حتى نئن منها أو نسر بها أو يبلغ بنا اليأس أمامها. إنها فارغة فاضية وكل ما نملأها به إنما هو لا شىء. عملنا وسعينا وسرورنا وحزننا وشقاءنا وسعادتنا ـ عقائدنا وأفكارنا، حربنا وسلمنا كل ذلك راجع إلى لا شىء.

١١ يناير ها أنا اليوم لا أعبأ بأمر ولا أحفل بشيء ضميرى صامت ساكت أمام الحوادث ونفسى لا تناجينى بخير ولا بشر. كل ما أمامى من الأشياء والناس والحوادث لا يستلفت منى نظرة ولا يعيرنى التفاته. وشخصى كله هادئ بل جامد لا يستفزه أسف أو ألم لماضٍ أو لحاضر.

كنت فى العام الأخير ريشة تلعب بى الحوادث وتغيرنى الأيام وكل خبر يصلنى من مصر أو مسألة تجدُّ هنا تجد منى قلبا حساسا حتى كان يبلغ بها اليأس أحيانا أقصى غاياته وكنت أجلس مكتئبا حزينا ترى عينى الوجود أمامها داعية آلام فتغلبها الدمعة ويحيط بى وبخيالى وجودى الآسى وآسف أن تركت أهلى وبلدى. أما الآن فلا شيء من ذلك. بل إن من الحوادث التى كانت ذات أثر كبير من قبل ما يمر أمامى فأتفرج عليه غير آس ولا أسف.

كذلك كل ما أعمل لا يترك فى نفسى أقل أثر من فرح أو حزن أو سرور أو ألم أو أسف. على العموم أصبحت جامدا أمام الكون صلدا.

ومهما جاهدت فلا أستطيع معرفة أسباب ذلك كله. وغاية ما أفهم أنه نتيجة لازمة لنوع الحياة الذى أنا فيه وللتطور الفكرى عندى ولفطرتى الساكنة بطبعها. كل هذه العوامل تفاعلت وعملت واحدتها فى الأخرى فأوصلتنى معا لحالى الحاضرة. وهل بقاء الإنسان بعيدا عن كل قلب يحبه وعن نظرات يخالطها الحنان والعطف ثم عن الأصدقاء القديمين أصدقاء الطفولية حيث كل شيء فيهم يحيى أثرا قديما وعن مصر موضع الآمال ومستقر الرغائب، وعيشه بين من لا يهتم له ولا يتأثر به بل ولا يعرف من أمره من شيء ـ هل ذلك إلا يطبع النفس، بعد أن تصيبها الأحزان وتتوالى عليها الحوادث، على الجمود أمام كل شيء والنظر لكل شيء بالعين الباردة التى ينظر هو بها إلينا.

ولكن الشر الأكبر هو أن الجمود بلغ عندى أن أصبحت جامدا أمام نفسى وأمام ما أعمل. ولست أدرى ان كان ذلك ليضرنى أو لينفعنى. وكل ما أحس

به أن هذه الحياة الحاضرة هى حياة لذيذة طيبة ليس من السهل الاستعاضة عنها بخير منها ولا بمثلها. ووددت لو أبقى كذلك غير مسئول من أحد بقية أيامى التى أرجو أن تكون طويلة أطول ما يمكن.

طويلة أطول ما يمكن، ولماذا؟ لتكن طويلة أو قصيرة، مسرعة أو بطيئة فما ذلك ليغير منى أنا شيئا ولا ليزيد أو لينقص من حظى كثيرا ولا قليلا. الحياة هنا. الحياة الجامدة الباردة ـ الحياة التى لا تشوبها أغراض ولا أطماع هى لاشك خير أنواع الحياة أو أقربها للعقل ولكنها كذلك أشبهها بالموت.

أيامنا على الأرض قصيرة جدا تمر وتجرى بغير قرار ثم تأتى علينا لتسلم نفسها لمن بعدنا. هى كالبغى تريد أن تأخذ من كل شخص أكبر حظ تستطيع منه وأعقلنا من أخذ منها ولم يعطها إلا ما تجود به نفسه اشفاقا عليها أن تفنى وتذبل تلك الزهرة الجميلة. ولكن لا لنلقى بأنفسنا بين يديها تصرفنا كما تشتهى أو نعطى حظنا إليها فتلعب بنا كما يحلو لها بل يجب أن نجلس إلى جانبها ونريها ما عندنا فإن أعطت أعطينا وإلا فأمرها بيدها.

ولكن لم تكون هذه الحياة الخامدة خير أنواع الحياة؟ لم يكون هذا الجامد خيراً ممن يترك نفسه لحظوظها تستوفى من الأيام كل ما تقدر على استيفائه وتفنى هى فى الأيام من غير ما حذر. ولم يكون خيرا من أى إنسان آخر؛ كل الناس يعيشون تتوازن آمالهم وآلامهم مسرورين بأنفسهم حانقين على الآخرين ويقضون كذلك أيامهم فى الفروق بينهم؛ لا فرق إلا الخيال الذى يدور برؤوسهم ويجعلهم يعتقدون أن غيرهم أسعد منهم. والواقع أن لا أحد أسعد من صاحبه بل كل الحياة مشاغل كاذبة لا حقيقة تحتها.

١٩ يناير

للباقين على عهد الحجاب ممن يحضرون إلى أوربا حجة يحاجون بها كل من كلمهم. تلك هى الكثرة لعدد البغيات ومن يبعن عرضهن من فتيات هذه البلاد. ولو أن هؤلاء كانوا أبعد نظرا لما أحوج الحال أن نقول لهم أن فى كثرة الحاجيات وغلاءها هنا ما يدفع هاتيك البائسات لعملهن. كما أن التربية التى يربين عليها والحظ من التعليم الذى تلنه والقراءة والمطالعة التى تفتح نفوسهن وقلوبهن وتجعلهن يطلبن الجمال من كل وجه ممكن. هذا كله يدفعهن رغم أرادتهن إلى ذل نفوسهن لمن يمسك بيده الذهب ويعمل لقضاء أغراضهن. والحقيقة التى لاشك عندى فيها أن هاته المدنية الغربية بما خلقت من كثرة الحاجيات وغلاء المعيشة وتفننت فيه من أمور الزينة والجمال وبما أودعت فى الأشياء من السر وفى الحياة من السحر تجرف بسيلها كل من جاء فى طريقها ولا تدع لأحد من أهلها ما يريد من تقشف أو زهد.

هذه المدنية القوية على ما فيها من فساد وشر تكتسح العالم من أقصاه إلى أقصاه وتعطى لأصحابها من الغلب على غيرهم ما لا يستطيع معه ذلك الغير إلا أن يندمج فيهم ويأخد مأخذهم. ورغما عن أملى أن توجد أمة تأخذ من مدنيتهم بأسباب القوة والدفاع عن نفسها وأفرادها وتذر مجالب الشقاء من مواد الترف المتناهية فى الكثرة فأني ناصح كل أمة لا تستطيع هذا أن تصبغ المدنية الغربية بصبغتها ثم تأخذها إليها.

* * *

حبس فريد بك: قرظ كتاب الغاياتى «وطنيتى» كل من الشيخ شاويش وفريد بك. فأخذ الأول وزج به فى السجن ثلاثة أشهر فى حين كان الثانى يتجول فى عواصم أوربا المختلفة فلما رجع إلى مصر وطلب للمحاكمة كان حسابنا جميعا أن سيحكم عليه بحكم موقوف التنفيذ مدة بين ثلاثة أشهر وأربع، ولكن حسابنا خرّم وحكم عليه بستة أشهر معجلة التنفيذ.

مرت هذه الحادثة كغيرها من الحوادث التى تمر وصاحت جرائدنا فى وجه الحكومة صيحاتها المعتادة وطلب بعضها العفو عن السجين وآخرون لم يطلبوه ثم دخلت جراب الماضى وجاء عليها النسيان ولكنى أرى فيها من جانبى الحكومة والأمة أكثر مما رأوا. أرى فيها فساد نية الرؤساء وضعف أرادة المرؤ وسين. ولو أن البلد لتلقى كل هذه الحوادث وكل ما تعمله أن تعلن الصياح والشكوى فيا طول ذلتها ويا عظيم ما ستلاقى.

إننى أنظر إلى الحوادث هنا وأنا بعيد عنها وبعيد عن تأثيرها الوقتى الذى تهيج له الأعصاب فأراها أكبر بكثير مما يقدرها به أهل مصر لأننى أراهم هم أيضا معها يصرخون ويصيحون وذلك يدل على أن الألم لم يبلغ بعد أن يكون الألم المميت. الألم الذى تتوتر معه الأعصاب وتقف دقات القلب وتثبت العين ويتصلب الجسم ثم يقذف صاحبه بنفسه على ظالمه قذفة اليائس الذى يريد الحياة الطيبة أو الموت الأخير.

فى هذا اليوم فقط حين لا يكون من أثر الحوادث إلا بريق العيون وازدياد الجسوم تصلبا يمكن لأى بلد مظلوم أن ينال حريته واستقلاله وحلاوة الذكر.

* * *

نرى منظرا أو نعرف شخصا أو تروقنا فتاة لأول مره وقعت عليها عيننا ويبقى لذلك من الأثر فى النفس ثم تكر الأيام ويدخل ما أعجبنا تحت ستار الماضى ولكنا لا ننساه بل يبقى عندنا فى عالم الخيال والذكر. هاته الأيام التى مرت عليه لم تمر عبثا. بل هو يتجلى لنا فى عالم الجديد وقد لبس جمالا غير جماله الأول وان أصبح غير هذه المزرعة أو الفتاة التى كنا نرى محسنّين أمام أعيننا قائمة بين الأشياء الأخرى المبتذلة بل يكون هو ومحيطاته والعالم الذى يعيش فيه مكسوا بقميص شفاف يستر العيوب وتبين المحاسن من وراءه مضاعفة كأنما أنماها الزمان. فالوردة التى كنا نرى محاطه بالشوك وقد ذبلت بعض أوراقها تظهر فى أكمل ما تكون وردة صابحة عذبة والمرأة التى عمل الكورسيه فى جسمها نتصورها تمثالا أملس من الرخام النقى. والكلمات البسيطة تأخذ أمامنا روحا جديدة وتحسبها تساقط من فم الحسناء التى تحب كأنها أشجى الأنغام. وكل شىء فى هذا العالم يظهر كأحسن ما يمكن أن يكون.

فى هذا العالم نحس حقيقة بالسعادة. نسير وسط هاته الأشياء البالغة منا أقصى درجات الأعجاب وإلى جانبنا المحبوب الذى صورناه على ما نشاء ونقول الكلمات ونعمل الأعمال التى تعجبنا. والسماء فوقنا ضاحكة الثغر دائما. وعن يميننا غروب الشمس البديع على ترعة صغيرة أو على النهر أو هى تسقط لتبتلعها أمواج البحر العظيم. وعن يسارنا البدر المتكامل يحبو متهاديا ويتخطر ثملا. والجو كله تعطر بالطيب وتنعشه الطير بأحلى صفيرها.

فإذا ما خرجنا من هذا العالم الطيب إلى الحقيقة. إذا ما قابلتنا الحسناء التى أعجبتنا من قبل أو نحن زرنا الأماكن التى أخذت بأبصارنا مرة من المرات كم يكون شقاءنا كبيرا أن نرى كل ما تصورنا كاذبا وكم نتمنى أن لا نخرج ولا مرة واحدة لنلمس الواقع.

٢٦ مارس ١٩١١
سان كلو

تعرف غادة وتسمح لكما معرفتكما بشيء من رفع التكلف والتكلم في مواضيع وفي أخرى وتطرقان أبواب الحديث في كل شيء وتمضى الأيام وتزيد المعرفة بينكما وتطلعك أكثرعلى ما فى نفسها وكل يوم تحادثها وكأنها تقول جديدا. ذلك لأنها إنما تحكى عن آمالها وتلك كلها لا حدود لها تمتد فى كل الجهات وتميل إلى الشعر أكثر منها إلى الحقيقة وتنزع دائما لأن تجد جديدا.

وتعرف سيدة قد قضت من حياتها شطرا فإذا ما تكلمتما وقصت لك ما في نفسها ثم أعادته وجدتها دائما تقول الشيء بعينه لأنها بقية الماضى وتحكى الأشياء الفائتة. الأولى نفس جديدة تريد أن تأخذ إليها كل ما تجد ولا شيء يكفيها فهى تعبر فى كل ما تقول عن هذه المطامع الغير المحدودة. ثم هى لم تدخل الحياة بعد ولارأت مضايقاتها وتلك الأشياء السافلة التى تتكاثر فى أنحائها فكل ما تقول إنما هو عما فى حلمها وكل ما فى حلم الشباب جميل. والثانية قد قضت وعرفت وعركت الدنيا وعلمت ما فيها فهى لا تريدمنها جديدا إلا لقضاء غرض حاضر أو لنوال مطلوب معين.

الأولى شعر الوجود البديع ممزوج بالأمل الحلو والثانية الحياة الحقيقية الباردة ممزوجة بالألم المر.

الأولى ترنو للآتى فتحملنا معها إلى المستقبل ويظهر بذلك شباب الحاضر والثانية تردنا إلى الماضى فتجعلنا نرى ما أمامنا وكله شعور بيضاء أو أكفان أو قيود كهذا الماضى المرجو.

من أجل هذا كله كان الشباب أوان الجمال. ومتى ولى الشباب ولى الجمال على أثره. كهاته الفتاة وهاته السيدة أم الأرض. منها عجوز جاء عليها الضعف وذهب جمالها فكل ما تتعزى به عن أليم وقع الحاضر أن تفتخر كل يوم بماضيها وتعيده أمام الناس فى أشكال إن أختلفت فهى دائما أشكال الماضى فى حين الأم القوية الشابة دائما تنظر للمستقبل وتعنى به. الأولى مسكينة مخذولة والثانية قوية مهيبة.

٢٨ مارس ١٩١١

لم نكره الآخرين؛ ألأنهم أوصلوا إلينا ضررا. ألأن نفوسهم باقية لاتزال في الظلمة ولا تستطيع أن تتصور فعل الخير دائما؛ لعل واجبنا حين نرى هاته النفوس أن نتألم من أجلها ونعطف عليها ويسوقنا هذا الألم والعطف لحبها، بل أليس الواجب أن يزداد حبنا لها كلما هي أوغلت في الشر أكثر وكانت بذلك في ظلمة أدكن؛ كلنا نحب الطفل الصغير لأن نفسه لاتزال خالية من الخير والشر. فهل نحن نزداد له حبا وعليه عطفا إذا هو أسعده الحظ فوجد من ملأ بالخير نفسه واستغنى بذلك إلى حد كبير عن عطفنا أو إن هو كان تعيسا فذهب به تعسه لأن يكون شريرا؛ الشخص الذى يسيء إلينا شخص مريض النفس فإذا نحن حكمنا على من يتقزز من مريض الجسم أو مهدود القوى بأنه جاف غليظ إلى حد أن يكون خبيثا ألا يكون من العدل أن نحكم الحكم عينه على أنفسنا إن نحن تقززنا من مريض النفس، واجبنا أن نداوى المريض ونعنى به ولا يمكن أن يكون ذلك مع رفضه وتحقيره؛ ترى لو أنك نظرت إلى إنسان مقترب من الموت بنظرة يشك فيها ألا يتألم ويبكى كما بكى عبدالله الصياد حين أردنا أن نتركه بعد أن مكثنا نعوده سويعة من الزمان، كذلك ألا أكون قاسيا إذا نظرت النظرة عينها إلى مريض النفس، أليس من واجبى أن أحابيه مقدار ما أستطيع لعله يشفى ولا أبعده وأحرمه من عطفى حتى يموت موتا نفسيا مثلما أبقى مع الآخر حتى تفارق روحه بدنه، حقيقة فى ذلك اليوم أدفنه لأنه لا فائدة منه بعد ولكنى أتألم من أجله بل وأزداد له حبا. هذا واجب كل إنسان نحو كل إنسان.

سان كلوفى ٣١ مارس

نزلت بالأمس إلى باريس وبقيت بها حتى منتصف الليل. بعد أن تناولت طعامى الساعة السابعة سألت نفسى أين أذهب. إلى التياترو أم إلى بعض الملاهى أم أين؟ وأخيرا قر قرارى على أن أقضى ليلتى فى سماع الموسيقى وانتهى بى الاختيار إلى (كونسيروج) حيث بقيت حتى الساعة الثانية عشرة إلا ربع.

هل أستطيع أن أحدد الأثر الذى تتركه الموسيقى فى نفسى؟ إن هذا الأثر غير محدود من طبعه فأظن عبثا محاولة تحديده. وكيف نجد حدودا له فى قطعة مثل (بير جنت) من تأليف جريج حيث ينتقل الإنسان من السرور إلى الحزن ومن المرقص إلى النغمات الحزينة من أجل موت صاحب جريج ثم إلى أن تهتز النفس مع دقات الرقص أو يبهجها الطرب لرجوع جنت إلى بلاده. كيف يمكن ذلك فى قطعة أخرى. فى قطعة بتهوفن المهداه إلى الطبيعة وجمالها. فى قطعة كورساكوف عن شهرزاد. فى أى قطعة أخرى. بل كيف يمكن تحديد الأثر الذى تحدثه النغمة الحزينة فى النفس حين تجرها معها رويدا رويدا ثم تروح بها فى عالم لا حدود له.

إن فيما تخلقه الموسيقى أمام النفس من العوالم المترامية إلى لانهايات الإحساس لما يسحر اللب ويأخذنا جميعا من وجودنا الأرضى المملوء بالغايات والأطماع إلى جو جميل تسكنه الإحساسات ولا محل للأجسام منه.

فى اليوم الذى تأخذ فيه الموسيقى مكانها فى مصر. فى اليوم الذى يكون فيه عندنا مؤلفون مهرة فى هذا الفن ويعتبرهم الناس والعالم أساتذة فيه. فى ذلك اليوم نكون بلغنا شيئا كثيرا. نكون خلقنا لأفراد الأمة سعادة لا نظير لها وللمجموع إلى جانب هذه السعادة عظمة تبنى فوقها الأجيال المتعاقبة.

٢ مايو بالأمس مساء إلى ساعة متأخرة جدا من الليل ـ إلى الساعة الثانية من الصباح. كنا نتحادث مدام سنيار وأنا. ولا أستطيع بسهولة أن أعلل son attitude[1] فى الساعة الحاضرة إذ تغيرت إلى شكل آخر من يوم أخبرتها أنى سأترك سان كلو. هى دائما رقيقة فوق ما يتصور ولكنها أشد حيطة من قبل فى كلامها. ولقد سمح لنا هذا أن نتكلم مساء الأمس فى مواضيع أكثر جدا مما نتكلم فيه عادة. ذلك هو ما دعانى لأكتب مذكراتى اليوم.

كنا نتكلم فيما لو كان الفرد يستطيع ملاحظة الآخرين والحكم على أخلاقهم من وراء أقوالهم وأعمالهم. ولقد كنت ولا أزال شديد الاقتناع بأن ذلك ممكن إلى حد كبير. لكنها وضعتنى موضع الحذر من عقيدتى وأظهرت لى أن الناس ليسوا من السهولة بمقدار ما يتصورهم الإنسان. وأن أقوالهم وأعمالهم التى نرى ونسمع ليست كافية لنحكم من طريقها عليهم لأنها دائما غطاء غير شفاف عما يجول بقلوبهم وضمائرهم. كم من كلمة يقولها الإنسان وهو لا يعتقد منها بحرف ولكن قالها لأن الكلام اقتضاها. كم نوافق على أشياء لولا أنا نريد أن تمر من غير أهمية وفى الوقت عينه من غير حرج لمحادثنا لكنا أشد الناس قياما ضدها.

قضينا وقتا طويلا فى مثل هذا الحديث. وقت كان يسرنى جدا أن أقضيه مع أهلى من السيدات المصريات. ننتقل من مسألة لأخرى ومن كلام لكلام ويسير الوقت ولا نحس بسيره ونود لو نبقى حتى الصباح لولا أن النوم من الواجبات المحتوم القيام بها.

مثل هذا الحديث وغيره مما تتجلى فيه رقة مدام سنيار ودقتها يجعلنى احترمها كل الاحترام.

---

(١) موقفها

٢٨ مايو كنا بالأمس نتحدث على الطعام عن سكك حديد امريكا، فبمناسبتها أخبرتنى السيدة جارتى أن المسافة بين واشطن وسان فرنسسكو تستغرق ستة أيام وأنها حسنة النظام والترتيب إلى حد عجيب. وصفت لى بعد ذلك أن ابنتها ـ وهى أرق ما يكون من الفتيات وتنم نظراتها السارحة وانفها الاقنى الحاد وهدوؤها المطلق عن جمال فى النفس كبير ـ اخبرتنى أن ابنتها اخذت هذا الطريق وكان معها فى العربة من أولها إلى آخرها احد الضباط. وبقيا طول المدة يتناولان الطعام فى قاعة الطعام ثلاث مرات كل يوم ثم يرجع كل إلى مكانه ولم يدر بينهما حديث. وبعد أن وصلت سان فرنسيسكو اخذت الباخرة إلى جزر الفيلبين لترى أخاها. وكانت كذلك وحدها.

كم لهاته الفتاة من الثقة بنفسها وكم لأهلها من الثقة بها. اذكر لمناسبة هذه الحادثة حوادث أخرى لا عدد لها. ولكنى ادون منها حادثة مس ب.ك التى ذهبت وحدها إلى مالطة واقامت بها ثلاثة أشهر وساحت بعد ذلك فى بلاد متعدده ورجعت وهى أشد الناس ثقة بنفسها وأهلها أوثق ما يكونون بها.

كذلك مس.ا.ت. التى ذهبت لأسبانيا مع اختها ثم كانت تسافر وحدها إلى ابعاد من الأرض اغرب ما يتصور.

لهؤلاء الناس ثقة بنفسهم وبصفتهم لاتطرأ لمصرية بل. ولا لمصرى على بال الا نأسف على حالنا بعد ذلك!

اجتمعنا عصر هذا اليوم خمسة من الشباب عند خروجنا من درس السوربون واتفقنا على أن نأخذ الشاى معا. وكان بيننا فرنسى صديق احدنا فصحبنا هو الآخر وذهبنا فأخذنا ركنا فى القهوة بعيدا عن الضجة والذهاب والجيئه ويسمع الإنسان منه دقات الموسيقى تصل إليه رائقة من التشويش والجلبة. وجئ بالشاى وبقينا نتناقش فى نقط مما ألقيت فى هذا الدرس الذى ألقاه رئيس أساتذة كلية الآداب:

ـ مهما يكن من الأمر فليس من السهل الاعتقاد بأن هذا الوجود العظيم الذى نحن فيه يسير على غير نظام ومن غير رقيب. وكما إنا لا نحس بالدوره الدموية فينا ولولا الطب لما عرفناها كذلك فما دمنا نرى أنّا نسير فى الحياة بنظام عجيب فليس جهلنا بالقوة المصرفة للكون بمثبت عدم وجودها. وعليه فأرى أقرب للعقل التصديق بما دار فى خلد الناس من القدم وما جاءوا به تقريرا لوجود خالق منظم للكون وما فيه.

ـ أعجبنى ما صنعت من المقارنة بين الدورة الدموية ونظام الكون.ولكنى أرى استنتاجك معتلاً وإليك البيان. .

ـ نحن إنما صدقنا بالدورة الدموية يوم وجد من يثبت وجودها أمام حسنا ولا يدع عندنا موضع شك فيها. أما ما قيل عن نظام الكون وأصله وعلته فلم يخرج عن المضاربات النظرية المجردة المبنية على الخيال والوهم. جاء أقوام من الأقدمين فضربوا بخيالاتهم فى كل صوب وجاءونا بفكرة عن خالق الأرض ومبدع الكائنات. وجاء من بعدهم نبى بنى أسرائيل فأخذ فكرتهم ونقحها كما أوحى له طبعه فأخرج للناس ألها قاهرا قادرا عظيم الجبروت والسلطان، وانتقل الأمر من بعده لعيسى وهنا نحن فى أوربا نتبع إلى اليوم تعاليمه وتخرج منها المبادئ والمذاهب والآراء حتى ولو استحال عليها أن نخرجها. ويستند بعض المفكر ين على كلمة جاءت عرضا فى الأنجيل ليقيموا عليها نظرية اجتماعية عويصة أو مبدأ اقتصاديا هاما. بل ويبلغ ببعضهم أن يبنى عليها مسألة علميه لادخل للدين فيها. وجاء من بعد عيسى نبيكم محمد فصبغ الآله بروحه القوية

الهائجة الطالبة العظمة والمجد الظمأى إلى فضائل التقشف والزهد وإلى لذائذ الحياة جميعا وجاء من بعد أولئك أنبياء كثيرون ولكن العالم كان قد انتقل إلى حال فكرية لا تسمح له بتصديقهم.

ـ فى هذه السنين الأخيرة تضاربت الأقوال واختلفت المذاهب فى أمر الخلق والخالق وقام كل يعلل مبدأ وينصر رأيا. ولقد كان من همى زمنا ما أن أبحث فى هذه الآراء والمبادئ وأقربها للتصديق لأنه أقربها للحس المبدأ المادى وكلكم تعرفونه. ولو لم يكن من خطأ الناس فى فهمه والنظر إليه لما نفروا منه كما ينفرون. فإنا جميعا نرى بأعيننا ونسمع بآذاننا ويصل إلى كل حواسنا أثر القواعد التى بنى عليها هذا المبدأ. نحس جميعا بأن ما نسميه الحياة لا يكمن فى الجماد لأن من علائم الحياة الحركة والنمو والجماد لا يتحرك ولا ينمو. لكنا نعترف إلى جنب ذلك بأن من الجماد ما ينمو وما يتوالد. مثال ذلك مناجم الحجر يأتى عليها أصحابها ثم يتركونها تمتلئ بطبعها من جديد. إذن فهذه درجة وإن تلك دنيئة جدا من درجات الحياة. ويجيء أرقى منها النبات فإنه أظهر نموا وبعضه يصل فى درجات النمو بحيث يكفيه أن يعيش فى الماء وذلك شأن بعض الحيوان لا يعيش إلا فى الماء فهو فى ذلك قريب جداً من درجة هذا النبات الراقى فى درجة الحياة لأن هذا الحيوان يتحرك. وترتقى درجات الحياة حتى تصل إلى الإنسان. وهى تختلف كذلك فى الناس . من هذا كله يظهر أن الحياة كمينة فى المادة أو هى صفة من صفاتها "une FONC-TION de la matiére" واختلاف درجاتها إنما يجيء نتيجة اختلاف تفاعل العناصر الموجودة فى المادة. ولهذا السبب عينه فأن المادة لا تفنى ولاتزيد وإنما تتحول. هذا هو أقرب المذاهب إلى العقل وأحقها بالتصديق فى رأيى.

ـ ترقيك يا صاح فى التعليل المنطقى يعجبنى. لكنك تظهر استخفافا غريبا فى كلامك بسر الحياة. هذا السر العجيب الغامض الذى حار فية الفلاسفة وعجز دون كنهه العلماء تحكيه أنت بتعليل بسيط ظاهر كما تقول. ولكنك لم تبين كيف يمكن لمذهبك المادى مذهب تفاعل العناصر أن يفسر حوادث الكون كلها ودورات الفلك وتتابع الليل والنهار واختلاف الفصول وتعاقب

الدوران. فهل ذلك كله يسير على مقتضى تفاعل العناصر وإذا صح ذلك فلم لا يزيد عنصر على عنصر قوة فى وقت ما فيختل هذا التوزان العجيب الذى نرى فى الكون بل كيف تفسر حياتنا نحن على الأرض كيف يمكن أن يكون الناس فى وقت واحد متضامنين ومتباغضين، متضافرين ومتحاسدين. وهم دائما معا وقلوبهم شتى. كيف يمكن تفسير هذا إلا إذا افترضنا قوة قادرة مصرّفة للكون خارجة عنه موجودة فيه وضعت له نظاما يسير عليه وكفلت هى بوجودها حفظ ذلك النظام.

ـ لقد فكرت أنا الآخر فى الكون كثيرا فكانت أصغر معضلة من كبير أسراره كافية لتوقفنى مبهوتا دونها عاجزا عن حلها معترفا بوجود قوة لا أستطيع فهمها ولكنى أحس فى أعماق قلبى بوجودها. قوة أخضع لها لأنى أؤمن بها وأعتقد أن فى يدها إسعاد الخلق وشقاوتهم. فى يدها النعيم والجحيم مطلعة على الغيب عالمة بما كان وما يكون بها وحدها اومن وفيها أجد السند الذى استند إليه عند عجزى وضعفى،. لا إله إلا الله.

ـ اعتراف متدين فى قهوة لأنه مسلم. ربما كان هذا أحسن من اعترافى أنا يوم الأحد الماضى أمام القسيس فى الكنيسة حين أخبرته أنى أعتقد أنه محترف فقال لى «إنك ارتكبت خطيئة لا يمحوها إلا التوبة والتكفير عنها» ومع قوله هذا فاسف (إنى لم أتب).

ـ كل هذه المسائل التى أردت تفسيرها يفسرها تفاعل العناصر. سل علماء الأقتصاد ينبئوك أن الحياة مبنية على المناقشة. وهل المناقشة إلا تفاعل المصالح. سل الاجتماعيين يخبرونك أن كل شخص متضامن مع الآخرين لأنه مكلف بطبعه الاجتماعى أن يخدمهم. فهل معنى ذلك إلا التفاعل. ودورات الفلك وتتابع الليل والنهار إنما هى نتيجة تفاعل المادة الموجودة فى الكون كله أى فى السماء والأرض. أولو وقفت الأرض لحظة عن الدوران أما يختل العالم بأسره سماءه وشمسه ونجومه.

ولكنها لا تقف لأن كل هذه القوى الأخرى تدفعها لإتمام دورتها. هى كالساعة الكهربائية كامن فيها كهرباؤها فهو يحركها وهى نتيجة له.

صديق آخر ـ أيكما الآن أدخل فى باب المضاربه النظرية من صاحبه كلاكما يتكلم فى المتافزيقا ربما كنتما محقان جميعا..

ـ كلا يا صاح. صديقى المسلم وحده هو الذى يتكلم فى الميتافزيقا. وأما أنا فأعترف بأن كل شيء لم يثبته النظر الحسى بنفسه أو بمعونة العلم لا أقدر على تصديقه.. هل يجهل أحدنا تزايد الحجر أو نمو النبات والحيوان؟ هلا نعلم جميعا قوانين الجاذبية فى العالم؟ هلا ترى تفاعل المواد وامتزاجها كيماويا، هلا تستطيع أن تضعف حياة إنسان بألم أى بأفساد تفاعل العناصر، كلنا يعلم أن الأجهزة الحية فى الحيوان أشبه شيء بالأجهزة فى الآلات الميكانيكة أو أن شئتم فاعكسوا الشبه. لم تفسد الماكينة إذا فسد تفاعل أحد أعضاءها وبطل أو انحط عمله. أليس ذلك لانعدام التفاعل.

وقد أثبت العلم أن القوانين التى تسير عليها الجماعات هى بعينها التى تحكم المواد والتى تحكم الأفراد وأثبت كذلك وجوها شتى للشبه بين أجرام الأرض وأجرام السماء وأن هناك جاذبية وتفاعلا بين هذه وتلك. فأى متافزيقا بعد ذلك اتهم بها.

لا أنكر أن جوهر المادة فى ذاته والسبب الأصلى فى وجود قوى فى هذا الجوهر لم يظهر بعد بوضوح كاف أمام العلم. ولكن ذلك لا يحملنا على الرجوع إلى الوراء آلاف السنين واعتقاد أن هناك قوة خارجة عن الكون داخلة فيها منخرطة معه بعيدة الشبه عنه تصرفه ولا تتأثر به جامعة كل ما شئت من أضداد الصفات وقادرة على كل شيء.

هذا رأيى وهو معتقدى.

وطال بعد ذلك جدال جعل المسألة تنتهى بضحك وضجة أن مر بالجالسين فتيات من معتادات القهوة وجلسن على مقربة منهم وجعلوا يشاغلنهن.

أول يونيه

كلنا يحنى رأسه أمام ما عمله هو شخصيا ولا يجرؤ على القيام ضده. ليكن ذلك جالبا عليه ما يجلب فهو خاضع لنتائجه عامل على احتمالها بأى شكل ممكن. تلك عقيدة عامة قد تكون لا معنى لها ولكنها على كل حال لازمة لبقاء الجنس. وسعادته فالصغير الذى يضر بنفسه أنواع الضرر لا يصيح ولا يبكى لأنه يحس أنه هو الذى جلب الضرر على نفسه. كذلك إذا تزوج شاب بفتاة عن معرفة وشىء من الحب سابق لم يكن لايهما إذا صادفه ألم من هذه الرابطة أن يعزو بسبب هذا الألم لغيره أو أن يكبر شأن مصابه بل هو يسعى لتخفيفه لأنه يعلم أنه وحده المتحمل لهذه المسئولية الثقيلة من أجل هذا واجب أن يترك للفرد فى كل شىء أوسع ميدان ممكن للعمل ليكون أقل حنقا على غيره وعلى الإنسانية وأكثر بعد نظر وتدبر حين يريد احتمال المسئولية.

الزواج عندنا حاجة من الحاجيات كلما اشتد إحساس الشاب بها كان أكثر مؤانسة فى قضائها. هو يبقى عزيز النفس أبيا عن أن يقع فى زواج لا يكون على غرضه مادامت الحاجة لا تصرخ فى وجهه منادية قضاءها. فإذا ما صرخت ضعف دونها وترك نفسه تذهب لأول ما تلاقى. هو فى ذلك كمثله فى الحاجة للطعام. مادام شابعا لا يقبل على شىء إلا إن وجد فيه من شديد اللذه ما يجلبه نحوه وإذا ما تكون أمعاءه وصاحت فى بطنه أحشاؤه قبل بنفس مفتوحة كل طعام يقدم إليه. أخشى أن يكون أمره فى الحال الأولى كأمره فى الحالة الثانية متى راجع أحشاءه هدوؤها ونظر إلى ما أمامه بعين هادئة تقزز منه وقد يرفسه برجله. فكرة سائدة عند معظم الشبان إن لم يكن عند كل الناس أنهم هم وحدات ممتازة عن الآخرين وتعيش غير حياة هؤلاء الآخرين فواحدهم يعتقد أنه أكثر من كل من سواه لا يمكنه أن يعيش من غير أن يحب وأن اليوم الذى يمر عليه من غير أن يكون مملوكا لهاته العاطفة يوم تعس ثم يقول فى الوقت عينه: «ولا أحسب فى ذلك مثلى أحد»: آخرون يعتقدون أنهم أكثر من كل الناس لا يستطيعون العيش من غير أن يفكروا ويعجبون كيف يتسنى للآخرين أن يبقوا ساعات سكوتا من غير تفكير. غير هؤلاء يخيل لهم أنهم لا يستطيعون أن يقولوا غير ما يعتقدون ويندهشون جدا كيف يمكن لأنسان بدعوى التأدب أن يقول أو يعمل غير ما فى فكره. هؤلاء جميعا بين جاهل نفسه وجاهل الناس أو جاهلهما معا. فجاهل نفسه الذى يصل إلى التهويل فى كل شأن من شؤونه. وجاهل الناس الذى يعتقد أن لا أحد مثله. وهم جميعا يذكروننى ببعض أيام كنت فيها شديد الاعتقاد بأن تركيب أعضائى ليس كتركيب أعضاء الآخرين وأنه إذا تشابهنا ظاهرا وكان لى فم وأنف ويدين وساقين فإن سوى ذلك يخالف عندى ما عندهم كل المخالفة. وأحسبهم إذا فكروا يعودون مثلى إلى الاعتقاد بأن الناس متشابهون جدا وفى كل شىء وإذا

رأينا منهم غير ما نحسه لأنفسنا فذلك لأننا ننظر لهم بغير العين التى ننظر بها لأنفسنا كما أنا ندرس ظاهرهم السطحى ان جسما وان خلقا. ولو أنا نقرأ ما يكتبه بعض الأشخاص عن أنفسهم أو ما نجده فى الروايات من الأبحاث تعلمنا كم بين الناس من الشبه وأنهم أقرب جميعا للصغر منهم للفظة.

٣٠ يونيه

تركت باريس يوم الثلاثاء ٢٧ يونية بقطار الساعة العاشرة مساء كنت أتناول طعام العشاء ذلك اليوم مع صديقى ع . ف فى (بولان) وبعد برهة جاء جماعة من المصريين النازلين باريس فجلسوا على المائدة التى أمامنا. جلسوا ثلاثة وفتاة معهم وكلهم يتكلمون وهى ساكتة. فتاة جذابة أكثر منها جميلة دقيقة القوام بسيطة الملبس. ابتدءوا حديثهم عن مسائل وأشخاص وجعلوا يبدون ملاحظاتهم على العادة المصرية من رفع الصوت ولكن كلامهم كان دائما محصورا فى حدود الأدب لا يتعداها مع أن ذلك ليس شأن الأكثرين ممن يحضرون. ولم يبدوا ملاحظة إلى الخادمه ولا هم غمزوها بكلمة كما هى عادتهم وعادة أمثالهم.

أخيرا تكلمت الفتاة على ذكر واحد من معارفهم. تكلمت بصوت رقيق، رنان ولكنه لا يكاد يبين. ويتخلل عباراتها المصرية من حين لآخر كلمات بالفرنساوية. والواقع أنى دهشت أن سمعت مصرية، مصرية اللهجة، تتكلم على هذا النحو وبتلك الرقة المتناهية.

حين عرفت أنها مصرية عرفت سر تأدب الجماعة فى القول وتأدبهم فى العمل. وأنا على يقين من أنهم لو كانوا يختلطون بمثلها كثيرا لزال عنهم كثير مما يزال عالقا بهم من رفع الصوت دائما والحدة فيه أحيانا.

كذلك أدهشنى أن تكون مصرية بدقة قوام هاته الفتاة. رأيت فى العام الماضى بلوزان وفى باريس مصريات ولكنهن جميعا يحملن علم الجمال المصرى (بيضة وسمينة). ولا شك أن أهلهن فرحن بهن لأنهم يعلمون أن سوقهن فى مصر لا فى فرنسا. لكنى أحسب الذوق مهما كان مقلوبا عندنا إلى اليوم فأن خروج أمثال هاته الفتاة أمام نظر أصحاب الذوق لابد يردهم عن هذا العمى القديم.

بقى معى حتى ودعنى على المحطة صديقى حمدى. وافترقنا حين سار القطار الساعة العاشرة.

كان معى فى ديوان واحد ستة غيرى. بينهم أربعة تجمعهم صلة تبين من خلال ما عملوا. فما كدنا نبتعد بعض الشىء حتى جلس الأربعة كل اثنين مقابل بعضهما: أمريكية (أو ألمانية لا أدرى) مع اسبانيولى. جلسوا يطوق كل صاحبته بذراعيه. ذكرونى بصاحبى الأسبانيولى على الباخرة من دييپ إلى نيو هيڤن فى العام الماضى ولكن هذين كانا جالسين بحكمة ووقار.. بعد برهة أخرى انتقل جارى وصاحبته إلى الجهة المقابلة ثم جعلوا ينظرون لنا نحن المنفردين بعيون حيرى وننظر لهم بعين جمعت مع الاشمئزاز الريبة والشك. ولكنهم لا يرجعون عما هم فيه.

طمست على النور حتى لا أراهم وحاولت أن أنام فما لبثت الظلمة أن شدتهم حتى تعاقبت القبلات من جانب وآخر ترن متوالية من غير انقطاع. ثم رحت فى سنة لم أتميز معها ما يعملون.

بعد منتصف الليل. أقلقوا راحتى إذ جاءوا فجلسوا إلى جانبى ولكنهم هذه المرة حاولوا أن يناموا وحاولت أنا الآخر ولكن عبثا. وبقيت حتى وصلنا بازل وآن أن نغير القطار. فنزلت وتناولت طعام إفطارى فى بوفيه المحطة. طعام نظيف وحلو. ثم قمت مع قطار الساعة السابعة إلى لوسرن.

لم يكن هينا أن نميز الأراضى التى نمر بها. لقد بقى النوم يلعب برأسى حتى وصلنا. ولم أكد أبلغ المكان الذى أنا فيه اليوم واختار مكانا أحسب للتعب فى اختياره نصيبا حتى نمت لأستيقظ الساعة الثالثة إلى محل كوك لبعض ما أريد.

أردت بعد طعام العشاء أن أخرج من جديد معتقدا أن نوم النهار يفسد علىّ نوم الليل. ولكنى شعرت الساعة العاشرة بما يجذبنى إلى سريرى وقضيت فيه إلى الثامنة صباحا.

فى لوسرن

لسويسرا نشوة غريبة فيها ينسى الانسان نفسه وسط الجمال المحيط به، ولوسرن من أجمل بلاد سويسرا فلا بدع اذا سحرت الإنسان عن الفكر وعن الكتابة وعن كل شئ.

أقمت بلوسرن ثلاثة أسابيع لم اكتب فيها مذكرات مطلقا، هذا الذى اكتب اليوم إنما هو ذكر لما كان يومئذ لساعة لذيذة من ساعات الحياة ساعة نسيت فيها الحياة وتهت عن كل همومها ومشاغلها لأمتع بما كان يحيط بى من جمال ومن احاديث عذبة ومن رياضات ونزه لا عدد لها.

تحيط بلوسرن جبال شامخه تكتنف بحيرتها البديعة وتقدم هى والجبال والماء والسماء الرائعة والناس المختلفى الجنسيات والملل والمناظر المتباينة على جمالها جميعا صورة تملأ الذهن ولا يبقى للخيال معها مجال بل ترى الأنسان مكتفيا بهذا الذى حوله ينتقل فيه كما يحلوله ويسبح منه على لجة تبهر النظر والفؤاد ويصبح شاعرا من غير جهاد ولا تكلف ويبقى كذلك نهاره.

فإذا ما أقبل الليل رأى المدينة الصغيرة دخلت فى جوفه الهائل وقامت الجبال على مرمى النظر أشباحا هائلة مخوفة واشتد الماء بالسواد وحكم الصمت على الوجود ثم تألق فى الجو البدر البديع يحبو أولا من هناك فوق المرتفعات الهائلة ويتسلق الأفق ثم يبعث على لجة البحيرة أشعته الهادئة فتبسم لها الموجات الصغيرة يحركها النسيم ويخرج الوجود من حلكته ويترنح كل ما فى الجو كأنه ثمل بهذه الأشعة الفضية. وعلى شاطئ البحيرة قام الكرسال رشيقا بأنواره والضجة داخله والقمار والموسيقى والتياترو والمتفرجون ودخان السجائر واذا ما دخلت صالة اللعب رأيت جماعة المقامرين وكلهم ثابت النظرات قلق البال تلعب نفسه مع دورات كرة الملعب وينتظر العدد الذى تريد ان تقف فوقه بفارغ الصبر ونافد الانتظار. وفى صالة الموسيقى ترن أصوات بديعة أوحت بها نفوس كبار الموسيقيين فتملأ آلاذان سرورا والنفوس بهجة أو هى تحملنا واياها على جناح الفكر أو الاتراح أو الهموم وتطير بنا فى جو خافت لا تكاد تسمع فيه الاصوات إلا همسا. ومن وقت لآخر تمر من أمامك سيدة أو شابة حسنة اللباس سليمة الذوق معتدلة القوام دقيقته فتبعث للنفس مع لذة السمع لذة أخرى لا يمكن تكييفها لأنها تمثل جميع الحواس وتصل إلى اعماق القلب. فاذا ما اختفت السيدة وما تلبس تركت لك منها خيالا سرعان ما يطير وترجع مصغيا بقلبك الى نداء الموسيقى. أنت تتوه بأفكارك واحلامك فى عالم تنسى معه كل الوجود. وعلى الجانب الثانى من البحيرة وعلى مقربة من محطة السكة الحديد يقوم مكان كبير (للباتناج) ، ولقد دخلته مرة واحدة مدة مقامى بلوسرن. وجاهدت لأتعلم فأخفقت ولم يجد جهادى فتيلا. فى هذا المكان ترى حركات الشبان والفتيات وهن ينزلقن على عجل والاولون يقابلنهم أو يسيرون معهن ويتحادثون ويتضاحكون حتى اذا احسوا بالنصب رجعوا إلى مقاعدهم يستريحون.

أعلى الجبال التى تحيط بلوسرن وأصعبها مرتقى جبل البيلات، ولقد أعد فوقه فندق ينزل فيه الصاعدون فيمضون ليلهم ويوقظهم الخدم قبل مطلع

الشمس ليمتعوا النظر بمشرقها، ولقد استغرق بنا مسير القارب من عند لوسرن ليصل إلى محطة (الفنكيلير) الصاعد فوق الجبل أكثر من ساعة قضيناها متفرجين على ما يحيط بالشواطئ البديعة الرفيعة من المنازل والقرى ومن الأشجار والخضرة، ووصلنا حوالى الظهر وشمس يوليه قد اعتلت السماء وان هدأ من حرّها رذاذ تساقط سويعا فأرسل إلى الجو بردا وسكينة. وصعدنا قليلا فوصلنا عربة (الفنكيلير) وتحركت صاعدة تجاه القمة ببطء كأنها السلحفاء. والمرتفع عنيف شاق يكاد يكون قائما ثم اخترقت صخرا هائلا بقيت تحته زمنا نفذت منه وجعلت تحبو فوق ظهر الجبل العنيد، وأخيرا انحطت طريقها على سكة ضيقة يرتفع عن يمينها الصخر وتنحدر عن يسارها وهدة عميقة مخوفه رأينا راجلا يسير على بعض طرقها الضيقة وبعد ساعة ونصف من هذا الحبو العنيف، وصلنا إلى قمة البيلات وذهبنا إلى الفندق.

جعلت ادور فى الجوانب فوجدت قطعة جسيمة من الثلج مستترة فى ظل بعض الصخور فتلهيت بأن انكش فيها بعصاى مدة ثم تركتها ودخلت فى ممر ضيق مظلم منحوت فى الصخر وخرجت بعد ذلك أبغى أعلى قمة فى الجبل وهى على ارتفاع نحو مائتى متر من محطة (الفنكيلير) وصعدت إليها فانكشفت أمامى قمم لا عدد لها من جبال سويسرا وتبينت على البعد صغيره حقيره لوسرن الجميلة والبحيرة مسطوحه متواضعة يتعالى النظر عن الاعجاب بشئ منها. والمنخفضات كأنها رسوم الأطلس مسطوحه بطولها ووهادها لا تفترق أمام العين إلا فى لونها، وحولى وقف جماعة يحدقون مثل ما احدق للوسرن وللمنخفضات وللجبال وما عليها من ثلوج.

والجو رطب عذب والنسيم بليل وكل شئ جميل وأقام اصحاب الفندق فى هذه الليلة نيرانا من النقط اعلانا عن فندقهم بقينا نتفرج عليها حتى ادلهم الليل. وذهبنا إلى مضاجعنا مبكرين لنرى شمس الصباح عند مشرقها.

ايقظونا والليل لايزال ضاربا على الوجود اطنابه. وقمنا جميعا فأخذنا عدتنا

من برد الصباح فوق قمة الجبل وارتقينا إلى حيث كنا بالأمس وكنت أنا من السابقين فإذا أمامى جماعة من السويسريين الجبليين الفقراء قد حمل كل منهم حقيبة على كتفه فيها طعام وامسك بيده عصى يحميها من طرفها السفلى غطاء من الحديد وجاء هو الآخر يرى مشرق الشمس وهم يتوافدون ويغنون غناءهم الجبلى المنخفض المرتفع تردد أصداءه الصخور من كل جانب. وبقينا كذلك حتى إذا النور ابتدأ يلمع على السماء ويبدد من دكنة الليل تجلت على مرمى النظر الثلوج الناصعه وكأنها فى رداء من الليل لا تزال. وتزايد النور وتبدت الجبال تطوق الآفاق من كل جانب وهى كلما ابتعدت كلما ظهرت سطوحها العليا كأنها خط ابيض من الثلج. وبزغ القرص يهدى الكون القائم من احلامه تحية وابتسامه. وتجلى على الوجود وملأه بنوره ورجعنا غير راضين عنه لأنه لم يحقق فى مطلعه احلامنا وما كنا نريد أن يكون عليه من الجمال.

قبل زيارتى للبيلات زرت جيل الريجى وهو أقل من الأول ارتفاعا ولكنه أنضر منه وأبهج وقضيت فى الصعود والانحدار يوما كاملا لم اكن فيه سعيد الحظ فقد تدلى الغمام حتى لكانت تلمسه اليد.

هذه كلمة مجملة عن لوسرن، وإنى لم اذكر شيئا عن آثارها الطبيعية ولا عن شعبها المتمدن ولا عن مصنوعاتها فليس فى الذاكرة ما نستطيع معه التدقيق فى شئ من هذا. غير ان الذى لا ينساه إنسان ممن زاروا سويسرا هو تعدد الجنسيات فى هاته البلاد. فبينا تجد الانكليزى والامريكانى اذاك تخالط الفرنسى والطليانى والألمانى والنمساوى ونسمع بعض الأوقات من يتكلم العربية.

وفى ذلك ما يسمح للنفس برياضة ونزهة طويلة ولقد كان يسرنى أن أحدث شخصين مجاورين لى بلغتين مختلفتين فان ذلك بالرغم من أنه يسمح لى بأن أكون ترجمانا لهما يجعلنى أكثر صلة بهما.

يذكر في ذلك يوما كنت عائدا فيه من انكلترا و معى ألمانى يتكلم الفرنساويه وامريكى يتكلم الألمانية. فكنا يتكلم كل اثنين منا ولا نستطيع أن نتكلم معا جميعا أبدا .وتركت سويسرا قاصدا ايطاليا ونزلت فى طريقى بلوجانو. ولاشك ان ابدع اسفارى كان ذلك الطريق ما بين لوسرن ولوجانو حين مررنا بنفق سانت سنس فلقد كان الطريق كله جنة يانعة لا يحويها الوصف مهما أبدع فيه. وأى شئ يقدر على تصوير جبال سويسرا وما عليها من شجر وزهر وهى تكتنف البحيرات فى وسطها صاغرة أسيرة تحوطها الجدران العظيمة والسفوح الهائله وينهب القطار الأرض فيود الإنسان لو يمسكه عن سيره ليتمتع بتلك المناظر البالغة فى الإبداع اقصى حدود الجمال.

ودخلنا النفق فمكثنا تحته نصف ساعة ثم اذا به تخلى عنا ليتركنا على شاطئ من شواطئ عدن أو هو أبدع وصفحة الماء مصقولة اذابت الشمس فيها فضتها وقد ابتدأ يتخللها ذهب الأصيل

ووصلنا إلى لوجانو حيث بقينا يومين وحيث كانت الصله بين سويسرا وايطاليا.

لوسرن فى ٩ يوليه

تذكرة عام

فى منتصف شهر سبتمبر الماضى نشرت إعلانا فى الجرنال أسأل فيه عن عائلة أسكن معها. وجاءتني الردود بعد ذلك تترى لا عدد لها.. ومر بالبيت سيدات يردن مخاطبتى فى الأمر وجها لوجه وكل تسعى لتجذبنى إليها بكل طريق ممكن. فوحيدة عجوز تصف مقدار ما سأجده من الراحة والحرية معها. وأم بنين تمدح لى فى لطف أبنائها. وصاحبة بيت تخبرنى عما يلاقيه السكان عندها من الهناء والسعادة. وخطاب تخبرنى فيه صاحبته بأن عندها أبناء وبنت فى العشرين وصفتها بأنها une charmante jeune fille مررت بكثيرين ممن كتبوا إلىّ ومررت بيت هاته السيدة. فلما تحادثنا أخبرتنى أنها يقيم معها أبنيها وبنتها وزوجها. ولكن هذا الأخير كثير التغيب وعلى ذلك فهو لا يضايق فى شيء. ولما كان البيت الذى يسكنون جديدا نظيفا جعلنى ذلك أفكر فى أن أكون معهم.

عرضت مسألة مؤتمر باريس المصرى فى هذه الأيام والصعوبات التى أقامتها الحكومة الفرنساوية فى وجهه والتصميم على عقده فى بروكسل. وبعد تردد طويل قبلت أن أذهب إليه. على هذا لم أقطع فى أمر السكنى بشيء.

التردد مرض من أمراضى. لا أجزم بشيء ولا أبت فى مسألة إلا بعد أحجام عنها طويل. ولو كان ذلك من باب التحرز أو إعمال الفكر لهنأت نفسى ببعد النظر ولكنى أقبل الأمر أخيرا أو أرفض بغير سبب جدى. وكثيرا ما تؤثر على مطالبة الغير وضراعته. ذلك نتيجة ضعف طبيعى عندى يظهر أحيانا فى مسائل تستحق الشدة. ولولا أن الصدف إلى اليوم لم تقدم أمامى مسألة ذات بال ونتائج كبيرة لكنت قاسيت من وراء هذا الضعف كثيرا. ومهما كنت قد جاهدت للقيام فى وجهه ونجحت فى أحيان متعددة فلم أصل حتى اليوم إلى الغاية التى ترضينى. كما أن هذا الجهاد ألجأنى فى موضع لأن أظهر شدة لا لزوم لها.

ذهبت إلى بروكسل وحضرت جلسات المؤتمر مع المصريين الكثيرين والأجانب القليليين الذين حضروها.

وكتبت عنه بعد ذلك بكل ما استطعت أن أجيء به في جانبه وملاحظاتي الشخصية عن بعض مسائل اجتماعية إلا أن مالاحظته ولم أكتبه كان كثيرا. ولا شيء يؤسف عليه أكثر من الروح التي عملت بها خطب المؤتمر. روح خفيفة لا تعرف الثبات تمر على الأشياء والحوادث فتظهر منها جهتها الشعرية غير ذاهبة بعد ذلك إلى أعماق ما تتكلم عنه ولا مقتضية بأن تؤيد قولها بحجة ثابتة. كان من أكثر الذين نالوا الاستحسان العام فؤاد أفندى حسيب. ولا أنكر عليه أن خطبته كانت مثال بلاغة في اللغة يقتدى به ولا أنكر عليه تحمسه حين ذكر يوم ١٤ سبتمبر. ولكن الخطبة كلها خالية من دليل علمى أو تاريخى يؤيد الخطيب به مطلبه العام وهو حرية مصر. قام الخطباء الكثيرون من بعده وكلهم كرروا ما يقال وما يعاد كل يوم على ألسنة العامة. دنشواى ومسألة السودان وقانون الصحافة والنهب والسلب الحاصلين فى البلد. كرروا هذه الحوادث وقرروا هذه الأشياء من غير دليل جدى يؤيدونها به حتى يقتنع كل سامعيهم.

بروكسل هى كما سماها بعضهم باريس الصغيرة. بلد خفيف الروح لطيف النفس. تأخذ ترموايه الذى هو أشبه الأشياء بتراموى مصر فيؤدى بك إلى أطراف البلد المختلفة ويصل بك إلى المعرض العام. فى المعرض قضيت ساعات كثيرة طيبة. فيه رأيت مظهر كل بلد من البلاد. فألمانيا بوابوراتها ومدافعها وفرنسا بحرائرها الجميلة ومصر بقلعتها.

* * *

رجعت من بروكسل واهتممت من جديد بمسألة السكن ولكنى لم أصل منها لشيء. وأخيرا تركت لوكاندة شارع (جاليلى) وذهبت إلى لوكاندة

Avenve Carnot لأقيم بها نحو الثلاثة أسابيع جهة (الأتوال) هى منزل الأنكليز فى باريس. ففى كل لوكانداتها تجد انكليزا. وفى الشارع تسمع الأنكليزية بمقدار ما تسمع الفرنساوية وأحيانا أكثر. ثم إذا خرجت فى الصباح جهة غابة بولونيا رأيت الأنكليز يكادون يختصونها لأنفسهم لولا جماعة من الفرنساويين ذوى اليسار يزاحمونهم فيها.

والأطفال هناك أو فى طريق الغابة Avenue du Bois يتكلمون كلهم تقريبا هاته اللغة ليس هؤلاء الأولاد من الأنجليز بل هم فرنساويون مربياتهم انكليزيات. وهن يرتدين لباسهن على شكل الحرملة وقبعتهن الصغيرة فيظهرن بذلك فى شكل جميل وقد اتخذهن الآباء من الفرنساويين مربيات لأبنائهم ليتعلم هؤلاء الانجليزية ويتقنونها من صغرهم ثم لما عند الأمة الفرنساوية اليوم من الولع بكل ما هو أنكليزى والأعجاب أعجابا يفوق الحد أحيانا. فالفرنساوى يعجب من الأنكليزى بخلقه وبلباسه وبسياسته وبحالته وبكل ما عنده. وإذا حدث عنه حدث بشىء غير المعروف عنه من السخرية Raillerie وكثيرا ما يطنب فى مدحه. ولست أدرى إذا كان الانجليز يستحقون كل هذا عدلا. بل ولا أفهم كيف أن هذه الأمة الفرنساوية تصل إلى هذا الحد مع أن الأنكليز من أشد الذين يستخفون بالفرنساويين ويستخفون عقولهم بل وليبلغ بهم التطرف حتى يستخفون بأدبهم وهو التاج الذى تفخر به الأمة الفرنساوية. ثم لا بدع إن وجدنا هؤلاء الأطفال متى كبروا أشد من آبائهم اعجابا بهذا الجنس السكسونى بعد أن ربتهم بنات أمته.

الانكليز مهما كان عندهم من الأدعاء لطاف النفوس خفاف الأرواح يجذبونك بلطفهم إليهم ويعاملونك بأحسن المجاملة . لكنهم فى الوقت عينه محبون لأنفسهم إلى حد فظيع إذ يطلبون منك إزاء هذه المجاملة مثلها أو أكثر منها. ومهما سامحتهم أنت فى هفواتهم فأى هفوة تبدر منك نحوهم تقيمهم

وتقعدهم وتظهر من شراستهم ما يمحو كل حسنة سابقة لهم. ولايرجعون إليك إلا إذا رأوك عاملتهم المثل بالمثل وقابلت شدتهم بالشدة.. يظهر ذلك لمن يعرفهم وتصل معرفته بهم إلى شيء من رفع التكلف فى القول والعمل أو لمن تلجئه الحوادث إلى صلات جدية بينه وبينهم.

كان معى فى اللوكاندة عدد من الأنكليز. ومقابلى على المائده أختان أنكليزيتان. وإلى جانبهما كندية فرنساوية وبجوارها أحد أقاربها. أما جارتى أنا فكانت فرنساوية عجوزا.

وافق أول نزولى باللوكاندة أيام اجتماع البرلمان الفرنسوى ونظره فى اعتصام عمال السكة الحديد. فى ذلك اليوم خطب رئيس الوزارة برّين Aristi de Briqnd وظهر فى تلك المسألة كمظهره فى غيرها الرجل الثبت القوى. لكنه لم يسلم من لسان الجرائد الاشتراكية رغما عن انتصاره فى مجلس النواب.

كانت جارتى العجوز متحمسة لبرين إلى حد مضحك. نزلت للغداء ولأجل أن أتكلم سألت عما إذا كان الاعتصام لايزال كما هو. فلم تكد تسمع كلمتى حتى بدأت حديثا دفاعيا استغرق كل مدة الطعام.

فى المساء كانت ساكتة ودار الحديث بين الانكليزيتين والكندية. هذه السيدة زوج كندى انكليزى ولهما ابن كان موضع كلامها هذه الليلة. قالت: يطلب أبوه أن أكسوه وأربيه على النظام الأنكليزى. أنا لا أكره البساطة فى لباس الأطفال ولا أكره أن أعوده الرجولية والإقدام من طفولته. ولكن مهما طالبنى به أبوه فإنى أربى نفسه على أن تكون كندية لا انكليزية على أن يكون ابن كندا وصاحبها لا ابن مستعمرة انجليزية خاضعة. عجبت أنا لهذا الحديث بعد أن أخبرتنى فى العام الماضى كندية انكليزية أنهم لا يهتمون بأمر استقلالهم لأنهم الآن حكام البلد وذلك يكفيهم خصوصا وأن كندا بلاد واسعة موحشة قليلة السكان كما أن الانكليز لا يضايقونهم فى شيء ما.

انتهت هذه السيدة من طعامها وقامت. ولما أخبرت الانجليزيتين بشديد عجبى أخبرانى أن لا عجب أنهم فى انكلترا يفرقون بين الكنديين الانجليز والكنديين الفرنساويين فى الاعتبار والمعاملة ويأخذون الحيطة من هؤلاء الآخرين فى حين هما الأولون أخوة. أى أثر يكون لهذا الاختلاف على مصير كندا؛ لا أدرى.

* * *

مضى علىّ إلى ذلك اليوم أكثر من عام فى باريس ومع ذلك لم أذهب مرة إلى جهة مونمارتر مهما تكن جهة الأتوال جهة الأغنياء وذات نظام وجمال فأن كل شاب اعتاد الحى اللاتينى حيث الشبيبة وحيث سرورها يفيض فى كل مكان وفى كل مظهر من مظاهر هذه الجهة العلمية من البلد يجد من نفسه دافعا يدفعها تجاه ذلك الحى. والواقع أن العربات الجميلة والملابس المترفة والشوارع المتسعة المنظمة وأبهة المبانى الفاخرة وبهاء المنظر الذى يقابل العين حين تقف عند قوس الأتوال وتنظر إلى أى جهة من جهات الدائرة الكبيرة المحيطة به ـ الواقع أن ذلك كله لا ينسى حديقة اللكسمبور ولا البانتيون ولا الشبيبة الناضرة التى تروح وتجىء فى كل نواحى تلك الجهات. لذلك كنت كثيرا ما أترك مستقرى وآخذ المترو لأنزل فى محطة الأديون مركز الدائرة من الحى اللاتينى.. ذات ليلة وقد كنت فى (تافرن البانتيون) جلس إلى جانبى شاب أحمر الوجه أصفر الشعر لا يتكلم الفرنساوية إلا قليلا. فسألته ان كان أنكليزيا.

أخبرنى أنه نرويجى ولكنه يتكلم الأنكليزية أحسن من الفرنساوية لأنهم يتعلمون هاته اللغة فى بلادهم من الصغر ولا يكاد يوجد واحد من أهل بلده إلا يعرفها إلى درجة ما. وذهب بنا الحديث مذاهبه وعلمت أن له أسبوعا فى باريس وأنه كان بالأمس فى (كباريه جرلوت) بمو نمارتر. وامتدحها أمامى.

من النفوس ما يبقى زمنا مقفلا أمام الواقع وحوادث الوجود مكتفيا بعيشه في عالم الخيال والمضاربات النظرية والمسائل العلمية. فإذا جاء عليها يوم تطلعت فيه لترى العالم كما هو ثم لتأخذ مما فيه بنصيب ظهر عليها التورط وجاهدت بكل وسعها لأخفاء ما تنويه. تريد أن تأخذ حظا من كل شيء وحدها لأنها تحسب كل شيء كالكتاب يفيدك أكثر كلما أفرغت إليه نفسك. كما أن الخجل الذى يحيط دائما بالذين عاشوا عيش الوحدة يبعدهم عن مشاركة غيرهم فى كل ما يخيل لهم أن عمله يجر إلى شيء من الريبة فيهم.

وإن أقدموا أخيرا على هذا العمل أقدموا خائفين وجلين. لذلك هم لا يرون من الحقيقة لأول الأمر شيئا.

كان ذلك شأني فى أمر مونمارتر. أردت بعد تلك الليلة أن أذهب إليها واكتفيت من كل الاستعلامات عنها بأن عرفت اسم جرلو. وبعد تخبط طويل فى البحث عنها وصلتها الساعة العاشرة ونصف مساء فإذانى مبدر أكثر من اللزوم

فى مثل هذه الساعة يوجد فى تلك الجهة من باريس كما يوجد فى غيرها عائلات تريد أن تفرج الكرب عن نفسها. فإذا ما انتصف الليل وخلا الجو لأصحاب السهر ابتدأ يحل محل هؤلاء من الشبان وبنات مونمارتر ويدخل السرور إلى المكان بشكل فظيع سرور غير مرتب ويملأ وجه كل إنسان. فتدور البنات بين الترابيزات ويلبسن برنيطة هذا ويرتدين رداء ذاك ويصحن ويدخن ويجذبهن الشبان نحوهم والموسيقى تدق بنغمات شديدة ويتتابع المغنون والملحنون أشكالا وألوانا. ومن لحظة لأخرى ترن فى المكان ضحكة من بعض النواحي التى أخذها جماعة معا من الشبان. وكأن فى ذلك الجو المملوء بالدخان حتى ليختنق مخدرات تذهل كل من فيه عن همومهم ولا تدع مكانا إلا للضحك والسرور.. وسط هذه الضجة الفرحة بقيت أنا وحدى ساكتا حتى الساعة الثالثة بعد نصف الليل.

كنا تلك الأيام فى أواخر أكتوبر. والسنة المكتبية الداخلة تنادينى أن أرجع إلى الحى اللاتيني. إلى جوار المدرسة. ولما يئست من الوقوع على عائلة توافقنى أخذت الطرف الثانى من أنواع الحياة. أخذت سكنى اللوكاندة.

حجزت لنفس غرفة فى اكسلسير. ولما وثقت منها وارتاح بالى من هذه الجهة رتبت عفشى قبل تعزيلى بثلاثة أيام على ما أذكر.

سهرت ليلة أول نوفمبر حتى الساعة الرابعة صباحا. رغما عن ذلك فقد أيقظنى صديقى حمدى الساعة الثامنة ولا أزال فى أشد الحاجة للنوم. لكن سرورى بحضوره من مصر انسانى تعبى. وفى اليوم عينه انتقلت إلى اكسلسير وأخذ هو الآخر غرفة فيها.

ساكن اللوكاندة حر إلى أقصى حدود الحرية ولكنه كذلك وحيد الى أفظع درجات الوحده. لذلك هو يميل بكله لاتخاذ أصدقاء اخوانا ويكثر منهم ما استطاع. ومهما يكن محبا للانفراد ولطعم ذلك السكون اللذيذ حين يجلس فى غرفته. ان شاء يدخن متى اراد ويتثاءب حين يحلو له ويفكر الساعات الطوال على غرضه. فان تشابه تلك الحياة الميتة وعدم وجوده حتى ولا ساعات الطعام مع أشخاص يقتادهم ويقتادونه يجعله سؤوما ملولا. ويجىء الشىء طبيعيا إلى حد غريب. هو يذهب ساعة الظهر للمطعم فيقابل شخصا يعرفه ويكون مسرورا أن وجد مكانا إلى جانبه. وفى أكلة أو أكلتين ترتبط المودة بينهما.. يذهب بعد المطعم إلى القهوة فيجد آخر وثالث وهكذا يجد جيشا عرما من المعارف. ثم يغرية حب استدامة اللذة إلى أن يجد من يبقى معه أطول زمن ممكن. وفى اللوكاندة كل حر يعمل ما يريد وهكذا تسير الحياة على هذا الشكل الفاتر اللذيذ.. ولكنها فى الوقت عينه تسمح لمن عنده شىء من التفكير فيما يرى ويعمل ومن القوة على إمساك نفسه عند الحاجة أن يلاحظ أشياء كثيرة ويستفيد من مخالطة الأشخاص والنظر فى الحوادث أضعاف ما كانت

تفيده من قبل الكتب والروايات. وإذا رجع إلى هذه بعد أن طعم الحياة التى وصفنا رجع إليها وعنده من التجربة ما يجعله يصل منها إلى أعماق فكر صاحبها ويفهم كل ملاحظة عن حادثة يقص الكاتب خبرها.

كنت أذهب إلى المطعم أنا وع . ف فنجد هناك جماعة من المصريين. وقد اختصوا مائدة كادت تكون محجوزة لاسمهم ففى الظهر وفى المساء تراهم يحضرون الواحد بعد الآخر حتى تمتلئ بهم. ويدور الحديث فى مواضيع مختلفة كانوا فيها دائما موضع حضور الذهن ووضع النكتة فى أحسن محلها. وكثيرا ما كنت أمضى كل ساعة الطعام من أولها إلى اخرها ضاحكا مسرورا. ولكن متى دخل إلى كلامهم شىء عن السياسة والأحزاب علت إذ ذاك ضجتهم وإن انتهت فى الغالب بالتنكيت والضحك.

فى تلك اللحظات كان أحدهم (م . د) يجلس صامتا لا ينطق وتلك عادته حتى غيرها. ثم إذا امتلأت نفسه جاء مرة واحدة بكل ما عنده من سب بعض الكتاب ورميهم بالنفاق والخيانة والجبن وأنهم يبيعون البلد بيعا .. سمعت عن هذا الشخص بعد شهور من هذا أنه فى حيرة لا يجد ما يأكل به.

ت . س شخص ثابت رزين حلو الحديث ولكن رزانته تذهب أحيانا إلى حدود أكثر من اللازم ويعتقدها آخرون كبرياء فارغة.

م. م . يظهر من الظرف ما لاتكاد تتصوره، ولكن ظرفه ينحصر فى غيبة الآخرين والطعن عليهم وان أظهر لكل الناس أنه صديقهم الحميم.

م . ر شخص ضعيف الإرادة ضعيف العقل أحمق من دجاجة ويعتقد نفسه شيئا ذا قيمة بين الناس بل وفى وجود مصر.

أ. ن فلاح صعيدى جاء إلى باريس . تصور أثقل فلاح صعيدى يريد أن يصبغ نفسه بصبغة ابن باريس.

م. ز. شاب فى الحادية والعشرين. عقل طفل فى جسم رجل.

ع . س ينافق حبا في النفاق. ويكذب حبا في الكذب. ويعمل كل نقيصة ليقال عنه حر الفكر أو أنه ذو ذكاء.

هؤلاء جماعة من بين الذين عرفت فى المطعم يومذاك. وأولهم أحبهم إلى لأنه إنسان جميل العشرة يفهمك ان حدثته. واسع الاطلاع.

فى هذه اللوكاندة قضيت شهرين. ولسبب لا أدريه كنت أجد نفسى دائما مشتغلا بدروس غير دروس الاقتصاد التى أعددت أن امتحن فيها لأول ما أتم تحضيرها. بالرغم من ذلك كانت حياتى مرتبة إلى حد كبير.

جاءت النتيجة الطبيعية لسكنى اللوكاندة. اعتدت القهوة وصرت أصرف فيها وقتا طويلا، كنت أحيانا أذهب لآخذ طعام الغذاء فى (هولانديا) ولا أكاد أتمه حتى يحضر بعض أخوانى المصريين فنبقى نتحدث ونلعب البليار أو الطاولة حتى موعد العشاء ومن بعده نجد موضعا لقضاء الوقت هو وقت راحتى.

لكن لياليّ كانت منتظمة إلى حد كبير. من الساعة العاشرة فى غرفتى واشتغل حتى نحو منتصف الليل ثم أنام لأقوم الثامنة صباحا وأن كان عندى درس أسرع إليه وإلا بقيت أشتغل حتى الظهر. وفى مدة الشهرين أذكر أنى لم أبق إلى الصباح إلا مرتين. أحداهما كنت مع جماعة فى مونمارتر. وقد وضعت حديث هذه الليله فى غير هذا المكان من مذكراتى.

اشتركت فى محاضرات العلوم الجنائية وواظبت على حضورها وعلى سماع دروس المسيو جرسون فى صبيحتى الثلاث والخميس.

فى أواخر العام سئمت هذه اللوكاندة وانتقلت مع العام الجديد إلى (سلكت) . سلكت معموره بالمصريين ولكن منهم من لا تراه إلا كما ترى آخر ساكنا فى الحى اللاتينى ولا صلة بينكما. ومنهم من تتوثق بينكما الرابطة حتى لتصبح صداقة جامدة. كان ذلك شأنى مع السيد مرعى.

أكثر من المطعم تسمح لك هذه اللوكاندة بملاحظة المصريين والدخول إلى باطن من أمرهم لا تقف عليه من غيرها. ولكنها كذلك تعرضك لأن تكون إلى جانبهم دائما وبالحق الذى يعطوه لأنفسهم بصفتهم مصريين. وإذن أصدقاؤك يدخلون عليك غرفتك فى أى لحظة ولأى سبب.

عشت هنا عيشة الطلبة أكثر من أى لحظة عشتها قبل ذلك. هنا عرفت مواعيد العصر لأبقى بها إلى الصباح. هنا طعمت العيشة المكسال لا يغيرها أمر ولا نهتم فيها لشيء وننسى أنفسنا تتوه حيث تشاء من عالم الهمود ونتمتع من كل ما فى الحياة ولا رقيب علينا. حقا أن النفس التى عاشت بعيدة عن لذائذ الحياة متى وجدت أنها بينها غرقت فيها وأرادت أن تأخذ منها بأكبر حظ تستطيع. وكثير من هاته النفوس تروح فى عرقها إلى الموت إلى موت لذيذ هو الآخر لا تحس به إلا حين تحرمها الظروف من غرضها أو يجعلها السن المتقدم قليلة الأحساس بما حولها لكن ان قدر لها أن تنجو انتفعت من تجربتها أكبر النفع.

لم أكد أسكن سلكت وأجد نفسى محاطا بأخوان السرور وتمد الحياة إلىّ يدها ممسكة بها حتى تهت عن صوابى مبهورا وأردت أن آخذ من ذلك كله أعطته لى الصدفة ولم تمنع عنى شيئا أردته. كل ما أرغب ما على إلا أن أمد يدى فأتناوله.

قضيت كذلك شهرين من حياتي. شهرين جاءا فى لحظة ما كان أحوجنى إليهما. شهرى لذة وسرور.

وإذا كنت أنظر لهما اليوم بشيء من الأسف فان لهما كذلك شفيعا من أنفسهما كما أن الحياة التى تلتهما كفرت عنهما

وكأن النفس التى ربيت بين الكتب والمطالعات والكتابة مهما وجدت فى هذا العيش من اللذة تسأمه أخيرا. تسأم تلك الساعات الفارغة والليالى الساهرة

لغير فائدة والأوقات الطويلة الضائعة بين جدران القهاوى أو حول ترابيزات البليار، لذلك أحسست فى النصف الأول من فبراير بقلق أخذ بخناقى وأنذرت (ويكث) أنى تارك اللوكاندة لآخر الشهر. وكل يوم يمر يزيدنى قلقا. حتى إذا كنا حوالى الأيام الأخيرة ذهبت وأخذت لنفسى مكانا فى سان كلو.

فى سان كلو كان معى عائلة من رجل وزوجه وابن صغير ثم سيدة أخرى. وكل جماعة فى ناحية من قاعة الطعام. ولم يمض على بها ثلاثة أيام حتى سافر هؤلاء وأصبحت الغرفة الواسعة لا أحد بها إلا أنا،.. وأحسست فى تلك الوحدة المطلقة بعد الذى كنت فيه من الضجة الدائمه براحة كبيره لكن ما أسرع ما وجد الضيق سبيله لنفسى فكنت أهاجر لباريس ثلاث مرات وأكثر فى الأسبوع الواحد. وبقيت فى تلك الوحدة أياما.

جاءت عند صاحبة الدار ليلة عجوز كانت ساكنة عندها وسألتها أن تذهب معها للكنيسة. وسألانى أن أصحبهما ففعلت. وجاءت العجوز عندنا تتناول طعام الغذاء وكانت غرفة الطعام قد صار فيها غيرى شخصان رجل و سيدة. سيدة مريضة يكاد المرض يجىء عليها ذاهبة اللون مسؤومة الوجه غائرة العينين فلما انتهينا من الطعام وذهبت إلى الصالون وقد شيعتنى إليه هذه السيدة الرومانية العجوز جاءت صاحبة الدار تحادثنا. وسألتنا أن ننادى بهذه السيدة المريضة من غرفتها فنزلت. وقضيت معهن حتى الساعة الثالثة بعد الظهر.

كنت فى هذه الأيام قد أخذت فى العمل من جديد. الشهر مارس والسنة أقترب آخرها ولم يبق من التحضير للأمتحان محيص. وكأن تلك العادة المكسوبة بالزمان من تأدية إمتحان والنجاح فيه كل عام من سنين عديدة مضت جعلتنى أحس بمسئولية مضاعفة. لذلك فرغما مما كنت أجده من لطف السيدتين لم أكن أعطيهما من وقتى أكثر مما يلزم.

غير أن رقة المرأة لها من القوة على قلب الرجل ما يسحره عن نفسه. كم من رجال أمناء أضعفتهم النساء وكم من ضعاف أعطتهم النساء قوة وأقوياء أورثنهم ضعفا. ولا أظن أن هناك ضرورة لدخول الحب فى قلب الرجل من أجل أن يصرفه عن طريقه. بل يكفيه قليل من الأحساس بالميل نحو امرأة لتأخذه عن نفسه إلى حد كبير. لذلك صدتنى رقة صاحباتى وخصوصا رقة مدام. س. عن عملى إلى حد ما.

وكل يوم كانت تحكى لى فيه عن مركزها كانت تزيدنى رحمة بها وعطفا عليها وبالتالى عملا لإرضائها.. أول ما عرفت عنها أنها زوجت فى السابعة عشرة من عمرها ثم طلقت زوجها بعد سنتين بعد أن رزقت منه ولدا وبعد أن ذاقت من زواجها الذى خلفت بعده أن لا تجعل لرجل عليها سبيلا. ثم تعلق بها المسيو. س . وجعل يجاهد سنتين حتى قبلت يده وهى فى الثالثة والعشرين وبقيا زمنا وهو أطوع لها من يدها. ثم انصرف عنها بعد أن رزقت منه صغيرا. وهو اليوم يدور مع أخرى وهى تقاسى فى الوحدة آلامها.

جاهدت بعد ذلك أريد أن أقف على كثير من أمرها وزادنى ذلك تحريضا على صرف بعض وقتى معها. وهى دائما تلك السيدة الرقيقة الطيبة القلب الواقعة تحت حكم الألم.

كنا إذ ذاك فى أوائل أبريل. ورأيت أنى أكاد أنصرف عن القسم الأكبر من عملى. فلم أكد آخذ كلمه من صديقى(ش. ب). يدعونى فيها للسفر معه إلى التورين حتى فكرت فى قبولها جديا وفعلا قبلتها وسافرنا الخامس من هذا الشهر.

بلاد التورين بلاد سهلة لا جبل فيها وتحوى جمال البلاد السهلة كما تمتاز ببديع غروب الشمس. وفيها القصور الفخمة القديمة يحكى بعضها ببهائه عن ذوق حلو والآخر بقدمه وقوته عن عظمة ذات أصل فى التاريخ.

فى بعض هذه القصور سجون تحت الأرض لإيدخلها الضوء ولا الهواء إلا رغما. ويحكى الحراس من قصص المسجونين فيها ما يحفظ القلب على ملوك كان كل همهم السلطان المطلق على رعيتهم

(٧)

فى إيطاليا

لوجانو فى ٢٠ يوليو

كنت على القارب الذى يقوم من هنا الساعة الثامنه ونصف صباحا قاصدا بونتى تريزا وهو قارب صغير الحجم أو دونه.

سار القارب حتى وصلنا إلى الحدود الإيطاليه هنالك مر عمال الجمرك وما اثقلهم فجعلوا يفتحون أصغر حقائب السفر ثم يختمونها ولم يتركوا من غير تفتيش إلا الجيوب وحقائب السيدات ولقد حدق بى أحدهم وأنا أخرج صندوق السجائر من جيبى وهز رأسه كأنه يأسف أن ليس عنده من الأقدام ما يجعله يضبطه. وكان هؤلاء العمال بشائر ايطاليا. فإنِ يك هذا فويلى من الطليان ما أقبحهم.

... اذا رأيت أشخاصا بالغات فى القبح فاحكم بأنهن امريكيات وربما كن انكليزيات. ولقد صادفت خارجتين من القارب عند (پورتو سريزو) تشمئز لمرآها العين. ولم يكد يرتد إلىّ طرفى حتى صدقتا حكمى عليهما أنهما أمريكيتان بأن تراطنتا بالانكليزية الأمريكية.

.. صباحنا اليوم كثير الغيوم فلقد اشتمل الجبال المحيطة بالبحيرة ضباب كثيف جعلها تظهر كلما ابتعد القارب ولو قليلا عنها كأنها اشباح مخوفة هائلة أما سطح البحيرة فقد كان يعكس خضرة الجبل ويتموج قليلا. والمسافرون قد هدهم الضباب وضايقهم عمال الجمرك يسود عليهم سكون حزين.

ثم حملنا قطار صغير من (بورتو سريزو) إلى (لونيو) على شاطئ بحيرة (ماجيورى) ومن لونيو سافر بنا قارب احسن بكثير من القارب الأول قاصدا (ايزولا بلا ـ الجزيرة الجميلة)

كان إلى جانبى على القارب سيدة فرنساوية ومعها ابنها وهو طفل عمره ثلاث سنوات. وبينا هو يلعب نادته اندريا اندريا تعالى هنا فذكرنى ذلك قول أخرى لابنها ذى الخمس عشرة سنة. «البير، البير لا تعمل هذا» وتقول ذلك بنفس اللهجة التى تخاطب بها أم اندريا طفلها ذلك ان الفرنساوية متشابهة دائما فى معاملة ابنها فهى دائما شديدة فى الامر لينة فى التنفيذ وتصحبه دائما قبلة لطيفة.... لست احكم... وربما كانت هذه التربية اضمن لتخريج جمهوريين.

ايزولا بلا.. قصر وحديقة جمالها أبدع ما يرى وينبئان عن ترف ممتع مكسال. وهذه الجبيلات وهذه الحديقة القائمة على عشر درجات ترتفع كل عن الأخرى عشرة امتار!... عن أى شئ تنبئ؟ ... وايزولا ماورا وحديقتها الغريبه... إلا ان الانسان ليجمل الطبيعة ويعطيها من الإبداع ما يفوق كل خيال. قفلنا راجعين من لونيو إلى بونتى تيريزا وكان إلى جانبى ايطالى ومعه بنتاه وكبراهما جميله وهى فوق ذلك بديعة محبوبه وأنها لتحمل فى ناظرها من الحب والعطف مبلغ ما ينم عنه من الرغبة ثدياها الناهدين

تورينو ٢٢ يوليو

قمت بالأمس من لوجانو بقطار الساعة واحدة واربعة وعشرين وكان معى اثنين من الامريكيين فأبتدأنا الحديث وعرفت أنهما آتيان من لوسرن قاصدان فنيسيا (البندقية) ويريدان ان يزورا مونيخ وهولانده ولوندره وايقوسيا ثم يرجعان من أرلندا الى بلادهما. وقد اختارا هذه البلاد لأن لكل ميزة لا يشاركها فيها غيرها.

هما من غير شك مخطوب وخطيبته أو هما فى شهر العسل. وأنها لفكرة جميلة ان يزورا العالم معا ثم يرجعان إلى بيتهما وقد خلقا لنفسيهما فى ذلك عالما عظيما من الخيال والذكر. دخلنا بعد كومو فى سهل اللومباردى فتجلى امامنا ناطقا جميلا الاختلاف المهول بين الألب والسهل وظهر بعيدا الأفق يترنح ثملا تحت النور المبياض

نحن الآن فى ايطاليا الإيطالية فمنازل من الطوب وإلى جانبها بيوت ترابية اللون كأنها من اللبن وكلها وإيانا ينهكها الحر المفرط.

ميلا نو:

المحطة عظيمة وأمامها ميدان كبير والسماء تعكس من بياضها نورا يعمى الابصار. وقام القطار إلى تورينو فإذا عربات الدرجة الثانية قذره دنيئه، أما عربات الدرجة الأولى فأحسن كثيرا مع حفظ الفارق. وكان إلى جانبى ايطالى يحكى لى عن ايطاليا: هذه البلاد البديعة حسب قوله المبالغ فيه لاشك ولو بعض الشيء. فتلك عادة كل أوربى فرنساويا كان أو سويسريا أو طليآنيا أو... حيث يظهرون وطنيتهم فى هذا الشكل النافع والذى ربما كان أحسن الأشكال.

تورينو.. ما أقربها فى الشكل للقاهره. القهوات وبائعو الشربات فى الشارع والتراب والذباب.... غير أن الناس يظهرون أقل تعسا وأكثر فرحا وبهجة.

٢٣ يوليو

ايطاليا مهد الفن كما يقولون فحيث تكون ترى تماثيل بديعة في الميادين وفي المعرض وفي كل مكان. ولقد ذهبت صباح الامس أزور (الاكاديمية دلاسيانزا) فمررت بميدانين ما احلى شكل تماثيلها.

وابتدأت في الأكاديمية بأن زرت القسم المصرى. فماذا رأيت؟ رأيت ما أرى دائما عن مصر القديمة: موميات مكشوفة الوجه سوداء مفزعه، وإن هذه الرءوس المؤلفة لتعطى بشكلها المخيف منظرا جذابا غريبا.

على الحيطان اوراق قديمة تنزل فيها الكتابه أحيانا من الاعلى إلى الأسفل وتكون أحيانا بشكل قطع شعرية أو في شكل النثر المعتاد وتصحبها الرسوم دائما والتشبيه أظهر صفات هذه الرسوم. وكأن هؤلاء القدماء كانوا لا يستطيعون تخيل الإنسان إلا في حالة غضب مفرط أو سكون مفرط. وأن تماثيلهم تظهر ذلك أكثر مما تظهره الرسوم ولكن هذه الأخيرة تدل عليه كذلك دلالة واضحه. فيجب أن يكون للرجل الهائج المغتاظ رأس هائل حتى يكون مغتاظا رأس بعض الحيوانات الآلهة. أما الإنسان الباقي برأس انسان فأنما يكون في حالة سكون أو استسلام وضعف بعض الأحيان. وإذن تكون الايدى المرفوعه علامة الخوف او ادراءً لغضب إله له رأس طير مفترس وفي يده عصاه

في الدور الثاني صالة صور تحوى نحو المستمائة من بينها قليل من ريشة مشايخ التصوير. وأهم مايفيد هذا الدور الفكرة التي يعطيها من نشوء الفن وارتقائه وتسلسله كما أ ن الفكرة التي نسمعها أحيانا من أنه لافن مما يحوى الإبداع والعظم بعد المشايخ القدماء وأن كل شئ ينحط يبين هنا فسادها. فأنى وإن لم أكن عرافا في الفن ولا درست شيئا ذا قيمة منه أرانى استنتج مما أمامى ان الانتقاد غربل الفن القديم فأظهر لنا منه الصور ذات القيمة ومبلغ جمالها. أما الصور الحديثة فلم تنل هذا الحظ بعد وكثيرا ما يغطى رديئها الحسن ويضل حكمنا عليها إننا عائشين معها في جيل واحد فلا نقدر على الحكم بخلودها.

وان الثورات فى الفن الحاصلة اليوم والتى يناصرها جماعات شتى (والمستقلون بعضها) لتجعل الانسان يتردد فى اتباع المذاهب الجديدة ويبقى عند اعجابه بالقديم. وهذا هو السبب الذى يحملنا على حب الماضى وتفضيله.

وذهبت بعد الظهر إلى المعرض، ما أعظمه؛... وما أجمل تماثيله واحلى بيوته. من الأشياء التى أخذت بنظرى آلات النسيج وهى تشتغل يخدمها بنات ونساء يعملون فى هذا الشغل المذهل.. فهل يملكون عقولهم آخر النهار؛... واعجبنى فى القسم الانكليزى أعمال ودجوود الفنية الجميلة

وكما تمثل الممالك الكبرى نفسها بالاعمال الهائلة تمثل الهند وسيام وتركيا نفسها بما يثير فى النفس الرحمة عليها والاسف من أجلها. لم يظهر الانسان نفسه فى مثل هذا الموقف الذى يجدر به فيه ان يختبئ!

والمانيا العظيمة تشتغل منازلها من ناحية ومن الناحية الأخرى يرى الناظر النتائج التى جاءت بها ضمانات العمال فيها.

غريب كيف يظهر على معروضات كل أمة طابعها؛.. فألمانيا بلد الرحمة والعواطف الجميلة هى كذلك بلد الضجة وحب الظهور. وفرنسا بلد العلم الصحيح بالجمال وأسراره علما جاء عن طريق النقد أكثر مما جاء بالوحى والجبلة. وانكلترا وهى بلد الهدوء ومواصلة العمل تصل إلى نتائج مدهشة.

٢٧ يوليو

فلورنسا ـ الجميلة كما يسميها الطليان هى حقيقة جميلة تحيط الانسان فيها الآثار القديمة من ناحية وأجمل ماخلد الفن من الأخرى. ولكن الايطاليين هم دائما الإيطاليون بل يظهر أنه كلما أوغل الانسان جنوبا كانوا أقل مدنية ولقد رأيت هنا مشاحنات أكثر مما رأيت فى تورينو إذ قابلنى فى يومين خمس أوست ولم اكن اخرج الإ نادرا... أو أن ذلك إنما كان نتيجة الصدفة؟!..

ومما يأخذ بالعين حقيقة الكاتدرال والكمبانيلى والباتستير وكلها مجتمعة فى ميدان القبر (الكاتدرال) مظهرة بذلك نظاما فنيا معماريا بديعا، وقد اتخذت جميعا من الرخام ويبين عليها توازن دقيق غير أن الكاتدرال فقيرة من الداخل ومظلمة لاككتدرال بيزا التى زرت هذا الصباح والتى هى ذات مظهر أغنى بما فيها من التماثيل وماعلى جدرانها من النقوش وما فى سقفها من الذهب.

أما كمبانيل بيزا فهو احدى عجائب الدنيا ـ البرج المائل المشهور ـ وهو أقل جمالا من كمبانيل فلورنس المربع البديع النقش

وما أكثر المتاحف فى ايطاليا فقد زرت اربعا منها فى فلورنسا مع أنى لم ابق بها غير يومين وأن متاحف الأوفيزى والبنى لبدائع يقصر دونها الوصف قد حوت من نقوش اساتذة التصوير أبدعها. فيها من رفائيل وروبنس ودشى وبوتيشلى وربنى ولبرن وكثير غيرهم من الكبراء. من ميشيل انجلو وتسيانو البديع، كم من الدقة فى عذارى رفائيل وفى الصورة التى يخلد بها معشوقته وكم من القوة فى باباواته.. ثم كم هن مكسالات عريانات تسيانو وكم هى ناطقة صورة سوزانا لربنى وصور دلشى.. ورزايا الحرب لروبنس. كم هى متكلمة شاكية، فيها يحس الانسان كأنما يسمع صرخة اليتم تشق قلوب النساء والاطفال ممثلى الانسانية اللطيفة الهادئة المسالمة صرخة يأس وجزع....

وحدائق فلورنس، تلك الحدائق الهائلة العظيمة ما أبدعها.

ولقد زرت بعد الظهر فيزولى وهى الضاحية التى احب اناتل فرانس من كل قلبه.. ومن شرفاتها تتجلى فلورنسا تحت النظر وبين الضاحية والمدينة غرقت منازل صغيرة فى خضرة السفح اليانعة

لكن ضيقها والمرسى الرومانى البالى الفقير وكنيستها العريانه التى تذكر بماض ضئيل شحاذوها الكثر ومظهرها البائس او يكاد كل ذلك يحمل العين بعيدا عنها إلى هذه الشرفة البديعة حيث تتجلى جنة الأرض. دونها روما المهيبة العظيمة سيدة الزمن الماضى وروما الكبيرة بنت الزمن الحاضر. بين بعض ربوعها يحس الانسان كأنه انتقل إلى بلد عظيم ميت يبعث للنفس المهابة والوقار فاذا انتقل فاختلط بالناس وجد دائما من هؤلاء الطليان بعض القذرين، بل أنه ليجد بين الآثار القديمة الوقت بعد الوقت شيخ بائس من الشحاذين تنم هيئته التعسه عن أنه انتقل هو الآخر إلى ملكوت الموت. ولقد كنت عند (الكولوسيوم) أزوره وأزور الآثار إلى جانبه فصادفت عينى مرارا اشباحا فى اطمار تخرجها الاحجار المؤلفه ملقاه على الأرض وهى انشف من الموميات العتيقة، وبين الآثار والاحجار والاشباح تسمع صرير الحشرات الساكنة فى شجيرات سوداء وامتد على الارض عامود ينسب إلى (ديوكليسيان) وهو مكسور ثلاث قطع فى حين قامت عمد كثيره أخرى تدل على مكان (الفورو رومانو) ودعيت بعد ذلك لازور أماكن أخرى ولكن الحر ارهقنى فلم أذهب وقابلت بالصدفة عند ميدان اسبانيا عربى عرفنى وطلب إلى أن يكون دليلى والجأتنى الحاجة أن اقبله. ولو رأى لومبروزو هذا الشكل لما تعب فى أى وصف يضعه ولقد ساعدنى كثيرا فى تعريفى الطرق ومخازن البيع والشراء. اخذتنى به الرحمه ومسنى الأحساس ببؤسه.

تظهر روما بالليل فى شكل القدم خصوصا فى الأماكن الكثيرة الميادين الملأى بالعمد القائم عليها تماثيل تراجان وقيصر وغيرهم ممن يستثيرون معهم

ماضى عظمة الدولة. أما الميادين الجديدة فهى قليلة الطعم. ربما احسست أنا بذلك لأنا نحمل للماضى احتراما يحتل اعماق نفوسنا أو لأن هذه الصبغة التى يعطيها للأشياء هذه الصبغة الترابية القديمة تجعلنا ننحنى أمامه.

من روما إلى برنديزى.. ما أقذر هؤلاء! هؤلاء الخنازير لا انسى أنى فى الاربع المرات التى ركبت فيها سكة الحديد كانت مراتب الدواوين مقلوبة على وجهها وأقل احتكاك بها يثير ترابا عجاجا... وتلك هى عربات الدرجة الأولى؛..

والطليان أنفسهم! ياحفيظ!.. أول ايامى فى ايطاليا حدثنى أحدهم وجاء فى الحديث ان وصف بلاده وعظيم ما فيها من جمال.. وكانت كلمته الختامية:.. ايطاليا جميلة ولكن يجب تغيير الطليان!.. أنه لمحق وأيم الله.

إنهم حقيقة لخنازير يجئ ركاب الدرجة الثانية إلى الأولى فأذا اراد الكمسارى أن يأخذ منهم الفرق سبوه وصاحوا فى وجهه ثم يرضونه أخيرا بجرعة «كيانتى» فيقبلها مسرورا وينصرف.

ومكتوب فى العربات.. «البصق على الأرض ممنوع». ذلك ان الشركة تعرف مواطنيها ومبلغ نظافتهم. والمحطات الصغيرة يظهر فيها من حين لحين جماعة من الفلاحين الفقراء والبؤس يبين على وجوهم وفى ملابسهم وتكاد تلمسه فى هواء هذه البلاد الجنوبية. وأخيرا ها أنا ذا وصلت إلى مصر هذه الليلة.

(٨)

فى مصـــر

كانت الساعة الثالثة من صباح يوم الأربعاء ٢ أغسطس سنة ١٩١١ حين استيقظت أنا وصاحبى الذى معى فى غرفة الباخرة. وبعد أن تبادلنا كلمات قليلة قمنا فصعدنا معا فوق ظهر المركب على أمل أن نرى تباشير شواطىء بورسعيد عند الأفق. ولقد وجدنا بعض أشخاص من الركاب سبقونا ولا يزالون لابسين (بيجاماتهم) وكلهم قد حدد نظره إلى الجهة التى تسير نحوها المركب ولكننا لم نر بعد إلا نورا بعيدا ضئيلا لا يكاد يتميز. وكلما تقدم الوقت بهت لون السماء وابتدأ يتسرب وسط ظلمتها خيوط من ضوء الصباح فتمحو نجومها والأفق هناك لا يزال قاتما.

صاحبى فى الغرفة ايطالى من مستخدمى الحكومة المصرية. وهو على ما أخبرنى رئيس مصلحة الطب البيطرى فى بعض الجهات ويتقاضى مرتب أربعين جنيها.

وأكبر آماله أن يجىء يوم يكون قد وفر فيه مبلغا طائلا من المال ليرجع فيعيش فى إيطاليا بلده ومسقط رأسه. ولقد قال لى:

ـ وبالرغم من أنى أحب مصر كثيراً فلا استطيع أن أوطن نفسى على فكرة العيش فيها دائما. بل أحس بشيء يدفعنى لأن أرجع لميلانو متى توفرت عندى أسباب الرفاهية واستطعت أن أعيش من دخل ممتلكاتى. وأرجو أن لا يكون ذلك بعيدا.

ابتدأ الشاطىء يتميز قليلا امتلأ ظهر الباخرة بالركاب الذين تناولوا لقمة الصباح وجهزوا أنفسهم للنزول. فلما دخلنا المينا هبطت حركة الالات فى الباخرة حين اقترب منا قارب (السائق le Pilote) وحوالى الساعة السادسة رسونا.

بعد أن مكثت برهة بالباخرة نزلت إلى الشاطىء ومررت بالجمرك ثم أخذت عربة وضعت فيها ما معى وركب شيال إلى جانب السائق واخترقت المدينة وسط شوارع ضيقة مملوءة بالتراب يمر بها رجال ونساء عليهم جميعا مظاهر البؤس والفاقه. والحوذى على مقعده لا يفتر ينادى «يمينك. شمالك. أوعى رجلك. أنت يا شيخ هناك. يا واد يا ابن الـ ... يا ست أنت يمينك. أنت يا أطرش.» ويفرقع بكرباجه. وخيوله الضئيلة ظاهرة ضلوعها باهت لون شعرها تجرى ساعة وتمشى أخرى. وأخيرا انتهينا إلى الشارع الخارجى وبعد لحظة كنا عند البيت الذى أقصد.

هذه أول مرة رأيت فيها بورسعيد. ولا أدرى أن كان مظهر البلد حقيقة مظهر غير نظيف أو أن مقابلتى إياها بالمدن الأوروبية التى عشت فيها سنتين هى التى جعلتنى أحكم عليها هذا الحكم. إذ بالرغم مما كنت أسمعه من أهلها من مدح تنظيم مدينتهم وجمال ترتيبها والمشروعات التى نفذت والمنوى تنفيذها فيها فلم تكن هاته المنازل القليلة الارتفاع الترابية اللون على الأغلب لتبعث لنفسى الثقة بقولهم. وقد أثارت المدينة فى نفسى ذكر بعض القرى التى زرتها حين سياحاتى فى فرنسا وان كان بعض الشوارع مما رأيت يدل على ترتيب جديد يدعو إلى الأمل بتنظيم هذه المدينة.

جلست على قهوة فى الحى الافرنجى ـ وهو الحى المنتظم ـ من البلد. ولقد كان من أغرب الأشياء على أذنى سماع جماعة إلى جانبنا يتكلمون بصوت عال فى مسائل تهمهم. وكأنهم جميعا يحسون كأن القهوة دار لهم فهم يعطون لأنفسهم الحرية التى لا يسمح الإنسان لنفسه بها فى مكان عمومى. وكلما مر بهم أحد معارفهم مال اليهم وسلم عليهم وإذا ما أراد أن يبتعد لم يسكت واحد منهم أن يصيح «اتفضل قهوة. والله تيجى» . ويعتذر الآخر بصوت أعلى وهو مستمر فى طريقة سائر فى الشارع.

تناولت طعام الغذاء عند أحد أصدقائى ولقد أحسست بسرور كبير أن رجعت إلى هذه الحرية البدوية وجعلت أرقب صديقى صاحب الدار وهو يكسر بأيد قوية أضلاع الديك الرومى الموضوع فوق طبق الأرز. من زمان وأنا لا أرى هذا اللطف المصرى حين يقدم لك صديقك كل ما أستطيبه مما أمامه. وكلما رآك انتهيت قدم لك من جديد. وإذا أنت أردت أن تتنازل عما يقدمه تظاهر بالغضب واراد ارغامك على تناول ما يعطيك غير حاسب حساب ما تخافه أنت من عسر هضم أو تلبك معدة. ركبت القطار بعد الغذاء فسار يقطع بنا الطريق بين رمال المنزلة من جهة وشاطىء القنال من الجهة الأخرى. وإلى مرمى النظر عن الجهتين تمتد الأرض حتى تلتقى بالسماء عند الأفق. وعلى ظهر القنال تسير بعض الكراكات ببطء فنجوز نحن بها مسرعين. وانعطفنا عند الاسماعيلية وانتقلنا من مركبتنا فى الزقازيق. هنالك أحسست حقيقة كأنى رجعت من سياحتى الطويلة وابتدأت عينى تتعرف المحطات والمزارع والأشياء التى رأت مرارا. فلما نزلنا بأبى الشقوق وسلم علىّ الخادم وركبت جوادى وسرت على الطريق الذى سرت عليه قبل اليوم ألف مرة أحسست بالرغم من جمود رأس مطيتى وعدم سكونها بسكينة تراجعنى ورضى يحتل قلبى وشعرت بأنى صرت حقيقة فى بيتى.

ما أعجب الإنسان أى شيء هذه المحيطات بى والتى بعثت بالسرور إلى نفسى وما مبلغ مالها إلى جانب ما رأيت فى سياحاتى. لكنى بالرغم من ذلك أحس لمرآها بانشراح فى صدرى وخفقان فى القلب وكأن هذه الأشياء التى غابت عن عينى سنتين توحى إلى بطفولتى وشبابى.

بعد أيام قضيتها بين أهلى ذهبت إلى القاهرة وأقمت بها يومين. ولقد زرت فى خلالهما جماعة أصحابى كما ذهبت إلى أماكن شتى من مواضع النزهة فيها. كم تغيرت مصر الجديدة وأصبحت مدينة جميلة تستحب سكناها وترتاح لها النفس. ودخلت لونا بارك آملا أن أجد فيه الضجة والسرور الذى كنت أجده فى لونا بارك بباريس. ولكنى أصبحت بعد أن جزت بابه وكأنى بين اثار قديمة لا يقطع صمتها إلا رج الآلآت وحركة الارجوحات فيه. ومع جمال الهواء ونقاءه فقد كان الزوار قليلون لدرجة يحس معها بالدهشة والإنفراد. لذلك فبدل ما كنت أعده فى نفسى من الضحك والسرور وامتطاء الارجوحات والمراكب شعرت بكل ذلك ينهال ويحل محله جد حزين دعانى وصاحبى الذى كان معى لنأخذ باطراف الحديث فى مسائل ذات قيمة. ولما خرجنا سألت عن السبب الذى دعا لهجر هذا المكان مع جمال موقعه ومع الأشياء المفرحة التى يحوى فعلمت أن الجرائد حملت عليه لأول افتتاحه وعدته مكان سخرية وفساد فجعلت بذلك زيارته سبة وحولت عنه انظار الناس.

إننى أشد الناس حيرة حين أنظر فى أخلاق أمتنا. يخيل لى أن الفرد لا فضيلة له فى ذاته وأنه مستعد للوقوع فى كل نقيصة ـ ان صح تسميه أكثر الأشياء نقائص ـ ما دامت تعرض له. أى أن المصريين جميعا يسيرون على مبدأ «أن من العفة أن لا تجّد» والا فلم نرى الحكومة والكتاب والآباء والرأى العام كلهم يخيفون الناس ـ لا من الوقوع فى الرذيلة ـ ولكن من النظر ولو من بعيد لما قد يشك فى أنه رذيلة. إذ لو أن لهم أقل الثقة بقوة نفس اخوانهم أو ابناءهم

لما كانوا بهذا الحرص. ولكنهم في ذلك ينسون أن التجربة خير دروس الحياة وأن الوقوع فى الشر مرة يدعو لتوقيه دائما ويخلق للفرد نفسا تفهم وتريد.

ماذا كان فى لونا بارك حتى دعا للتخويف منه والحملة عليه. شبان يغازلون فتيات على ما أتصور؟ وأى شيء هذا. إلا يوجد غير اللونابارك ألف مكان ومكان يغازل فيه الشبان الفتيات؟ ألا ترتكب أعمال مخجلة من هذا النوع بين جدران دور كبيرة؟ ألا يجد الإنسان فى الأماكن العمومية بل وفى الشوارع أمثال ما قد كان يمكن وقوعه فى لونابارك؟ لقد قصّ علىّ أحد شبابنا حكايات عما يقع فى الأماكن الخاصة ورأيت بعينى مما يحصل فى الأماكن العامة مالا نزاع فى أنه يعدل ما يصح وقوعه فى مثل اللونابارك ان لم يكن أفظع منه بكثير. وغاية ما فى الأمر أن هذا المكان معرض للأنظار أكثر من غيره، والمصرى لا ينى عن أن يرتكب أكبر عار فى الخفاء إذا أمكن بعد ذلك أن يحفظ أمام الناس حسن مظهره. بل لقد حكى لى صاحبى الذى كان معى فى البارك حكاية ان صحت كانت نعم الدرس. ذلك أن شابا كان راكبا عربات السكة الجبلية وراء إحدى الفتيات فأنتظر حتى دخلت العربة تحت النفق ثم مد يده فأمسكها من يديها فلما خرج القطار من الظلمة ادارت الفتاة وجهها ولطمت الشاب بيدها على وجهه من غير أن تقول كلمة واحدة. وخرس الشاب وأعتقد أنه قرر فى نفسه أن لا يعود إلى مثل ما فعل.

الحكايات التى يقصها اخواننا المصريين عن أنفسهم وعن مواطنيهم تدل على أن الواحد منهم لا يكاد يرى امرأة حتى يساوره نوع من الجنون يضيع معه عقله وتملكه حواسه فتدفعه إلى الحيوانية المجردة وتقوده، لولا ما ركب فى طبعه المصرى من الحياء. لأن ينقضّ على هاته التى أمامه فيأخذها بين يديه ويضمها إلى أحضانه وينهال عليها تقبيلا وعضا. ولو أن المساكين عرفوا النساء وانهن لا يحوين كل الخزائن التى تدفع شهوة الواحد منهم إياه لتقديرها فى مخيلته

لهدأت ثائرتهم وكانوا أبعد كثيرا عن الوقوع فى هذا الجنون الذى هم معرضون له فى لحظة. ولكنهم يعيشون أغلب الأحيان فى مجرد الخيال من هذه الجهة. والخيال تلسكوب يكبر كل ما يقع أمامه فيبهر صاحبه ويستدعى كل انتباهه ولا يزال يزداد حتى تصل به الدهشة فتجعله يرتمى على موضع خياله بكل جسمه وقواه. ومهما ظهر له غير مرة كذب ما تخيل فإنه دائم الأمل أن يصدق الحلم مرة ويصل إلى ما يظنه موجودا.

والغريب أن هذه الحالة النفسية التى أهم مظاهرها التهيج والدهشة والجنون تبين عند هؤلاء حتى فى أماكن لا موضع لظهورها فيها. فقد ذهبت لثانى ليلة من وجودى بالقاهرة إلى الالدورادو. وتلك هى أول مرة أذكر أنى رأيت فيها هذا المكان. وكان من حسن حظى أنى لم أقع على أحد من معارفى (القليلين جدا) بل بقيت وحدى اتمتع بالمنظر الذى سيعرضه أمامى الفن المصرى.

ولقد حسبت حين دخولى أننى متأخر لأن الساعة كانت تجاوزت التاسعة ولأنى وجدت الستار مرفوعا. ولكنى أنتظرت بعد ذلك كثيرا من غير أن أرى شيئا. فعلمت إن القاعدة أن يبقى الستار مرفوعا إلا عند الضرورة.

جاء الخادم وسألنى عما أريد. وطلبت قهوة وسألته أن يجيئنى معها بورقة أردت أن أكتب فيها ما أرى على أضيع بذلك الوقت الباقى ومنتظرا أن أجد شيئا لذيذا اكتب عنه. وغاب الخادم ورجع بالقهوة من غير ورقة ثم وقف إلى جانبى يحدثنى. وأخيرا تركنى ولم يعد حتى تركت أنا المكان بعد منتصف الليل.

الساعة العاشرة وربع ابتدأ (الألاتية) يأخذون مقاعدهم. ولقد جلس على يمين المرسح أحدهم رجل ذو عمامه وجلابيه سوداء والباقون بين لابس طربوش وجاكيته ولابس جلابية بيضاء وعمامه على طاقية ولابس بلطو وبين الأسمر والقمحى ومنهم عبد أسود. ثم ابتدأوا يدندنون بغير انتظام مدة حتى خرجت

راقصة.امرأة وافية الجسم غليظة البطن عريضة الاكتاف غير جميلة الوجه وغير قبيحته كذلك. وهى تلبس ثيابا كثيرة ورفيعة ينم بعضها عن بطنها وقد تدلت إلى جوانبها كثير من الزينة البراقة ما بين لامع اصفر وذهبى وفضى. وابتدأت رقصتها بحركات مدهشة غاية فى الخفة والسرعة يهتز معهاكل جسمها: بطنها وثدياها واصابعها اهتزازا سريعا وتجىء بحركات غريبة شهوانية أكثر الأحيان يهيج معها الحضور ويصيحون صيحات المتشنج الأعصاب غير المالك زمام نفسه ويقوم من وقت لآخر واحد منهم صارخا من أم رأسه كأنه الثور الراتع أهاجته أوليات الربيع.

وتبع الراقصة مغنية وجاء وراء هذه وأخرى قمر الليلة تغنى سائرة على المرسح بخطوات بطيئة مرتبة جميلة تتهادى ويهتز ببطىء قوامها الدقيق واغنياتها تطير فى جو المكان فتبعث للدخان الذى ملأه اشباحا من ملائكه السرور. وجاء بعدها غيرها فلم أطق دون القيام راجعا إلى مرقدى.

بعد ذلك رجعت إلى الريف ثانية فقضيت أياما طوالا بين أهلى ابتدأ يفارقها الملال لانى ابتدأت اعتادها. وكلما اعتدتها رجعت إلى ذهنى خيالات الماضى فجعلتنى احتمل بصبر هذا العيش المتشابه الفارغ. وبقيت حتى الأيام الأولى من سبتمبر.

فى سبتمبر رجعت إلى القاهرة وابتدأت اشتغل بالمحاماة وأتخذت لذلك مكتب الأستاذ أحمد بك مصطفى. وكل همى من ذلك أن أتعدى المحاكم الجزئية لما بعدها.

رأيت فى المحاماة ما يبغضها إلى نفسى. هذه الغرف التى يسمونها «أود» الجلسات يقعد فى الصف الأول منها على مقاعد خشبية خشنة قذرة أحيانا جماعة المحامين عشرات مكدسة يزحم بعضهم بعضا ويتبادلون احاديث ساقطة الوقت بعد الوقت ويضحكون بصوت عال مرتفع كلما غاب عنهم القاضى

حافظ نظام الجلسة، ويجلس وراءهم الناس اكداسا اكداسا ينظرون إلى العدل كما ينظر المتفرج إلى الممثل وتفوح من ابدانهم وثيابهم روائح كريهة. ويدخل القاضي فيصيح الحاجب: محكمة. ويتلو ذلك هرج ومرج وضجة يعقبها الصمت. وعن يمين القاضي عضو النيابة جالس منتفخ الاوداج مغمض العين تائه الخيال مسرور بكرسيه الضخم وشريطه الوظيفي. وعن شماله الكاتب تائه بنظره وسط أوراقه. والكاتب يصيح بصوت فظيع يكرره وراءه الحاجب بصوت أفظع وأشد ازعاجا ينادى أسماء ارباب القضايا. والمحامون يقوم كل واحد بدوره فيمثل فصله ثم ينسحب من المرسح بعد أن يسمع غالبا كلمات لا تسر من جانب الرئيس.

قضيت في المحاماة أشهرا رأيت فيها كثيرا. رأيت قضاة غاية فى الذكاء ويستعملون ذكاءهم فى التنكيت طوال الجلسة. ورأيت آخرين يبلغ بهم الأخلاص لكرسيهم فيعدون أنفسهم فوق بنى آدم. وقلال غير هؤلاء وأولئك يفهمون القضاء والتقاضى.

وها ما رأيته ذات يوم بين قاض ومحام وأنا بالجلسة.

خلق كثير ومحامون كذلك والقاضى جالس بعظمة فى كرسيه كأنه ملك على عرشه والقضايا تتابع مسرعة لكلّ دقيقة أو ما يكاد.

وجاء دور محام عجوز مبيض الشعر مجعد الوجه ليس معه بنشه (رداء) لأن كاتبه لم يحضر معه.

فلما رآه القاضى كذلك اذا المحكمة اهتزت وظهر فى عين الرئيس الغضب فصاح فى وجه المحامى وأرغى وازبد وزايله كل أدب أو احترام لحرفة الرجل أو لسنه وكاد يسبه جهارا. والمحامى العجوز مبيض الشعور مجعد الوجه محترم الهيئة يرتجف هو الآخر ولكن خوفا وجبنا. واخيرا استعار رداء زميل له وبصوت واجف

ضئيل نطق بكليمات مرافعته. وانتهى ذلك كله والمحامون جميعا لا يبدون حراكا كأن لم يحدث شئ وكأن من أهين واحتقر لم يكن زميلا واهانته اهانة لهم جميعا.

مثل هذا الارغاء والازباد من المحكمة سمعته حين تهيج القاضى ضد شاهد ظنه يكذب فى شهادته. وكان فى هذا اليوم مضاعفا فظيعا مصحوبا بتقلب فى عيون القاضى الذى كان يصيح بأعلى صوته ويخبط بيده على المنضدة أمامه فتدوى اركان قاعة الجلسة دويا مخيفا. وبلغ بالشاهد الخوف فلما أمره القاضى بالجلوس اذا هو وقع إلى الأرض يرتعش. وبعد كل ذلك قضت المحكمة بما يوافق الاقوال الأولى التى فاه بها هذا الشاهد.

رأيت حوادث أخرى اجتمعت فى ذهنى وذكرنى بعضها بقول قاسم أمين: أعرف قضاة حكموا بالظلم ليشتهروا بين الناس بالعدل.

وفى تلك المدة التى قضيت فى المحاماه ثارت الحرب بين تركيا وايطاليا فى طرابلس. واختلطت بسبب هذه الحرب بالصحافة والصحافيين وعرفت كثيرا عن هذه المهنة وأهلها ومبادئ الاكثرين منهم وعرفت حقيقة كيف أن منهم «قروشيون» كما قال أحدهم بنفسه «قروشيون» لا مبدأ لهم وهم نصراء كل المبادئ.

ولا ادخل فى تفصيلات هذه الحرفة وكل ما أقول أن حكمى عليها ربما كان اقسى بعض الشئ من حكمى على القضاء والمحاماة.

كان من شأن ذلك كله أن يرهقنى ويخرجنى من طوقى فاظهرت شديد رغبتى فى مغادرة مصر لأوربا. واشتدت فى نفسى هذه الرغبة وجاء يوم اصبحت فيه ضعيفا امامها مستسلما لها عاجزا عن مقاومتها تصرفنى هى كما تشاء. وهى التى دفعتنى لا غادر مصر يوم الاربعاء ٦ ديسمبر سنة ١٩١١ على ظهر المركب الألمانية: برنس لويتبلد.

١٨ يونيه سنة ١٩١٢	سأسافر بعد غد قاصدا مرسيليا فبورسعيد فكفر غنام. وأكون قد قضيت بذلك ستة اشهر فى باريس ولندره، فماذا عملت فيها؟

كتبت التيز[1] الذى اخذت منى مائة يوم بالضبط. ابتدأته في آخر ديسمبر وفرغت منه فى عاشر أو حادى عشر ابريل. ولم اتفرغ إليه كل الوقت بل بقيت على عادتى أقرأ من حين لآخر كتبا خارجة عنه كبعض كتب تين وموباسنت واناتل فرانس وراجعها (وسيل) بورجيه الخ. وأودعت التيز فى سكرتارية المدرسة يوم ١٧ ابريل وقمت بطبعه بعد ذلك وتحدد له موعد النظر Soutenance يوم ١٤ يونية. لذلك غادرت باريس يوم ٦ مايو قاصدا لندرة حيث بقيت ثلاث ليال ثم انتقلت لاستبورن فبقيت بها اسبوعين ورجعت للندره ليلتين ثم طفشت منها ثلاثة أيام. وبعد يومين آخرين بلندره رجعت إلى باريس يوم الخميس ٣٠ مايو حيث قابلت صديقى بهى الدين وحيث نزلت معه. ثم قمت بنظر التيز يوم ١٤ يونيه وكان حاضرا معى بهى الدين وحمدى وعبد الحميد سعيد وزكى كوهين، وظهرت النتيجة بعد ساعة من الانتظار فكانت Trés bien.

نفعنى تحضير التيز وكتابته كثيرا. من هذه الابحاث عرفت سلسلة حياة مصر فى نصف القرن الأخير واطلعت على اسرار مركزنا الحاضر. ولكن ما كنت فيه من العجلة المتناهية جعلنى لا أصل عند الكتابة للاعماق التى كنت أود أن أصل إليها. بل مررت ببعض نقط كان من الواجب الوقوف عندها والنظر فيها وتحليلها والبحث الطويل عن أسبابها ونتائجها من غير خروج عن الموضوع بل مع البقاء فى لبه.

أما ما عدا ذلك من الأعمال فقد استفدت كثيرا من ملاحظة أخوانى وأصدقائى القديمين. استفدت معرفتهم بهذا الضحك من كل شئ الذى ادى بى إليه النظر للأشياء والناس والبحث عن دقيق نفوسهم فإذا هى جميعا تضحك ضحكا كالبكاء ولكن الحياة اقصر من ان نقضيها فى اليأس. لذلك خير ان نسخر منها.

---

(١) الرسالة.

القسم الثانى

ما بعد المذكرات

مقالات معاصرة للمذكرات

١ - أدب اللغة الفرنساوية

٢ - تطور فكرة المسئولية فى العصور المختلفة

٣ - إصلاح قوانين الأحوال الشخصية: كتاب مفتوح إلى ناظر الحقانية

٤ - الاقتصاد السياسى وقواعد الأخلاق، وبعض إصلاحات

أدب اللغة الفرنساوية

ربما كان من الصعب عليّ ولم أعن بدرس أدب اللغة عناية خاصة أن اكتب شيئا عن هذا الموضوع.ولكن ميلى الشخصى له وقراءتى كتبه ودرسى أياه درسا عاما وحرصى على أن أعطى لقارئ مذكراتى فكرة من الأدب ومنزلته عند قوم عشت بين اظهرهم ما يقرب من الثلاثة أعوام كل ذلك يجعلنى اقدم على أن أكتب كلمة عامة فى الموضوع استسمح القارئ إن وجد فيها شيئا من التقصير أو عدم الدقة.

وأنما يدفعنى أكثر مما تقدم لكتابتها ما اعتقد من أن الأدب فى كل أمه من الأمم هو روح هذه الأمة. هو النفس المثالية الخالدة التى تمثل اخلاق الناس وميولهم وأهواءهم وتظهر لنا الصفات العامة المشتركة بينهم وبين غيرهم من الأمم والمميزات الخاصة بهم المقصورة عليهم.

كما أن مقام الأدب عند الفرنساويين، هذا المقام الرفيع الذى يجعله التاج على رأس هذه الأمة القديمة يجذب النظر إليه ويجعل كل أنسان أيا كان حظه من العلم أو التربية مرغما أن ينظر إلى حياة البلد نظرا خاصا من هذه الجهة. فإنك حيث سرت فى شوارع باريس، وأى صحيفة من جرائدها قرأت، وفى أى مكان جلست، تجد آثار الآدب ظاهرة واضحة. تجد مراسح التمثيل وتجد الروايات فى زجاج باعة الكتب وتجد النقد الأدبى على صفحات الجرائد وتسمع الناس فى القهوات والأندية والمنازل والبارات وحيث كنت يتكلمون عما ظهر ويظهر من القصص والروابات التمثيلية. ويتكلمون بلهجة المهتم بها المتتبع حركتها. فلا يسعك أمام ذلك كله الا أن تأخذ بحظ قل أو كثر من هذا الميل العام وتمد بنظرك وتلقى بسمعك إلى ما يكتب ويقال وتذهب إلى التياترات لترى التمثيل وطريقته والآراء ألتى ينطق بها الممثلون. على العموم لا يسعك الا أن تشارك فى الحركة الأدبية.

من أول ذهابى إلى فرنسا وابتدأت اتعلم اللغة الفرنساوية ابتدأت اطالع فى قصص وكتب أدبية وأزور التياترات طلبا للنطق العذب واللسان الفصيح. بين

هذه الروايات والقصص وجدت ما كتبته أقلام كتاب معروفين لنا ممن لهم مكانة خاصة فى نفسى مثل جان جاك روسو وفلتير. فقرأت مما كتبوا ومما كتب عنهم وتدرجت منهم إلى قراءة العصريين حتى جاء وقت كنت لا أقرأ فيه كتابا لمؤلف قديم.

وقرأت كثيرا. قرأت مما كتبه شعراء القرن السابع عشر وكتابه وما ألف فلاسفة القرن الثامن عشر حتى وصلت إلى آخر الكتب التى ظهرت حديثا. وفي اثناء قراءاتى كنت آتي على كتب مترجمة عن الروسية والألمانية وكنت أقرأ بعض الكتب الانكليزية كما أنى أهتممت إلى حد ما بقراءة كتب النقد من قلم (تين) و (لمتر) و (فاجيه) و (اناتل فرانس) وغيرهم.

وما اكتب اليوم للقارئ عن أدب اللغة الفرنساوية إنما جاء نتيجة هذه القراءة فليس بحثا خاصا مرتبا مدققا.

لما حصلت الحركة الدينية الإصلاحية التى قام بها (لوثر وكلفن وكست) فى القرن السادس عشر قام ازاءها حركة أدبية أحدثها فى فرنسا من الكتاب (رابليه) Rabelais و (منتينى) Montaigne. وكما أن الحركة الأولى كانت حركة ضد الوقوف والجمود الدينى وضد الخرافات والخزعبلات التى كانت سائدة يومئذ من بيع عقود العفو ونحوها كذلك كانت الحركة الثانية ترمى إلى تحرير العقول والأفهام من القيود القديمة قيود العادات الدينية الصارمة التى لم يك فى وسع أحد مخالفتها من غير أن يعرض نفسه لاشد الخطر. ولما وافق قيام هذه الحركة انتشار العلماء الذين هجروا القسطنطينية بعد سقوطها فى يد الأتراك انتشرت فى النفوس روح الأخذ عن اليونان والرومان ما خلفوا واظهاره وتوضيحه. لذلك لما هدأت الحركة التى كانت تهز اوربا أيام رابليه وكلفن ظهرت الآثار والاسماء اليونانية والرومانية فى روايات الشعراء واخبارهم وأخذ تاريخهم وفلسفتهم حظا كبيرا من الانتشار.

رابليه ومنتينى كاتبان مختلفان فى الطينة كل الاختلاف. أولهما مضحاك عالى الصوت ترن قهقهته فى الفضاء ويقهقه من كل شئ. يرى الوجود والحياة

والعقل والسلطة وكل ما فى الكون موضعا لأن يضحك منه. وإذا مثل شيئا مما فى الحياة مثّله غليظا قبيحا ويكتفى بذلك ليجعله مضحكا. والحقيقة أنه يضحك لأن كل شئ بلغ الغاية فى الغلظة والقبح يثير إستهزاءنا به وضحكنا منه. أما الثانى فرجل يأخذ الحياة كما هى ويجاهد لينال خيرها ويتقى شرها. وقد اتفق أن حل البلاء والطاعون ببلد كان هو رئيسا عليها. فبدل أن يظهر للناس من الشهامة ما يجعلهم يحتملون مصائبهم بالصبر كان هو أول فار من الوباء مبتعد عنه. غير أن ذلك لا يمنعه أن يكون كثير الاستخفاف فى كتابته.

الاستخفاف بالحياة وما فيها طبع من الطباع الفرنساوية. ومهما حار به بعض الكتاب فأنك تجده ظاهرا من حين لآخر عند هذا الكاتب بشكل لا يحتمل الشك. يستخف بالحياة لأنه يرى المضحك منها كثيرا أكثر مما يجده أى أنسان آخر سواه.

ظهرت الاسماء والآثار اليونانية والرومانية بشكل واضح عند أدباء القرن السابع عشر كما قدمنا وتصدوا لإحياء ذكر هذه الامم مهد الفلسفة والشعر والفن الجميل. وأكبر من كان فى هذا القرن السابع عشر راسين وكورنى ومليير. والأول محيى ذكر اليونان. والتالى معيد تاريخ الرومان. والثالث شاعر فرنسا الضاحك. وظهر مع هؤلاء الفحول الثلاثة شاعر فرنساوى آخر نظم حكايات وماشاكلها فى شكل جديد. هذا الشاعر هو لا فونتين. وظهر من الكتاب مدام لافايت مؤلفة البرنسيس دى كليف ولابريير صاحب «الأخلاق». ظهر إلى جانب هؤلاء عدد كبير جدا من الكتاب والشعراء ولكن هؤلاء هم أظهر ادباء عصرهم.

للقرن السابع عشر أو القرن الأعظم كما يسميه الفرنساويون ميزة على غيره من العصور. تلك هى عظمته. هو عظيم فى كل ما فيه. ملكته عظيمة وملكه عظيم وشعراءه عظماء وكتابه كذلك وكل ما فيه وفرنسا نفسها... هذه الصفة أبرزها (تين) غير مرة فى كتبه عن كتاب يومئذ وعن تاريخ ذلك العصر. فوضع أمامنا لويس الرابع عشر ومظهره وعظمته وما كان يدور فى بلاطه وهيبته

هو واحساسه بتلك الهيبة ومحافظته عليها فى كل وقت وفى جميع الظروف. «كان يمسك عصا البلياردو كما يجب أن يمسكها لويس الرابع عشر» وكان يسير عالى الرأس فى لباسه الفخيم تزينه الدنتلات من كل جانب وعلى هامته شعره المستعار يزيده فخامة وهيبة. والناس من حوله متأثرون بذلك الوسط الذى يعيشون فيه. يجئ الرجل الشريف منهم فينتظر على باب غرفة الملك من الصباح حتى المساء لا ضجر ولا ملال ويفرح أكبر الفرح أن هو وصل لمحادثة خادم الملك. فإذا انتهى من هذه المقابلة ذهب بعدها ليقابل مدام دمنتنون ويمر بالرسميات عينها ليصل إليها... وهذا الترتيب المراعى فيه كسوة كل شئ بثوب العظمة كان يتصل إلى من حول الملك فى معاملتهم لمن دونهم وللرعية بعد ذلك بما يشبهه.

هذه الميزة البارزة لهذا العصر وما كان يتبع بلاط الملك من مقتضيات الأدب والذوق واللياقة وما كان يستلزمه الوجود فيه من رشاقة العبارة ودقة اللفظ... كل ذلك ظهر بوجه عام فى كتابات أدباء يومئذ حتى لابريير وموليير مع أن أحدهما نقادة مر والآخر ضحاك من كل شئ. أما لافونتين فكان ذا طبع مستخف جوال يكره حياة البلاط وكل حياة مرتبة كما أنه عالى الأصل فهو لا يهتم بشئ. لذلك لم يكن يأنف أن يدخل فى شعره عبارات كانت تمجها الأذن فى تلك الأيام.

لكن أظهر من ظهرت آثار العصر فى كتاباتهما وأخذتهما إليها واستحوذت على نفوسهما وجعلتهما يراعيان فى الشعر ما كانا يراعيان أمام الملك ـ هذين هما راسين وكورنى. فكلاهما مهوب فى شعره جد فى القول لا يبتسم الا نادرا وإذا اراد أن يضحك ضحك عاليا وما اندر ذلك إذ ما أقل ما كتبه من الهزليات. وهذه ليست أحسن ما عملوا. وقد تصديا كما قدمنا لاحياء ذكر اليونان والرومان. لكنهما بالرغم من هذا القصد عندهما لم يكونا ليرجعا إلى هذه العصور السالفه فيحللان النفس اليونانية أو النفس الرومانية ويظهرانها أمامنا بل كانا إنما يستعيران الأسماء والحوادث اليونانية أو الرومانية ثم يكسوان ذلك

من شخصيتهما. فإن اندروماك وهوراس والسيد وكل ما فى هاته الروايات من الأشخاص لا يحيى أمامنا نفسا رومانية واحدة كلا بل ولا نفسا معينة ولكنه يظهر الأفكار التى كانت تجول برأس راسين أو كورنى والعواطف التى كانت تهز قلب أيهما وموجات الأحساس التى كانت تمر بخيال الواحد أو الآخر منهما. لذلك نقول أنهما لم يظهرا على المرسح شخصا واحدا أيا كان معين الصفات، محدد تموجات النفس يقول ما يدفعه إليه مركزه وعواطفه، بل اظهرا أصواتا تنادى بما كان يجول بصدر هذين الشاعرين العظيمين.

حين نقرأ شيكسبير نرى أمامنا أشخاصا ذوى حياة يسيرون يروحون ويجيئون ويتكلم كل كما يتكلم فى الحياة. ذلك أيضا ما نجده فى موليير. وهو كذلك إحدى الصفات المميزة للافونتين. ولكنك لا تجده مطلقا فى أشخاص راسين وكورنى. وإنما تلمح أفكارا أو عواطف تمشى على المرسح وكلها المنطق الدقيق التحليل النفسانى الذى لا يمكن وجوده فى الحياة وإنما يوجد فى رأس المفكر أو الشاعر ساعة يجلس فى غرفته مسندا جبهته بيده مستعد للكتابة.

ولكنهم جاؤا بهذه الأفكار والعواطف فى لغة وقالب من أجمل ما يكون. لذلك فما كتبوا خالد يقرأه ابن اليوم ويقرأه أبناء المستقبل بنفس اللذة التى كان يقرأه ويسمعه بها أهل القرن السابع عشر وما بعده. لغة جمعت مع السهولة موسيقى شعرية تصل إلى النفس وتأخذ بالقلب وتهز الجوانح. تقرأها فتسحرك عن نفسك وتبقى مأخوذا بها كما يأخذك اليها فلسفة أفلاطون أو نقوش رفائيل.

هذه اللغة البديعة يحس الإنسان فيها بعظمة العصر كله وتترك فى الذهن هذا الأثر الباقى الذى يخلده فى نفوسنا منظر وحيد الجمال. ومهما اعتبر الإنسان أفكار كتابها وبأى عين نظر لها فإنه لا يستطيع دون الاعتراف بأنها لبست أحلى الكلمات وأغناها. لا تجد لفظا معقدا ولا لفظا مبتذلا. وتراكيب منسجمة تسرى إلى الفؤاد وتسبق إلى الذهن وتسيل فى أجزاء النفس.

أقرأ اندوماك. أقرأ برنيس. اقرأ هوراس. اقرأ ما شئت من هذه الكتب (الكلاسيك) آيات الجمال فى الكتابة وأنا الضمين أنك ستخرج منها بهذا الاحساس الذى قدمت لك.

يختلف راسين عن كورنى فى طريقة كتابته. فأولهما أنسان دقيق الاحساس ضعيف القلب يعجز أمام العواطف القوية فلا يستطيع مصادمتها ولا مقاومتها بل هى تحتله وتسلبه ارادته وتتصرف فيه بما تشاء وتدفعه إلى أقصى درجات الجنون واليأس وتصل به أغلب الأحيان إلى الموت. هذه هى صفته الظاهرة في كتاباته. كلما وضع القلب فى كفة والعقل فى أخرى رجحت كفة القلب وغلبت الثانية بشكل عجيب.

أما الثانى فهو رجل الواجب. ومهما كانت العواطف تهيج صدور ابطاله فإنهم دائما يخمدون نارها ويتغلبون عليها ويعملون الواجب الذى يعمله شخص لا حرب في نفسه بين الاحساس والواجب.

يختلف عن هذين الشاعرين الخياليين الروائى الهزلى موليير. فإنه يضع فى رواياته أشخاصا مما نرى فى الحياة إلى حد كبير وان كان يبالغ فى تصويرهم وتراه دائما يعارض شخصا بآخر وعاطفة بأخرى فى شخصين مختلفين. ولا ينسى الحياة ومافيها من صغائر الأمور. ويذكر ذلك كله بلغة سهلة ضاحكة جميلة أجذب مايكون للنفس. وهو فى ذلك أعرق فى فرنساويته أو بالأحرى فى باريسيته من كل شاعر آخر من شعراء عصره يستخف بالحياة ويتلاعب فى روايته بأبطاله ويضحك معهم ومنهم ويظهر لنا من وقت لآخر بواطن أنفسهم. ويأتى وسط ذلك كله بعض الاحيان بحكمة خالدة باقية على الدهر بقاء الدهر. ورواية (الميزانترب Le Misanthrope أو الطيرة) من أبدع رواياته. لكنه كان يصل أحيانا بالهزل والضحك إلى حد من المبالغة يكاد يكون سخيفا. فلقد مثل لنا فى رواية (بورجواجنتيم) Le Bourgeois Gentilhomme قنصل تركيا تمثيلا وصل فى الافراط إلى حد الفظاعة، وليس من شخص يرى الفصل الأخير من هذه الرواية وما حواه من السخافات إلا ويضحك ساخرا منه. وإذا كان يعتذر عنه أحيانا بأنه

إنما فعل ذلك لغرض فليس العذر الا باقبح من الذنب. وهذه المبالغة نفسها فى التمثيل لا تدعو للطمأنينة للمؤلف.

ولو لم يكن هذا العيب عند موليير لكان الشاعر المجلى بين شعراء فرنسا اجمع بل وربما كان من أشعر شعراء العالم. وان له أغلب الأحيان لدقة فى ملاحظة الناس والأشياء حتى ليكاد يخترق بواطن ما تخفى نفوسهم ليظهره لنا على الورق. ثم هو يضحك مما يرى لأنه لا يرى فى العالم شيئا يستحق الأعجاب به أو التعصب له. أو بكلمة أخرى إن هذه الحياة التى يهتم الناس بها ويعنون بها إنما هى مجموعة سخرية من كل إنسان بالآخرين يأتيها أحيانا من غير احساس منه بها ويستحق من أجل ذلك أن يسخر منه.

إلى جانب مليير يجيئ لافنتين. وإلى جانبهما يجيئ الكاتب الثائر لابريير. ولكن هذين لم يكونا فى مركز الأولين الذين كانوا من حاشية الملك المقربين. ولا بريير اعرق فى البعد عن البلاط من صاحبه ولكنه لاحظ كل ما يدور ويجرى فيه. ولقد رأى صغار نفس هؤلاء المدعين العظمه المرتدين بلباس الشرف الذين يهفون ويرفون بدنتلاتهم تيها ودلا وهم مع ذلك المنافقون معدن الصغر والخسه. وبلغ به الاعتقاد بخستهم وعلو نفسه عليهم حتى انقلب ذلك إلى المضاضة المرّة. لذلك كان كتابه (الأخلاق) مجموعة ملاحظات صادرة من قلم كاتب شديد القسوة صعب اللسان عظيم الاحتقار للناس. بل ربما بلغ به ذلك أحيانا إلى الحسد. والحقيقة أن هذه بذرة ثورة يبذرها هذا الكاتب الذى عاش فى عصر الملكية وهى فى عنفوان قوتها وعظمتها يريد أن يظهر للناس أن هناك شيئا آخر حقيق بالاحترام غير شرف المولد وكثرة المال. هناك العظمة النفسية والقوة العقلية. بل هذه أرقى مقاما من الأولى. وهذه شخصية لصاحبها فى حين الأخرى غير متعلقة به ولا فضل له فى كسبها.

ولقد ابتدأت هذه الفكرة تظهر واضحة قوية عند كتاب القرن الثامن عشر وأصبح رجاله يقولونها ناصعة لا تحتاج شكا ولا تأويلا. ويكادون جميعا على كثرتهم يضربون على هذه النغمة التى دخلت فى الذوق العام يومئذ وأصبح

يتمدح بها في صالونات الاشراف والامراء. كذلك انتقل إلى هذا العصر مما قبله عادة الصالونات تقليدا لصالون الملك. فكل سيدة شريفة تجاهد لتجمع حولها نخبة من الأدباء والفلاسفة ذوى الفضل والشعراء والعلماء لتكون فى ذلك كمدام دمانتنون فى القرن السابع عشر. ومن شأن هذا الاحتكاك أن يزيد الفكر الثائر ثورة وأن يدعو أشد الناس هدوءا للتفكير والنظر. لهذا سرت فى البلد حركة عنيفة هزتها قامت على أقلام الكتاب وألسنة المتكلمين. وزاد عدد هؤلاء ودخل من بينهم جمع كبير من النساء الكاتبات وصرن يعددن فى ميدان الأدب مئات كثيرة.

أظهر كتاب هذا العصر والمبرزين منهم ثلاثة. فولتير وروسو ومونتسكيو. وهم جميعا يتحدون فى اعتبار ايامهم أيام ضعة وفوضى ولكنهم يختلفون اختلافا كليا فى طريق تفسير ذلك. ولا بدع فى اختلافهم. فإن هذا الهياج الفكرى العام الذى كان موجودا يومئذ كان من شأنه أن يخرج رؤوسا تختلف اختلافا كليا فى طريق البحث والنظر. كما أن طبائع الكتاب الثلاث الشخصية وأخلاقهم تختلف. وكذلك حالهم ومولدهم والوسط الذى عاشوا فيه. فأحدهم باريسى خفيف الروح ميال لأن يسخر من كل شئ. وثانيهم سويسرى الأصل وضيعه عاش فى شبه التشرد طول شبيبته ولكنه رأى الترف والرفاه الذى يعيش فيه الأغنياء فحمله ذلك على النفرة منهم. والثالث يمت بنسبه إلى الاشراف ورجال الحكومة فهو دائم الفكر فى أمور الحكومة.

هذه الحركة الشديدة التى يتصف بها هذا العصر من عصور تاريخ فرنسا تجعلنا غير قادرين على أن نحكم عليه حكما عاما مثل حكمنا على القرن السابع عشر. فإنا نرى أنفسنا أمام أدب يتشعب إلى نواحى شتى وأفكار تختلف اختلافا ظاهرا وعواطف غريبة متضاربة تجمع بين حب العظمة الملوكية والميل إلى الحرية والديمقراطية. وفى صالونات السيدات العظيمات يجتمع أقوام من أطراف متنائية فى المولد، يجتمع أشراف أبناء أشراف ومعهم روسو ومن هم فى طبقة ميلاد توازى طبقته. ويجلس الجميع وبينهم شبه مساواة تمكنهم من

التفاهم والتعارف. لكن ذلك لم يمنع بعض الاشراف من الاعتصام بحصونهم والبقاء فيها والبعد عن العاصمة وعن الحركة الأدبية والبقاء على العقائد القديمة والاستمساك بعوائد عائلاتهم والايمان بالفرق الذى بينهم وبين باقى الخليقة.

فى هذا العصر عصر الصالونات حيث كان يجتمع الرجال المعروفون والسيدات النبيلات ظهرت العواطف فى شكل جديد فاصبحت فى أحيان كثيرة مجرد لذة يتذوقها الرجل أو المرأة فإذا سئمها تركها حتى إذا شاقته عاد لها وإن هو وجد شيئا ألذ انتقل إليه. لهذا كنت ترى لكل رجل عددا من المعجبات به المحبات له ولكل جميلة ذيلا من المملقين المحبين. أما هذه العاطفة القوية المتينة التى تأخذ بالقلب والنفس وتستولى على الوجدان وتصرف على ما تشاء الحياة؛ هذا الحب الذى ينسينا وجودنا وأحزاننا ومخاوفنا ويجعلنا نفنى فى ذكر المحبوب ونهيم به ولا نعرف سواه ونهزأ بالحياة اذا فقدناه فلم يك موجودا فى الأخلاق يومئذ ولا فى العقائد. لذلك خلَتْ كتب الادب منه إلى حد كبير وصار لا يجول إلا بخيال نفر لا يعدّون.

أشد الكتاب الثلاثة الذين أخذناهم عنوانا للعصر والمبرزين فيه ـ أشدهم ميلا للعواطف وتقديسا للأحساس واعلاء لشأنه إلى حد أن يعده المصرّف لنا فى الحياة هو جان جاك روسو. وهو مع ذلك أكثرهم ميلا مع الاهواء وتقلبا أمام رياح الحب وانتقالا للمحبوبات الجديدات. ولو شئنا أن نذكر جميع من أحبهم وتعلق بهم ولزمهم لذكرنا كثيرات. فمنهن مدام دفارنس ومدام دبناى وماداموازيل جرنفريد وغير أولئك ممن ورد ذكرهن فى اعترافاته. وفى كل مرة كان يظهر نفسه الوامق المأخوذ التائه الرشد من شدة الحب. وفى كل مرة ينعقد لسانه ويعتريه الحصر أمام محبوبه فلا يقدر من عظيم ما به أن يبوح بمكنون صدره. ثم إذا هو بعد ذلك انتقل أن رأى سيدة أخرى أعجبته فمثل معها الدور عينه. هذا مع الاعتراف له بأنه كان أيام شبابه كلما أضناه التنقل رجع إلى دفارانس أول محبوباته وأسهلهن فقضى معها أياما يتمتع بمالها وبها بقدر ما

يسمح له طبعه الحي وعلته الملازمة. فإذا شبع منها انتقل لباريس يبحث عن محبوبة أخرى.

وإنما نفسر هذا الطبع عند جان جاك بالنشأة التى نشأها وبما عنده من الخيال المتسع إلى حد الجنون وبميله إلى الترحل والبداوه.

ولد جان جاك من أب ساعاتي وماتت أمه ساعة منحته الحياة فنشأ يتيما. وكان له أخ لم يكد يبلغ سن الادراك حتى فارق أهله وبلده ولم يسمع به أحد بعد، وعنى بروسو عم له. فلما بلغ الصغير سن التعليم أراد وصيه أن يلقنه صنعة وأودعه عند نجار فأبت عليه نفسه أن يتعلم وجاءت حوادث فارق من أجلها بيت معلمه وهام على وجهه. ثم ألقى عصاه بعد ذلك عند عجوز عرّفه بمدام دفارنس فعنيت هذه به وردته عن كاثوليكيته إلى البروتستانتيه. وتركها بعد ذلك تدفعه نفسه الرحالة إلى أن يضرب في الارض فإشتغل خادما على مائدة بعض الاشراف ثم طرد فالتجأ إلى دير ولم يبق به إلا قليلا حتى أراد ارباب الدير به السوء واراد أحدهم ارتكاب المنكر معه. هنالك فر الشاب هاربا وجعل يتعيش من بعض حرف يدوية فكان ينقل كتب الموسيقى بأجر زهيد ويشغل وقته بقراءات شتى. ولقد كان ولوعا من أول أيامه بالقراءة. فلما أينع ذلك وظهر عنده أثره ابتدأ يكتب فاظهر أول الأمر اقاصيص لم تحز رواجا ثم حماه جماعة من السيدات الاشراف واهتموا له وبذلك ظهر فضله. وكتب بعد أن استقر به الأمر كتابه فى التربية (اميل) واراد نشره فصودر فطبعه فى هولانده فأمرته السلطة بالخروج من فرنسا. ثم كتب النوفل هلويز. وانقطع فى أخريات ايامه بعد أن قضى شبيبة مضطربة وتزوج بابنة غسالة شنعاء وكتب اعترافاته ثم «أحلام المتنزه المنفرد» التى نشرت بعد وفاته. وفى هذه الاعترافات والأحلام يرى الإنسان علائم الجنون بادية ظاهرة حيث يرى روسو شديد الاعتقاد ان الناس يريدون الفتك به وأنهم جميعا يطلبون هلاكه لأنهم يحسدونه ويكرهونه. وأول كلمة فى الاحلام «ها أنا وحيد فى العالم هجرنى الناس».

وألف غير الكتب المتقدمة كتاب «العقد الاجتماعي». وقد كون فكرة هذا الكتاب عنده وجوده قنصلا لفرنسا بالبندقية. كذلك كتب خطابه لدالمبرت عن الفنون. وكتب كثيرا سوى هذا مما هو أقل منه تداولا وقيمة.

ولقد وضع في اعترافاته تاريخا مطولا لحياته كما قوى بها اساس (الرومانتيسم) فنقل الأدب بذلك خطوة إلى الإمام وجعل الكتاب يرجعون عن مجرد قص الحوادث إلى التحليل النفساني لابطالهم تحليلا مأخوذا من الواقع بوصف حالاتهم وعواطفهم ومايحيط بهم. كما أنه في «أميله» وضع مذهب الحرية المطلقة في التربية فقرر وجوب جعل الطفل معلم نفسه إلى أقصى الحدود. أما عقده الاجتماعي فمع أنه أقصد في الأدب من الاعترافات ومن الأميل فقد حاز شهرة أكثر منهما ومبناه أن الناس أول ما ألفّوا الجمعية تعاقدوا على ذلك. وقد اظهر النقاد فساد هذه الفكرة وخطأها. أما النوفل هلويز فهي الرواية التي ظهر فيها رومانتيسم جان جاك في أجلى مظاهره. رواية عواطف واحساسات وهي كذلك مملوءة بالأفكار والآراء.

والفكرة الأصيلة في أفكار روسو هي أن الرجل طيب في أصله وأنها المدنية هي التي أفسدت حاله وغيرت طيبة طبعه. لذلك كان دائم الدعوة للرجوع إلى مايسميه «الحالة الطبيعية» شديد الانتقاد لكل ما يعده من مبتدعات المدنية. وربما كانت هذه الفكرة هي التي ساقته إلى الانتقاد المر للفنون الجميلة واعتبارها مفاسد للأخلاق وإن كان رأيه في ذلك جاء سابقا إلى تقريره حسن «الحالة الطبيعية» بزمان.

ومع دعوته للرجوع إلى الحالة الطبيعية دعا كذلك للمساواة بين الناس وطلبها. ولاشك في أن الأسباب التي حملت لابريير في «الاخلاق» على انتقاد الاشراف كانت أقوى عند روسو وأدعى لتحمله على لثورة ضد كل شرف نسبي.

هذه افكار روسو التي سادت زمنا غير قليل والتي بنيت عليها مبادئ شتى ثم التي ابتدأت تتقهقر بظهور النقد العلمي والنهضة الحاضرة.

ولقد كان روسو متحمسا لها إلى حد مدهش. كان يناصرها كما يناصر نبى رسالته ويتحمل من أجلها الضرر والهول ويقاسى النفى والفقر ويصيبه الويل من كل جانب وهو مع ذلك لا يفتأ ينادى بها. كان من هؤلاء الذين تستولى عليهم الفكرة فتأخذهم عن نفسهم وتحقر الحياة أمام عيونهم وتجعلهم يعيشون لها ولإبدائها ولنصرتها. وهؤلاء يبقى ذكرهم فى العالم عظيما لأنهم عاشوا للعالم لا لأنفسهم. لذلك كان روسو يستحق الاعجاب.

أعرق فى الفرنساوية وأرق وأدق من روسو وأكثر كتابة وأرقى فى أيام حياته مقاما كان فولتير. فقد ولد فى باريس بالذات من عائلة باريسية قديمة سنة ١٦٩٤ وأعده والده لأعمال الكسب فى الحياة فأبت عليه نفسه ذلك وأراد من أول ايامه أن يكون بين الأدباء. ولست فى حاجة لأعرّف فولتير فكل من يعرف أقل طرف من الأدب الفرنسى يعرف اسمه. ولكنى انقل هنا حكم (برنتير) عليه حكما صادرا من رجل من كبار نقاد الادب والذين درسوا تاريخه قال: «ليس بين رجال الأدب الفرنسى إلا ثلاثة أسماء أو اربعة أكثر عظمة من فولتير. وإذا كان ثمت من هم أشرف منه وأكثر بحق احتراما فلا أجد أعرق منه فرنسية ويعكس لنا صورة صادقة من أنفسنا ولا أحد أظهر منه فى أوربا بل أقول فى العالم اجمع».

هذا هو حكم عالم أديب على فولتير. وربما لم أكن فى حاجة لنقله فلا أحد يشك فى عظمة هذا الكاتب الشاعر الفيلسوف الذى أخذ بيده رئاسة رجال الأدب والعلم فى عصره وكتب فى كل المواضيع بنفس دقيقة لطيفة وذكاء نادر وسعة إطلاع مدهشة. ولقد كان ولوعا بالعظمة متطلعا إليها يعمل كل ما استطاع للوصول إلى غايته ولا يقف شئ أو اعتقاد فى سبيله. وسافر وصحب كثيرا من الاشراف وذوى الاماره وكان صديقا للمعجب به أمير بروسيا الفيلسوف فرنند الثانى.

فولتير أحد الذين لقبوا من بين أدباء العالم «بملك الضحك». ذلك أنه لم يترك شيئا إلا وتهكم به وأظهره فى أشد أشكاله سماجة وقلب كل مايثير عاطفة

الأسف أو الحنان أو العطف عليه لشهوة الضحك منه والسخرية به. فالمذاهب والآراء والأديان والآلـهة كلها لم تسلم من قلمه المر الساخر. قال مجيبا للدعاة إلى «الحالة الطبيعية» المنادين بعظيم ما فيها من جمال وسعادة: «ربما كانت أكبر أمنية هؤلاء أن يكونوا على أربع» ورد عليهم بقصته المسماة «كانديد أو الساذج Candide» فلم يترك سخرية إلا نالهم بها. من ذلك يحكم القارئ على ما كان بينه وبين روسو من العلاقات.

وهو من ملوك الكتابة كما أنه من ملوك الضحك. قلمه سيال لطيف عذب وتصويره حلو وروحه خفيفة كتابته دائمة الابتسام لا تقطب حاجبيها ولاتصيح ولا تغضب. تحس وأنت تقرأه بابتسامه دائمة تطوق ثغرك حتى وأنت تقرأ قصص أشد الحوادث إثارة للألم. ولا تغضب أنت منه مهما كان كلامه يناقض اعتقادك. بل تكون أمامه كمتدين أمام مجوسية بارعة مهما حوى قلبها من العقائد لا يفتأ ينظر إليها ويستعيد نظرها ويود لو تكلمه. فإذا كلمته لم يفارقها وان لم يعتنق عقيدتها.

هذا هو الأثر الذى يجده قارئ فولتير. وهو لا يخرج منه بمذهب جديد ولا بعقيدة معينة. كما أنه هو لا يدعو القارئ لمذهب ولا لعقيدة. ليس كروسو الذى يحسب ما يقول الحق من عند الله بل هو كرابليه ولا فونتين يأخذ الحياة ضاحكا منها لاهيا بها عاملا ليكسب من وجوده فيها قدر ما تستطيع هى أن تعطيه.

ثالث كتاب هذا العصر هو مونتسكيو. وهو أقل كتابة من سابقيه بكثير واشهر ما كتب «الخطابات الفارسية Les lettres persannes وكتاب روح الشرائع» L'esprit des lois. والكتاب الأول نقد للعادات والأخلاق الفرنساوية جاء به على لسان الفرس حتى لا يمسك ذلك عليه أحد.

هؤلاء الكتاب جميعا ساعدوا الظروف الاجتماعية والسياسية التى كانت موجودة تهز جوف فرنسا يومئذ وكانوا معها من العوامل التى جاءت على إثرها الثورة الفرنساوية. ولقد كان كتاب العقد الإجتماعى لروسو قرآن هذه الثورة

يعرفه الناس جميعا ويطالبون بحكومة على المثال الذى يريد. كذلك كان كتاب روح الشرائع من الكتب التى لقيت حظا. ونسج على منوال هذه الكتب غير قليل من الكتاب وشاع فى الادب هذا النوع من الكتابة الذى أبدعه قلم روسو. وظهر فى القرن التاسع عشر جماعة كثيرون نشأوا على منواله. وأهم هؤلاء شاتو بريان Chateubri and . فلقد كان ذلك الكاتب الشعرى المتحمس المملوء بالخيال على مثال جان جاك. وأظهر كتبا نسج أسلوبها على منوال جان جاك وإن كانت آثار العصبية أشد وضوحا فيها لأن كاتبها كان أكثر تعسا. كان من أصل شريف ثم قذفت به الأنواء فرمته فى أمريكا حتى إذا عاد بعد أن قاسى أهوالا عاد بمخيلة قوية وأظهر كل ما رأى بقلم ترعشه أعصاب الكاتب المتوترة. وأخيرا كتب «مذكرات إلى ما بعد القبر» قص فيها تاريخ أيامه وحكى حكم نابليون ووضع الامبراطور الكبير موضع النقد.

ولقد كان شاتوبريان اشبه فى حملته وكبرياءه بروسو منه بأى شخص آخر. فكما كان روسو يقول «أنى أحسن الناس» كذلك كان شاتوبريان لا يفتأ يضع نفسه فى كفة تقابل الكفة التى يضع فيها نابليون.

فى هذا القرن التاسع عشر ظهر شعراء فحول بزوا من قبلهم ومهدوا الطريق لنوع من الشعر جديد. أولئك هم لامرتين وفكتور هوجو والفردد موسيه. وكلهم حقافريد لا يشق لهم غبار جاؤا بالخيالات القدسية العالية فوضعوها فى أجمل لباس من اللفظ وأرقه وأقواه.

ولكنهم يختلفون جميعا فى النزعة والخيال الشعرى. فبينا لا مارتين شاعرا لطبيعة يتسمع على اصواتها ويجد فى هزيم العواصف وحفيف الريح وفى الموج والجبال وصفحة الماء النقية وفى القمم العالية وقيعان البحور العميقة وفى الغدران والبحيرات والأشجار والزهر والسماء والأرض ـ بينما هو يجد فى كل ذلك جمالا يثير من نفسه ويهيج عواطفه ويبعث إليه أعذب الشعر إذا دى موسيه فى تعشقه وغزله تتغلب العواطف على أوتار قلبه فترسل إلينا منها رنينا لذيذا يخالطه اليأس والألم وإذا هو يناجى الليالى فى وحدتها فتجيبه أصداؤها

بكلمات وآيات، ثم اذا هوجو العالى الصوت القوى الفؤاد رافعا عقيرته يتغنى مرة فيطرب الخليقة ويأسى أخرى فيستبكيها ثم إذا هو أخذته رعشة غريبة فطار فى الجو وملأه بندائه ناصرا الحرية طاعنا على الاستبداد ومستثيرا من كل الناس اعجابهم وتصفيقهم.

هؤلاء هم الشعراء المعروفون فى القرن التاسع عشر. أما الكتاب فكثيرون وأظهروا مبادئ فى الكتابة جديدة انفصلوا بها عن روسو وعن الرومانتيسم الذى بقى معشوقا فى ألمانيا.

من أكبر هؤلاء الكتاب جوستاف فلوبير وأميل زولا وأناتل فرانس وبيير لوتى وبول بورجيه وكل أولئك قصصيون. ورنان وتين وفاجيه ولمتر وهؤلاء نقاد مؤرخون. أما الفلاسفة فقد انفصلوا مدرسة وحدهم وأكبرهم فى العصر الحاضر ريبو وبرجسون ودركيم.

نترك جماعة الفلاسفة فليس هذا موضع الكلام عنهم. كما أنا نأخذ من النقاد والمؤرخين الجانب الذى يمس الأدب عن قرب. ونذكر كلمة عن كل من الآخرين بقدر ما يسمح به المقام.

قلنا أن كتّاب النصف الثانى من القرن التاسع عشر اظهروا مبادئ أو بالاحرى مبدأ جديدا فى الكتابة. ذلك هو الناتوراليسم Naturalisme وهو يقصد وصف الحياة كما هى من غير تحسين ولا تجميل وذكر كل ما يقع فيها كما يقع من غير أن يكون للكاتب شخصية ظاهرة أبدا ومن غير إهمال شئ دق أوجل مما يحصل فى الظروف وفى الاشخاص الذين يرسم الكاتب بقلمه. وكان أشد انصار هذا المبدأ جوستاف فلوبير واميل زولا. والرواية التى وضعها فلوبير تحقيقا لهذا المبدأ ـ مادام بوفارى ـ آية من آيات الأدب الفرنسوى. يحس الأنسان حين يقرأها أنه يسير بين الناس ويرى باطن نفس اشخاص الرواية منشورا أمامه ظاهرا ما يحويه عن خير وشر، وأحسن ما قيل فى وصف مادام بوفارى أن كل قارئة تقرأها تحس بنفسها بطلة الرواية وكل قارئ يرى فيها الحياة كما هى. هذا فوق أن قلمها من أبدع وادق مايكون. نقول أدق ولسنا مغالين فلقد

كان فلوبير يمضى ساعات يبحث عن الكلمة المضبوطة التى يضعها صفة لشخص أو لحادثة معينة لتطابق الواقع كل المطابقة... وكان يتفق له أن يبقى أياما كاملة قبل أن يجد هذه الكلمة.

وأحب ما فى فلوبير تشيعه إلى أقصى درجات التعصب للفن (l'art) فقد كان يعد كل ما سواه وكل ما فى الحياة العملية سافلا خسيسا. وأخذ عليه ذلك ناقد معاصر هو المسيو هنرى لوچل حين تساءل عن أفضلية الرجل الذى يكسر رأس نفسه وراء صفة من الصفات على ذلك العامل فى مكتبه يقضى وقته فى العمل النافع المفيد. ولا شك أن كليهما متطرف ولكن فلوبير أقرب إلى الحق. ويعجبنى حكم اناتل فرانس فيما بينهما حيث قال: «ولاشك أن الرجل الذى يقضى حياته لمصلحة الجميع يفضل ذلك ألانانى الذى لا يفكر الا فى نفسه».

أمـــا زولا Emile Zola وقد كان (ناتورالست) متطرفا والى الجهة السوداء. وقسم كبير مما كتب يتعلق بعائلة من عمال المناجم. ولقد وصف هذه الحياة وما فيها بصراحة تبلغ أحيانا الخروج على معتاد الادب. فهو لا يعبأ بذكر ما يقع بين الرجل والمرأة بأوضح الفاظه ولا يخجل أن يصف أى جزء من اجزاء الجسم. لكنه مع ذلك عظيم المقدرة إلى حد غريب. إذا وصف خيل لك أن الموصوف موجود أمامك تنظره بعينك وتلمسه بيدك.

ربما كان من مستلزمات ذكر فلوبير وزولا أن نذكر جى دموباسان وهو تلميذ فلوبير المفضل وأحد الكتاب الذين كانوا يأخذون الحياة كما هى. لا يجاهدون أن يجدوا فيها جمالا ساحرا يأخذ باللب كما أنه فى بعض الأحيان يظهرها لنا لذيذة براقة أشد ما يكون استيلاء على النفس. لكنه كان مع ذلك دائم الميل إلى الحزن والشجن. ورواية «حياة» Une vie من أدل ما يكون على أحساسه. هو يرى الألم والمصيبة آخر كل شئ ومهما كان لنا على الأيام من ساعات السعادة فغايتنا أبدا الحزن الأليم.

لكن ميزة دموباسان هى حكاياته القصيرة. فلقد كتب من ذلك عددا كبيرا ضمنّه أوصافا وآراء وأخلاق شتى. وهو يمتاز فى كل ما كتب بسهولة الأسلوب واللفظ بحيث تسرى معه مأخوذا بطلاوته غير شاعر بضجر ولا بملال. لكنه بعيد عن أن يدخل من جهة المعنى إلى باب العويص من الأفكار. بعيد عن ذلك لسبب أو لغير سبب. فربما كان الدافع له إلى ذلك إحساسه بالفناء الذى ينتظر كل موجود فهو لا يرى فى العالم ما يستحق الفكر أو ربما كان بعيدا بقواه وطبعه عن عويص الأفكار والمسائل.

من اللفظيين الوصافين المبدعين من كتاب العصر الحاضر كذلك ببير لوتى Pierre loti. هذا الكاتب لا يعنى بفكرة عميقة ولا يهتم بالتقليب فى نفس الإنسان ولكنه يجول فى نفسه افكار شعرية هائمة لا قرار لها أهمها إحساسه بالعدم المطلق الذى ينتظر كل شئ وهذا العدم يرعبه ويخيفه. لذلك فهو يريد أن يأخذ من الحياة كل ما يمكن من اللذائذ والمسرات وينال منها كل متاع تصل إليه يده. يمتع عينه بمناظرها وأذنه بأصواتها وحواسه أجمع وشهواته بكل ما يقع فى قبضته. ورواياته مجموعة إحساسات شخصية له وأكثرها غريبة عن فرنسا يصف فيها البلاد والأراضى والبحار التى جاب وقطع فى أسفاره مما ساعدته عليه وظيفته كضابط فى البحرية الفرنساوية.

وهو أميل ما يكون للشرق. ويظهر أن سبب هذا الميل عنده حبه للشرقيات واعتباره لهن موضعا للمتاع ويصل الإنسان معهن للذة لا يحلم بها مع غربية أيا تكون. وكتاباه عن تركيا «ازيادى Aziyadé والدزانشانتيه Les Desenchantés» مملؤان باعتبارات شهوية بحته وبالاخص أولهما. فإنك ترى فيه هذه الأزيادى وهى الفتاة التركية فى خيال لوتى مرة فى قميص نومها لابسة شبشب البيت وتظهر من تحت القيمص وفوق الشبشب ساقاها الممتلئتين وأخرى أقل من ذلك لباسا وهى تميل على لوتى بفن ودل ودلع وثالثة.... كذلك رواية «زواج لوتى» حيث يصف نساء تاهيتى وعوائد أهلها. وكذلك القسم الأكبر من رواياته.

لكن له أيضا «رامنتشو» وصياد اسلانده» وفيهما يظهر رجل عواطف واحساسات وان كانت صفته الغالبة فى هذين الكتابين كصفته فى غيرهما هى وصف كل ما تقع عينه عليه وصفا مسهبا جميلا يبعث إلى الذهن خيالا لطيفا غير محدود مما يصفه.

ولقد ساقه خوف العدم والمتاع بكل ما على الأرض واستباحة كل شئ إلى نفى الدين والاله والأخلاق واعتبار ذلك كله اكاذيب وحديث خرافة لاصحة له ولا فائدة ونصحه بوجوب الأخذ من هذه الحياة الفارة منا أحلى ما فيها.

على النقيض من لوتى وموباسان وجماعة اللفظيين يجئ بول بورجيه Paul Bourget فهو قبل كل شئ كاتب تحليلى يمسك بطل روايته ويفتش فى زوايا نفسه ويرسم أمامنا ما يدور بها من الأفكار والأحلام والأوهام. ولا ينسى أن يوقفنا على الوسط الذى يعيش فيه البطل والأسباب الاجتماعية والوراثية التى انتجت هذه الأفكار والأحلام عنده. والنتائج التى ساقته إليها أفكاره وأحلامه. ثم يتركها أخيرا وقد بين لنا أن هذه الحال الفكرية الحاضرة فى فرنسا حال سيئة لأن نتيجتها عقيمة وتدفع إلى شقاء الافراد وتعسهم وأن الخير كل الخير فى الرجوع إلى الماضى والتأسى به والأخذ عنه. فهو فى ذلك ما يسميه الفرنساويون Traditionaliste.

وأهم ما كتب تعزيزا لمبدأه روايتان: (الدسيل أو التابعى Le Docile والاتاب أو الخطوه L'Etape وأول الروايتين فلسفية دقيقة فى التحليل وصف فى أولها حياة فيلسوف هو (ادرين سكست) وطريقه فى البحث والفكر ثم مذكرة من أحد اتباعه إليه وهو فى السجن متهم بقتل فتاة بالسم. وفى هذه المذكرة أو الاعتراف كما سماه المؤلف قص الشاب تاريخ حياته والوسط الذى عاش فيه ومطالعاته وتشيعه لفلسفة سكست ثم تجريبه تطبيق ما جاء فيها فى الحياة العملية فوصل بذلك أن أوقع فى شباك حبه ابنة سيد شريف كان هو مربيا لوالده. وبلغ الحب من قلب الفتاة حين هددها الشاب بأنه سينتحر أن اعطت

نفسها إليه على شريطة ان ينتحرا معا. فلما تم له منها ما اراد راجعه حب الحياة واقترح عليها ان يتزوجها وأن ينجوا معا. فغلت فى عروقها دماؤها وثارت فى رأسها عقائدها وموروثاتها وهذا التاريخ الطويل الذى لها فانتحرت وحدها بالسم الذى كان استحضره هو ليهددها به واوقعت بذلك التهمة عليه. ولكنه نجا من القضاء باعتراف اخى الفتاة أن أخته انتحرت لكن هذا الاخ لم يلبث أن قتله وانتقم بذلك لاخته ولشرفه.... وكل هذه المقاتل نتيجة تعاليم هذا الفيلسوف الحديث (الناتورالست).

ولمثل هذه النتيجة يريد أن يصل كاتب (الإتاب). إذ بعد أن حلل أمامنا عائلة من العائلات الوسط التى وصلت بعض الشئ إلى مكانة فى الجمعية بسعى ومثابرة رب العائلة أرانا هذه العائلة وهى تنهار ويحل بها الخراب والتعس يقبض على أكبر أبناءها بتهمة النصب طلبا للمال ويضيع شرف ابنتها الوحيدة لاختلاطها بوسط غير وسط آبائها ويبلغ اليأس من نفس الأب ويحل الشقاء بالجميع حتى تنتشلهم بد بارة. يد رجل عريق الأصل متمسك جد التمسك بدينه لأنه يرى فى ذلك الصلاح والخير.

أما فى روايته عن الطلاق Un divorce فقد جاهد بورجيه ليظهر عدم فائدة القانون الجديد الذى يبيح للمرأة وللرجل أن يتزوجا زواجا ثانيا بعد الطلاق وفى حياة الزوج المطلق.

وفى (أكاذيب Mensonges) يكرر الفكرة دائما من أن الاشخاص الذين وصلوا بعملهم تدفعهم اطماعهم دائما لمراكز تأباها الفضيلة.

ففى كل ما كتب بورجيه يرى الإنسان الفكرة الملازمة من أن الخروج على القديم والجهاد لمساعدة محدثى النعمه وصفّهم مصاف الأشراف والاعتداد بالقوة المالية كل ذلك داع لتقويض دعائم المدنية دافع بالافراد إلى التعس وبالمجموع إلى التلاشى.

ولاشك أن هناك شبهة من الحق فيما يكتب الفيلسوف الكاتب. ولكنه يتغالى ويصل فى تغاليه إلى حدود بعيدة تجعل الغاية التى يرمى إليها تجئ

بمنطق فاسد بعض الأحيان. وإنا لنتساءل أن كانت هذه النتائج التى أظهرها لنا كنتائج حتمية للأفكار والوسط الحاضر هى حقيقة نتائج حتمية. وهلا يوجد إلى جانب هذه الشرور التى تنجم عن الجهاد للمساواة بين الناس خيرات أخرى يساعد الوسط على نموها وتقوى بالزمان. ليس هناك شك فى ذلك أيضا. ولكن بورجيه مذهبى حزبى.

فكرة الوسط وتأثيره ظهرت وقويت ودخلت العالم الفكرى بفضل الفيلسوف النقادة (هيبوليت تين) Hipolite Taine. فلقد كان هو أول من قررها كمبدأ عام مستقل وأكبر من ساعد على نشرها وجاهد لتطبيق كل الحوادث والموجودات عليها. وكلمته الخالدة فى ذلك هى: «المرء خلق وسطه». ولقد كتب مؤلفات عديدة كان همه الأكبر فى معظمها أن يفسر الحوادث والأخلاق والأدب والفلسفة بالوسط الطبيعى والزمنى والوراثى الذى عاشت تحت تأثيره هذه الأشياء. فكتابه عن فلسفة الفن الجميل ليس كما ربما يفهم القارئ من عنوانه مجموعة أفكار مطلقة عن الفن على العموم ولكن تطبيق الفن الايطالى على هذا المبدأ وتفسيره بالوسط الزمنى والوراثى والطبيعى الذى عاش فيه. كذلك كتابه عن (لافونتين). وكذلك مجموع مقالاته فى التاريخ والنقد وما كتب عن تاريخ أدب الانكليز ومؤلفه الأكبر عن «أصول فرنسا الحاضرة» هو نزعة كبرى إلى جهة هذا المبدأ الذى احتل من نفسه محل العقيدة.

لكن فكرة الوسط هذه لم تنتج عنده ما انتجت عند بورجيه من (الترادسيناليسم) بل لقد كان على العكس من ذلك أكبر دعاة التقدم والمنادين والمعتقدين بإن العلم سيصل بالأنسانية إلى درجة عليا.

ويمتاز على بورجيه برشاقة تعبيره وطلاوته. فإن أسلوبه أشبه شئ فى سلاسته بالماء الجارى فوق أحجار ثمنية يظهر من خلاله ألوانها وينم فى صفاءه عن قيمتها. أسلوب عذب ويكاد فى رقته ينسيك اللفظ ليتركك تهيم بالمعنى كما تشاء وتحب وأسلوب يستحيل أن يعتريك الملال لقراءته. فهذا الكاتب

الفيلسوف الكبير قد جمع إلى جزل المعنى حلو اللفظ والى رشيق التعبير بديع الفكر وهو في ذلك يصل إلى درجات من السحر لا يمكنك معها أن تمنع نفسك من الأعجاب به إلى حد عبادته. ولا تكون فى ذلك مغاليا.

ولقد كتب فيما كتب (مذكرات عن باريس) ملأها بملاحظات ومشاهدات مما فى العاصمة الكبيرة. وأنى لأجد هذه المذكرات من أبدع ما كتب. ففيها من دقة الملاحظة وحسن العبارة وبديع التهكم ما يندر أن يجده الإنسان في كتاب آخر. ومع هذا فالقارئ ينتقل دائما فى روض مختلف ألوانه كلما انتقل إلى صحيفة جديدة من الكتاب.

أما ملاحظاته عن انكلترا فهى أكثر جدا لأن له فيها غرضا يرمى إليه هو مناصرة الارستقراطية الحرة على الديمقراطية المطلقة. لذلك هو هنا أقل ابتساما وخفة منه فى باريس.

ولقد سلك فى النقد طريقة أعدها أحمد الطرق. هو يعرض أمامك دائما صورةمن العصر والوسط الذى عاش فيه الكاتب الذى ينتقد والأفكار السائدة يومئذ وآداب الحديث والمقابلة وكل ما يمكن أن يكون ذا أثر فى ذوق الإنسان أو فى رأيه. ثم هو بعد ذلك يشرح الظروف الخاصة بالكاتب الذى أمامه وعلاقة هذه الظروف بالأمور العامة التى قدم وأثر هذه وتلك عليه كمفكر وكاتب. وينتقل متى انتهى من ذلك إلى ماهو أخص منه فيأخذ الكتاب الذى يريد الكلام عنه أو الفكرة التى يريد نقدها أو تمحيصها.

هنالك تتكون أمامك فكرة معينة محددة عن الكاتب وعصره وكتابه ويمكنك أن تشارك تين فى الحكم عليه حكما مدققا.

من الذين عاصروا تين وكانوا ذا أثر كبير فى الأدب الفرنساوى ارنست رنـــان Ernest Renan. ولكن الميزة الكبرى لرنان هى أنه مؤرخ أظهر فى شكل حديث صورة دقيقة من أيام بنى اسرائيل ومن حياة عيسى. ولقد كان عنده من الاحترام للدين ما مكنه من أن يقضى عليه قضاء قاسيا بما كتب وأظهر. واتبعه

كثيرون وتشيع له جماعة احرار الفكر في حين عجز خصومه الدينيون عن الحط منه عجزا عظيما.

ظهر غير تين نقاد كثيرون في هذا العصر الأخير. فبرنتيير وسانت بيف وغيرهما ومن معاصرينا الحاضرين ظهر اميل فاجيه وجول لمتر. وهذان من كبار الكتاب كذلك. والمجموعة التي ألفها الأول عن القرون الأربعة للأدب الفرنسى وما كتبه الثاني عن الكتاب المعاصرين les Contemporains كلها كتب لا تنسى. كما أن لهما غير ذلك شئ كثير.

ها نحن استعرضنا أمام انظارنا اسماء كثيرة من كتاب وأدباء فرنسا في العصر الحاضر فلوبير وزولا ولوتى وبورجيه وتين وغيرهم. ولكن احب إسم بين القصصيين المعاصرين إلى نفسى. الاسم الذى اضعه إلى جانب اسم تين واعجب به إلى حد العبادة اعجابي بتين. ذلك هو أناتل فرانس. وأنى لاختتم بكلمة موجزة عنه هذه الكلمة المقتضبة عن تاريخ الادب الفرنسى.

اناتل فرانس هو أكبر كاتب في العصر الحاضر يمثل فرنسا. يرى القارئ في كتابته صورة صحيحة من هذه الأمة وحركتها الفكرية والروح السارية في نفوس الطبقات المختلفة من أهلها روح التهكم والاستهزاء كما يقع في كل صحيفة على الأفكار العصرية في العلم والفن والنظرة المجرده ويرى ذلك كله بلغة أصفى وأرشق ما يمكن.

ولقد كتب عدة مؤلفات أحدها يقع في أربعة أجزاء وجمع فيه المؤلف ما كتب في نقد الأدباء والشعراء وسماه (الحياة الادبية). ومؤلف آخر يقع في أربعة أجزاء كذلك قص فيه تاريخ العصر الحاضر بشكل روائي جميل. ومؤلف عن جان دارك. ثم عدة روايات كان آخر ما ظهر منها روايته عن الثورة الفرنساوية بعنوان (الآلهة ظماء). ومن بين هاته الروايات والكتب يجد الإنسان عددا كبيرا بالغا أقصى غايات الإبداع. اخص هذه الزهرة الحمراء Le lys rouge وعلى الحجر الابيض Sur la pierre blanche وجزيرة البنجوان l' ile des Pingouins وجريمة سلفسربونار وتاييس وكتاب صديقي الخ.

والفكرة القائدة فى كل هذه الكتب أو بالاحرى الخلق الذى تنم عنه جميعا هو (السبتسزم) scepticisme أى عدم اقرار رأى من الآراء ولا الاعتقاد بشئ أيا كان ولا دحضه بل الشك فى صحته أو بطلانه. فالكاتب ينقل صورا متناقضة مما فى الحياة وأفكارا متضاربة مما اظهرت العقول ويناصرها جميعا وينتقدها جميعا. وكثيرون لا يتذوقون هذا الصنف من الكتابة لان الاكثرين من الناس يريدون دائما أن يجدوا أمامهم حكاية مرتبة ملأى بالوقائع والاحساسات تتخللها الأفكار من حين لحين حتى لا تكون عارية منها بل لتخدم فيها خدمة الملح فى الطعام فقط. غير أن هذه الافكار الشكية (السبتيك) عند اناتل فرانس تميل دائما إلى الجهة السوداء من الحياة وترى فى هذا الترتيب الاجتماعى الذى يعيش الناس على نظامه موضع الشقاء والظلم الصارخ. والذى يقرأ قصته (كرنكبى crainquebille) يخرج منها مقتنعا بأن القضاء والبوليس والناس جميعا بلغوا من الظلم اقصى درجاته وبأن السجون ونظامها والأخلاق العامة واعتباراتها كلها فاسدة ظالمة. والحقيقة أن حال أوربا الاجتماعية ونظاماتها أصبحت لا تلائم الحال الفكرية السائدة فيه. وأنى لأوافق ماكس نوردو فى الاعتقاد بأن هذا القلق الظاهر فى أعمال وأخلاق وأفكار الأوربيين وهذا الاضطراب الذى يبين على كل نظاماتهم لابد سينتج ثورة كبيرة أكبر بكثير من الثورة الفرنساوية.

والذى يدفع اناتل فرانس للأبتسام والتهكم بكل شئ ذلك هو أنه يرى العالم يسير على قواعد طبيعية خالدة ليس فى طاقة البشر تغييرها. فنداؤهم ضدها وصراخهم طلبا لتغييرها وتبديلها واقتناعهم أنهم قادرون عليها يجعلهم أمامه كالطفل الضعيف يجاهد ليدفع بيده صخرة عظيمة. هو لن يصل لذلك ولكن جهاده وتوتر يديه الضعيفتين واحتقان وجهه وصياحه يسبها من وقت لآخر كل ذلك يجعلنا نبتسم منه.

إلى جانب احاطة فرانس بالافكار العلمية الحاضرة وبالمضاربات النظرية القديمة تجد دقته فى الذوق والفن. فكل وصف من أوصافه يدل على نفس متشبعة بمعنى الجمال وقوانينه. يصف لك امرأة فتراها حية متحركة تسير

وتبتسم وتدل وتغضب وهي في ذلك كله جميلة أدق الجمال. وترى في (الزهرة الحمراء) مما يثبت ذلك شيئا كثيرا. ترى بطلة الرواية (تريز مارتان) في كل حركاتها وسكناتها. تراها واقفة امامك تنظر في المرآه وتقدر في نفسها جمال نفسها. وتراها في سريرها يسترها قميص نومها وتبين من تحته خطوط جسمها النقية. وتراها في يد حبيبها تائهة في عالم الرغبة والشهوة. وتتسمع أثناء ذلك كله على نفسها وما يدور بباطن احساساتها وفي اعماق قلبها.

في هذه الرواية البديعة ترى أفكارا شتى عن الفن والمعمار والتماثيل وكل ما تريد أن ترى في العالم الجميل.

أما كتابه (على الحجر الابيض) فهو كتاب فلسفي في نصفه الأول يأخذ أبطاله بأطراف المناقشة في مواضيع نظرية كالحقيقة وتعددها والناس وحياتهم وهو في نصفه الثاني عبارة عن حكاية المبدأ الاشتراكي المنتظر وينتهي هذا النصف بتهكم على ما في الاشتراكية مما ينافي الطبيعة البشرية.

وكتابه عن جزيرة البانجوان حيث يحكي تاريخ فرنسا قد خصص منه قسما كبيرا لقضية دريفوس...

لو شئت أن أكتب عن جميع كتبه اضطررت أن اجتزأ على قليل جدا مما فيها ولذلك اكتفي بما أوردت عن الأفكار العامة لهذا الكاتب المبدع الذي اكتفي في القول عنه بأنه أحسن كتاب العصر الحاضر.

انتهيت الآن من كلمتي الموجزة التي أردت أن أضع عن الأدب الفرنسي. واعيد للقارئ أني أنما وضعتها كتكملة بسيطة لمذكراتي عن أوربا. وربما جاء وقت يتسنى لي فيه أن أكتب طويلا عن فرنسا وأدبها .

تطور فكرة المسئولية فى العصور المختلفة

يجمل بنا قبل أن ننظر فى التاريخ نستفسره عن الطريق الذى اتبعته فكرة المسئولية فى سيرها واين هى اليوم من هذا الطريق أن نلخص هنا فى بضعة أسطر ما ذكرناه فى الكلمة السابقة عن هذه الفكرة وكيفية تكونها فى النفس. وذلك لأن هذه الكلمة التى نكتبها اليوم ليست إلا بياناً تاريخياً واجتماعياً لكلمتنا السابقة يقصد به توضيح تلك الكلمة وإقامة الدليل على صحة الأساس الذى قامت عليه.

فقد ذكرنا أن فكرة المسئولية تدخل إلى ضمير كل فرد من الأفراد على الصورة التى تنعكس بها فيه وحدات الايمان اللازمة لحياة الجمعية التى يعيش فيها ذلك الفرد. وإن وحدات الايمان هذه هى القواعد والعقائد التى تستلزمها ضرورات الاجتماع على اعتبار أن الإخلال بها يضر بحياة الجمعية أو يفسد عليها طمأنينتها. وقررنا أن انعكاس هذه الصورة فى الضمائر الفردية يكون تاماً فى الجمعيات الساذجة التى لاتزال على الفطرة أو تكاد وفى الجمعيات الثابتة أركان العقائد فيها على نحو لا يحتمل الشك. ولكن لما كانت الانسانية قد قطعت أجيالاً طويلة من مراحل حياتها فقد اعترى هذه الصورة شىء من الابهام فى الجمعيات التى امتدت إلى نظامها الفوضى العقلية والخلقية كما أن أكثرية الافراد إن لم نقل كلهم فى كل الأمم قد تأثرت نفوسهم بمؤثرات الوراثة وطوارىء الحوادث وتضارب العقائد القائمة فى الوسط الزمانى والمكانى الذى هم فيه. وأدى ذلك إلى أن إنعكاس صورة الجمعية جعل يختلف ولو اختلافاً جزئياً فى نفس فرد عنه فى نفس الفرد الآخر. وقد بلغ هذا الخلاف عند افراد قلائل حدوداً غطت على صورة الجمعية أو كادت. وهؤلاء الافراد هم المجرمون بالخلق والمجانين العظماء. والاكثرين من هؤلاء الآخرين ومعهم طائفة المفكرين الذين لا يكتفون بقبول فكرة المسئولية كما تصلهم من طريق الجمعية بل يحللونها ويبحثون هل تضعف فى نفسهم صورة الجمعية وما تلقيه فى نفس كل منهم من بذرة فكرة المسئولية فتتقوى عند الاولين الملكة العملية التى تدفع

بعضهم لجذب الجمعية إلى إيمانه الجديد الذى أفاده من مضطرب العقائد التى تبعث بها الفوضى إلى مختلف أركان الاجتماع، وتقوى عند الأخيرين الحال الفكرية إلى حد يضعفهم دون العمل ويجعل منهم اساطير ايمان المستقبل يكتفون بالنظر إليه وتقرير ما يجب أن يكون فيه. وهؤلاء وأولئك يسعون بالجمعية إلى التقدم لأن النزعة الفردية ليست إلا صيحة الجنس إلى الكمال. وأما المجرمون الذين يعملون على تدهور الجمعية فلا يبقى لعملهم أثر بعدهم بل يموتون وتتخطى الجماعة ذكرهم دون الوقوف عند ما يحملون إلا وقوفاً وقتياً يقاس مبلغ زمنه بمقدار ما كان لهم فى وسط الجماعة التى عاشوا فيها من سلطان وبطش.

هذه هى النظرية التى قررنا فى كلمتنا السابقة. وظاهر أنها ترتكز على قانون اجتماعى لن تجد له تبديلا. ذلك هو سلطة الجمعية المطلقة على الفرد وتحكمها فى أمره تحكما لا يجعل له من التصرف إلا بمقدار ما لا يتعلق مباشرة بحياتها.

ولقد رأيت فى بعض كلمات اطلعت عليها أخيراً كتّاباً ينكرون هذا القانون فناقشناهم فيه فتبين لنا أن اعتراضاتهم مبنية على عدم دقتهم فى الاحاطة به وفى تصوره. وكما أن سوء وضع حجر من احجار الزاوية فى بناء من الأبنية مهما كان ضخماً يجر إلى تداعى هذا البناء وسقوطه على الرغم من زخرفه ورِوائه كذلك فقد بنوا على تصورهم هذا نظريات طويلة عريضة ضربوا لها الأمثال وحسبوا أنهم أقاموا عليها الأدلة مع أن هذه الأمثال والأدلة هى إما بعيدة عن أن تكون متعلقة بنظريتهم أو هى فاسدة الأساس المنطقى فلا يمكن أن تبقى.

وبلغ من غلوهم فى تصورهم أن قرروا أن الجمعيات الأولى هى فى سلطة فرد من الأفراد هو رئيسها يصرفها كما توحى له بذلك شهواته.

هذا الأب كان هو ذاته أثراً من الجماعة التى يرأسها. أى أن كل مكونات شخصيته من عقائد وأخلاق ونظام تفكير وطرائق معيشه كانت مرتبة على النحو

الذى كونته هذه الجمعية قبل وجوده بأجيال الأجيال. وفرد هذا شأنه لا يمكن أن يسير فى الحياة إلا السيرة التى تملى عليه بها هذه المكونات اللهم إلا أن يصيبه خبل فى عقله يخرجه عن متعارف الناس. أما لم يصب بهذا الخبل فهو متأثر قطعاً بهذه المؤثرات التى كونته هو فى جميع وجوه حياته. فإذا أصيب بالجنون احتمله الناس زمناً وقد يتأثرون به ولكن تأثرا وقتياً ينتهى بقيام أحد تملأ صورة الجمعية نفسه فيقود الباقين ضد هذا الآخر المجنون ثم يحل غيره محله.

هذا هو ما شوهد دائماً فى الجمعيات القديمة. ولا يرد عليه أن الشعب فى اتباعه الصائح الجديد كان متأثراً بفرد من الأفراد ولأن هذا الفرد لم يكن إلا الصيحة الخارجة من أعماق قلب الجمعية لا تلبث الجمعية كلها أن تجيب نداءها وتنضم إليها كما تنضم قطرات الماء المتباعدة واحدة للأخرى لمجرد وجود قطرة أقوى وأكبر من سواها ولكنها متحده فى الخواص مع سائرها.

والمصلحون أنفسهم الذين يحدثون التغييرات فى نظام الجماعات لا يحدثون من ذلك فى الواقع إلا تغييرات فى الشكل لا فى الجوهر أو هم بكلمة أدق ينظمون شيئاً موجوداً فى قلب الجمعية ولكن فى حالة التبعثر ولا يخلقون شيئاً جديداً ولا غير موجود. ولسنا نريد بذلك التصغير من شأن هذه المهمة بل هى فى نظرنا أكبر وأعظم ما يستطيع الفرد عمله فى الحياة. كلا بل إن قيام رجل واحد بها دليل على أنه يستطيع أن ينتج بمجهوده الفردى ما قد تعجز مجهودات مجتمعه عن انتاجه. ولكننا نريد أن نقول أن المبادىء والنظريات ووحدات العقائد والأديان وقوانين الظواهر الطبيعية والاجتماعية هى كلها أحياء من أنواع مختلفة موجودة فى الجمعية وجود الخلايا المختلفة فى جسم الفرد ولكنها لا تشعر بها إلا عرضا أو لمس الحاجة إليها كما لا يشعر الواحد بما يحويه جسمه من الخلايا بل وكما يجهل الأكثرون بعض أعضاء مهمة ذات عمل حيوى من أعضاءهم. ثم يحصل أن يقع أحد الأفراد صدفة على أحد هذه الأعضاء أو يستلفت نظره أمر كما استلفت سقوط التفاحة نظر العالم

الكبير نيوتين. ولكن الموفقين فى الاستنتاج توفيق نيوتن قليلون. فيترك الأكثرون مشاهداتهم حتى يجتمع عدد منها تحت نظر أحد المفكرين أو المصلحين فيرتبها وينسقها حسب ما توحى له به ملكاته التى أفادها إياه الاجتماع والوراثة. فإذا تم له ذلك نادى بها فيشعر الناس جميعاً وقد تم فى نفوسهم من قبل ذلك إحساسس بملاحظات الأفراد السابقين ما تحويه هذه الصيحة من اتفاق مع مشاعرهم. وهنالك يسمون هذه الصيحة الجديدة حقيقة يأخذون بها وتصبح آية ظاهرة من آى إيمانهم ويعتقدونها مذهباً جديداً مع أنها ليست فى الواقع إلا هاتيك الأحياء المبعثرة المحسوس بعضها إحساساً تاماً والمحسوس بالبعض الآخر عن طريق الحواس والوهم اجتمعت معا وكونت موجوداً جديداً كما تكون العناصر المختلفة عند إختلاطها الكيماوى عنصراً جديداً هو جماعها وإن إختلف عن كل منها منفرداً.

على أن هذا الموجود الحي الجديد لا تبقى حياته ولا يضمن استمراره إلا يوم تتفق الجماعة على التسليم به كائناً بينها. فإن هى لم تسلم به فإما أن تشهر عليه حرباً عوانا تنتهى دائماً بانتصارها واستئصاله وإما أن تهمله وتتركه فيبقى ضعيفاً ضئيلاً يتطلع للحياة ولا يصل إليه من شعاعها إلا مقدار ما يستمهله فى الحياة حتى يموت أو حتى ينشر عظيماً قوياً. وإما تطول الحرب بينه وبين الجماعة باسسعاد بعض قوى تعارض الجماعة وتناضلها وتشغلها بعض الشيء عن اماتة هذا الخلق الجديد وإفنائه.

وهذا الحال الأخير هو شأن المبادىء والمدنيات التى يدخلها متحكم أجنبى فى بلاد محكومة. تبقى روح الجماعة تناضل هذه المبادىء والمدنيات إلا ما كان منها متفقاً مع آى إيمانها الخاصة أو مرتبا لأحياء موجودة فيها ومستعدة للظهور. هذه الأجزاء من المدنية الجديدة تبقى وتندمج فى نظام الجمعية المحكومة. ولكن ما سوى ذلك لا يمكن أن يألفه الناس أو أن يدخلوه فى آى إيمانهم. لتتحكم مدنية الغرب ما شاءت فى اقطار الشرق. فلكل أمة من أمم الشرق عقائد وآى إيمان ومبادىء وأنظمة حيوية مهما قسرتها القوة فهى تبقى

تناضل ولا يمكن أن تموت أبداً. فإن طبيعة الأرض والجو وآلاف االأجيال التى مرت بالناس تضمن حياة هذه المبادىء. بلى. ولئن استئصل السكان الاولون واحل محلهم سكان آخرون فإن بقايا مهما قلت من المبادىء القديمة تبقى وتقوى. ولكن إذا لم يتم الاستئصال فإن النواة لا يمكن تغييرها. ولهذا نرى الشرقى إلى اليوم مهما كان متورطاً فى الربا أو فى الخمر أو فى بعض ما لا تشمئز منه المدنية الاوروبية ولكنه محرم بقواعد اجتماعنا نحن يشعر دائماً فى أعماق قلبه كأن صوتاً يناديه: تعساً لك أيها الشقى افما ترجع عن غوايتك. هذا الصوت هو الضمير المنطبعة فيه آى الاجتماع ويتوارثه الأجيال خلف عن سلف حتى آخر الدهر.

ولو أن المدنية التى تحمل الحرب الحاضرة بين جنبيها وهى تتمخض اليوم عنها ضمنت ما يقوله أنصار التقدم من حرية الشعوب لقامت هذه المبادىء المضغوطة فى الأمم المحكومة تستعيد نفسها وتضمن معها الأمم صاحبتها تقدماً مبنياً على قانون التطور المعقول.

من ذلك كله يظهر أن احتجاجات بعض الذين يتقدمون للكتابة فى مسائل الاجتماع ويتعرضون لقاتنون سلطة الجمعية على الفرد منكرين هذه السلطة وحكمها العام ليست إلا صيحات شعرية مبنية على ملاحظات مبعثرة لم يستطيعوا خلق الصلة بينها وبين غيرها فاخطأ استنتاجهم منها وفسد الأساس الذى أقاموا عليه رأيهم.

والآن نرجع بعض الشىء إلى إثبات نظريتنا المتعلقة بالمسئولية من طريق النظر والتاريخ. وغرضنا من ذلك أن نصل إلى موقف فكرة المسئولية الحاضره فى مصر وفى أوروبا حتى إذا درسناه من طريق الفلسفتين الاجتماعية والجنائية تبين لنا أن حقيقة هذه الفكرة هى دفاع الاجتماع عن نفسه بالطرق التى يراها منتجه ومفيدة.

وخير ما يبين لنا الطريق الذى تطورت فيه فكرة المسئولية تاريخ المبادىء الفلسفية وتطور قانون العقوبات. فالأول يدلنا على الاتجاه النظرى للفكرة العليا فى الجمعيات المختلفة والثانى يبين لنا الطرائق العملية التى كانت تتخذها

الجمعيات للدفاع عن نفسها ضد الأفراد الذين يخرجون عليها وتصور هذه الجمعيات لمسئولية أولئك الأفراد.

ولسنا نرمى لوضع بحث مستوفى فى كل من هذين السبيلين فإن ذلك، فوق أنه ليس الغرض من أبحاثنا الحاضرة، هو ينزع بنا منازع تبعدنا عن الفكرة الأصلية فكرة المسئولية. وإنما الذى نرمى إليه بيان بسيط للاتجاهات العقلية والعملية التى كانت تعد فى الماضى والتى تعد اليوم أساس بناء الاجتماع وبكلمة أخرى الاتجاهات فى هذين الوجهين التى كانت تحدد الصلة ما بين الفرد والمجموع.

كتاب مفتوح إلى لجنة تنقيح قانون الاحوال الشخصية

صديقى مدير جريدة السفور:

كانت عرضت لى أفكار من سنين مضت متعلقة بمسألة العلاقات القانونية بين المرء وزوجته. لكن ظروفا خاصة منعت من نشر تلك الأفكار فبقيت فى طى أوراقى إلى اليوم. والآن يقال أن لجنة تنقيح قانون الأحوال الشخصية تشتغل فى المسألة بجد وتكاد تكون أتمت قسما غير قليل منها فقد رأيت أن أبعث لكم بهذه الكلمات علكم تنشرونها على صفحات جريدتكم فإذا حازت قبولا لدى أعضاء اللجنة كنت سعيدا أن خدمت قومى فى مسألة تهم كل واحد منا وأن رأوا غير رأيى فالأيام كفيلة أن تظهر النافع. وأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض.

وفى هذه الكلمة الأولى أقدم مشروعى وفى الكلمات التالية أعززه وأشرحه وأنى أتقدم لأعضاء اللجنة بهذا المشروع ولى بهم كل الثقة أن سيمحصوا كل فكرة تكون نافعة للبلاد ومتمشية مع روح الشرع الشريف.

أن ما تحس به الأمة من الحاجة الشديدة للإصلاح فى هذه الجهة من جهات حياتها ليدعونا للتفكير فيها ويجعلنا نطالب بتشريع تراعى فيه أحوال البلد الحاضرة ويكون الغرض منه تقويم عوج اجتماعنا وإصلاح شأنه.

كتاب مفتوح إلى الوزير الجليل

ناظر الحقانية

ياسعادة الوزير:

وليت نظارة المعارف فعملت فيها نعم العمل وتركت الأثر الجليل وأسفت الأمة كلها حين انتقلت منها لنظارة الحقانية وحق لها أن تأسف اذ كنت عمدتها فى اصلاح أبناءها وتربيتهم ـ على أنا لانعدم أن نجد فى الحقانية مواضع إصلاح كبير يخلد لصاحبه ذكرا باقيا ويقدم للأمة الأساس الذى تبنى عليه سعادتها.

من القوانين ما يرتب صلات الحكومة مع المحكومين وهاته أغلب الأحيان وفى مثل بلادنا قوانين تخلقها ظروف وتقضى عليها ظروف وتغيرها متى شاءت السلطة القادرة. هاته القوانين نكلها للزمان والحوادث وننتظر بمعوجها أن تعد له الأيام.

ولكن أخرى تنظم صلات الافراد فيما بينهم وتدخل إلى بيوتهم وفى غرفهم وتشكلهم إلى حد كبير بشكلها وتكون عاداتهم وكثير من معتقداتهم ولا تتغير إلا كل ردح من الزمن هى التى نطلب إلى الوزير اليوم أن يدخل الاصلاح عليها ـ تلك هى قوانين الأحوال الشخصية.

نسمع من زمان أن نظارة الحقانية تعد للمحاكم الشرعية قانونا موحدا تسير عليه.. لذلك فلا فرصة أنسب من الساعة الحاضرة نطلب فيها تعديل القديم وإصدار تشريع تراعى فيه أحوال البلد الحاضرة ويكون الغرض منه تقويم عوج اجتماعنا وإصلاح شأنه.

ضج الناس ويضجون من تعدد الزوجات عندنا. يأتون ويشكون من الطلاق ونتائجه.. يتألمون من حال العائلة الحاضرة. والكثير منهم يقدر لهذه الاشياء

قيمة كبيرة ويرى فى صلاحها الأمل فى خير الأمة كما أنها بفسادها اليوم مجلبة شر كبير.

كتب الكاتبون يصفون فظاعة الموقف الحاضر ويطلبون عنه بدلا. رفعوا أصواتهم إلى المشرع يريدون تداخله وإلى الأمة يحثونها على العمل من نفسها.. ولم يمض بعد الوقت الذى ييأس فيه من أن يمد المشرع يد معونته وأن تنتبه الأمة لحالها فتجاهد لنجاة نفسها بل لايزال باب الأمل واسعا فى كليهما ـ فى المشرع وفى الأمة.

فتش كثيرون عن الدواء لهاته العلل الاجتماعية عندنا ومنهم من وصل إلى نتيجة من بحثه. ولكنما يخيل لى أن ما يراد من إدخال حدود قانونية على قوى الزوجين وتداخل القاضى فيما بينهما لا يسير مع شرعنا الحنيف ولا مع عوائدنا القومية.. كلا بل ولا يجيزه الذوق.

يقول أقوام أن أهل أوربا يجعلون الفصل فى الطلاق لأمر القاضى فلم لا نجعله نحن؟.. لأن أهل أوربا انتقلوا من المنع المطلق وعدم الفرقة بين الزوجين إلا بالموت إلى الدرجة التى بعد ذلك. ولكنا نكون اذا عملنا عملهم هادمين لحرية كبيرة نتمتع بها. وإذا كان الافراد قد أساءوا استعمالها من قبل فلا يكون جزاؤهم أن يحرموها ولكن ان يجدوا من أنفسهم ما يقمع غيرهم ويردهم إلى الحد المعقول حين يريدون الخروج عنه.

من أجل الوصول إلى هذه الغاية أضع أمام انظار اللجنة المحترمة اقتراحى الذى اعتقده خير دواء للحاضر وخير قانون يبقى اجيالا إلى أن يقضى تغير الزمان والحال الاجتماعية تغيرا ظاهرا بتعديله أو استبداله.

ذلك أن تضاف المواد الآتية لقانون الاحوال الشخصية ويلغى ما يخالفها.

١ ـ يعطى القانون للمرأة حق تطليق نفسها فى الأحوال الآتية:

أولا: اذا تزوج عليها الرجل بزوجة ثانية.

ثانيـــا: اذا ثبت زنا الرجل وطلبت هى الطلاق فى ظرف ثلاثة أشهـر من تاريخ ثبوت الزنا.

ثالثـا: اذا ارتكب الرجل أمرا ثبت ويثبت به أن وجودها معه يمس شرفها ويخدش كرامتها وطلبت الطلاق فى ظرف ثلاثة أشهر من ذلك الثبوت.

٢ ــ طلاق المرأة نفسـها طلاق بائن بينونة صغرى. إلا أنه يصح للزوجين أن يتراضيا على الرجعة من غير مهر.

٣ ــ لا يقع الطلاق إلا إذا كـان المطلق يريده وينويه وأن يعلم الزوجـان به وكل طلاق ينقصه احد هذين الشرطين لا يقع.

٤ ــ تبتدئ أيام العدة من بعد توفر الشرطين المذكورين فى المادة السابقة.

اعتقـد أن أضـافة المواد السـابقـة إلى باب الطلاق والغـاء كل ما يخالفـها يداوى ما عندنا كما أنها كلها تتمشى مع روح الشرع أكثر بكثير من التفسير القديم حين اشتغل الفقهاء بتحديد ألفاظ الطلاق والكنايات عنه وبما لو وقع الطلاق بائنا بقوله طلقة شديدة أو ثلاثا بقوله أكثر الطلاق وتركوا لب ما جاء به الكتـاب والسنة. كـمـا احسب أنه يوفر علينا إلى حد كبير تداخل المحاكم فى المسائل العائلية الصرفه.

بهـذه المواد نحسم مشكلا من أكـبر المشكلات الحاضرة فى حياة مصر الاجتماعية. بها نعطى الناس معنى جديدا من تقدير حرية الفرد واحترامه. بها نقضى القضـاء الكبير على مسألة تعدد الزوجات التى يرتكبها الأزواج أحيانا كثيرة انتقاما من زوجاتهم. بها نقيم للعائلة قائمة تجعلها أساس بنيان الأمة المقبلة.

أفضل دائمـا أن يترك للفرد من الحرية ما يتمكن معه من تنمية قواه والحصول على أغراضه لكن لا ليضير بذلك غيره. وأرى واجبا أن ينحصر

القانون فى أضيق دارة ممكن حصره فيها. وليس ما يضمن هذين فى باب الطلاق مثل إدخال المواد التى أشرنا إليها بين مواده.

والشرع الشريف الذى تأخذ عنه أحكام أحوالنا الشخصية يحض عليها ويساعد على إيجادها فى قانوننا. فإذا ما نحن تركنا قليلا تفاسير العصور المختلفة التى ادخلناها على ما بها من الغريب فى قوانيننا ورجعنا إلى الكتاب والسنه وجدناهما نعم السند لنا.

قال تعالى (لا جناح عليكم إن طلقتم النساء) وقال جل شأنه (فإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما والله واسع عليم. وإن تفرقا يغن الله كلا من سعته) فلم يدع للقاضى أن يتداخل فى مسألة خاصة كمسألة الطلاق بل ما يتعلق بهاتين الآيتين يكلها للرجل أو للأهل من الطرفين. وعلى هذا يكون إدخال القانون والمحكمة مع ما فيه من المساس بروابط دقيقة أحرى بها وأوجب أن يبقى أمرها مجهولا لغير صاحبيها غير متمشى تماما مع قواعد الشرع.

وقال تعالى (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة) وفسرت هذه الدرجة فى موضع آخر بقوله تعالى (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من أموالهم) فإذا حددنا مسألة القيام فى الزواج بما يجب له عليها من طاعة مادامت الزوجة قائمة وتوليه أمرها والإنفاق عليها وتحقق هنا معنى الدرجة، كان لها فى غير ذلك ما عليها وكان لها بالطبع حق الطلاق.

ويؤيد ذلك أن الآية التى ذكرنا قبلا (وإن خفتم شقاق بينهما الخ...) لم تجعل غضب الرجل وتألمه وحده هى الداعية لهذا الخوف بل أى الزوجين غضب يقيم خوف الشقاق على قدم. فإذا كان ذلك آتيا من جهة المرأة ولم يريدا إصلاحا كانت النتيجة أن يتفرقا وجاءت الفرقة هنا على غرض المرأة.

ثم غير هذا قد نص الفقهاء على أن للمرأة حق طلاق نفسها إن اشترطت ذلك فى العقد. نصوا على ذلك أيام كانوا يوسعون للرجل فى السلطان على المرأة حتى ليقع طلاقه عليها ولو لم ينوه. أى حين كانوا يجعلون حق المرأة فى البقاء مع الرجل معلقا على الحوادث والصدف. ولم يبق اليوم من قائل أن عملا لم ينوه صاحبه يقيده. بل إن أصل الشريعة الغراء مبنى على هذا فإن من متواتر الحديث المشهور قوله صلى الله عليه وسلم (إنما الأعمال بالنيات) فإذا كنا لنأخذ بهذا الحديث ونقيم من عقولنا ما يجعلنا نصل إلى البديهى من أن لا عمل يقيد العامل إلا ما نواه ثم نرى أن هؤلاء السلف كانوا يجيزون للمرأة اشتراط طلاق نفسها فى العقد ـ أظن من المعقول جدا أن سير الفكرة ونموها يصل بنا كذلك إلى الاعتراف بالحق الذى أعطاه الله للمرأة من استطاعتها تسبيب الفرقة ولو لم تشترط شيئا فى العقد.

لهذه الاسباب الشرعية وغيرها ولاسباب اجتماعية أخرى كثيرة أرفع إلى اللجنة طلبى أن تكون هذه المواد من بين مواد قانون المحاكم الشرعية الجديد وأن يلغى كل ما يخالفها.

وأعتقد فى ذلك للأمة أكبر الخير والصلاح.

الطلاق وتعدد الزوجات

-١-

«يميل الناس للاعتقاد بأن ما هو حاصل اليوم كان موجودا من قبل دائما» ويعطيهم هذا الاعتقاد من معنى التقديس للشئ وتقدير أنه حق من غير شك ما يصعب معه مناقشتهم فى قيمة ما أمامهم. ويظلون على رأيهم حتى تأتيهم الحوادث بقوة لا قبل لهم بها تغير الحاضر فإذا انتقلوا إلى الجديد وبقوا فيه ثم اعتادوه دافعوا عنه بنفس القوة التى دافعوا بها عما قبله وبحثوا له فى الماضى عن أصول يزداد سرورهم بها كلما وجدوها أكثر ابتعادا فى غياباته وذهابا فى اعماقه.

والواقع أن الحاضر فى مثل بلدنا كما هو فى كل مكان لم يعن أهله بالتفكير فى إصلاح شأنه إنما يحوى مجموع أغلاط الماضى الطويل وخطأه ويندر فيه وجود حسنات الأقدمين وطيباتهم. ذلك أن الباطل أهون رواجا فى السوق العامة من الحق وأسهل انتشارا بين المجموع وتداولا على الألسنة. هو كالعملة المنقوصة يريد كل أن يدفع به لغيره حبا فى التخلص منه أولا ولكن متى راجت سوقه وتكلم به الناس تراه اعتنقه واعتقده.

ليس ما عندنا فى قانون الاحوال الشخصية مأخوذا عن عصر النبى عليه السلام وحده ولا من تفسير الامام أبى حنيفة ولا واحد أو اثنين ممن تبعه من اصحابه ولكنه يتناول شيئا من كل عصر ويضم بين مواده أقوال الرسول وأحكام الخلفاء وتفاسير الشراح وقضاء الولاة على مختلف القرون. ولما كانت هذه الاحكام والتفاسير وهى صادرة من بنى آدم يخطئؤن بالطبع ويصيبون لم تجد نقادة من العلماء فى كل جيل يضعها موضع البحث وتسلل منها إلى عصرنا زيف أكثر مما تسلل إليه من الحق ودخلت إلى الشريعة التى نستمسك بها أقوال ليس من السهل أن يقبلها العقل ولا أن تسير مع قواعد الدين وأصوله.

من ذلك الزيف الذى دخل إلى قانوننا مواد كثيرة جدا نذكر منها المادة (٢١٨) من قانون الاحوال الشخصية التى نصها (يقع طلاق السكران الذى سكر بمحظور طائعا مختارا لا مكرها ولا مضطرا). ولا أدرى أى ذنب على المرأة يوجب انفصالها وأولادها الضعاف عن الرجل ولم يقصد هو من ذلك شيئا. ولقد رأى ذلك أستاذنا الشيخ محمد زيد الابيانى فقال فى كتابه (شرح الأحوال الشخصية) صحيفة (٢٩٧) ما نصه:

ـ والظاهر عدم وقوع طلاق السكران ولو سكر بمحظور لأن الطلاق ليس عقابا له فقط بل يترتب عليه قطع الزواج المترتبة عليه المصالح الدينية والدنيوية والأضرار بالزوجة وبأولادها منه وبأهلها فلو أوقعنا طلاق السكران لعاقبنا غير المذنب ممن ذكر وهو غير جائز فلا يعاقب إلا السكران وعقابه يكون بالحد لينزجر عن مثل هذا ويعتبر غيره ـ

وقوله هذا موافق لما قال به جمع من الصحابة ووافقهم عليه بعض الحنفية.

لذلك يجب أن لا نجعل أبعد نظرنا ما سطر فى قانون الأحوال الشخصية أو بعض كتب الفقه وان كانت كبيرة لأن مقصد الإنسان الأسمى فى الوجود أن يصل إلى الحق حيث يكون وأن يعضده وينصره.

كل الآيات التى وردت فى باب الطلاق لم تفرق بين الرجل والمرأة بل جاءت به على معنى أن لكل منهما حقا فيه فمن ذلك قوله تعالى (الطلاق مرتان فأمساك بمعروف أو تسريح بإحسان). فلم يجعل هنا شيئا من حصر معنى الطلاق فى أيهما بل جعله على صيغة المصدر حتى لا يكون من معنى الحصر ما يمنعه عن المرأة. ثم لما كانت قوة الرجل على زوجته قد تبلغ الاستبداد أحيانا ويفرط صاحبه فيه نزلت بقية الآية نصيحة للرجل أن يعامل المرأة بالمعروف إن بقيت معه أو يتركها بالاحسان ومن غير إجحاف إن هى فارقته. وأما الآيات التى نزلت خطابا للرجل وحده كقوله تعالى (فطلقوهن لعدتهن) فإنما خوطب بها الزوج دون الزوجة لما لحقها من التخصيص بمسألة العدة التى تلزم المرأة

وحدها. وليس من المعقول طبعا أن يقول للنساء (وطلقوا الرجال لعدتهم) اذ لا عدة على الرجل ـ كذلك قوله تعالى (لا جناح عليكم أن طلقتم النساء) جاء فى وقائع مخصوصة وجه فيها الكلام للرجال وحدهم

والشريعة الغراء فى عدالتها لم تكن لتفرق فى الحق بين الرجل والمرأة لتعطى واحدا كل شئ والاخر لا شئ والله تعالى يقول (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) وأنما المرأةبطبعها لا تحب ترك زوجها متى كان لها منه ابناء كما ان سلطانه عليها الكبير كان يجعلها تخضع لأمره من غير مناقشة ولا حساب فظن بعضهم أن ذلك لأنها محرومة من كل حق. ولو كان هذا صحيحا لما كان معنى لـ «لهن مثل الذى عليهن» وحاشا الله تعالى وكبر كلامه عن أن يكون خلوا من المعنى.

بمثل هذه التفاسير يفتح الشراح علينا بابا من القول يرمينا منه مخالفونا بكل نقيصة والله الذى لم يفرط فى الكتاب من شئ أكمل لنا الدين ولو اهتدينا بهديه وسرنا على معقول معناه لكنا اليوم فى مقدمة الأمم رقيا وحضارة. أرأيت لو لم يفتح المشرعون هذا الباب بأن يجعلوا الطلاق فى يد الرجل وحده ثم أن يقع منه متى نطق بكلمته هل كان الطاعنون الا وراءنا بكثير. ولكن لا حول ولا قوة الا بالله قد دخلت على الدين أشياء هو منها براء وأضيفت إليه شروح ومطولات تحوى كثيرا يتمسك به غير المسلمين ويسموننا مرة متأخرين وأخرى رجعيين ولو فهمنا روح ديننا الحق وأفهمناها لهم لسكتوا أمام كمالها مبهوتين.

عن الدين الحنيف أخذت الأمم الطلاق ولو بحثت فيما تعمله اليوم من القوانين لوجدته يسير تماما مع تلك الروح العالية ولكنا لا نريد أن نتعب أنفسنا بالبحث عما عندنا من الجواهر المكنونة فى كتاب الله الكريم.

ولو أن الناس من المسلمين لم يقفوا وقفتهم التى وقفوا بل جعلوا وجهتهم التقدم وترقية المبادئ التى عندهم لما وجدوا من شرعهم الا مساعدا لهم على

عملهم. الذنب يعلم الله على المسلمين لا على الإسلام فى كل هذه الوقفه الطويلة من غير سبب.

ان الحنيفية الغراء شريعتنا شريعة سير إلى الإمام. هى الشريعة التى تساعد الكون على التقدم والارتقاء وتوافق العقل على أن يكون حرا فى تفكيره فلم نحرم نفسنا هذه المزايا العظيمة التى تهبها إيانا.

لسنا فى الحقيقة نتبع الإسلام فى مركزنا الذى سكنا إليه وتمادينا عليه ولكنا نتبع مجموع عوائد الأمم الإسلامية حين ابتدأ تقهقر الإحوال واختلال الأمور وفساد الزمان. ننصرأيام الظلمات ونساعدها على البقاء حتى أمام النور الساطع الذى تبعثه علينا مجاوراتنا من الأمم بعد أن ساعدنا أمام نور ديننا وهديه.

أعطى الإسلام المرأة ما أعطى للرجل إلا فيما نص عليه القرآن من مسائل الشهادة والميراث وأشياء أخرى معدودة. فلم نعتدى نحن على القرآن باعتدائنا على المرأة. لم نسئ معاملة من أوصانا صاحب الشريعة السمحة بحسن معاملته ـ هل بعد ذلك نحن لديننا حقيقة متبعون.

الآيات التى قدمنا تعطى المرأة حق الطلاق من غير ما قيد فهلا نعطيها نحن ذلك الحق ولو بألف قيد وقيد. هلا نعطيها إياه فى احوال مخصوصة ومعدوده، أننا إن فعلنا ذلك نكن وافقنا العقل والشرع وخدمنا مصر خدمة الصادق الأمين.

ـ ٢ ـ

من الناس من لهم غرام مخصوص بالشكوى والتألم فإذا ما أردت ان تزيل سبب شكواهم وقفوا فى وجهك وحاربوك جهدهم وطعنوا عليك. ثم لا تلبث أن تتركهم حتى يرجعوا إلى ماكانوا فيه من الضجيج والتأوه ويستغيثون بمن لا يغيث بعد الذى رأى منهم! ذلك لأنهم يحسون بالألم ولايفكرون فى موضعه ولا أى شئ هو. أنهم لا يقدرون على تشخيصه لذلك هم لا يقدرون على مداواته.

فى الإنسانية ادواء كثيرة يعوق عن مداواتها هذا الصنف من الناس ومحال أن يخلو الوجود منهم. ويساعدهم آخرون ليسوا مثلهم صرعى بتمجيد الماضى بحق ومن غير حق ولكنهم يريدون أن يكسبوا لأنفسهم مركزا ذا قيمة فى الوجود وأن يجدوا حولهم اتباعا وانصارا هم أكثر فرحا بعدتهم منهم بقيمتهم.

هؤلاء لا تدفعهم لعملهم الفكرة الممحصة وإنما تدفع الأولين منهم حمية تشغل كل وجودهم وينساقون بها إلى مواقف ماكانوا يقدرون مطلقا أنهم واصلون إليها. ويدفع الآخرين غرضهم من حب الظهور بأى وسيلة ممكنة. هم يحصرون تفكيرهم فى البحث عن هذه الوسيلة مدفوعين بهذا الغرض ولا يهمهم من بعد ذلك خرب الكون أو عمر وأن ادعوا بالطبع أنهم للإصلاح عاملون ـ ودعواهم مقبولة على العين والرأس من الأكثرين.

الآلام التى تضج لها بلدنا كثيرة جدا أحدها الصلات العائلية فيما بين الزوجين ـ يدخل فى ذلك الزواج والمعاملة وتعدد الزوجات والطلاق الخ ـ وسببها لا يختلف فى كثير عن اسباب العلل الأخرى ولكنه أشد استعصاءا فى المداواة لأننا فيه محافظون أكثر منا فى غيره ـ كلا بل نبلغ بمحافظتنا حد الجامدين المتقهقرين.

علة العلل وسببها الأول فى كل شئ نقص الحرية. وكلما تقدم الناس إلى جهة الكمال منها وتمتعوا بها زالت عللهم. ذلك هو السبب أيضا فيما نراه مما يخص العائلة.

للرجل ما يسميه البعض حرية أكثر مما يلزم وما أسميه أنا حرية ناقصة. ان كل خطوة يزيد بها الفرد عن حقه فى الحرية ترجع عليه فتنقص من حظه بمقدارها لذلك رجع كل ما عند الرجل من زيادة فأفسد عليه وعلى المجموع طعم العيش كما ترك المرأة فى بؤس قد تحس وقد لا تحس به.

يشكو الناس عندنا ولا يجدون دواء لسهر الرجال المفرط ونساءهن جالسات فى الدور يلعب النوم برؤوسهن فيغالبنه ويأخذ الضيق بخناقهن فيتنهدن ولا ينفذ

صبرهن فى انتظاره. ويضرع الكتاب إلى الرجال مرة ويؤنبونهم على عملهم أخرى لعلهم يرجعون فيذهب تأنيبهم وضراعتهم سدى ويبقى الرجال على ما هم عليه يقضون قسما كبيرا من أوقاتهم فى القهاوى.

وإذا غضبت المرأة عليه ساعة رجوعه أو أظهرت أمامه الألم أعطاها ظهره إن لم ينتقم منها بأنواع الانتقام.

يشكون كذلك مر الشكوى من تعدد الزوجات ويصورون العائلات المصابة بهذا المرض بأشكالها الفظيعة المؤلمة ومع ذلك فتعدد الزوجات لا يزال شائعا فى معظم الطبقات وخصوصا فى الأرياف شيوعه من قبل ويأتيه الرجال لسبب ومن غير ما سبب ـ بل فى أحيان كثيرة جدا انتقاما من زوجتهم الأولى. والأمة تنتظر لصلاح هذا الحال قضاء السماء.

والشكوى من الطلاق أمَرّ وأدهى. ذلك فظيعة الفظائع ورأس الآلام. وأن أكثر الناس نكاية منه من أصيبوا به من غير أن يريدوه ولكنهم فى ساعة حدة لفظوا كلمة الطلاق الكبير طلاق الثلاث فبانت زوجهم وهم مكلفون لاسترجاعها أن يلجأوا لما تشمئز منه نفوسهم.

وإذا كنتم يا قوم ترون كل هذا موضع شكاية وألم فلم لا تفكرون فى العمل لتخفيفه ان لم يكن فى الإمكان القضاء عليه! من ذا يمسك أيديكم عن العمل إن شئتموه؟ إننى على يقين من أن المشرع لا يبخل على الأمة بما يصلح أمرها إذ تلك هى وظيفته ومن غيرها لا معنى لوجوده وأنما يغل يده أحيانا عن تنفيذ ما يراه هو الخير ما يتوقع من السخط العام وما يتخوف من ألسنة المتكلمين وأقلام الكاتبين، ولكن اليوم الذى يجد فيه لعمله نصراء ومعززين هو اليوم الذى يضع فيه القانون المعقول ويعمل لتنفيذه.

وعهدنا بحكومتنا أن تنظر فى مثل مسائل الأحوال الشخصية بعين خالصة كل غرضها خير الأمة. وما أحسب قانونا يضمن لنا زوال القسم الأكبر مما

نشكو منه ويقيم لنا أساسا نبنى عليه سعادتنا العائلية وطمأنينتنا مثل ما اقترح وضعه.

يقوم هذا القانون حدا لغى الرجل فى معاملة زوجته اذ مادام يعلم ان هناك شيئا من شبه المساواة بينهما فهو يعاملها كصاحب لا كمتاع وما دام يعلم أن مس شرفها وكرامتها ليعطيها حق التخلص من الرابطة بينهما فهو لا شك عامل للمحافظة على ماله من الميزه بتحسين خطة سيره.

يقوم كذلك فى وجه تعدد الزوجات لأن الرجل يخشى أن يغضب بذلك زوجته الأولى فتتركه كما أن هذه الميزة لها على الزوجة الثانية تعطيها ــ وخصوصا فيما لو كان لها أولاد ــ سلاحا وقوة تتدبر معه كثير من النساء حين يراد أن يأتى بهن زوجات ثانيات.

يقلل كذلك من الطلاق إلى حد كبير إذ أنه سيبقى كما هو اليوم فى يد الرجل وحده مادام حسن السير مكتفيا بزوجته ولا يكفى للتفريق بينهما أن تخرج من فم الرجل كلمة الطلاق بل لابد أن يكون مريدا له وناويا وأن يبلغ علم الزوجة وأنا لنرى أكثر الاحوال من يتألم ساعة لفظ الطلاق أشد الالم لا لأنه طلق زوجته فقط ولكن لأن فى الدار الأن من هى فرحة مسرورة يلعب حولها ابناؤها ناعمين بجوار أمهم وينتظرون بفارغ الصبر عودة أبيهم يقبلهم ساعة دخوله فإذا هو يحمل لهم معه الشر ويأتى منذرا بالسوء وما أراد أن يكون ذلك النذير الكريه.

كم فلاح من طبقة العمال ــ أولئك الذين لا يقرأون الجرائد ولا يفهمون كتابة الكتاب ــ كان يأتى متألما ويكاد المسكين يبكى وينفطر قلبه لأنه حلف على زوجته بالطلاق من غير ما سبب. وكم كانت تنشب العداوه بين رجلين لأن احداهما طلب إلى الآخر أن يأخذ معه (فنجال قهوة) وإلا فامرأته طالق ومصلحة الآخر تناديه ألا يضيع من وقته وبذلك تطلق زوجة الرجل.

يعلل المنتصرون للحاضر وقوع الطلاق فى هذه الاحوال بأنه عقاب للرجل على تسرعه. وإذا سلمنا أن الرجل أخطأ فماذنب المرأة وما ذنب الأولاد وماذنب أهلها! أى عدالة توقع العقاب على رأس برئ إلا عدالة مجرمة؟ إلا أن ربنا أكبر عفوا وأوسع حلما من هذا ولكن الناس إلى الظلم اميل.

وقوع الطلاق على هذا الشكل لا شك بقية من بقايا الفكرة العتيقة الخاطئة فكرة أن المرأة لا روح لها. تلك الفكرة التى يدعى علينا كثير من الغربيين أنها من ديننا وهو منها برئ. جاءت أيام الجهل حين كانت تدخل الأفكار الزائفة فتجد فى الوجود مجالا ثم بنيت عليها أحكام ليست أقل منها فسادا.

لنرجع فى أحكامنا وتشريعنا إلى أصل الدين وهدى العقل ونوره نبلغ كثيرا من السعادة التى يطلبها الناس من وراء قوانينهم. وإلا فمادمنا نرى الجرح الدامى ولا نستطيع أن نضع يدنا عليه فسيبقى الدم ينزف حتى يبلغ بنا الحال إلى ضعف كبير ـ أخشى أن يكون إلى الموت.

ـ ٣ ـ

(يجوز للحر أن يتزوج أربع نسوة فى عقد واحد أو عقود متفرقة)

تلك هى المادة (١٩) من قانون الاحوال الشخصية الذى اعتمد عليه لا لأنه القانون المتبع عندنا ولكنه خلاصة بحث فى مذهب الإمام أبى حنيفة.

رأى الاستاذ الشيخ محمد زيد الابيانى فى شرحه هذا الكتاب إن زواج أربعة فى عقد واحد ليس من الأمور السهلة التصور على الشكل المعتاد إذ لا يعقل أن يقبل أربع نسوة أن يكن معا زوجات رجل واحد فضرب مثلا أقرب للعقل وأسهل فى التصديق قال فى صحيفة (٣٨) من الجزء الأول ما نصه (بل يقتصر على أربع نسوة فى عصمته سواء كان تزوجهن فى عقود متفرقة كما إذا تزوج كل شهر مثلا واحدة أو فى عقد واحد بأن وكل أربع نسوة

رجلا فى أن يزوجهن لفلان فقال هذا الوكيل للرجل زوجتك موكلاتى فلانه وفلانه الخ فقبل الرجل صح هذا العقد بالنسبة إلى الجميع إذا لم يكن متزوجا غيرهن) وألاستاذ طبعا يريد أن كلا وكلنه وهى لا تعلم توكيل الأخريات.

ما أظن فى القوانين الشرعية شيئا يقف فى وجه القرآن أكثر من هذه المادة. هى ضد روح الآيات التى نزلت فى تعدد الزوجات وضد لفظها أيضا وما أدرى كيف تكون من الشرع فى شئ بعد ذلك.

حدد القرآن مسألة التعدد بحدود شديدة ولم يبحها إلا عند الضرورة فقوله تعالى (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) ثم أتبع ذلك بقوله (ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة) ليس مما يحرض على تعديد الزوجات مطلقا بل يكاد يحرّمها قطعا إلا لضرورة ملجئه وليس التحليل للضرورة إباحة مطلقة كما يفيده نص المادة.

أو أن أسيادنا الشرعيين يعتبرون أحكام القرآن الشريف تضعف هى الأخرى بالزمان فيصبح ما كان محظورا من المباحات؟ حاشا كلام الله الكريم أن يكون ككلام البشر ومادمنا معتقدين به آخذين بنصوصه فالواجب أن نسير على مقتضى ما تقرره. وإذا كان الزمان الفائت قبلنا قد جاء فيه بعض الخطأ فعلينا أن نصلحه.

لم يكن تعدد الزوجات من الفضائل الممدوحة فى زمن من الأزمان وإنما هو كالامراض اللازمة التى تعترى الجسم أو العقل نحن مجبورن على احتمالها مادام تركيبنا يستلزمها. كذلك الأمم التى يضعف فيها معنى العدالة ويتمشى إلى نفوس أهلها شئ من فساد الاستبداد وتفقد بين أفرادها المساواة تميل إلى صنوف من الترف توافق هذه الحال فيستكثر أغنياءها من شراء الموالى واتخاذ الزوجات واقتناء كل شئ من شأنه أن يشبع منهم ذلك الإحساس الذى يملأ كل وجودهم من حب السلطة والسلطان والاستبداد بشأن غيرهم. ولولا أن

ألغى الرقيق من العالم لكنا نرى مصداق ذلك فى بلاد كثيرة محرومة منه اليوم. بل إن تركيا ظلت إلى عهد دستورها متجر رقيق هائل ولم تزل إلى حد كبير رائجة السوق فى العبيد والإماء خصوصا على شواطئ البحر الأحمر ـ والفقراء تقليدا للأغنياء يعددون زوجاتهم.

هذا المرض قديم فى بلادنا وحالنا اليوم تبشرنا بأنا نسير نحو الشفاء منه. ولكنه سير بطئ يكاد يكون غير محسوس ولازم أن نستحث السائرين بل أن ندفعهم بعض الشئ حتى لا تكون حركتهم ذنب كل الحركات الأخرى. وعملنا فى هذا ليس بأقل أهمية منه فى غيره لذلك ليس من العقل أن نغضى عنه قائلين هذا ثانوى فاتركوه.

صحيح أن تعدد الزوجات نتيجة لا سبب فى أصل وجوده ولكنه أصبح اليوم سبب مفاسد شتى وخراب للعائلات كبير وأصبح من المحتوم العمل للقضاء عليه حتى يقضى على نتائجه.

كم من عائلة تفرقت ايدى سبأ من وراء تعدد الزوجات. كم منأخوة تنازعاوا واقتتلوا وتباغضوا لأنهم من زوجات مختلفة. كم نسوة بائسات يذرين الدمع على شبابهن وعلى حياتهنالان أزواجهن قد تركوهن وتأبى عليهن عفتهن أن يخاللن.

ـ ويعلم الله أن الحال الحاضرة عندنا وظلم الرجال الفاحش يجعل للمرأة عذر ان اتخذت رفيقا.

للمرأة شرف تحافظ عليه. عفافها يجب أن يبقى مكرما. يجب أن تبقى طاهرة الذيل نقية العرض. كل هذا صحيح ولكن المرأة لا تزال ولن تزال بنت آدم وحواء ولها نفس تحس وتتألم وحق إن اهتضم أثار من كامن ما بين جوانحها ما قد يدفعها إلى غير ما تحب هى وترضى.

لم يميل الناس على المسالم ويريدون نهبه وغصب كل حقوقه؟ ثم أن اراد الانتقام منهم رموه شر الرميات وسموه أقبح الأسماء.

وإنى لأعتقد أن كل خطوة تخطوها الأمة نحو استقلالها وحريتها تضيف حتما الى احساس المرأة دقة كما تضيف إلى إحساس الرجل وتجعلها كما تجعله اقل احتمالا للضيم واذا كنا جميعا نعمل جهدنا وبكل وسيلة لننال حريتنا فمن العقل أن لا ننسى النتائج اللازمة عن هذه الحرية.

إننا فى سعينا وجهادنا لا نعمل للحاضر وحده ولكنا نعمل لكل الأجيال القادمة . نعمل لأزمان لا تدرى أشكال الناس الذين سيكونون فيها ويكون أثرنا عليهم قويا بمقدار أثر من قبلنا علينا. إذن فلنكن أبعد نظرا من أن يحد الحاضر عيوننا فلا نرى إلا انفسنا.

وكل يوم نكسبه للتشريع الذى نريد إدخاله على قانوننا يوم كبير النفع لأن القوانين لا تنتج أثرها بمجرد إصدارها بل هى تأخذ زمنا طويلا لتدخل فى أخلاق الأمة وتمتز] بعادتها.

ولو أنا لنعطى المرأة حق طلاق نفسها بالشروط المذكورة فى المواد أى على أن تخبر به زوجها وهى تريده وتنويه لوفرنا على الزوج أن يكون فى موقف قد لا يرضاه أحيانا كما أنا نكون أعطينا المرأة قوة كافية تحارب كل فساد يأتى على العائلة من جهة زوجها أو يريد أن يأتى عليها نتيجة ما عندها من الضعف الطبيعى المركب فى النفس الإنسانية. كما أنا نحميها كذلك من شقاء كبير معلق على رأسها تتوقعه كل آن وحين ونضمن للرابطة التى بين الزوجين أن تبقى الرابطة الحرة الشريفة المبنية على اختيارهما.

اذا كان ملاك الاراضى فى هذه الأيام يطبعون إيجاراتهم ويضعون فيها الف قيد وشرط على المستاجر وتنفذ هذه الشروط عليه متى أمضاها فلم لا يحتوى عقد الزواج وهو أهم ألف مرة من الإجارة الشروط اللازمة مطبوعة عليه.

وبكلمة أخرى حيث أن ورقة العقد ورقة رسمية وهى الحكومة التى تطبع هذا العقد لم لا يدخل حق الطلاق للمرأة فى مواد القانون ولو فى هاته المسائل المحدودة القليلة جدا التى ذكرنا.

ولا يجب أن ننسى أن فتح باب الحرية فى هذه المسألة يسمح لعقد الزواج أن يسير سيره الطبيعى ويعطى النتائج المطلوبة منه وينتفى عنه هذا الشكل القبيح من أنه عقد استرقاق للمرأة يملك به الرجل كل شئ من أمرها ويصرف بيده حياتها وحريتها.

جاء فى قانوننا المدنى أن إجارة الاشخاص مدة الحياة غير ممكنة وتعليل ذلك أن فيه عودة للرق القديم. أليس عقد الزواج على ماعندنا أكثر من إجارة شخص بل هو شراء شخص يبقى فى حيازة الشارى ويرده له القانون بقوة البوليس إن نشز مهما أساء المالك معاملته ومهما اشترى إلى جانبه زوجات أخريات فمن العدالة إذن أن ننفى ولو إلى حد محدود هذه الصفه الدنيئة عن هذا العقد الشريف ونعطى للمرأة حق الطلاق متى ارتكب الرجل الجرم الفظيع المخيف جرم تعدد الزوجات.

— ٤ —

نص ثالثة المواد التى نريد ادخالها إلى قانون الاحوال الشخصية هو

«لايقع الطلاق الا إذا كان المطلق يريده وينويه وأن يعلم الزوجين به»

«وكل طلاق ينقصه أحد هذين الشرطين لا يقع».

قسم الفقهاء العقود إلى عقود يبطلها الهزل وعقود لا يبطلها. وهاته الأخيرة هى النكاح والطلاق والعتاق. فلو فرض أن فتاة خفيفة الروح جلست إلى جانب صديق لها أو ابن عمها يتقاصان الأحاديث ويضحكان فقالت فى ضحكها (بدى أجوزك ياابن عمى) وقبل هو أصبحت زوجته وملك عليها كل ما يملك الرجل على امرأته. كذلك لو فى هزل الرجل مع زوجته جرى على

لسانه الطلاق طلقت زوجته أو أكره على ذلك وقع طلاقه. ـ وكالطلاق العتق وهو ما لم يبق له أثر بعد زوال رق الأفراد ـ لذلك جاء فى المادة (٢١٧) فقرة ثانية من قانون الاحوال الشخصية ما نصه (ويقع طلاق كل زوج بالغ عاقل ولو كان.... مكرها أو هازلا) وأضاف الاستاذ الشيخ محمد زيد الابيانى فى شرح هذه المادة قوله (وكما يقع طلاق المكره عند أبى حنيفة يقع طلاق المخطئ والناسى فالمخطئ هو الذى يريد أن يتكلم بغير الطلاق فيجرى على لسانه الطلاق. والنسيان لا يتصور إلا فى فعل الشرط المعلق عليه الطلاق..... إلخ). وفى كل هذه الأحوال يقع الطلاق بلا نية.

لما أسند الفقهاء الطلاق للرجل دون المرأة عللوا ذلك تعليلات شتى أكثرها تداولا أن النساء يجزعن غالبا فيتأثرون بأقل مؤثر فيقدمن على الطلاق كثيرا. ولما كان مبنى عقد الزواج الاستمرار طول الحياة أو أكبر زمن ممكن جعل سبب التخلص منه بيد الرجل لأنه أقدر على نفسه وأكثر كبحا لجماحها ولا يندفع بالسرعة التى تندفع بها المرأة.

كل هذا كلام حسن ونتائج مبنية على أسباب ماداموا يعتقدونها صحيحة فالنتيجة قوية جدا. ولكن أليس يعد مناقضه نفسهم بنفسهم أن يأتوا بعد ذلك فيقولون يقع الطلاق ولو لم ينوه الرجل أو لو أكره عليه. يقع ما دامت تجرى حروفه على لسانه وكان فى شخصه قديرا على إيقاع الطلاق. ما أظن احدا ينكر ذلك مهما أراد الانتصار للمذهب القائم اليوم.

والذى اعتقده أن الذين قالوا الكلام الأول وعللوا ذلك التعليل المعقول هم غير الذين أصدروا الحكم الثانى وقليل من البحث يكشف الغطاء عن هذه الحقيقة. ويبدر إلى ذهنى أن القائلين بوقوع طلاق المكره والسكران ومن لم ينو الطلاق هم جماعة من يعتقدون أن المرأة لا روح لها وبالتالى فلا قيمة لها ومن لا روح له ولا قيمة له بقاءه وعدمه سيان خصوصا وأن الرجل يستطيع أن يضم إلى بيته من النسوة أربعا ومن الموالى ماشاء.

هل بقى من أحد يقول بهذا الرأى اليوم ويعد نفسه إنسانا عاقلا؟ هل فى بلادنا من يرى هذا الرأى فيظهره لنا ويجهر به ويقيم على قوله أدلته؟ أحسب الناس أصبحوا أعقل بكثير من هذا والزمان الذى يبين كل يوم عن جديد كشف عن أن المرأة إنسان مثل الرجل تحس وتتألم وتفكر وتعيش.

من أجل أن يتم الإنسان أصغر الأعمال قيمة نراه يطيل التفكير والتقدير ويستشير معارفه وذوى الخبرة فيما يريد عمله وينتظر اليوم وغدا وإلى شهر حتى يقلب الموضوع فى رأسه على مختلف وجوهه ويقدم ويحجم ويكاد يكون انتهى من كل شئ ثم إذا هو أعاد الكرة وبحث من جديد فإذا ما وثق من عمله أتمه بكل تحرز وتحفظ وأن تعلق هذا العمل بغيره دارت بينهما مكاتبات ومناقشات وجرى بينهما رسل ومتكلمون. أفنجعل نحن الطلاق مستهانا بأمره بحيث يقع لشئ وللا شئ وسواء فكر الرجل فيه أو لم يفكر واراده أو لم يرده وعلمت به زوجته أو لم تعلم نجعله العوبة واضحوكة.

يقال أن العرب قبل الإسلام كانوا إذا ارادوا الطلاق أدارت المرأة وجهة بيتها فجعلت الباب بدل أن يكون شرقيا غربيا مثلا (وهذا سهل بالطبع فى بيوت الشعر) فمتى رجع الرجل ورأى ذلك علم أن قد انتهت العلاقة بينه وبين زوجته. وما احسبها كان تأخذ هذا العناء قبل أن تفكر فى الأمر وتصمم عليه واذا اتفق ان ساقها طيشها إلى البدء فيه فإنها فى أثناء العمل تتروى فى المسألة وترجع إلى صوابها وأن أحوج الأمر ردت البيت إلى أصله. والتشريع فى كل الدنيا يسير إلى الإمام لا إلى الوراء ويزيد فى حرية الناس ولا ينقص منها.

وليت التشريع الذى عندنا وقف عند الحد الذى ذكرنا بل أن فيه سوى هذا مضحكات مبكيات فيما يختص بالطلاق والزواج يقف عليها من كلف نفسه عناء مراجعة أى كتاب من كتب الفقه ولو أصغرها حجما أو ما كتبه أقلام مفكرين اضطروا بحكم الوسط والحال التى وجدوا أنفسهم فيها لتسطير أشياء لو أنهم جلسوا بعيدا عن بلدهم وعن التفكير العام فيها لخجلوا من تسطيرها.

وأنى مـوقن أن ليس في بلدنا مـفكر إلا هو آس آسف على كـثـيـر مما في قـوانيننا. كـمـا لا أحـسب أحـدا يظن مـجـرد ظن في الدفـاع عن فكرة وقـوع الطلاق من غير نية. وأن أعمـالنا اليومية من أكـبرها إلى أصغرها لدرس غير صغير يعلمنا أنما الأعمال بالنيات وأن لكل امرئ مانوى.

بل الذى اعتقده أن كثيرين عندنا ممن خصصوا أنفسهم لدرس شئ غير القـانون لا يعـرفـون أن الطلاق يقع بلا نيـة. وكـيـف يدور ذلك بخلدهم وإن القـانون الا تقرير ما يفـهـمـه العقل وتوحى به المنفعة وكل قانون لم يتوفر فيه هذان الشرطان قانون فاسد. وأنهم ليدهشون متى علموا ذلك ويزيد دهشتهم إذا رأوا أن من الناس من لا يزال يجول بخاطره أن يدافع عن أمر غير معقول.

هذا الشئ الخطير ـ الطلاق ـ يكاد يكون الشئ الوحيد الذى ينفذ على الإنسان ولو لم ينوه ولو قاله مخطئا أو ناسيا وما سواه يستلزم النية. أشياء كثيرة جدا فى قانون العقوبات متى فقدت شرط النية سقط العقاب عن مرتكبها. فإذا فرضنا فرضـا غير معقول من أن الطلاق عقوبة نصبها على رأس الرجل فـمـا أصل جريمته التى تعاقبه من أجلها. ثم أى شئ يوجب اشتراك المرأة فيها حتى تقع هى الأخرى تحت طائلة العقاب. والأبناء إن كان ثمت أبناء ما ذنبهم.

قلّبت ما استطعت أمام نظرى علىّ أجد مبررا لوقوع الطلاق من غير نية فرجعت من تعبى بخفى حنين. رجعت خجلا أن نبقى السنين الطوال أن لم يكن القرون تحت حكم قانون غير معقول ونحن به راضون ولاحكامه خاضعون وعندنا من الشراح من يعلق عليه الشروح الطوال وينتحل لبقاءه اعذارا هو أعلم منى أنهـا واهيـة. رجـعـت وقـد علمت أن لا سـبـيل لاصـلاح خطأ الماضى إلا القضاء عليه واصدار تشريع جديد يسير مع روح الشرع ويقبله العقل.

ـ ٥ ـ

يجوز للزوج شرعا أن يؤدب زوجتـه فإذا أحوج الأمر أن يضربها أبيح له ذلك على أن يكون الضرب خفيفا. فإذا ما اشتد الخصام بينهمـا أو رفع الأمر

إلى الحاكم فله أن يعين عدلين ويجعلهما حكمين والأولى أن يكون أحدهما من أهله والآخر من أهلها ليستمعا شكواهما وينظرا بينهما ويسعيا في إصلاح أمرهما. أما اذا اشتكت المرأة نشوز زوجها وضربه إياها ضربا فاحشا ولو بحق وثبت عليه ذلك بالبينة يعذر ـ (راجع المواد ٢٠٩ و ٢١٠ و ٢١١ من قانون الاحوال الشخصية).

هذا هو الشرع على ما فسره فقهاؤنا. أى أن ليس للمرأة على الرجل من شئ فيم يختص بمعاملته إياها إلا أن لا يضربها ضربا فاحشا. وتقدير فحش الضرب بالطبع يختلف على حسب القضاة فمنهم من يعتبره كذلك لمجرد ظهور أثر الكرباج على جسمها وآخرون لا يقتنعون إلا إذا كان من نتيجته كسر ذراعها أو ساقها أو أحد أعضاءها. وفيما سوى هذا فلا حق لها فى الشكوى.

يحكون عندنا حكاية تفسر ذلك الرأى تفسيرا ظاهرا. ذلك أن امرأة اشتكت زوجها للقاضى مدعية عليه سوء معاملتها فلما سئل الزوج عن ذلك أجاب

ـ اسألها يا سيدنا القاضى. هى جعانه؟

أجابت المرأة ـ لأ

ـ والهدوم اللى هى لابساها ـ مين شاريها؟

ـ جوزى

ـ الولد اللى فى بطنها من مين

ـ من جوزى ـ كان ذلك جواب المرأة فى حياء

ـ اسألها ياسيدنا القاضى عايزه أيه لسه

فاقتنع القاضى بأن المرأة لا حق لها فى شئ وطردها من مجلسه.

هذا مبلغ ما تفسر به العلاقات الزوجية عندنا. والزوجة مهما كانت رقيقة حساسة مضطرة للخضوع لها والسكوت أمام كل ما ينزل بها والرضى بحالها مهما كان زوجها شرس الطبع قبيح الخلق ثقيل الدم ـ مهما عاملها أقبح المعاملة فهي لا تجد ما يدفع عنها شراسة طبعه ولا ما يحميها من رذائله. وبمقدار ما أهملها القانون وتشكلت طبعا بشكله العادات فساعدته أن يضيف إلى هذه الأخلاق من الزوج قوة. وبالزمان تتحول نفس المرأة من نفس صافية بكر لم تلطخ بسوء إلى نفس شريره دنيئة خبيثة. وبعد ذلك نقول ـ النساء شياطين.

قص على بعض من أعرف الحادثة الآتية قال ـ كنت فى بيت مأذون البلد وعنده رجل وامرأته يريد أن يصلح بينهما ويرضى الزوج عنها أو أن يطلقها. فلم يكد يذكر لفظ الطلاق حتى بدت على البنت علائم التأثر وانهالت الدمعة من عينها ومانعت فى ذلك جهدها. وكلما استنكر المأذون سلوكها وسألها ان لم تكن كارهة زوجها حلفت أنها لا تكرهه وكل مناها رضاه عنها. ولكن الزوج العنيد لا يريد أن يرضى ولا يريد أن يطلق. وأخيرا ساعدت المأذون عليه حتى قبل أن يطلق بشرط أن تعطيه خمسا وثلاثين مجرا عدد ماعلى برقعها. واشتد المأذون مع الصبية حتى قبلت أن تأتى بها وغابت ثم رجعت ومعها الذهب فنقدناه فإذا أكثر من نصفه ذهب كذاب. فلما اعلمناها الخبر ارتعدت مستغربة كيف يكون ذلك. وأخيرا جاءت بها ثلاثا وعشرين مجرا صادقة ووقع الطلاق وكتب الماذون ورقته وختمها الزوج. فما علمت أن اخذتها بيدها حتى إذا الدار ترن بزغروته طويلة وإذاها تميل على يدى ويد المأذون تقبلها ثم خرجت مستبشرة ضاحكة كأن قد حصلت على أكبر امانيها ثم أضاف إلى ذلك ملحوظته فانظر صاحبى مكر النسوان وخبثهن ولتعلم ان من تحت رؤوسهن تأتى كل الدواهى.

رواية مرتبة قامت الزوجة فيها بتمثيل فصلها أحسن قيام. حقيقة أنها خبيثة ماكره وعرفت كيف تصل إلى أن تطلق من زوجها. ولكن الذى علمها

ذلك المكر كله ليس أنها امرأة ولكن أنها مستضعفة أمام القانون والعادة مهضومة الحق يداس كل ما يخصها بالأقدام.

يوصف اليهود فى نواح كثيرة من الأرض بالخبث والدهاء. ليس ذلك لان خلقهم مركب فيه الدهاء، وان هم إلا ناس من دم ولحم ويأكلون ويشربون ولكن الضغط عليهم وتحميلهم الأذى والضيم والميل ضدهم يضطرهم للتهاون فى حقهم ثم يرسل إلى نفوسهم الخديعة والختل والمكر. ذلك شأن كل المستضعفين فى العالم وذلك الحكم يحكم به كل الأقوياء.

القضية العامة المسلم بها من الاكثرين أن المرأة ضعيفة. ولا نستطيع مع الأسف أن نطبق عليها قانون بقاء الأقوى لأنا فى حاجة مطلقة لها. فإذا كانت ضعيفة يكون من المعقول أن يأتى القانون لمساعدتها وتقوية عضدها ويكون لها منه ظهرا تستند إليه عند الحاجة أو أن يزيدها على ضعفها ضعفا حتى يضطرها لان تتحول من المخلوق الوديع الصافى إلى المرأة الخبيثة الماكرة.

يضرب الرجل زوجته تأديبا لها أن اذنبت. ومن ذا الذى يؤدب الرجل فى عظيم خطأه وكبير اعتداءه كل يوم وكل ساعة؟ ليس من العدل ان يترك هكذا مطلقا يعمل ما يريد ولا يجد من يرده عند حده وليس من الإنسانية ولا من الرحمة أن تترك المرأة الضعيفة من غير سلاح تدافع به عن نفسها.

أنا لا نريد لها أن تعتدى عليه يوما ما. هى أودع من أن تبلغ هذا الحد من الوحشية. ولكنا نريد لها درعا تحتمى فيه وتدفع به عن نفسها أن أحوج الموقف دفاعا وأن وجود درع لها ليكون من شأنه ان يرد الرجل إلى صوابه ويحفظ عليه غيظه أغلب الاحيان فلا يغضب لكل شئ بل ومن غير ما شئ ولا يضايقها بزوجة ثانية انتقاما منها ولا هو يسئ معاملتها حتى يضطرها إن شاءت الخلاص أن تدفع له جزية فادحة.

وما نطالب بكثير ولا نقول اجعلوا لها من الحقوق مبلغ ما للرجل فإنا نعتقد أن الرجال قوامون على النساء ولكنا نريد أن تكون فى مأمن من أن يتزوج

بزوجة ثانية إلا اذا كان الموقف يقتضيه بأن تكون الزوجة لا تصلح لشئ أو أن تكون سيئة العشرة بحيث لا تحتمل وفى كل حال أخرى تكون صلات الزوجية قد أصبحت معها غير ممكنة. وفى كل هذه الأحوال ليس من السهل تصور المرأة تطلق نفسها لأنها تعلم أنها تقضى بذلك على كل أمل لها فى الحياة الهنيه. أما أن نجبرها وهى زوجة صالحة قائمة بواجبها على البقاء مع رجل قلبه صادف عنها إلى غيرها طامع فى مطامع صغيرة فذلك الظلم عين الظلم. وغير هذا من الأحوال التى ذكرنا فى المواد المقترحة من أسباب طلاق المرأة نفسها فاحسبه من الوضوح بحيث لا يحتاج كلمة عنه. وكيف نجبر امرأة على بقاءها مع زوج زان لنطالبها فى الوقت عينه أن تكون عفيفه أو مع زوج ارتكب ما يمس شرفها وكرامتها. اللهم ان طالبناها بذلك فانا نكون من الظلم بحيث لا يحتملنا إنسان.

- ٦ -

قيل أن امرأة كان لها صاحب تجلس إليه ويتقاصان الاحاديث. فاراد يوما ان يضحك منها فحكى لها أن السلطان أمر بأن الزوجة يمكنها أن تطلق زوجها. فما لبثت أن سمعت الخبر حتى قامت مسرعة واخبرت به جماعة من صاحباتها. وما غربت شمس اليوم حتى قررن جميعا تطليق ازواجهن.

سمعت هذه الاحدوثة مرات من رجال ومن سيدات ويريد كل من قصها البرهان على أن وضع الطلاق فى يد المرأة يدعو إلى جعلها تسئ استعماله إلى حد فظيع فلا يكون أقرب على لسانها من لفظه عند كل صغيرة أو كبيرة تحدث بينها وبين زوجها.

اذا صح هذا فهو لا يمس المشروع الذى نريد أن يكون فى قانوننا بشئ. فأنا لم نعط المرأة الحرية فى الطلاق إلى آخر درجاتها كلا بل ولا إلى قليل منها بل حددنا هذا الحق لها وحصرناه ووضعنا له الضمانات بحيث لا يكون ألعوبة فى يد المرأة وفى الوقت عينه يكون المؤدب الذى يتقى الرجل شره. على

هذا فليس لاحد أن يجعل موضع مناقشة للمواد أن المرأة سريعة الغضب أو أنها خفيفة العقل فأنا لم ندع لها أن تجعل من غضبها سببا فى فساد.

هذا من جهة المواد فى ذاتها. وأما من جهة تقرير الواقع فلست أرى من السهل الحكم فى المسألة بحيث نعطى عنها حكما عاما وأخيرا كالذى تفيدنا إياه هذه الاحدوثة. وكما يفتكر كثيرون. فإنا لم نختبر المرأة بعد فى هذا الموضوع والنظريات كثيرا ما يبين الواقع فسادها إلى حد كبير. كما أن بعضهم يرى العكس من ذلك ويريد أن يكون الطلاق بمجرد ارادة أحد الزوجين فى يد المرأة دون الرجل ـ قال ذلك الكاتب «الطلاق بارادة أحد الزوجين تريدون؟ إذن فليكن طلاق المرأة زوجها لا الرجل زوجه إذ أن الطلاق بعض ما يسر به الرجل نفسه فى حين أنه للمرأة دواء محزن مؤلم لا تلجأ إليه الا للضرورة المطلقة». على أنه لا ضرورة للتمسك بشئ من هذا مادام كل طلبنا ينحصر فى نقطه محدودة وبسيطة وظاهرة.

يفكر آخرون ويظهر أن هؤلاء اكثر عددا من الأولين فى اخراج الطلاق من يد كل من الرجل والمرأة ووضعه فى يد القاضى فإذا ما اختلفا تخاصما إليه فى خلافهما وله هو اذ ذاك الحكم ببقائهما أو بالتفريق بينهما بمقدار ما تثبت له الادلة الموضوعة أمامه من كلا الطرفين. وحكمه ككل الاحكام نافذ عليهما.

هذا كلام قد يتفق مع ظاهر القانون ومن الممكن جدا لاصحابه أن يقولوا أنه يضمن بقاء رابطة الزوجية ويعطى للعائلة القوة اللازمة لحفظ كيانها وبالتالى لحفظ كيان الأمة. وأن الطلاق يكون معه نادرا مما يجعل الصلة بين المرء وزوجه تصبح على ما يقصد منها شركة الحياة.

كل هذا حسن إذا صح ولكنا مع الأسف نراه غير صحيح ـ فإنه أولا لا يتمشى بقليل ولا بكثير مع روح القانون إذ القاعدة العامة حرية التعاقد وأن كل شخص مكلف بالقيام بما تعهد به فإذا لم يقم به كان للقاضى أن يقدر مبلغ الضرر الذى ينتج عن هذا الامتناع فى شكل غرامة مالية وليس فى طوقه ان

يجبره على سوى هذا. وإذن فاعطاؤه حق إرغام المرأة على بقاءها مع زوجها أو الرجل على بقاءه من امرأته منافاة لروح القانون وللحرية الشخصية.

على هذا فإن ما يظهر على هذه الدعوى لأول نظرة من اتفاقها مع القانون غير صحيح. ولا وجه للاحتجاج بما عند أوربا فأنهم كما ذكرت قبلا منتقلون من أن عقد الزواج عقد فيه يد الله ولا يمكن حله في حين ان عندنا حق الطلاق مطلق بيد الرجل يصرفه كما يشاء. وإما ان هذا الرأى يعطى للعائلة قوة فهو تزويق ينجلى لاقل تدقيق. إذ لو فرضنا تنفيذ قانون كهذا وحكم قاض ببقاء زوجة كارهة فى عصمة زوجها كان ذلك مما يدعوها لإدخال ابناء فى العائلة لاحق لهم أن يكونوا فيها ويفسد بذلك أمرها وينقلب بنيانها وتضعف الروابط فيها بين الزوجين وبين الرجل والاولاد ويصبح حالها مزريا يستحق الرحمة.

وان الشكوى التى عمت أنحاء أوربا اليوم من فساد العائلة هى فى الواقع نتيجة هذا الحجر على الحرية عندهم. فإن المرأة التى لا تجد وسيلة للخلاص من زوجها بالقانون وتسد فى وجهها أبواب الفرج تلجأ إلى حمى غيره حتى تستريح من عناءه. وما أدرى اذا كان الحال على هذا عندنا غير أنى أعرف أن كثيرات من طبقة العمال والاوساط فى الريف يركنّ إلى شئ يشبهه فتجد الواحدة منهن من اللذة فى خيانة زوجها الذى تكره ما يحرضها على ارتكاب أشياء لم تكن ترضاها من قبل وذلك لتحمله على تطليقها.

اذن فليس بصحيح أن هذا القانون المرجو الذى يسمح للقاضى بالتداخل فى أمر الطلاق يكون سببا فى احترام رابطة الزواج ولا فى حفظ كيان العائلة ولا فى شئ من هذا بل أنه يكون اعتداء على حرية مقدسة هى حرية الاحساس ويضطر كثيرين وكثيرات لاذاعة أشياء لا يودون إطلاع احد عليها من أسرار العائلة. وهل من العدل أو الذوق أو من المعقول أن يجعل الإنسان يسرد الحوادث الدخيلة التى تغير من أجلها شعوره ليحكم فيها محكمون.

اذا كان هذا الرأى لا يسير مع القانون ولا يتفق مع المصلحة ولا ينصح به العقل فأى سبب دعى أصحابه للقول به ومنهم عقلاء مفكرون ليس من السهل الحكم بأنهم قالوه جزافا؟ السبب بين واضح. أنهم رأوا كثرة الطلاق عندنا إلى حد مريع وقفوا ازاءه مبهوتين وارادوا فى الوقت عينه أن يجدوا ما يداووا به الحال. وأول ما يطرأ بالبال أن يضع الإنسان فى الطريق مانعا يقف فى وجه الشر الذى يرونه وكأنما يغيب عنه أن وضع المانع يضيف إلى قوة هذا الشر المحجوز فيدفع بناره كل ما أمامه ويسير بقوة أكثر من ذى قبل. فى حين إن اسطاع أن يجد له منفذا ينصرف منه هدأ ذلك من حدته رويدا رويدا حتى يزول. كذلك لنقوم نحن فى وجه الطلاق بحزم وحكمه يلزم أن نضع مانعا فى الطريق مسألة الارادة والنية وعلم بالزواج الثانى ثم نفتح منفذا بأعطاء المرأة حق الطلاق ولو فى المسائل القليلة التى ذكرنا.

وإنه ليخيل لى أن هؤلاء المفكرين لم يرد ببالهم هذا الحل ولو أنه ورد لما استعاضوا عنه بديلا ولا عدلوا به آخر يقص أطراف حرية نملكها اليوم ويجعلنا بدل أن نتقدم مع الزمان إلى أوسع نطاق ممكن من الحرية نتقهقر يوما بعد يوم. كما أنه يظهر لى كذلك ان الحال فى أوربا بلاد المدنية أثّر عليهم فقالوا ومالنا لا نكون مثلهم فنبلغ مبلغهم وترقى العائلة عندنا رقيها عندهم. ولكن العادات والاخلاق والآداب فى الأمم لا تجئ مسألة نقل عن آخرين ولكنها نتيجة عمل أزمان وأجيال تنقلت فيها الأمة من حال لحال وتدرجت من يوم إلى ما بعده وتنمو فيها عادة وتستيقظ أخرى ويقوم قانون ويلغى آخر مع دورة الزمان. لذلك من الخطأ الواضح أن تريد أمه أقامة بنيانها بمجموع أخلاق غيرها وقوانينهم وآدابهم فأنها ان عملت ذلك فقدت شخصيتها ونسى أبناؤها أنهم أبناؤها إذ لا يجدون قلوبهم ملأى باحترام ماضى أمتهم الطويل وأن وجهوا أنظارهم لشئ وجهوها لمن أخذوا عنهم فتموت فيهم صفات الأمة وتسقط عنهم كل معانيها.

حسبنا ما أخذنا فى الماضى عن أوربا ارضاء لاطماع ملوكنا وحكامنا فأنا لانزال ننوء باحماله إلى اليوم ولنجعل مستقبلنا دائما نتيجة من نتائج الماضى

تنقلها الايام وتضيف لها قليلا قليلا من أجزاء الحرية التى نفقد وأنا بعد ذلك على يقين من أن الغاية التى نصل لها تكون أرسخ قدما ألف مرة مما لو كنا لنستمر فى التقليد البحت كما أنها تكون أقرب منالا.

ـ ٧ ـ

من الأشياء التى تشغل فكر كل باحث فى شأن العلائق بين الرجل والمرأة مسألة العائلة. فهى دائما الغاية التى يرمى إليها بفكره وأكبر آماله أن يصل من بحثه إلى جعلها متماسكة وسعيدة. ذلك لأن العائلة هى الأمة المصغرّة فإذا ما سعدت هى وتماسكت كان ذلك سعد الأمة وتماسكها ـ هى كذلك موضع فزع انصار الحاضر المتخوفين من كل تغيير المعتقدين أن كل خطوه إلى الأمام دخول إلى عالم الشرور وهؤلاء يخيل لهم أن الموجود مهما كان به من فساد وعوج خير من غير الموجود ولو تحقق عنه النفع والخير.

لا حاجة لى أن اذكر هنا فساد هذا المبدأ فلو تحقق يوما ما لكان الضربة القاضية على العالم ولو عمل به جديا لكنا اليوم لا نزال فى عهد آدم وحواء. هذا رغما عن أنه من المحال أن يعمل به إذ ما دام للناس فى رؤوسهم عقول يفقهون بها وأعين يبصرون بها فهم دائما سائرون ارادوا ذلك السير أو أبوه.

مسألة العائلة مسألة كبيرة عويصة الحل ومن أجل أن نصل إلى اسعادها يجب أن نضع أمامنا فروضا كثيرة لنرى أيها يصل بنا إلى ما نشاء. وكما هو الحال فى كل أمور العالم يلزم أن نطلب دائما ما هو أحسن من الحاضر ونوجه كل سعينا هذه الوجهة غير متخوفين ولا مزعزعى العقيدة فى ما نعمل أو الثقة بأنفسنا ـ يجب أن نطلب ذلك مهما كان الحاضر حسنا فإن الكمال لم تطء قدمه أرضنا بعد وكل عمل الإنسانية انما هو السعى نحو الكمال.

فرضت أمامى أشكالا من العائلة متعددة فلم يكن ما عندنا اليوم بخيرها كلا بل ولا هو بالحسن منها. وما بالك بعلاقة منغصه العرى ورابطة مفصومة

وافراد كل يحس من ناحيته غير التى يحس منها صاحبه ويفهم بشكل غير الذى يفهم به الآخر ويعيش بعيدا عنه أغلب الأحيان ويهتم بأمور لا تعنى الثانى ولا يعلق عليها شيئا من الأهمية. فإذا ما جمعتهم الصدفة أو الحاجة رأيت مجموعا مفكك الاجزاء يحكم عليه أغلب الاحيان سكوت أخرس واذا ما تكلموا ظهر على كلامهم من أثر التكلف وينادى كل منهم صاحبه اما بألقاب التفخيم والتبجيل والاجلال أو الاصغار والاستهانة. ما بالك بقوم ينحصر كل ما بينهم من الصلة فى إنتاج الابناء.

ولقد وجد من يهتمون بزيادة الأمة ضعفا عن ذلك المكان ما يبلغون به غرضهم، فزادوا الهوة بين المتفرقين سعة وخرّجوا الابن على غير شكل آبائه واعطوه من التعليم ما لا يبقى له سبيلا لمشاركتهم فى الاحساس. ولما كنا لا نهتم بشأن الرابطة بيننا وبين ابنائنا وأزواجنا بما نفثه هذا الشكل من الحياة فى قلوبنا لم نشعر بعملهم ورحنا نتخبط فى البحث عن اذاهم وننسب لهم أشياء كثيرة صغيرة فى حين نسينا هذا الداء الكبير.

أصل هذا الضعف فى البناء العائلى عندنا يرجع إلى أسباب متعددة من أقواها ما نعانى اليوم من تعدد الزوجات والطلاق. وما أحسب إنسانا يتردد مطلقا في القول بأن وجود زوجتين لرجل واحد كلاهما أم تحب أبناؤها يخلق بين الأبناء وآباءهم أو بين الاخوة فيما بينهم من خير مطلقا. وأنى اؤكد للقارئ أنى أعرف اشخاصا هم أكبر اخوانهم اعطتهم الصدفة من الحظ ان وجدوا بعيدا عن عائلاتهم هم ومن اصغر منهم واوحى لهم عقلهم أن يجاهدوا ما استطاعوا لمحو كل ما من شأنه أن يعد فرقا بين اخوتهم الاشقاء وبين الآخرين وعملوا لذلك كثيرا ومع ذلك وبعد أن حسبوا أنهم افلحوا اذا حوادث صغيرة اثارت خلافا ظهر لهم من خلاله مبلغ خطئهم وأنه لا تزال الفروق توجد ويعد الصغير احد اخوته احب إليه لا لشئ آخر الا لأنه أخوه شقيقه.

هذه نتيجة مؤلمة ولكنها الواقع. وأكثر منها ايلاما ما أعرف كذلك عن كثيرين شكوا إلى مّر الشكوى مما تثيره زوج أبيهم بينهم وبين هذا الاب من

الخلاف حتى لتحمله أحيانا على ارسالهم على وجههم يبتغون رزقهم من غير ما رحمة ولا حنان.

واشد ايلاما وأوقع فى النفس حال أبناء المطلقة. يالشقاءهم. لا يجدون فى الشتاء القارس مبيتا عند أحد والزوجة الجديدة أو الزوجات الاخيريات مع ابناءهن فى الكن والدفء. يسير ابن المطلقة البائس وسط صحن الدار يقرسه البرد حتى اذا ماكده الألم غلبه النوم فيلجأ إلى جانب من جوانب الدار يتحذ مخده تحت رأسه عتبة قاعه من القاعات أو قالبا من الطوب أو يلجأون إلى غرفة الخدم ـ هذا فى الارياف وما أدرى ما شأن البائس المشرد تحت سماء القاهرة.

وليس أحسن حظا من ابن المطلقة الباقى مع أبيه ابن المرأة المكروهة من زوجها التى تثير فى نفسه لكل مقابله لها معه من القسوة والحقد ما يجعله الأسد الضارى المفترس.

يجب من أجل سعادة العائلة أن يكون بين الرجل وزوجته شئ من الحب أو على الاقل شبه الحب وهل يتيسر ذلك مع تعدد الزوجات. كذلك لابد ان يشعر الابن فى اعماق نفسه بالصلة الكبيرة بنيه وبين اباءه. يجب أن يحس أن هناك بينهم شئ آخر سوى أنهم ينفقون عليه ويقدمون له أسباب معيشته ـ إن هناك رابطة قوية بين أبويه وأخوته وبنيه وأن هؤلاء الذين يعيشون معه تحت سماء واحده أيام صغره ليسوا افراد أوجدتهم الصدفة فهم كغيرهم بالنسبة له ولا هم مضايقات ارسلت بها الطبيعة لتفسد عليه حياته ولكنهم أهله الذين يحبونه ويسرون معه ويتألمون لألمه ـ وهل ذلك ممكن مع حالنا التى وصفنا.

اذا كانت السعادة غير ممكنة مع هذه الحال فأى لذة ترانا نجد فى بقاءها أو أى قوة ترغمنا على هذا البقاء؟ لم نتمسك بها ولا نبحث عما هو خير منها؟ هل ذلك تعلقا منا بالحاضر؟

يقول أقوام ـ بالله لقد جُربت علينا اشياء كثيرة فى مسائل الحكومة والادارة ولم تنجح فلنقنع بما عندنا ـ فيها وفى غيرها ـ ويقول آخرون ـ ان المساواة بين الرجل والمرأة لم تجرب بعد فى أمة من الامم فلا نجربها نحن ـ

ويتبع هؤلاء من يقول ـ كذلك كل شئ لم يجرب عند غيرنا احرى بنا أن ننتظر فيه الغير وعار على الامة كل ما يقولون ـ هل قضى علينا قضاء اخيرا ان نكون اذنابا لكل الامم؟ أم نحن من قصر النظر وضعف النفس بحيث لا نستطيع سوى تقليد غيرنا.

اكرر ان لنا ماضيا يجب ان نحتفظ به ونبنى عليه حتى يكون سيرنا اكيدا ومعقولا. وأن نستمر فى البناء مقدمين غير متهيبين فإن الامم مجموع اجيال على قرون من الزمان عديدة ونسيان الحاضر الماضى جريا وراء أقوام غيرنا قتل لقوى وملكات وفصم للسلسلة المتتابعة بين الاجيال. كما أن الرضى بالحاضر والتماوت عليه وقوف فى حين يمشى العالم وجمود غير مغتفر. فإذا صدق ما نطلب من التقدم واذا كنا ككل الناس مدفوعين بطبيعتنا للسير إلى الإمام فلنسر من غير ما تخوف ولا وجل.

واذا كنا نسارع إلى اصلاح الممكن اصلاحه فها هى العائلة تئن وتضج ومظهرها وحده يستدعى الرحمة فلنسارع لاصلاحها. واصلاحها إن لم يكن بالامر السهل فما هو كذلك بمستحيل.

ـ ٨ ـ

مصاب العائلة نتيجة من نتائج التشريع الحاضر وما تركه من الأثر فى النفوس بالزمان الطويل واعتقاد الناس أن هذا التشريع قضاء من الله نازل بهم فواجبهم ان يشكلوا أنفسهم بشكله حتى يقدروا على احتماله. ومع أن هذا الاعتقاد غير صحيح إذ القوانين التى تحكمنا اليوم هى قضاء أبى حنيفة وأصحابه ومن تبعه وأحكام الولاة وذوى السلطة فقد بقى راسخا فى نفس الكثيرين ولا يزال من الناس من يؤمن بأن تغييره تغيير لما أنزل الله ـ وإن تغييره إلا تغيير ما قال أبو حنيفة أو أحد أصحابه ممن عاصره أو جاء من بعده.

أما التشريع الذى نقترح وضعه فمع تمشيه مع أصول الشريعة ومع موافقته لأقوال جماعة من الفقهاء فهو رغما عن أنه خطوة ضيقه جدا فى طريق سيرنا

يفتح لنا بابا نسير منه بالفرد وبالعائلة إلى السعادة التى ننشدها ويقف حائلا دون اضرار شتى وفساد كبير مما هو ناتج عن التشريع الحاضر. كما أن له فضيلة أنه نتيجة قريبة عن هذا التشريع الحاضر ماذا عملنا نحن؟ شيئا بسيطا جدا. حددنا وقوع الطلاق بالحد المعقول من النية والارادة وعلم الشخص الثانى به. وكل تلك الحدود توجد فى العقود كلها وفى التصرفات من أى نوع كانت. فإنه أن فرضنا وتم عقد بيع مثلا ثم اراد المتعاقدان فسخه أو الرجوع فيه لم يصح رجوع من أيهما إلا إذا نواه وأخبر به الآخر، وغاية ما فى الامر ان لم نجعل رضى ايهما هنا واجبا لان هذا الرجوع يتعلق بالحرية الشخصية وكل ما تعلق بها لا يكون فيه الزام أو جبر إلا أن يحكم القاضى بالتعويض على الراجع. وأقرب العقود شبها بعقد الزواج ويعطينا معنى منه كاملا عقد اجارة الاشخاص وكل العقود الشخصية. فلو حصل واتفقت مع آخر ان يبنى بيتا ثم امتنع لم يكن فى طوق احد ولا القاضى ولا غيره ان يجبره عليه وإنما ينفذ على ماله التعويض الذى يحكم لى به.

وأعطينا المرأة حق طلاق نفسها فى أحوال شتى. لم تتقدم بكثير عن القانون الموجود اليوم. أنه يسمح لها ان تشترط لنفسها حق الطلاق فى العقد فنقلنا نحن احوالا محددة وجعلناها بدل أن نشترطها فى العقد تكون لها من غير شرط. على هذا فعملنا الذى نريد اليوم ليس هدم الحاضر ولكن تعديله تعديلا بسيطا.

مع بساطة هذا التعديل فإنه سيفتح لنا بابا تسير منه العائلة للسعادة. ذلك أن يخرج الزوجيه من أن تكون الحياة المملوءة بالانانية. والكبرياء من جهة الرجل والتذلل والخضوع من جهة المرأة إلى حياة يخالطها شئ من الحب المتبادل والشرف والمساواة إلى حد ما. ويرفع بذلك حتما من نفوس الجميع إلى شئ من العزة ويعطيها من الحرية ما تعرف معه كيف تطعم العيش السعيد.

محال ان يكون لحياة العائلة قيمة مادامت المرأة تحس من جانبها بالضعف المطلق لأنها تصرف وقتها إذ ذاك لا فى تربية أبناءها تربية حسنة حرة ولا فى

تنظيم بيتها تنظيما اقتصاديا وجميلا معا ولا فى العمل لعزاء زوجها عما قد يصيبه ولكنها تصرفه فى الجهاد للوصول إلى الطريق التى تملك منها على الرجل كل وجوده ويكون لها عليه من السلطة مقدار ما له عليها. وتصبح الحياة المتبادلة بينهما لا حياة هناء مشترك يتذوقان لذتها معا مسرورين بوجودها ولكن حياة جهاد من جانب المرأة ان تجمع فى يدها قوة تعدل ما وضع القانون فى يد الرجل وحياة تخبط من جهة الرجل فى أمر زوجه وحياة شر وفساد من جانبهما معا.

لكن إذا حققنا لهما شيئا من المساواة مهما كانت جزئية وجعلنا الزوج يشعر بوجوب احترام زوجته وجعلناها تشعر هى من جانبها أنها عزيزة الجانب لم يبق هناك من حاجة لما ترمى به اليوم، وبحق أغلب الاحيان، من المكر بزوجها وقياده إلى حيث تريد هى بطرق شيطانية لا يعرفها هو ولا يعرفها امثاله ولكنما يقف على دقاقها من عليه من الضغط الشديد مبلغ ما هو واقع على رأس المرأة.

والواقع أنه كلما تساوت حقوقهما أمام القانون كلما كانا أقرب للسعادة. ولكنا لا نطلب ذلك اليوم. لا نطلب للمرأة أن تطلق الرجل متى شاءت لان الاجتماع الحاضر عندنا لا يساعد عليه ولا ينصح به وليته كان ممكنا فكنا طلبناه ولكنه غير ممكن.

يقول أقوام أن هذه المساواة غير معقولة مطلقا لأن طبيعة المرأة غير طبيعته وأن بينها وبينه من الفروق فى الوظائف الاجتماعية ما يجعلنا نجزم بوجوب التفريق وأن نزيد فى حقوقه على حقوقها. ولا أناقش مطلقا فى أن بين الجنسين فرقا ولكنى أقول أنه مهما يكن الفرق فلا يدعو للتفرقة بينهما فى التشريع.. هل نفرق نحن بين الغنى والفقير أو بين القوى والضعيف أو بين العامل والكسلان أو بين العالم والجاهل أو أنا نقول أن الناس جميعا متساوون أمام القانون وتخالفهم فى الطبقات والدرجات والاشكال لا يبرر مطلقا ايجاد تفاوت بينهم من الوجهة القانونية.

أو أنه يخلق فروقا لأن الطبيعة وضعت الرجل فى مركز غير الذى وضعت فيه المرأة؟ ما اشبهه إذ ذاك بالرومان والاقدمين ممن كانوا يحكمون العامة بقوانين غير التى تحكم الخاصة واذا كان اليوم الذى تساوى فيه جميع الرجال جاء قبل اليوم الذى يتساوى فيه جميع الناس فليس ذلك لان هذا اليوم الثانى غير آت ولكن لان اليوم الأول وجد انصارا قبله.

كل ذلك نقوله مع اعتقادنا أن الزمان الآتى هو الذى سيحققه وأما طلبنا اليوم فهو محصور فى المواد التى قدمنا ذكرها والتى نظن أنها أقوى الضمانات فى الحاضر لسعادة الفرد والعائلة وبالتالى لسعادة المجموع.

الاقتصاد السياسي وقواعد الاخلاق

لما جاء عصر الاصلاح وبدأ عهد التفكير الحر في أوروبا وأصبح لمن سوى رجال الكهنوت حق النظر والبحث في الأمور قام عدد كبير من العلماء يضعون قواعد العلوم المختلفة وفروع تلك العلوم. فانقطع جماعة للفلسفة النظرية وألف آخرون في مسائل الأخلاق وكتب غيرهم في السياسة ووضع جماعة القواعد لعلم الاقتصاد السياسي. ومع تقارب هذه العلوم واتصالها فقد اطلق كل كاتب لنفسه العنان في السبيل الذي اختط طريقه غير مهتم بما يقال في العلوم الأخرى ولا يتعارض نظرياتها مع النظريات التي يضعها هو في علمه أو فنه. وأصبح كل منهم معتمداً على دقته في المنطق الاعتماد كله مؤمناً بالنتائج التي يصل إليها معتبراً إياها القواعد والقوانين التي لا سبيل لنقضها والتي تعبر عن حقيقة الواقع في الحياة. فإذا اعترضت سبيله بنظرية أخرى في علم غير الذي يبحثه قال لك أن الوجود العام لا يستحيل معه التناقض بل هو بعض مشتملاته وأنه لذلك لا يعبأ باعتراضك ويطلب منك إذا أردت مناقشته أن تأخذ نظريته كلها بناء واحداً فإذا وجدت فيما بين اجزائها تناقضاً كان لك أن تؤاخذه به. وكان ذلك الشأن يتبع أيضاً فيما بين علماء الاقتصاد السياسي وعلماء الأخلاق. فالاولون يقولون أن نظريات علمهم ترمي لغرض خاص هو استفادة الانسان بالحظ الأكبر من المال أو بعبارتهم الخاصة أن علمهم هو العلم الذي يستظهر القوانين التي تضبط حاجات الإنسان في علاقاته بالمادة المقومة التي هي المال. وسواء لديهم أكانت هذه القوانين متفقة مع قواعد الخلق أو متعارضة معها فإنهم لا يحجمون عن تقريرها والعالم الأخلاقي بعد ذلك وشأنه في علمه الخاص ببيان أكمل الروابط التي تضمن بقاء الاجتماع الإنساني سعيداً بالخير والحق. وكان ذلك الشأن أيضاً شأن علماء الأخلاق الذين كانوا يهتمون ببحث الصورة الأخلاقية الكاملة للإنسانية ولو أدى وجودها على هذه الصورة لأن تكون مغلسة اقتصادياً تمام الافلاس.

وقد وجه الاقتصاديون الأولون أكبر همهم إلى إقامة البناء الاقتصادى على أساس من فكرة المصلحة الذاتية التى يجب تركها وشأنها تتكون وتنمو وتنتج كل ثمرها من غير أن يقف فى وجهها مانع من قانون أو عائق من أى نوع كان. فتحكم المصلحة الذاتية فى الأعمال والعلاقات الإنسانية هو عند آدم سمث ومن تقدمه ومن سار على سنته الضمان الوحيد لوصول الأفراد والأمم إلى الأوج من الحياة الاقتصادية. وكل شىء يقف فى وجه هذه المصلحة الذاتية وحركتها لا يمكن أن يكون خيراً اقتصادياً. ولو استطاعت الجماعات والأمم أن تصل لتلغى كل القوانين وتعيش مضمونة السلم من غير حكومة لكان إلغاء القوانين وإنهيار الحكومات أكبر تقدم اقتصادى فى نظر الفرديين يمكن للإنسانية تحقيقه.

ولا يحسبن أحد أن فى تحكيم المصلحة الذاتية للأفراد ما يضر بحال الجماعة الاقتصادية. لأن المصالح الفردية تتقابل آخر الأمر وتكون مصلحة الأمة. ومادام الفرديون قد جعلوا المصلحة الذاتية أساساً فهم بذلك قد حرضوا كل فرد على أن يعمل أكثر ما يمكن وبذلك تجنى الجماعة أكبر مجموع ممكن من الجهود.

لكن تحكيم المصلحة الفردية يضعف الحال الاخلاقية حيث يجعل المبدأ السائد مبدأ تبرير الغاية للواسطة. ومادمتم ياسادتنا الفرديين تريدون تحديد القانون والحكومة وجعلهما مجرد شرطة لمنع الاعتداء الظاهر فإنكم ستجعلون الغلبة فى الحياة للماكرين والمخادعين والسفلة والمنافقين. كما أن ما يترتب على نظريتكم من مناصرة الملكية الفردية إلى أقصى الحدود سيحقق ظلم طائفة الملاك والرأسماليين لطائفة العمال والمفكرين ظلماً فادحاً. وستدسون بذلك فى الروح العامة معنى الانقسام والنضال بدل تحقيق فكرة التعاون والتضامن. وستجنون بذلك على الانسانية وأنتم لا تشعرون.

قال الانفراديون أول ما وجهت لهم هذه الاعتراضات: ما تلك إلا أوهام أخلاقى ينظر للنجوم ولا يقدر للقوانين الطبيعية حسابها. إنا يا سيدى الأخلاقى

علماء نستنبط قوانين الطبيعة ونطبقها ولا يهمنا ما تقول لأنه ليس من شأننا. وهذه القوانين تدلنا على أن المصلحة الذاتية هى الدافع الأول والأخير للعمل فى الحياة. وكل منا مسوق للتقاعس فلا ينفق إلا أقل مجهود تستلزمه أحوال المعيشة. وما لم يكن هناك دافع داخلى يحرض على العمل هو دافع المنافسة قلت المجهودات التى تنفق وتدهورت أحوال الأمة الاقتصادية. وكل مداخلة خارجية يمكنها أن تحدد المجهود الفردى هى لذلك ضرر يجب استئصاله ومقاومته.

ومادمنا قد سلمنا بهذا الأساس فيجب أن نرتب عليه جميع نتائجه. الملكية الخاصة. وربح رأس المال. وإيجار الأرض. وكذلك أجرة العامل. وحرية التعاقد الفردى بشأن ذلك كله. والميراث عند عدم الوصية.

المال

كل ما فى الوجود من تعس وشقوة وكل ما يرتكب من جرائم وفظائع وكل ما تتلوث به النفوس من رذائل ودناءات سببه المال. ليس ذلك لأن المال شر لذاته. لكنه وسيلة الخير والشر معا. فلما اختص به قوم دون آخرين سولت لهم نفوسهم أن يرتفعوا به عن مصاف من حرموا منه فكان النضال وكان التنافس على أتعس صوره وأدناها.

ولو أن المال كان كالهواء والماء يتمتع الناس به جميعاً كل حسب حاجته وإلى مدى هذه الحاجة فقط إذن لرأيتهم يعنون بطهارة المال عنايتهم بنقاوة الهواء ثم يعود ذلك عليهم بالخير والبركة ولكان لهم جميعاً من بحبوحة العيش متسع.

بعض اصلاحات - ٢٢ أبريل سنة ١٩١٩

يجب السعى وراء استئصال داء بدأ يستفحل هو سوء تقسيم الملكية. فقد اصبحنا نرى فى كل جهات القطر صاحب آلاف الافدنة من ناحية والعمال البسطاء جدا من ناحية أخرى. والعهد الماضى الذى وجه عناية كبرى إلى ما يسمى تحسين الحال المادية والذى خلق اسلحة شتى لارباب الأموال لم يعن مطلقا لا بتربية الروح العامة ولا بمعرفة الاعمال النافعة من الوجهة الفعلية أو الادبية ولا بتربية الفلاح. ولما كانت البلاد لا تحتمل تغييرا فاحشا فى نظامها بسبب الجمود الذى أوصلها إليه العهد الماضى وجب إجراء بعض تغييرات للاسراع بالسير فى سبيل الاصلاح. من هذه التغييرات ما يأتى:

أولا: حل جميع الأوقاف الأهلية وجعلها مملوكة لمستحقيها حالا كل على نسبة الاستحقاق الذى له عدا ابقاء الخمس منها ينصرف ريعه حالا إلى جهة البر المحددة فى حجة الوقف مع مراعاة الضوابط الآتية فيما يتعلق بذلك.

ثانيا: ينظر فى جهة البر الموجهة إليها الأوقاف الخيرية. فإذا كانت خارج القطر وجب تحويلها إلى جهة فى داخل القطر عدا أوقاف الحرمين. أما إن كانت داخل القطر فينظر فى فائدة الجهة ومقدار مصلحتها. فإن تبين أن هناك فائدة منها ومصلحة عامة فيها بقى الريع موجها لها. وإن تبين أن لا فائدة منها يعين من الوقف ما يفى بحاجتها ثم يحول الباقى إلى جهة ذات فائدة ومهمة للمصلحة العامة. مثال ذلك الأوقاف الموجهة إلى بعض المساجد. فإن هذه يعين منها على مقدار حاجة المسجد. والباقى يوجه ريعه إلى جهة أخرى كالأزهر أو كالجامعة المصرية أؤ كتعميم التعليم الابتدائى أو كأن تخلق حلقات علم فى هذا المسجد نفسه.

ثالثا ـ تتبع فى الضريبة العقارية الطريقة النسبية. فالعشرون فدانا الأولى يؤخذ عنها عشرة فى المائة من الريع ومازاد على ذلك إلى مائة فدان يؤخذ منه خمسة عشر فى المائة وما زاد إلى ثلاثمائة عشرون فى الماية. ومازاد إلى ستمائة

خمس وعشرون فى المائة ومازاد إلى ألف ثلاثون فى المائة. وإلى ألف وسبعمائة وخمسين أربعون فى المائة وإلى ثلاثة آلاف خمسين فى المائة. وإلى خمسة آلاف خمس وستون فى المائة ومازاد عن ذلك خمس وسبعون فى المائة.

رابعـا ـ تؤخذ الضريبة العقارية على المنازل فى المدن على النسبة المقومة بالنسبة لقيمة المنزل على اعتبار أن كل مائة جنيه توازى فدانا.

خامسا ـ تؤخذ ضرائب على الإيراد بالنسبة للمشتغلين بالمهن وللمحلات التجارية أيا كان نوعها على اعتبار ايراد الفدان عشرة جنيهات.

سادسا ـ يسار فى طريقة الضرائب الجمركية على مبدأ المساواة بين جميع الأمم وحماية المصنوعات المصرية.

سابعا ـ التعليم الأولى مجانى إجبارى إلا لمن أثبت أن ابناءه ذكورا أو إناثا يتعلمون بمصاريف فى إحدى المدارس. ومدة التعليم ست سنوات ابتداء من السادسة إلى الثانية عشرة: .السنتين الأوليين يكون التعليم فيهما أربع ساعات كل يوم وساعتين رياضة. والسنين الباقية يكون التعليم فيها أربع ساعات وأربع ساعات عمل يدرس فى الزراعة أو فى أجدر الصنائع.

ثامنا ـ تسرى الضرائب على الأجانب إذا كان لها مثيل فى الأمة التى ينتمون إليها بمجرد صدور قانون على الأهالى بها. أما إن لم يكن لها مثيل فتمر بالهيئة التشريعية الخاصة بنفاذ القوانين المصرية على الأجانب.

القسم الثالث

ما بعد المذكرات

... بعد عشر سنوات

الرحلة إلى فلسطين ولبنان

١٩٢٤

وأخيرا:

استطعت أن أغادر مصر فى يوم الثلاثاء ٢٩ يوليو سنة ١٩٢٤ بقطار الساعة الحادية عشرة صباحا قاصدا بورسعيد لأبحر منها إلى لبنان على الباخرة الإيطالية كارينوليا من بواخر اللويد تريستينو. وغادرتها ومعى زوجى وابنى. وسافر معنا والدى ليودعنا على ظهر الباخرة. وودعنا على المحطة رؤوف زكى وعزمى وأحمد الشيخ والغمراوى.

أذكرتنى سفرتى هذه بسفرتى سنة ١٩١٤. فى سنة ١٩١٤ غادرت المنصورة فى يوم ٢ أغسطس بقطار الساعة التاسعة صباحا قاصدا بور سعيد لأبحر منها إلى لبنان على ظهر الباخرة برنس عباس من بواخر الشركة الخديوية فى رفقة صديقى عبد الرحمن بك الرافعى. وكنا يومئذ وحيدين لأن كلامنا كان شابا لم يضطلع بعد من أعباء الحياة إلابشؤون نفسه. لذلك لم يسافر معنا أحد ولم يودعنا على المحطة أحد.

٢ أغسطس سنة ١٩١٤!! ... ٢٩ يوليو ١٩٢٤!!.

عشر سنوات كاملة! عشر سنوات لم يشهد العالم مثلها فى تاريخه من يوم كان العالم: تغير وجه الأرض أمام نظر الإنسان أن تغيرت نفس الإنسان!. تغير وجه الأرض وإن لم يتغير فى الوجود شيء! فالأرض أرض والسماء سماء والشمس تشرق وضاحة الجبين والقمر يحبو فى سماواته فتتعلق بطلعته أحداق العاشقين.

عشر سنوات ما بين رحلتى الأولى ورحلتى الثانية إلى لبنان. وتاريخ الرحلة الأولى هو تاريخ إعلان الحرب الكبرى. أما تاريخ هذه الرحلة الثانية فلا يذكر بشيء لأن الحرب الكبرى الحقيقية لما تضع أوزارها. وكيف تضع أوزارها والدوافع إليها لا تزال قائمة! كيف تضع أوزارها ولا يزال الضيق مستحكما ولا تزال الطوائف يرهق بعضها بعضا ولا يزال بين الناس سيد ومسود وعابد ومعبود

ولا تزال الأمم تتحكم فى الأمم ولا يزال الإنسان لا يروى له ظمأ ولا تنقع له غلة إلا إذا ولغ فى دم أخيه الإنسان.

فى ٢ أغسطس سنة ١٩١٤ كان العالم قد أترع سلاما وعظمة فكان يتيه كبرا وغرورا. وكانت الحروب التى سبقت تلك السنة ما بين تركيا ودول البلقان. وبين تركيا وإيطاليا. وبين الروسيا واليابان. وبين إنكلترا والترنسفال. كانت هذه الحروب تافهة ضئيلة لم تتجاوز فى نظر العالم أن كانت معارك فردية تنشب بين أمة وأمة ثم تمر من غير أن يصيب العالم منها ألم يحرك قلبه أو يهز ضميره. كانت أشبه شيء بالجرح البسيط يصيب قدم الرجل والرجل سائر فلا يعبأ به ولا يهتم له ولا يفكر فى الجرح الدامى الذى يهز قلبه ويرسل الرعب إلى فؤاده ويهدد بالخطر حياته والذى ينتظره وراء الأكمة القريبة منه والتى يقصد هو إليها مطمئنا يريد أن يأخذ فى ادغالها الأسد والوحش على غرة منها جميعا.

أترع العالم سلاما فتاه غرورا فاندفع إلى الحرب بكل قوته فطال به مداها فابتلعت كل ما توفر له من شباب ومال وسلام. وها نحن فى سنة ١٩٢٤ نرجو السلام فإذا السلام سراب ونطلب المال فإذا المال وعود تضطرب ونطلب الشباب فإذا الشباب خلو من خيرما فى الشباب. وإذا الشباب خلو من الإيمان بالحياة والأمل فيها والميل لغورها. إذا الشباب يرى الحياة قشورا ويأسا ولهوا.

تغير العالم بين سنة ١٩١٤ وسنة ١٩٢٤ وتغيرت مصر كذلك. كانت مصر قبل الحرب وادعة تعمل فى جد وتعالج فروع الحياة المختلفة وتسعى للاصلاح جهدها حاسبة دائما حساب الإنكليز ووقوفهم فى وجه كل حركة وكل نزعة استقلالية. أما مصر فى سنة ١٩٢٤ فلا تزال فى اندفاعها الذى بدأته سنة ١٩١٨ . ونسيت فروع الحياة وعلاجها وقامت تطلب استقلالها التام. وقد اتيح لها بفضل جهود ابنائها جميعا أن تزحزح الإنكليز عن موقفهم موقف العنت فى وجه كل إصلاح. لكنها مع الأسف لم تفد من ذلك كثيرا. لأن

الطوائف الصاخبة رفعت إلى منصة الحكم قوما لا يعرفون الإصلاح ولا يقدرون ما يصلح حياة المجموع.

وتغيرت أنا أيضا.. ومن ذا الذى لا يتغير؟.. انتقلت من حياة إلى حياة فالى حياة ثم إلى حياة أخرى. كنت فى سنة ١٩١٤ الدكتور هيكل المحامى بالمنصورة. وكنت سعيدا تفيض بى المسرة معافى من المرض وحيدا لا أسأل عما أفعل. وكنت أجد فراغا من الوقت وطمأنينة إلى النفس يسمحان لى أن آخذ بنصيب فيما يحلو لى من ملذات الحياة. وكانت القراءة وكان التفكير الحر أحب هذه الملذات لنفسى وأحلاها عندى. وكنت ولا أزال فى بدء الصبا وميعة الشباب لا أجد فى الحياة إلا بسمات تفتر أحيانا عن ضحكات وعن قهقهات. وكان جو الوجود صفوا تجاوب فيه الضحكة الضحكة ويلتقى فيه الابتسام بالابتسام. فلما ارتحلنا إلى لبنان ثم حمى وطيس الحرب واضطرب نظام سير البواخر استشارنى رفيقى الرافعى فى أمر العودة حتى لا تؤخذ علينا المسالك ونحبس فى دار الحرب. فكان جوابى فى ابتسام: إن خانتنا الباخرة فلن يخوننا ظهر الجمل.

ولم يكن أيسر من رحلتنا إلى لبنان يومئذ. لم نفكر فى جواز السفر لحظة لأنا لم نكن بحاجة إلى جواز سفر. ولم نفكر فى الالتجاء إلى الحكومة ولا فى أمر الجمرك لأن الأفراد كانوا أحرارا تحمى الحكومات حريتهم ولا تعتدى عليها. ولم يجل بخاطرنا أنا نجد فى طريقنا إلا ما نريد مادمنا لا نريد شرا ولا نكرا.

عدت ورفيقى من لبنان بعد ثلاثة أسابيع قضيناها فى ربوعها بعيدين عن ضجة السياسة جاهلين ميول الناس فى مصر مكتفين بالأخبار تنقلها إلينا صحف بيروت فى الصباح لتكذبها صحف بيروت فى المساء. عدنا على نفس الباخرة برنس عباس. وكانت يومئذ مكتظة بالعائدين الذين قنعوا بالقليل من الوقت قضوه فى أحضان الطبيعة مخافة أن يمتد لهيب الحرب إلى تركيا فتصبح

العودة إلى مصر محفوفة بالخطر. وتصبح الطبيعة الناضرة الباسمة كالحة عبوسا. ولم يكن للعائدين جميعا حديث غير حديث الحرب. ولم يكن لهم أمل إلا أن ينتصر فريق على فريق. ذلك بانهم وهم جميعا من أمم محكومة كانوا يرجون فى انتصار فريق على الآخر السبيل لحرية بلادهم وسعادتهم.

أما أنا فعدت إلى مصر أبعد ما يكون عن الميل لأى من الفريقين. فلما رأيت الناس تتعسهم الأهواء وتتنازعهم الشهوات أبديت رأيى فى وجوب وقوف المصريين موقف الحياد وأردت أن آخذ فى الحركة السياسية الجديدة بمثل النصيب الذى كان لى قبلها. لكن الحرب وما ترتب عليها من إعلان الاحكام العرفية الإنكليزية والمراقبة الصحفية وما أعقبها من إعلان انكلترا حمايتها على مصر وتطور الظروف بعد ذلك تطورا جعل كل تكهن بانتهاء الحرب عقيما، ذلك كله جعلنى أميل عن السياسة لآخذ باسباب البحث العلمى. فاستقصيت ما استطعت نظرية الجبر والاختيار وفكرة المسئولية وكتبت ما استقر عنده رأيى ونشرته فى المقتطف. على أن هذا البحث لم يكف لسداد ميولى فاشتغلت بالتدريس فى قسم العلوم الجنائية بالجامعة المصرية سنة ١٩١٧ وبالتدريس فى هذا القسم وفى قسم الحقوق سنة ١٩١٨ وسنة ١٩١٩ وسنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٢١ وسنة ١٩٢٢ . وقد استغرق التدريس أوقات قراءتى وبحثى. وكنت قد تزوجت سنة ١٩١٨ . وكانت الحركة السياسية قد قامت سنة ١٩١٩ فأخذت فيها بنصيب جدى واشتركت مع أخوانى الذين ألفوا الحزب الديموقراطى كما اشتركت مع العاملين من الشبان فى مختلف نواحى الحركة. ورزقت ممدوح والحركة الوطنية فى أشدها.

وفى سنة ١٩٢١ نشب الخلاف بين عدلى باشا وسعد باشا وكنت واقفا على مقدماته وأسبابه وكنت عليما بخفاياه ومخبآته. وكان سعد باشا قد بدأ يفكر تفكيرا جديا فى أن يكون وحده وكيل الأمة ورمز أمانيها وعنوان استقلالها والكل الذى تنبعث منه فى البلاد كل حياة وكل فكرة وكل حركة. فلم يكن

بد من الوقوف فى وجه هذا التيار الذى أودى بحياة الحركات الوطنية فى كل أمة قام فيها. وقد صادفت فكرتى هذه قبولا لدى أخوانى اعضاء الحزب الديمقراطى الذين رأوا معى ما فى الدكتاتورية من قضاء محتوم على الفكرة الديمقراطية. فوقفنا فى صف الأقلية. وقفنا نحن أعضاء الحزب الديمقراطى العاملين بعيدين عن الاتصال بأية هيئة سياسية حريصين كل الحرص على حريتنا محتفظين بما تقضى أنفة الشباب الاحتفاظ به. لكن موقفنا هذا كان دقيقا محفوفا بالاخطار والمصاعب.

فقد كان من بيننا اعضاء قضت عليهم ميولهم الطائفية بالانضمام علانية إلى سعد باشا. وكان من بيننا آخرون أغراهم حب المظهر والولع بالهتاف إلى السير فى طريق الأولين. وكان من بيننا كذلك اعضاء رأوا فى التقرب من عدلى باشا ومن الحكومة سدادا لشهوات تقابل شهوات الأولين. وكان هؤلاء أشد اضرار بالحزب لأنهم أظهروه فى نظر السواد بمظهر المنتمى للحكومة. والله يعلم وعدلى باشا وسعد باشا يعلمان أنه كان حزبا بعيدا عن الانتماء لاية هيئة أو سلطة بعيدا عن الخضوع الا لما تملى به ضمائر المتقدمين من اعضائه وذممهم.

وكان من أثر هذا الانفراج فى الميول بين أعضاء الحزب والبعض الاخر وابتعاد عدد غير قليل من الفريقين عن مركز قيادة الحزب أن ضعف سلطانه بعض الضعف. لكننا استمسكنا بموقفنا. فلما انقطعت المفاوضات الرسمية فى سنة ١٩٢١ كان الحزب أول من أعلن فكرة عدم التعاون مع الانكليز فى ظل مذكرة ٣ ديسمبر. ولما نفى سعد باشا كان الحزب أشد هيئات الأمة حرصا على التمسك بفكرة عدم التعاون. لذلك ليس من الغلو فى شئ أن يقال أن الحزب كان له أثر كبير فى اقتناع الانكليز بضرورة الاعتراف باستقلال مصر. بل إن من الحق أن يقال أن الحزب الديمقراطى كان هو الهيئة الوحيدة التى اثبتت فى تقريرها عن مشروع لورد ملنر ضرورة اعلان انكلترا الغاء الحماية والاعتراف

بالاستقلال بصك منفرد كالصك الذى اعلنت به الحماية لان الاستقلال حق طبيعى لا يجوز التعاقد عليه.

اعلنت انكلترا انهاء الحماية واعترفت باستقلال مصر فتألفت على أثر ذلك وزارة ثروت باشا وفكرت فى تأليف لجنة لوضع الدستور من الاحزاب والهيئات المختلفة. ولما خاطبت ثروت باشا فى أمر تمثيل الحزب الديمقراطى فى اللجنة اخبرنى أنه لا يرى مانعا على أن يبدى الحزب له فى الأمر رأيا بالقبول. وليس هنا محل لذكر الاسباب التى منعت من قبول هذه الفكرة عند زملائى. فألتحقت بإخوانى أحمد بك امين أستاذ القانون الجنائى بمدرسة الحقوق ومحمد بك متولى السكرتير العام المساعد لمجلس النواب حالا ومحمود بك صادق القاضى بالمحاكم الاهلية والشيخ عبد العزيز البشرى القاضى بالمحاكم الشرعية فى سكرتارية لجنة الدستور حرصا على تحقيق بعض مبادئ كنت حريصا على أن تحقق.

ولما قاربت لجنة الدستور الانتهاء من عملها فكر عدلى باشا وأصحابه ومن بينهم اعضاء لجنة الدستور فى تأليف حزب الاحرار الدستوريين وفى انشاء جريدة السياسية. وكان الدفاع عن الدستور قبل صدوره وبعد صدوره هو الفكرة الأساسية التى تألف الحزب من أجلها. ودعيت يومئذ لرئاسة تحرير السياسة فلم أتردد فى القبول لانى رأيت هذه الفكرة الجليلة من أشرف ما يدافع الإنسان عنه.

وكذلك انتقلت فى هذه السنوات العشر من الدكتور هيكل المحامى بالمنصورة غير المسئول إلا عن نفسه وعن عمله إلى الدكتور هيكل المحامى بمصر والمسئول عن أهله وولده والاستاذ بالجامعة المصرية. وإلى الدكتور هيكل رئيس تحرير السياسة. واذا صح ما قاله أناتل فرانس من أن الإنسان اذ ينتقل من حياة إلى حياة يموت حياة ليحيى حياة أخرى فقد ماتت لى فى هذه السنوات العشر حيوات عدة واستبدلت بها حيواتا عدة كذلك. ولست ادرى أى هذه

الحيوات خير. وقد تكون كلها متعادلة أن كانت تطورات نفسى واحدة فى اطوار مختلفة.

بعد سنتين انقضتا فى رئاسة تحرير السياسة شعرت باجهاد شديد لاننى شعرت لهذا العمل منذ توليته بمحبة شديدة. وليس أشد اجهادا للنفس من حب العمل الذى يقوم الإنسان به. ينسى الإنسان نفسه فيه فلا يفكر فى صحته ولا فى طعامه ولا فى نعمة الحياة ومسرتها لأن الحب يحتل من النفس محل الصحة والطعام والنعمة والمسرة جميعا. شعرت بالاجهاد وجاء على أثر الاجهاد المرض ثم عقب المرض نزال السياسة والحكومة فى ساحة القضاء حين رفعت الدعوى الاولى التى اتهمت الحكومة فيها السياسة باهانة هيئة مجلسى النواب والشيوخ. وفيم كانت هذه القضية منظورة كان التحقيق جاريا فى قضية جديدة .تلك دعوى النيابة أن السياسة قذفت رئيس الوزراء وأهانت هيئة الوزارة وحضت الناس على كراهية نظام الحكم إلى غير ذلك من الادعاء. ولما انقضت الدعوى أمام القضاء جرت النيابة فى تحقيق جديد هو نشر السياسة محضر تحقيق القضية الأولى. وجرت كذلك فى التحقيق مع سعادة حلمى عيسى باشا عن مقالاته التى نشرها فى السياسة. وباشرت تحقيقات جديدة مع صحف أخرى. وخيل للناس جميعا أن النيابة قد اعدت عدتها ليكون محرر السياسة معها فى كل يوم للتحقيق معه.

وكنت قد اعتزمت السفر إلى لبنان للاستراحة من جهد العمل قبل أن تبدأ النيابة هجومها. فلما امتد خط ذلك الهجوم تمهلت حتى فرغت النيابة من تحقيقاتها. ثم خشيت أن أطلب جواز سفرى وأن احدد موعده فتطلبنى النيابة للتحقيق فى عشيته .

فوسطت من كلم النائب العمومى فعلمت من وسيطى أنه خاطب سعد باشا زغلول رئيس الحكومة مباشرة وأن الاخير رأى أن ليس لى أن اسافر وضد السياسة قضيتان وابدى ـ كما علمت ـ أنه على استعداد لحفظ القضيتين إن

أنا اعتذرت عما نشرته السياسة من أن سعد باشا تداخل فى الانتخابات التكميلية لمجلس النواب وصرحت بأن الخبر مكذوب. ولما كنت أعلم صحة الخبر الذى نشرته السياسة لم أقبل التكذيب وعمدت إلى طلب جواز السفر وحددت موعده وأعددت نفسي لنزال جديد مع الحكومة. لكن الحكومة لم تتعرض لي. ولست أدرى أكان عدم تعرضها لأنها لم تعلم بسفرى أم كان منها حرصا على الدستور والقانون أم أنها خشيت أن تظهر بمظهر المتعنت من غير أى مبرر للعنت.

وكذلك استطعت أخيرا أن أغادر مصر فى يوم الثلاثاء فى ٢٩ يوليو سنة ١٩٢٤ بقطار الساعة الحادية عشرة صباحا قاصدا بورسعيد لابحر منها إلى لبنان على الباخرة الايطالية كارينوليا من بواخراللويد تريستينو.

وصلنا بورسعيد الساعة الثالثة بعد الظهر وكان فى انتظارنا أصدقاءنا المقيمين بها.وعلى الرغم من أن الباخرة لاتقوم قبل الساعة الثامنة مساء فضلنا الذهاب توا إليها هربا من حر المدينة وطلبا لهواء البحر نستنشقه بضع ساعات قبل السفر. ولم يكن على ظهرها حين وصولنا إلاسيدة وابنتها وخادم.

كارينوليا باخرة صغيرة تبلغ حمولتها مائتين وخمسة الاف طن.وهى من البواخر التى تجوب شواطىء الشرق الادنى على مهل لأنها كما تنقل المسافرين تنقل المتاجر وتتسع لها أكثر من اتساعها لهم. وغرف الدرجة الاولى فيها قديمة النظام تسع كل واحدة منها ثلاثة من المسافرين. وصالونها الذى وضع به البيانو لا يمكن لاكثر من اربعة اشخاص أو خمسة الجلوس فيه. وغرفة المائدة المجاورة للصالون متسعة فوق سطح الباخرة وقد مدت فيها ثلاث مناضد طويلة حول كل منها أربعا وعشرون مقعدا. فأما المنضدة الوسطى فكان يجلس إليها قبطان الباخرة والمتقدمون من رجالها. وأما اليمنى عند التجاهك لحيزوم الباخرة فكان يجلس إليها العائلات. وكان يجلس باقى المسافرين إلى المائدة الثالثة.

وكنا نجلس إلى المائدة اليمنى وكان معنا عائلات من السوريين واللبنانيين المقيمين بمصر. وكان لهذه المائدة مظهر ظرف أن كان أكثر الذين يجلسون

إليها من الأطفال ومن الشبان الذين لم يتجاوزوا سن الحلم. ولم يكن عليها من الرجال إلا ثلاث. المسيو عطا الله والدكتور سامى كمال وأنا.

وقد اخترنا المكان المجاور للدرج الهابط إلى (الكابين) حتى إذا أصيب أحدنا بدوار البحر كان على مقربة من مرقده. لكن اختيارنا لم يكن ذا فائدة لأن الباخرة كانت تسير كل يوم فى المساء بعد أن يفرغ الناس من طعامهم وكانت تقف فى الصباح وتظل واقفة يومها ولا تعود للسير إلا مساء. وبذلك لم يكن أحد يشعر بأنا على سفر. بل كنا جميعا نرى أنها أشبه (بالكازينو) أو بالبير) فى عرف الأنجليز. ولو أن صالونها أو غرفة التدخين بها كانا أكثر سعة. ثم لو أن السطح لم يكن ضيقا بمقدار لا يتسع لمقعد طويل لكان شعورنا هذا معبرا عن حقيقة لا مجرد خيال ووهم.

كانت عائلة عطا الله بجوارنا علي المائدة. ومسيو ميشيل عطا الله موظف بالبنك العقارى. وزوجه ـ مدام أديل عطا الله ـ أعرق منه فى اللبنانية. ولهما ولدان وبنتان. فأما البنتين فطفلتين لم تبلغ أحداهما العامين وأما الأخرى فلم تبلغ الثالثة من عمرها. وهذه الأخرى وأسمها جاكلين غاية فى لطف الطفولة البريئة الباسمة.

لمدام عطا الله ميزة إحياء المجلس الذى تكون فيه. وهى تبالغ أحيانا فى هذه الميزة التى تعتبر من أجل ميزات الرجال والنساء إذا عرف صاحبها سبيل القصد فيها. لذلك لم نكد تأخذ مكاننا إلى جانبهم على المائدة حتى اتصل ما بيننا وبينهم وسرعان ما توثقت رابطتهم بنا حتى كانت أساس تزاور بعد وصولنا جميعا إلى لبنان.

واتصل ما بيننا وبين باقى المسافرين شيئا فشيئا. وكان من بينهم جماعة من المصريين عرفناهم رجال كياسة وأدب ولطف. وصارت المركب أشبه بمنزل تقيم فيه عائلة واحدة. فارتفعت الكلفة إلى حد كبير ما بين الأشخاص وأمضينا ثلاث ليال ويومين ناعمين مطمئنة نفوسنا بعيدين عن ضوضاء الناس وضجتهم

قانعين بدارنا المطمئنة فوق ظهر الماء سعداء بالبحر المستسلم الهادىء نتبادل أتفه الأحاديث لأنها أكثرها لذة فيروى بعضنا مالاقى من قبل فى لبنان، ويروى آخرون ما رأوا فى غير لبنان ثم يترك الأطفال أمهاتهم ليجيئوا إلينا فيشعر كل منا بعطف على كل طفل ويأخذ معه فى الحديث. وكذلك أنقضى الوقت ولم نشعر بانقضائه ومرت الايام والليالى ولم يشك أحد سأم الفراغ.

تحركت كارينوليا فى الساعة الثامنة مساء من بورسعيد. ولما تكد تتخطى أحجار المرفأ حتى هب نسيم البحر قويا رقيقا ينساب إلى نفوس متعبة وصدور مفعمة فينعش النفوس ويخفف اثقال الصدور. وابتعدت السفينة عن الشاطئ رويدا روايد حتى غرقت انوار المدينة المصرية فى لجة الليل المدلهم. واستردتنا ظلمة ملأت ما بين السماء والماء وأختفى فى ثناياها الأفق فجعلنا نلتمسه خلالها وأرسل كل خيوط احلامه وآماله تنادى حائرة فى هذه المملكة الداجية لولا ما يتخللها من بريق النجوم فى السماء ولمع الموج فى استحياء. على أن لظلمة الدجى بين السماء والماء جمالا وجلالا لا مثال له فى ظلمة جونا نحن أهل الأرض. ظلمة الأرض مملوءة بالاشباح وبالجرائم وبالشهوات وبالمخاوف. فيها الذئاب الضارية من وحش ومن بشر. وفيها هوس الشهوات وهواها وفيها الشر الحلو البريق. وفيها السوء يدبر وينظم. وينفذ أيضا. فهى ظلمة ثقيلة الظل كالحة عبوس الخير فى اجتنابها والحذر منها. أما ظلمة ما بين السماء والمساء فمسرى الارواح المنيرة تشعر بها وتكاد تلمسها وتجد فيها دائما عزاء للنفس وسكينة للفؤاد وطمأنينة للقلب. هى أجنحة الملائكة حجبت الشمس لراحة ساكنى الماء وتركت أجنحة الشياطين تحجب الشمس لشقاء أهل الأرض.

غرقت أنوار بور سعيد فى لجة الليل وسرت السفينة تخترق أحشاء الليل وبقى أهلها زمنا يمتعون بهواء الساعة العذب ثم تسللوا إلى مضاجعهم واحدا بعد واحد وطلع عليهم النهار والباخرة تسير وقد بدت تباشير الشاطئ فاتجهت الانظار تجتلى طلائع يافا خلال ضوء النهار.

وكان على السفينة عدد جم من اليهود قضوا ليلهم فى عنبر الدرجة الثالثة لا يفكرون فى انوار بور سعيد ولا فى فى اجنحة الملائكة واجنحة الشياطين ولا يطرق الكرى جفونهم الا غرارا وتخفق قلوبهم خفقة الطرب وهم فى انتظار الصباح على جمر لانهم وحدهم أشد المسافرين حرصا على بلوغ يافا.

يافا. المرفأ السعيد. مدخل الوطن القومى. باب ارض الميعاد. إنك لن تقدر فلسطين فى نظر اليهود كما تقدرها فى هذه الساعة التى تنجلى فيها طلائع يافا. انظر إليهم!.. انظر إلى هؤلاء الفقراء فى أسمالهم البالية وأطمارهم الرثة وقد طالت لحاهم وارسلت شعورهم غدائر وغارت منهم الصدوغ والخدود. انظر إليهم يحدقون بعيونهم الحادة يفصل بينها أنفهم الطويل المصفّر إلى ذلك الشاطئ المحبوب. انظر اليهم ترهم فى نشوة وحشية وجذل مضطرب يصعدون معا فوق سطح المركب ويقفون فى انتظار الشاطئ فإذا بدا الشاطئ انفرجت شفاههم جميعا عن أغنية عبرية هى اغنية السلام لأرض الميعاد فرتلوها وأعادوها ثم التمس كل واحد منهم إهابه وانتظر عند درج الباخرة لتقله (الشختورة) مع اصحابه فترده إلى التربة المقدسة وتعيده ليطأ فى رفق رفات الأجداد ولينبت من تراث هذه الرفات حياة ناضرة تتجلى فيما تراه اذا نزلت إلى يافا من كروم وبساتين.

رست كارينوليا ثم لم تكن إلا برهة حتى علمنا أن بين أحد اليهود فى يافا وبين اللويد تريستينو تقاضى حكم فيه ابتدائيا لمصلحة ذلك اليهودى. وقد انتهز مرسى الكارينوليا فأوقع عليها حجزا تحفظيا لم تكن لتستطيع معه أن تغادر مياه فلسطين لولا أن تداخل قنصل ايطاليا وأن قدم الضمان الكافى.

وقضينا يومنا على سطح السفينة ولم ينزل إلى الشاطئ إلا قليلون لأن مينا يافا مشهورة باضطراب موجها مما يجعل العبور إلى الشاطئ فوق الفلائك غير ميسور.

وعاودت السفينة السير فى الماء ورست بنا فى حيفا عندما بدت تباشير الصبح.

نزلت حيفا سنة ١٩١٤ وزرت دير الكرمل. وكانت حيفا فى سنة ١٩١٤ من البلاد العثمانية التى تطلعت المانيا لبسط نفوذها فى الشرق من طريقها. لذلك كانت مملؤة بالالمان وواقعة تحت نفوذهم.

وكأن الذكرى تدعو الإنسان للعود إلى الأمكنة التى سار من قبل فيها ليشهد ما صنع الزمان بها وليرى ان كانت قد تغيرت بمقدار ما تغير. فنزل الاكثرون من ركاب السفينة ونزلنا معهم. ما اكبر الفرق بين الأمس واليوم. نزلت ورفيقى فى سنة ١٩١٤ فلم يسألنا أحد من أنتم ولا فيم تنزلون. أما اليوم فيجب أن تودع جواز سفرك لدى عامل الجمرك الذى جاء إلى السفينة خصيصا لهذا. ومقابل ايداعك الجواز يناولك العامل ورقة تسمح لك بالمرور. فإذا عدت رد العامل جوازك إليك وضمن بذلك مغادرتك الديار. وهذا الفرق فى المعاملة سببه ما دفعت الحرب إلى نفوس السواد من الثورة على كل نظام قائم. فرجال الحكم يريدون أن يطمئنوا إلى أن النازلين لا يقصدون إلى الاقامة فى بلادهم. وإلى أن من قصد منهم إلى الأقامة ليس من محركى الثورات ولا من المهيجين. وهم يحرصون اليوم على مالم يكونوا بالامس يحرصون عليه لأسباب شتى. فنفوس أهل الأمم المختلفة لا تزال تملأها عوامل البغضاء منذ الحرب. لا يزال الانكليزى ينظر إلى الالمانى بعين الحذر. ولا يزال الفرنسى ينظر إلى الالمان بعين المقت. ولا يزال الالمانى ينظر إليهما جميعا بعين الكراهية. وليست الأمم التى كانت متحالفة أيام الحرب لتخلو من النظر إلى بعضها البعض الاخر بعين الحقد. ففرنسا وانكلترا تتنافسان النفوذ فى الشرق وتخشى كل واحدة منهما أن تدس الأخرى لها الدسائس وأن تضع فى سبيلها العقبات والعراقيل وليس هذا كل السبب فى مراقبة المهاجرين. بل ليس هو معظم السبب. فقد كانت الأمم تتنافس قبل الحرب وكانت تدس الدسائس.

ولكن الهيئات الحاكمة كانت مطمئنة إلى أن قوة نفسية الاهلين وحرصهم على استتباب النظام واستمساكهم ببقائه كل ذلك كفيل بضياع آثار الدسائس سدى وببقاء الأمن والسكينة فى البلاد. أما اليوم فالنظام القائم موضع النقد من كل إنسان. لا يرضاه الذين اصيبوا اثناء الحرب فى ثروتهم وجاههم وصاروا فقراء بعد أن كان لهم الأمر والنهى. ولا الذين رفعتهم الحرب من أماكن الضعة إلى حظ من الثروة أحلهم محل الاحترام وجعلهم يرون ما أوتوا قليلا إلى جانب ما قاسوا من قبل. هؤلاء تدفعهم غلظة طبعهم للانتقام من ذوى الحسب والاصل القديم وممن لا يزالون بحكم الطبيعة سادة الوقت وأن لم يكونوا فى منصة الحكم. كذلك ترى الدول لا يطمئن بعضها إلى بعض. وترى الافراد لا يطمئنون إلى نظام الحكم. وترى الحكومات لا تطمئن إلى سكينة الافراد. ولذلك كانت الرقابة وكان الحرص على مضايقة الحرية.

نزلنا حيفا وسلكنا السبيل إلى دير الكرمل. والدير يقع على ارتفاع عشرة ومائة متر فوق سطح البحر فيما اخبرنا أحد قساوسته. والطريق إليه اليوم هو الطريق الذى كان سنة ١٩١٤. ولم يغيرونه وكان اثناء الحرب يتسع للاوتموبيل المدرع ولما هو أكبر من الاوتموبيل المدرع. تسير فوقه العربة صاعدة إلى الدير فاذا الجبل من يمينك والوادى عن يسارك وكأن الجبل والوادى هذه السنة اقل بهاء منهما فى سنة ١٩١٤. ولعل أكبر السبب لذلك أنا صعدنا إلى الكرمل سنة ١٩١٤ والشمس منحدرة إلى المغيب يلذ ضوءها العيون وتدع أشعتها نسمات الهواء تحرك أغصان الشجر وتتلاعب باوراق النبات وتبعث إلى النفس مسرة تزيدنا حبا للحياة ولما فيها. أما اليوم فقد ذهبنا إلى الكرمل والشمس صاعدة إلى عرش الزوال والضوء حاد والاشعة قاسية والهواء ساكن.... ذلك فى ظنى أكبر السبب. وهو ليس بالعجيب. فالجبل والوادى صورة أمام العين. والصورة يزداد لدينا جمالها وينقص بمقدار ما ينبعث عليها من ضوء وعلى قدر ما فى نفوسنا من استعداد للمتاع بالجمال.

جبال حيفا جرداء لا ترى عليها من النبت ولا من الشجر إلا القليل. وسفوحها فيما دون الطريق إلى الكرمل أكثر خضرة وبهاء. تنمو عليها بعض اشجار التوت والزيتون. وبطن الوادى سهل منحدر إلى الشاطئ تقوم فوقه انواع من الزرع متجاور مختلف ألوانه.

تعبر فى طريقك إلى الدير بابا كبيرا تقف بك العربة عنده حتى تدفع رسم مرور العربة قرشان ونصف القرش يتقاضاها رجال الدير لينفقوا على الدير ومجاوراته منها. فإذا بلغت الدير وجدت تلقاءه نصبا اقيم فوق رفات قتلى الحرب من الحلفاء ذكرى لمجد الحرب ومجازرها. ووجدت إلى جانب الدير كنيسة وإلى جانب الكنيسة منزلا يأوى إليه الرهبان وإلى جانب المنزل فندقا ينزل فيه حجاج من ذوى الورع والتقى.

دخلنا الكنيسة مع راهب نيف على الستين ممتلئ صحة أحمر الوجنات أبيض الشعر خاشع الطرف رضى النفس لين الكلام. وكنيسة الكرمل صغيرة رشيقة فيها من الضوء اكثر مما اعتادت الكنائس. وينحدر إليها النور من نوافذ ركبت فى أعلى الجدار وزانتها صور قدسية نقشت الزجاج تحكى اساطير المسيح المنجى والعذراء المضحية. وأنت اذ تتخطى باب الكنيسة المقابل لنصب شهداء الحرب تجد نفسك فى فناء يبلغ ستة أمتار فى خمسة وترى إلى يسارك فى هذا الفناء بابا هو باب منزل الرهبان. تم تعدو درجة فاذا بك وسط الكنيسة واذا أمامك صورة العذراء وصورة المسيح تحف بهما الشموع وهما فى بريقهما الذهبى مثال الخشوع والخضوع. وليس هذان النقشان كل ما فى مذبح الكنيسة من إبداع . بل لقد نظمت حولهما من الأوعية والآثار المقدسة ما يكل الطرف عن الاحاطة به لأن قداسة مكان مقدس تحول دون تحديقك بدقائقه وبخاصة إذا كان عليك من راهب أوقسيس رقيب ولأن قداسة الاماكن المقدسة تشتملها دائما ظلمة لا تبدد منها الشموع إلا بمقدار يزيدها قداسة. وليس من شأن الظلمة أن تجلو ما اشتملت بل يكل النظر خلالها كلاله عند التحديق بنور الشمس الساطع الوهاج.

وليس مذبح كنيسة الكرمل قائما فوق سطح الأرض. بل هو يعلو كهف شعيب؟. وكهف شعيب نقر فى جبل الكرمل لاكثر من تسعمائة سنة خلت . وقد بنيت الكنيسة وبنى إلى جانبها الدير لتحل بهما بركات ذلك الكهف وساكنه.

ولست تستطيع اذ تنحدر إلى ما تحت المذبح على ثلاث درجات غير منتظمة أن تميز فى ظلمة الكهف شيئا. وليس بك من حاجة لاختراق حجب تلك الظلمة. فهى ظلمة منيرة للمؤمنين وان كانت داجية. وهى لغير المؤمنين قتام لا يحوى غير صخر ينطوى خلاله القبر القديم.

وخرجنا من الكنيسة بعد اذ تفضل الراهب الهرم فقص علينا طرفا من تاريخها. وسرنا فاذا حول الدير والكنيسة والمنزل والفندق وحشة الجبل يؤنسها إيمان أولئك الرهبان ويعمرهابعض اشجار الجوز والخروب والصنوبر انتشرت متباعدة بعضها عن بعض. واردنا أن نوغل فى الجبل فخيل لنا أنه موحش كله. لكننى علمت بعد اذ أقمت بلبنان زمنا أن عند قمته مدفعا ضخما وأن لهذا المدفع قصة. فقد استولى الحلفاء ايام الحرب على حيفا. وتراجع الاتراك وضباطهم من الالمان خلا الجندى القائم على هذا المدفع الذى أبى أن يتراجع وظل يصب الموت على المهاجمين حتى صمت صوته وصوت مدفعه.

وشققنا طريقنا وسط المدينة عائدين إلى الباخرة ومررنا بحانوت ألمانى يتكلم لغة أهل البلاد كأنه منهم. ذلك بأنه ولد فى حيفا وكان يأمل مع الالمانيين ان تكون حيفا مصدر النفوذ على الشرق الادنى والمتسلطة على سكة حديد بغداد والمهددة للهند وللهند الصينية.

وأمضينا بقية يومنا فوق ظهر الماء. وتحركت الباخرة فى المساء. ثم تنفس صبح الجمعة عن شواطئ بيروت. وعند الساعة العاشرة كانت السيارة تقطع بنا الطريق من بيروت إلى برمانا.

بيروت عاصمة لبنان الكبير. ولم يدع لبنان كبيرا الا بعد أن ضم الانتداب الفرنسي بيروت إليه وجعلها عاصمته. أما قبل ذلك فكان لبنان لبنان فقط. وكان وسط بلاد الدولة العلية إيالة تمتعت بالاستقلال الذاتي منذ سنة ١٨٦٨.

ومن بيروت تتفرع الطرق إلى ربوع لبنان. فينبعث أحدها شمالا إلى طرابلس وإلى شمال لبنان. ويسير الاخر جنوبا إلى عاليه وصوفر والشام. ويتوسط هذين طريق يمر ببرمانا وبكفيا إلى ظهور الشوير. وتتفرع من هذه الطرق الثلاث الرئيسية الصاعدة من الشاطئ إلى قمم سلاسل لبنان طرق كثيرة اخرى بعضها يحاذى الاولى ويهبط البعض الآخر إلى بطن الوادى يسير عليه من يريد أن ينتقل من احدى سلاسل لبنان إلى سلسلة أخرى.

وليس فى لبنان طريق لسكة حديد إلا ذلك الطريق القديم الصاعد من بيروت إلى صوفر فزحلة والمعلقة ورياق حيث يتفرع فيذهب فرع إلى الشام ويذهب آخر إلى سوريا. وهذا الطريق ممل بطئ يحتاج المسافر عليه من بيروت إلى دمشق لاكثر من ثمان ساعات. وقد كان الناس به راضين فرحين يوم لم يكن له منافس الا العربات تجرها الجياد. اما اليوم لوى الناس عنه وجوههم وكاذوا ينسونه لان الاوتموبيلات قد قصرت الوقت وأذهبت الملال. والاتومبيلات فى لبنان كثيرة يزيد عددها على الألفين. ونفقتها يسيره الى جانب سائر نفقات المصطاف. فلست تجد ما يدفعك الى ركوب عربات سكة الحديد ولو كانت البلدة الى تقصد اليها واقعة عليها.

واكثر الاوتموبيلات فى لبنان من الطراز الامريكى. والفورد عظيم الرواج كذلك تجد الدودج والبويك والهدسن. أما الطراز الاوربى كالفيات والرينو فنادر جدا لأن طرق الجبل عسيرة ولان السيارات الأوربية عالية الثمن والبلاد ليست غنية واهلها احوج إلى النافع منهم إلى الجميل.

وتصعد الأوتموبيلات من الشاطئ على مستوى سطح البحر إلى صوفر أو إلى ظهور الشوير أو إلى اهدن أى إلى أماكن ترتفع ما يناهز الفا وخمسمائة متر

فوق سطح البحر وتصل إلى هذا الصعود فى زمن وجيز لا يتجاوز الساعة ونصف الساعة. وتلك معجزة لمن لم يرها. كيف تتسلق السيارات الجبال الصاعدة إلى السماء؟ كيف يفكر انسان فى زيارة أرز لبنان وهو مطمئن إلى مقاعده الوثيرة فى سيارته حتى يصل إلى بلدة بشرّى المرتفعة فوق سطح البحر بمقدار ١٥٥٠ متر. وكيف يفكرا أهل الجبل فى تمهيد باقى الطريق إلى الأرز لتتسلق عليه الاوتموبيلات مرتفعة اربعمائة متر أخرى فوق مستوى بشرّى؟ ليس تصور هذا الأمر يسيرا!....

لكنك تتصوره وتطمئن له وتسر به متى رأيته. فليست سلاسل لبنان ذاهبة فى ارتفاعها إلى السماء توا من عند سطح البحر. ولست تجد هذا المنظر البديع الذى تجده حين تمر فى الرفييرا بفرنسا وبايطاليا فترى الجبال الشامخة تقوم على شاطئ البحر المتوسط لا يفصل بينهما إلا طريق تمر به العجلات ويجرى فوقه الترام فاذا نظرت عن جانب رأيت الافق الازرق الدائم الصفاء ورأيت فيما بينك وبين الافق الامواج المتتالية تتدافع نحو الشاطئ لتتكسر عليه فى دوى ورغاء وزبد واذا نظرت عن الجانب الآخر حال الجبل دون امتداد النظر فاذا رفعت طرفك كان الجبل دائما هو الذى يلقاه حتى يلقى الجبل السماء.. لست تجد هذا المنظر البديع فى سلاسل لبنان الا فى بعض الطريق ما بين بيروت وطرابلس. فأنت فى هذا البعض من الطريق ترى سيارتك تطير بين الماء والصخر على طريق لا تزيد سعته على ثمانية امتار ويقابلك اثناءه نفقان يلتقى عندهما البحر والجبل من غير واسطة. على أن بين جبال الرفييرا وهذا القسم من جبال لبنان فرق كبير. جبال الرفييرا رفيعة معطرة بالزهر مختلفة الوجوه ونباتية الصور. أما هذا القسم من جبال لبنان فلا تأخذ رفعته ولا يأخذ عبيره بالنظر. وانما يأخذ بالنظر منه وجوم واستجمام وتقشف. وقد يكون للوجوم وللتقشف اثر على النفوس لا يقل عما لروعة البهاء والعطر من اثر.

أما سائر سلاسل لبنان فتنبت عند الشاطئ وترتفع رويدا رويدا حتى تبلغ غاية ارتفاعها بعد عدة كيلو مترات فاذا أنت وقفت عند ملتقى الطرق بظاهره

بيروت ومددت ببصرك رأيت القرى والضياع منثورة بعضها فوق بعض ويتسنم بعضها الجبل ويحتمى البعض الآخر بالسفح. فاذا كان موقفك فى إحدى ساعات الليل رأيت هذه القرى والضياع أنوارا يبدو لالأؤها إلى أن تنتهى عند القمم بلقيا نجوم السماء، وكأنها لولا لونها المحمار صورة هذه النجوم انطبعت على الارض إنطباعها على الماء وكأن القمم هى الأفق الذى تلتقى عنده الصورة بالخيال.

تدرج الجبال فى ارتفاعها من الشاطئ إلى القمة هو الذى جعل سير الأوتمبيلات فوق ظهرها ممكنا. لكن ... لا تحسب هذا التدرج هينا ترتقى وإياه فى طريق مطمئن مستقيم يصل بين البدء والغاية كسيرك من شاطئ النيل إلى سفح الهرم. وإنما يتحايل الاوتموبيل على تسلق هذه السفوح تحايلا. فقد اختط الناس الطرق عليها فى صورة شبه حلزونية عجب شكلها. تسير بك السيارة فى طريق صاعد وتستمر فى سيرتها خمسون مترا مثلا ثم يقابلها الوادى فتدور متسلقة فى دورانها كوعا يمتد بعده طريق يحاذى الطريق الذى كانت تسير من قبل عليه ولكنه يرتفع عنه ويظل صاعدا حتى لترى الطريق الأول اسفل منك بمقدار يبلغ فى بعض الاحايين خمسة امتار أو يزيد. ثم لا تمر بك دقيقة أو دقيقتان حتى اذا كوع آخر واذا الاوتموبيل يتسلق. والويل له إن لم يكن قويا. فقد تراه فى بعض هذه المواقف (متعسرا) يرسل البنزين إرسالا ويفحر فى الارض بعجلاته ويدور كأنما يدور حول نفسه ويحدث من الضجة ما يحدثه اللاهث المستغيث. وبينما يدور الاوتموبيل دوراته مسرعا مرة مبطأ اخرى تنجلى أمامك السفوح هابطة إلى الوادى مغطاة باشجار الصنوبر تبدو خضرتها زاهية تحت ضوء الشمس أو قتاما اذا كانت على السفح المقابل. ويمتد الصنوبر فى غاباته جليلا جميلا وتتموج هاماته تحت الضوء ويحدث فيها الهواء اهتزازات لطيفة تزيد موجها جلالا وجمالا.

اختط بنا الاوتموبيل الطريق من بيروت إلى برمانا. قد اذكرتنا بيروت ساعة نزلناها بحرّ القاهرة بعد ما نسيناه ثلاثة أيان تباعا فوق سطح البحر. وسار يتعرج

فى هذه الطرق ويتسلق السفح مسرعا أنا مبطئا آونة. فلما علا فوق منازل بيروت وانكشف البحر وبدت السفوح الخضراء هب نسيم رقيق كان يزداد رقة كلما ازددنا ارتفاعا. وبعد مسيرة نصف الساعة وقف بنا عند نبع ماء تقابله قهوة تدعى الخروبة لانها واقعة تحت شجرة خروب تظلها. وهناك وجدنا اوتومبيلات سبقتنا تستقى من هذا النبع. ذلك أن صعود السيارات يحوجها للماء كى تهدئ ما بجوفها من حرارة تكاد تحرقها.

ونبع الخروبة واحد من ألوف النبوع الموجودة فى لبنان. فهذه البلاد لا تعرف ماء النهر. وانما تتسرب مياه المطر فيها خلال الجبال وتظل تنساب فى ثناياها ثم تنبع صافية باردة يشرب منها الناس والدواب وتستقى منها الاوتموبيلات وتدار بها الطواحين.

ومرت بنا السيارة فى عين سعادة وبيت مرى قبل أن تصل بنا إلى برامانا. وتلك قرى لبنان مثلها مثل سائر القرى. بنيت بيوتها من حجر الجبل وغطيت سطوحها بالقرميد يسيل من فوقه المطر اثناء فصل الشتاء. وانك لتدهش لما بين هذه القرى وقرانا فى مصر من فرق. حجر بدل اللبن. وقرميد بدل الأحطاب. وتحيط بقرية لبنان سفوح الجبل بأشجارها وينابيعها. وتحيط بقرية مصر المزارع الا أن تفصل بينهما حاجة الزرع من سماد وبقايا مياه الترع من مستنقعات. وترى فى أكثر قرى لبنان من مظاهر المدنية نور الكهرباء يضيئها فى المساء. أما قرى مصر فتحترم ظلمة الليل اشد احترام.

ومعظم الفرق بين القريتين يرجع إلى أن لبنان جبل فالاحجار فى متناول أهله. ولبنان مصيف فكل قرية من قراه تسعى لتتجمل كى تجذب إليها انظار النازحين من مختلف جهات الشرق الادنى يبتغون الراحة ويبتغون معها ما اعتادوا من ترف الحياة ونعيمها لذلك كانت الكهرباء وكانت الفنادق فى القرى.. ولذلك كان ظاهر المنازل جذابا وكان فى أهل لبنان حفاوة واسراع إلى النازل بين اظهرهم. فأما مصر فواد يجرى النيل خلاله فيدر على أهله من أخلاف الرزق خيرا وبركة. من طينته المباركة يتخذ أهل القرى منازلهم. وفى

تربته المباركة ينفقون مجهودهم. فقريتهم لهم لا لغيرهم. ورزقهم من سعيهم لا من متاع غيرهم. ولذلك لم يعنوا بظاهر المنازل ولم يكن الفلاح المصرى حفيا وإن كان شهما كريما.

لبنان مصيف الشرق الادنى. حبته الطبيعة مناخا معتدلا ونسيما رقيقا ومنظر بديعا. فاجتمع لديه البحر والجبل وما فى البحر والجبل من جمال. يهب عليك الهواء نديا غير رطب ورقيقا غير قارس. وتسرح طرفك حيث شئت فيأخذ به جمال الشجر الباسق تارة وجلال الجبل الجدب طورا. فاذا كان المشرق أو كان المغرب أخذت الشمس زينتها لتحية الاستقبال أو لتحية الوداع. وهى تودع لبنان لتغيب فى لجة البحر تاركة وراءها السحب فى سوار من نار وفى قلائد من عقيق وذهب. ولن تراها تضن يوما بمغيب بديع. فاذا كانت ايام تكامل القمر اشتملت الوديان والسفوح والجبال لجة النور الرقيق الشفاف وامتدت هذه اللجة فانطرحت على سطح البحر وكست موجه حياة ونورا.

ومن خلال الاشجار وفى قمم الجبال ينبع الماء تارة وينحدر اخرى. وهو فى نبعه وفى انحداره نمير رقيق تنبع الحياة حوله ويزيدها بهاء وجمالا. وهو فى رقته وفى تبعثره يشعرك حقا أن لا حياة إلا حيث الماء. وأن بلدا يغيض ماؤه يقضى عليه لا محالة بالجدب وبالموت.

لبنان مصيف الشرق الادنى.. وسويسرا مصيف اوربا.. ولبنان يمتاز على سويسرا بالبحر تغرب فيه شمسه. وتمتاز سويسرا على لبنان بالبحيرات تحتفظ بمياه الجبال لتغذى منها اكبر انهار اوربا... وبين لبنان وسويسرا فرق آخر هو الفرق بين الشرق والغرب. فحيث سرت فى سويسرا رأيت الإنسان سعيدا للطبيعة ورأيت الطبيعة خاضعة لحكم الإنسان. وحيث سرت فى لبنان رأيت الإنسان عبدا للطبيعة خاضعا لحكمها. فى سويسرا ترتفع إلى قمة الجبل بقوة جذب البخار أو الكهرباء لعربات (الفنيكولير). وفى لبنان تدور حول السفوح وتسير حيث تأمرك تعاريج الجبل ثم لا تبلغ بعد ذلك من عليا القمم الا يسيرا. فى

سويسرا تتخطى من سفح إلى سفح وتخترق الجبال أميالا في جوف النفق. وفي لبنان تدور مع السفح لتهبط إلى الوادى وتعتلى الجبل لتدور حول سفحه كي تهبط إلى واد جديد. في سويسرا ما شئت من شجر وزهر. وفي لبنان أشجار قضت الطبيعة من الأبد أن تكون اشجار لبنان... ترى أي شئ أحب لنفس أهل الشرق: الرضا بالقضاء أم السعي ليمسكوا بيدهم صرف القضاء!... هم إلى اليوم بالقضاء راضون. فهل يكون القضاء في غد بهم راضيا؟....

قد يحتاج اخضاع الطبيعة المترامية الاطراف إلى جهد وزمن. وقد يكون الشرقيون في كفاء بما حبت الطبيعة به لبنان من بهاء وجمال. لكن المصطاف يحتاج إلى جانب جمال الطبيعة عيشا رضيا. وذلك أول ما يدور حوله بحثه حين يصل إلى المصيف فيبحث في فنادقه وفي منازله عما يكفي حاجته ويضمن طمأنينته. وهو واجد في لبنان شيئا غير قليل من هذا. وهو بعد في حاجة منه إلى شئ غير قليل.

٢٢ أغسطس سنة ١٩٢٤

برمانا ـ بكفيا ـ اهدن

في يوم الاثنين الماضي ـ ١٨ أغسطس ـ مر بي في برمانا عبد المنعم بك رسلان وعبد العزيز بك رضوان وشمس الدين بك عبد الغفار ومعهم الخواجه امين عقل ولم أكن اعرفه من قبل. وقد علمت منهم أن اسماعيل باشا اباظة مصيف ببيت مرى وانهم ذاهبون لزيارته. فذهبت معهم وقابلناه ومن معه بلوكاندة العجيل. والرجل اليوم في العقد الثامن من عمره قد بلغ به الضعف كثيرا. وتحدث زائروه في الانتقال من بكفيا حيث يقيمون. فدعاهم

إلى بيت مرى حيث المنظر جميل والهواء رقيق والاجتماع يحبب في الاقامة وعرض عليهم صاحب الفندق غرف الفندق. لكنهم رأوا تأجيل البت في الامر لأنهم كانوا قد اعتزموا السفر إلى اهدن. وعرض على شمس الدين أن اكون في جماعتهم فترددت ثم ذكرت له أن صديقنا الدكتور سامى كمال كان معتزما هذه السفرة وانني أسر اذا كان معنا. وكان الدكتور سامى مقيما في ظهور الشوير. فتم الاتفاق على أن نكون جميعا معا. وفي يوم الاربعاء وصلنى ببرمانا تلغراف من عبد المنعم بك رسلان يخبرنى فيه بأن اوتموبيلا سيكون عندى في الساعة الخامسة من صباح الخميس. واستيقظت قبيل هذه الساعة ووصل الاوتوموبيل وذهبت قاصدا بكفيا في الساعة الخامسة والثلث. وكانت الشمس قد انجلى عنها غشاء المشرق المتورد وسطع نورها. وكان الهواء رقيقا صفرا. فجعلت السيارة تتسلل فوق طرق الجبل مختفية مرة وراء أكمة ثم مرتفعة فوق أكمة أخرى. وشجر الصنوبر يتكاثف في بعض الأماكن فيقع النظر منه على غابة تبدو جزوعها ملتفة قوية باسقة إلى السماء حتى تظلها رؤوس الصنوبر تتقارب فتبدو للعين كأنها قمة واحدة. ثم تصعد السيارة حتى اذا غابة الصنوبر التى كانت رفيعة أمامك قد صارت إلى جانبك واذا بك قد درت حولها في طرق الجبل المتعرجة المثنية الصاعدة وأختها فوق الاخرى تراها كأنها رقاب الجمال في لونها واستدارتها أو كأنها سرب من الأفاعى انسابت هائمة

من عند شاطئ البحر فجعلت تتسلق الجبال وكأنها يطاردها مطارد. ولا تلبث إلا دقائق ثم اذا غابة الصنوبر قد بدت خاضعة رؤوسها مختفية جزوعها. وهذه الرؤوس الخضراء المتموجة تبدو تحت نور الشمس مطمئنة وتبعث إلى الصدور شذا رقيقا لا تكاد تحسه ولكنك تشعر للقياه بسرور فتفتح له كل صدرك وتستنشقه ملء رئتيك. وكذلك ظللت أتسلق الجبل تطير بى السيارة فوق هذه الرقاب الملتفة على كتف الجبل والتى تذرك دائما بين الجبل قائما من ناحية يحدثك بخضرته ونضارته وبسموه ورفعته حديث الوحدة الساكنة إلى نفسها ـ وبين الوادى هابطا فى بطن مطمئن تنحدر إليه سفوح خضراء نضرة كلها شجر الصنوبر وكروم العنب والتين. وبلغت بكفيا فى الساعة السادسة وأنا موقن أن اصحابى فى انتظارى وأنا سنقوم توا إلى اهدن. لكن اصحابى كانوا لايزالون نياما أو يكادون.

لبنان مصيف الشرق الادنى. هو كذلك بطبيعة موقعه. فهو وسط بين تركيا والعراق وفلسطين والحجاز ومصر. والمواصلات إليه من هذه البلاد ميسورة سهلة وأهله يتكلمون العربية التى يفهمها أهل هذه الأمم. وهواؤه معتدل. ومناظره جميله. والتقاء البحر والجبل عنده يسمح لكل إنسان أن يختار المناخ الذى يناسب مزاجه. تجتمع فيه الفصول الأربع على ما قال أحد اللبنانيين. فهو يحمل الشتاء على رأسه. والربيع فوق اكتافه. والخريف على ذراعيه. والصيف تحت قدميه...

لكن أهل الشرق لم يتجهوا للاصطياف بلبنان قبل الحرب لأن طرقه لم تكن مطروقة. ولأن الحاكمين فيه لم يعنوا بتمهيد وسائل الانتقال. فكان المصطاف الذاهب إلى ظهور الشوير يقضى سبع ساعات فى العربة التى تنقله من بيروت. ومتى بلغ غايته فقد قضى عليه أن يبقى بها وبالقرى المجاورة مباشرة لها حتى يفكر فى العودة من حيث أتى. وتلك حال لا تشجع المصطافين. واذا كان طلب الاصطياف قليلا كان عرض حاجات المصطاف بالطبع قليلا كذلك.

لذلك كان نادرا فى الأزمان الماضية أن تجد فنادق فى غير البلاد التى تمر بها سكة الحديد أو القريبةمن بيروت. وكان العثور على منزل به من الأثاث ما يكفى حاجات المصطاف اندر كثيرا.

أما اليوم قد قربت الاوتوموبيلات ما بين ربوع لبنان، وشعر اللبنانيون بأن ما حبت به الطبيعة بلادهم الجبلية يجعل الاصطياف ثروتهم الاساسية، وتيسر الطريق فاصبح الوصول إلى لبنان من كل الدول المجاورة لا يحتاج لاكثر من اربع وعشرين ساعة، فقد قصد المصطافون هذه الربوع الجميلة فكثرت الفنادق فيها، وفكر الاهالى فى الاستعداد لمقابلتهم. ورأت الحكومة من جانبها تيسير الوسائل لزيادة الايراد وزيادة الضرائب.

المقام بالفنادق حتم على كل مصطاف. فأنت بها قبل اختيار المنزل الذى تريده لمصيفك. وتنزل بها اذا لم تكن تريد المقام فى بلد واحد. والمصطاف يطلب فى الفنادق حظا من الراحة والمتاع، ويطمع فى غذاء جيد وفرش نظيف والادوات الصحية للراحة والنظافة. وهو يجد فى أكثر الفنادق الكبيرة فرشا نظيفا ومقابلة حسنة. أما الغذاء فكان موضع شكوى النازلين بأكثر الفنادق هذا الصيف. ولعل ذلك يرجع إلى الفرق فى الذوق بين تصور المصرى والسورى نفس الطعام. ولعله يرجع أيضا إلى حرص كثيرين من أصحاب الفنادق على أن يكون لديهم أكبر حظ من الربح فى هذا الصيف.

على أن من الناس من لا يكبر شأن الطعام. فما أكثر المعودين. وما أكثر من تمتلئ غرفهم بألوان الحلوى واصناف الفاكهة. ومنهم من أظهروا الرضى عن طعام الفنادق التى نزلوا فيها. لكنهم جميعا سخطوا على ما هو عام فى فنادق لبنان ومنازلهم من عدم وجود الأدوات الصحية بها. فقل أن تجد بفندق أو بمنزل حماما منتظما كامل الآلة. وقل أن تجد الماء الجارى فى المنازل سواء للشرب أو (للقضيان) كما يقول اللبنانيون. وهم يعزون ذلك إلى قلة الماء فى الجبل. ولست أرى صحة قولهم وهذه العيون والينابيع تجرى طول العام وقليل

من عناية الحكومة ومن تضامن الأهالى وتضافرهم كفيل بتوفير الماء لكل الغايات.

واللبنانيون أنفسهم يقدرون الحاجة إلى الماء وإلى الادوات الصحية ويعملون لسدادها. فقد حضرت حينما كنت فى بلدة اهدن اجتماعا أقامه الاهالى للنظر فى اجراء الماء للمنازل من نبع سركيس أو من نبع غيره. وأهالى لبنان إذا تضامنوا نفذوا. وأنك لتعجب إذ ترى فى كثير من قراهم التى لا يزيد عدد سكانها على الالفين أو على الثلاثة آلاف نور الكهرباء اجرته بلدية القرية فى شوارعها وأدخلته إلى منازلها. وترى عربات الرش تسير فى هذه القرى الصغيرة تخفف مما تثيره الاوتومبيلات من الغبار. وهى تقوم بالانارة وبالرش وبما إليهما من وسائل الراحة باقل ما يمكن من النفقات لأنها لا تريد أن يضيع مال الأهالى إلا فيما يجر عليهم اكبر حظ من الفائدة.

ويزيد الأمل فى تقدم لبنان ليكون مصيفا مختارا ما تبديه الحكومة من العناية فى هذا الشأن. فقد فكرت فى عقد مؤتمر طبى يحضره عدد كبير من أطباء مصر ولبنان وسوريا وغيرها ليطوفوا البلاد وليبدو رأيهم فى مبلغ صلاح كل جهة من الجهات المعروفة وغير المعروفة للاصطياف. ولوجود الجراح المصرى الكبير الدكتور على بك ابراهيم بمصيفه فى برمانا رأت حكومة الجبل الاستعانة برأيه. فأبدى لهم أن عقد المؤتمر من غير وجود المعلومات الكافية لدى الاطباء الذين يحضرونه لا ينتج الفائدة المطلوبة. فليس يستطيع طبيب أن ينصح لمريض بالذهاب إلى جهة معينة إلا اذا عرف على وجه الضبط مبلغ ارتفاع الجهة عن سطح البحر وتفاوت درجة الحرارة فيها خلال فصول السنة المختلفة وتفاوت درجة الرطوبة كذلك. ثم أن بلبنان ينابيع شتى يقال أن لمياه بعضها فائدة شفائية خاصة. وليس يمكن الاعتماد على هذا القول الا اذا حللت مياه الينابيع فى معامل كيمائية حائزة تمام الثقة. فلكى يكون للمؤتمر فائدته يجب أن توجد لدى اطبائه مقادير ارتفاع جهات الجبل المختلفة ودرجات الحرارة

والرطوبة فيها كما يجب أن توجد تحاليل المياه لتعرف فائدتها الشفائية معرفة صحيحة. وقد اقتنع أولو الامر برأى الطبيب المصرى الكبير واستبدلوا فكرة المؤتمر فى هذا العام بنزهة طبية يقوم بها عدد من الاطباء لمشاهدة أماكن الاصطياف المختلفة مشاهدة أولية فاذا كان العام القادم وتوفرت المعلومات الكافية على طريقة علمية دقيقة انعقد المؤتمر فكان لديه من نزهة هذا العام ومن المعلومات التى جمعت له ما يجعل نتائج اجتماعه موثوقا بها وما يسمح للطبيب أن يرسل بمريضه إلى الجهة التى تناسبه لا لأن هذه الجهة ناسبت شخصا آخر من قبل ولكن لان ارتفاع هذه الجهة ومناخها وهواءها وماءها صالح له صلاحية علمية مقطوعا بها.

اقتنع أولو الأمر فى حكومة لبنان برأى الطبيب المصرى الكبير فى أمر المؤتمر كما اقتنعوا برأيه فيما يجب على الحكومة لتوفير راحة المصطاف، ولضمان صحة الاهالى. فاصبح متوقعا أن تقرر مراقبة غذاء الفنادق والادوات الصحية بها جعل مجارى وآبار الفنادق والمنازل صماء حتى لا تلوث مياه العيون التى يشرب منها الناس والدواب. فاذا توفر ذلك كله وتوفرت للمؤتمر المعلومات الطبية الصحيحة وأسفر تحليل مياه بعض العيون عن فائدة شفائية كان مصيف الشرق الادنى بديعا حقا وكان اقبال الناس عليه كفيلا بسعى اهله لاخضاع الطبيعة لهم بدل خضوعهم للطبيعة وفى اجتهادهم للاستفادة من القوى الموفورة لديهم والتى يمكن تذليلها واستخدامها لفائدة السكان ولراحة المصيفين جميعا.

فى لبنان قوى موفورة من انحدار المياه يقدرون بعضها بما يزيد على عشرين الف حصان. ولو ضمت القوى المختلفة بعضها إلى بعض لزادت على ما يحتاجه لبنان كله للنور ولسير عربات الكهرباء... أخبرنى المحترم الخورى انطونيوس خورى قصبة بشرى وارز لبنان أن نبع قاديشا الواقع على مقربة من الأرز ينحدر ماؤه بقوة قدرها فى أقل أوقات اندفاعها بستة عشر ألف حصانا،

وان شركة تألفت لاستغلال هذه القوة وإنارة سلاسل لبنان الشمالية كلها بالكهرباء من أرفع نقطها عند الأرز إلى مرفأ طرابلس. وأن ما توفر بعد ذلك من القوة يوجه إلى أعمال أخرى. فلو تم هذا المشروع فى شمال لبنان وتمت مشروعات من مثله فى سائر جهات الجبل وعاونت الكهرباء الأوتوموبيلات فى قطع نواحى الجبل نجمت على أثر ذلك حاجة للكمال وقامت أعمال التجديد واستطاع أهل الجبل أن ينفقوا ما لديهم من النشاط المحبوس اليوم على صناعات قليلة وزروع نادرة الثمر فجعلوا من لبنان جنة الشرق. ووجد المصطاف كل حاجاته وكل ما يطمع فيه من كمال المتاع.

بل لو اتجهت العناية أكثر من هذا كله إلى حجز كمية من المياه الغزيرة التى تتدفق إلى الجبل طول الشتاء لتنمية الاشجار على السفوح الجرداء ولتنويع ما هو موجود ولإدخال أشجارو ازهار جديدة إذن لفاقت سويسرا ولفاقت التيرول هذه النواحى البديعة التى اغدقت عليها الطبيعة من نعمها والتى ظلت على حال أليمة من الفقر جعلها باقية اليوم كما كانت منذ القدم وجعل الاكثرين من أهلها يضطرون للنزوح والهجرة إلى مصر ،إلى امريكا وإلى استراليا طلبا للعيش وسعيا وراء الثروة.

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٣٨٧٨/١٩٩٦

I.S.B.N. 977-235-730-5



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب